الدعوة الإسلامية

أصولها ووسائلها

د. أحمد أحمد غلوش
وكيل كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة
جامعة الأزهر

الناشرون:
دار الكتاب المصري
٣٣ شارع قصر النيل ص. ب ١٥٦
القاهرة

الدعوة الإسلامية

أصولها ووسائلها

د. أحمد أحمد غلوش
وكيل كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة
جامعة الأزهر

الناشرون:
دار الكتب الاسلامية
دار الكتاب المصري
القاهرة
دار الكتاب اللبناني
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

صدق الله العظيم

الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين ، وبعد .

ففى أوائل القرن السابع الميلادى . وعلى حين فترة من الرسل ظهرت الدعوة الإسلامية من أجل تصحيح المسار الإنسانى . والبعد به عن مزالق الهاوية وهدايته إلى طريق الله المستقيم .

وكان من رحمة الله بالإنسانية أن جعل دعوته شاملة لسائر الناس . ودائمة على الزمن كله . وبث فيها من التعاليم ما يضمن تحقيق السعادة فى الدنيا وفى الآخرة .

إن البشر فى حاجة ملحة إلى دعوة الله هذه ، وبدونها لا استقرار ولا سعادة ، وذلك لأنها وضع إلهى للبشر ، والوضع الإلهى دائماً يحتوى على المصلحة المتفقة مع الإنسان المخلوق ، ولا غرابة فى هذا لأن الخالق سبحانه وتعالى يعلم سر المخلوق المحدود بالذات والزمان والمكان فيوجهه بعلمه وحكمته . ويرشده إلى ما فيه المصلحة دائماً .

إن الإنسان يظلم نفسه ببعده عن تعاليم الدعوة الإسلامية ولا نعلم لذلك سبباً معقولا ، فرغم أن الإسلام دين ميسر . وعلى قدر طاقة البشر . وفى مصلحتهم . رغم ذلك فإن كثيراً من الناس قد أعماهم الهوى . ولعب بهم الضلال . فوقفوا من الدعوة موقف الترك أو المعارضة . وبعدها عاشوا فى اضطراب وتنازع . وانحلال ، وقلق . ولم ينفعهم الغنى والجاه والقوة .

ونحن نقدم الدعوة الإسلامية لسائر الناس من أجل خلاص حقيقى للبشر . ولتحقيق سعادة أصيلة وشاملة للناس أجمعين . لأنه لا خلاص فى غيرها ولا سعادة فى سواها .

ولسنا بهذا متعصبين أو مغالطين . وإنما نريد أن نكرم الإنسانية بالحق الذى ارتضاه الله للعالمين . نريد أن نكرمها بالدعوة الإسلامية . لتتآخى بالحق والعدل ، وتتعاون على البر والتقوى . وتزيل غشاوة التعصب والاستعلاء وتتقبل الحقائق على هدى الفطر . وبصيرة الفكر . وتقدير البشر .

إن الدعوة الإسلامية من تنزيل رب العالمين . وذلك دليل قدرتها على تحقيق السعادة . وإيجاد الخلاص المطلوب .

وسوف نقتصر فى هذه الدراسة على حقيقة الدعوة الإسلامية ووسائلها من القرآن الكريم لما لها من أهمية وفائدة للأسباب التالية :

١ — القرآن الكريم دستور الدعوة ، وكتابها ، وسجلها الأمين ومرجعها الثابت الصادق وكله بيان لحقيقة الدعوة ووسائلها حتى آيات الأحكام فيه تأتى فى هذا الإطار .

٢ — القرآن الكريم يمثل عصر التكوين الحقيقى للدعوة فى العصر الأول .

٣ — لا جديد عن الدعوة ووسائلها فى غير القرآن الكريم ، وكل آت من غيره لابد أن يأخذ منه القاعدة والأساس .

وقد اقتضت الدراسة أن تتكون من أربعة أبواب حيث تدرس فى الباب الأول الدعوة الإسلامية من ناحية تعريفها وبيان أركانها، ومعرفة أهدافها ، ومدى عناية الله سبحانه وتعالى بها .

وفى الباب الثانى نتكلم عن الدعوات السابقة وصلتها بالدعوة للإسلام وذلك بإيراد موجز عن هذه الدعوة مع بيان السمات العامة للدعوات الإلهية ، وفائدة إيرادها للإسلام ، وتوضيح مزايا الدعوة الإسلامية عن سائر الدعوات الإلهية السابقة .

وفى الباب الثالث : نتكلم عن تبليغ الدعوة الإسلامية مع بيان أهمية التبليغ ، وحكمه الشرعى ، وحكم من لم تبلغه الدعوة ، وتوضيح أن التبليغ يعتمد دائماً على العقل والحرية .

وفى الباب الرابع يتناول الحديث عن وسائل تبليغ الدعوة ببيان ملامحها الرئيسية وأهم صورها فى القرآن الكريم مع وضع صورة الداعية المثالى باعتباره أساس الوسائل والناطق بها .

وأخيراً تأتى الخاتمة .

وقد اتبعت فى هذه الدراسة أسلوباً يتفق مع يسر الدعوة ووضوحها آملا فى أن ينفع الله به ويوقظ الهمم لنصرة دين الله فى الناس وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه ، وأن يقبله منى ليكون لى نوراً فى الأرض ، وذخراً فى السماء ، وأن ينفعنى به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

مدينة نصر فى { أول المحرم سنة ١٣٩٩هـ / أول ديسمبر سنة ١٩٧٩م }

د. أحمد أحمد غلوش

الباب الأول

الدعوة الإسلامية

ويتكون من ثلاثة فصول

الفصل الأول :

تعريف الدعوة وبيان أركانها

الفصل الثاني :

أهداف الدعوة

الفصل الثالث :

عناية الله بالدعوة

الفصل الأول

الدعوة وأركانها

أولا : مفهوم الدعوة

الدعوة الإسلامية رسالة الله فى الأرض . ودينه للناس أجمعين ، نزل بها الوحى الأمين على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد ضمن الله حفظ هذه الدعوة بحفظ كتابها ، وجعلها سبحانه وتعالى خاتمة لسائر الرسالات السابقة . وشاملة لجميع الناس فى زمانها . وفى كل الأزمان إلى يوم أن يلقى الله جميع الناس .

وقبل الخوض فى الحديث عن الدعوة ووسائل تبليغها لابد من تعريفها لغة واصطلاحا .

التعريف اللغوى للدعوة :

والدعوة إلى الإسلام تعنى المحاولة العملية أو القولية لإمالة الناس إليه . جاء فى معجم مقاييس اللغة : أن الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد . ومعناه أن تميل الشىء إليك بصوت وكلام يكون منك ، تقول دعوت أدعو دعاء . والدعوة إلى الطعام تكون بالفتح . والدعوة إلى النسب بالكسر ، ومنه داعية اللبن وهو ما يترك فى الضرع ليطلب ما بعده ، ومنه تداعت الحيطان إذا سقط واحد وآخر بعده . فكأن الأول يدعو الثانى ، ودواعى الدهر صروفه لأنها تأتى متعاقبة وكأن الأول يدعو الثانى فيميله وهكذا (١) وجاء فى المصباح . دعوت الله أدعو دعاء ، ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير ، ودعوت زيداً ناديته وطلبت إقباله ، ودعا المؤذن الناس إلى الصلاة فهو داعى الله . والجمع دعاة وداعون ، والنبى داعى الخلق إلى التوحيد (٢) .

---

(١) معجم مقاييس اللغة جـ ٢ ص ٢٣٩ مادة (دعا) .

(٢) المصباح المنير . مادة (دعا) .

وجاء فى أساس البلاغة : ودعوت فلاناً ناديته ، والنبى داعى الله . وهم دعاة الحق ودعاة الباطل ودعاة الضلالة (١) .

ومما سبق نرى أن كلمة دعوة تفيد لغوياً المحاولات القولية والفعلية من أجل تحقيق هدف أو عمل ، ومن المعلوم أن الأقوال لها ثقلها وصعوبتها . لأن فيها المناداة والطلب والإلحاح ، وفيها الجهد والعمل .

ونلاحظ أننا كما نطلق على المحاولات المذكورة اسم الدعوة ، نطلق على الدين الإسلامى نفس الإسم ، وهذا ما يجعلنا نذكر أن كلمة الدعوة من الألفاظ المشتركة التى تطلق على الإسلام وعلى عملية نشره بين الناس ، وسياق إيرادها هو الذى يحدد المعنى المراد . فمثلا إذا قيل : هذا من رجال الدعوة إلى الله . كان معنى الدعوة هنا محاولات النشر والتبليغ ، وإن قيل : اتبعوا دعوة الله كان المراد بها الإسلام .

التعريف الاصطلاحى للدعوة :

من المعلوم أن الدعوة بمعنى النشر والبلاغ صارت علماً مستقلا له موضوعه . وخصائصه . وأهدافه . وهو بذلك يواكب سائر العلوم الإسلامية . يفيدها . ويستفيد منها . ويشاركها فى إفادة الإسلام برسم طريق منهجى يكفل له الانتشار والذيوع .

ومن المعلوم كذلك أن الدعوة بمعنى الدين إذا أطلقت لا يراد منها إلا الإسلام بتعاليمه .

وبذلك فإن التعريف الاصطلاحى للدعوة بمعناها الأول يغاير تعريف الدعوة بالمعنى الثانى . ولهذا وجب ذكر التعريف الاصطلاحى لكلا المعنيين.

الدعوة بمعنى النشر :

يمكننا أن نعرف الدعوة بهذا المعنى بأنها « العلم الذى به تعرف كافة المحاولات الفنية المتعددة الرامية إلى تبليغ الناس الإسلام بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق » .

---

(١) أساس البلاغة . مادة (دعا) .

وعلى ذلك فإنها علم كسائر العلوم له قواعده وله موضوعه المتعلق بتعليم الدعاة كافة المحاولات المركزة الهادفة إلى تبليغ الإسلام . والمحاولات قولية كالخطبة والدرس . أو فعلية كالقدوة والطاعة لدين الله ، وهى فنية لأنها تراعى جانب التطبيق النظرى وتلحظ عمليات التأثير فى نفسية المشاهد والمستمع وهى متعددة لأن بعضها متجه إلى العقل ، وبعضها الآخر متجه إلى العاطفة والوجدان ، وهى هادفة ، وهدفها نشر دين الله وتبليغه إلى الناس أجمعين .

وقد أمر الله تعالى بتبليغ الدعوة فقال تعالى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾(١)

وهذا يشير ضمنا إلى أهمية هذا العلم لاشتماله على كافة وسائل الدعوة . حيث أنها جميعاً تدور مع الحكمة والموعظة والمجادلة على النحو المذكور .

يقول العينى : الحكمة تدل على علم دقيق محكم وتعليمها كمال علمى ، والقضاء بها كمال عملى (٢) : فإذا ما حدث أن عرفت الحكمة بالإصابة أو بالعقل أو بالفهم أو بالفقه فهى كلها أوصاف متقاربة تشتمل الحكمة عليها . وتحتويها بكمالها العلمى والعملى .

ومن سائر الأقوال يمكننا أن نعرف **الحكمة** بأنها فن التعليم المتقن الدقيق المفيد لليقين .

ونعرف **الموعظة الحسنة** : بأنها التوجيهات التى تفيد القرب النفسى بين الداعى بما تشمله من إثارة الانفعال ، وإيقاظ الشعور. مع وضوح أن الداعى يقصد النصح والإرشاد .

ونعرف **المجادلة بالحسنى** : بأنها أدلة كلامية يوردها الداعى ليلزم الخصم ، ويفحمه ويجعله يؤمن بالمدعى ، وإنما اتصفت المجادلة بالحسنى إبعاداً لها عن مفهوم المجادلة عند المناطقة الذين يعرفون المجادلة بأنها ليست

---

(١) سورة النحل آية ١٢٥ .

(٢) عمدة القارى جـ٢ ص ٢٤٩ .

لإظهار الصواب بل لإلزام الخصم ، ذلك أن الدعاة يقصدون دائماً إظهار الصواب ، والوقوف على الحق وإقناع الخصم بالحسنى .

والحق أن الوسائل التى هى محاولات النشر عديدة ، كالخطبة والمحاضرة ، والرسالة ، والقدوة ، والاتصال الشخصى والجمعى ، وكل واحدة من هذه الوسائل يتضمن الحكمة ، والموعظة ، والمجادلة ، بلا تفضيل نوع على نوع ، ويأتى الداعية بها جميعاً ، أو ببعضها تبعاً لمقتضى الحال .

إن الدعوة بمعنى النشر والبلاغ تحتم توضيح الإسلام ، وترى ضرورة فهم مزاياه وخصائصه . وتنادى بوجوب الإحاطة بكافة الوسائل التى يتم النشر بها ، ومن هنا فإننا نرى وجوب العناية بعلم الدعوة بهذا المفهوم . حتى يمكنه أن يساير التطور العلمى لوسائل الإعلام والدعاية ، وليصير — بحق — علما متجدداً على مستوى عقول الناس وأفكارهم .

ومن المبادئ الأساسية التى وضعها النبى صلى الله عليه وسلم لنشر دين الله أنه لم يقصر الوسائل على نوع محدد ، وإنما استعمل وسائل القرآن الكريم والسنة النبوية ، ومع ذلك دعا أصحابه إلى تطبيق وسائل كثيرة كالخطبة وتبليغ الشاهد الغائب ، وحمل الرسائل ، وقيادة الجيش ، والجهاد فى سبيل الله. وكل هذا يعطينا مندوحة فى استغلال كافة الوسائل الحديثة . مستفيدين من طريقة القرآن فى الدعوة ، وبذلك نطور العلم . وفى نفس الوقت لا نخرج عن إطار الإسلام فى شىء .

تعريف الدعوة كدين :

يمكننا أن نورد هذا التعريف بمجموعة من التعاريف نذكر منها :

١ — الدعوة الإسلامية هى الخضوع لله والانقياد لتعاليمه بلا قيد ولا شرط ومن المعلوم أن الانقياد لله دليل الخضوع له ، ولذا اشترط الاختيار الحر فى هذا الانقياد ليتحقق الخضوع التام .

٢ — الدعوة الإسلامية هى الدين الذى ارتضاه الله للعالمين ، وأنزل

تعاليمه وحياً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظها فى القرآن الكريم . وبينها فى السنة النبوية .

٣ — الدعوة الإسلامية : هى النظام العام والقانون الشامل لأمور الحياة . ومناهج السلوك للإنسان التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم من ربه وأمره بتبليغها إلى الناس . وما يترتب على ذلك من ثواب أو عقاب فى الآخرة .

وهذه التعاريف ليست متعارضة ، بل إنها تتعاون فى إعطاء صورة الإسلام الذى هو الدعوة .

وبالنظر فى الإسلام نرى أنه يتكون من أصول وفروع : حيث تتفق أصوله مع أصول سائر الدعوات الإلهية ، وتختلف الفروع عنها . يقول تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾(١)

ويقول : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾(٢)

يذكر الإمام فخر الدين الرازى أن الآيات التى تدل على التباين بين الرسالات تشير إلى الفروع الخاصة بكل دين ، أما الآيات التى تدل على عدم التباين فهى تتعلق بالأصول فقط (٣) :

ومن الواضح أن الأصول الواحدة هى التوحيد ، وإثبات الرسالة ، وإثبات البعث ، وأصول العبادات ، ومكارم الأخلاق . . وأن الفروع هى الشرائع الخاصة بكل ملة على حدة .

إن الإسلام يحتم تعانق العقيدة والشريعة ، بحيث لا تنفرد إحداهما عن الأخرى . على أن تكون العقيدة أصلا يدفع إلى الشريعة ، والشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة ، ومن آمن بالعقيدة وألغى الشريعة ، أو أخذ الشريعة

---

(١) الشورى آية ١٣ .

(٢) المائدة آية ٤٨ .

(٣) مفاتيح الغيب جـ ٣ ص ٦٠٨ .

وأهدر العقيدة لا يكون مسلماً عندالله . ولا سالكاً فى حكم الإسلام طريق النجاة .

إن النبي صلى الله عليه وسلم هو رسول الدعوة كدين . وهو أساسها كوسيلة وقد تركها بمعنيها أمانة فى عنق الأمة الإسلامية . لتحيط بها ، وتسترشد بمنهجها فى إصلاح الحياة .

والعلاقة بين المعنيين واضحة . فبجانب وحدة المصدر نرى أن الموضوع التى تهدف إليه الوسائل هو الإسلام ، وبقدرانتشار الإسلام وذيوعه تكون الدعوة إليه فى منهجها السليم ، والداعية الناجح هو الذى يجتمع فى عقله الفهم الصحيح للإسلام ،والإحاطة الحية بالوسائل المثلى لتبليغه ونشره .

وبهذا نرى الالتحام القوى بين المعنيين الاصطلاحيين للدعوة ؟

ثانيـــاً : أركان الدعوة

يشمل دين الله الأعمال الباطنة والظاهرة . ومرادنا بالأعمال الباطنة تصديق القلب ، وبالأعمال الظاهرة أفعال الجوارح . وبعبارة أخرى هما العقيدة والشريعة والأثر الذى يثمرانه هو الأخلاق .

ومن هنا يمكننا أن نحدد أركان الدين الإسلامى بالعقيدة والشريعة والأخلاق .

يروى أبوهريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان بارزاً يوماً للناس فأتاه جبريل . وقال له : ما الإيمان ؟

قال : الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث

فقال جبريل : ما الإسلام ؟

قال : أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان .

قال : ما الإحسان ؟

قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال : متى الساعة ؟

قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربها . وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان . فى خمس لا يعلمهن إلا الله . ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾

ثم أدبر فقال : ردوه . فلم يروا شيئاً ، فقال : هذا جبريل جـاء يعلم الناس دينهم (١) .

وبالنظر فى هذا الحديث نرى أنه يتضمن الدين كله ، لأن كل ما سأل عنه جبريل كان هو الدين ، فليس الدين جزءاً منه ، وإنما الدين هو مجموع ما ورد فى الحديث .

وقد أنزل كثير من المحدثين هذا الحديث بالنسبة للحديث منزلة سورة الفاتحة بالنسبة للقرآن . يقول القرطبى : هذا الحديث يصلح أن يقال له أم السنة . ويقول القاضى عياض : اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان ابتداء وحالا ومآلا . ومن أعمال الجوارح ، ومن إخلاص السرائر ، والتحفظ من آفات الأعمال ، حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه . ومتشبعة منه (٢) » .

وجميع ما ورد فى هذا الحديث راجع إلى العقيدة أو إلى الشريعة أو إليهما

---

(١) صحيح البخارى جـ ١ ص ١٩ ، ٢٠ كتاب الإيمان . باب سؤال جبريل .

ومعنى (إذا ولدت الأمة ربها) أى يعق الولد أمه فيتحكم فيها كأنه سيدها . ورواية (إذا ولدت الأمة بعلها) واضحة فى ذلك وهناك معان أخرى . إلا أن ما أوردناه أرجحها . ومعنى (إذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان) أى يسيطر أهل الفاقة على المدن وينشرون الإسلام فيها ويقيمون البنايات الشاهقة . وهو إشارة إلى اتساع دين الإسلام لأن حملة الإسلام هم الفقراء فى البداية .

وقد ظهر جبريل بصورة دحية الكلبى وجلس أمام النبى صلى الله عليه وسلم وسأله الأسئلة المذكورة يقول ابن الصلاح : ما فى هذا الحديث بيان لأصل الإيمان وهو التصديق الباطن وأصل الإسلام وهو الاستسلام والانقياد الظاهر ثم اسم الإيمان يتناول ما فسر به الإسلام وسائر الطاعات لكونها ثمرات للتصديق الباطن . واسم الإسلام يتناول أيضا ما هو أصل الإيمان وهو التصديق الباطن لأن الاستسلام لا يتم إلا به (عمدة القارى جـ ١ ص ٢٧٩ ، ٢٩١) .

(٢) عمدة القارى جـ١ ص ٢٩١ .

معاً . ذلك أن الإيمان بالله وملائكته وبلقائه وبرسله وبالبعث راجع إلى العقيدة وعبادة الله وحده ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان راجع إلى الشريعة ، والإحسان يكون فى العقيدة والشريعة معاً ، وبالإحسان توجد الأخلاق المثالية عند المسلم ، فهى أثر لازم وضرورى للعقيدة والشريعة .

وعلى ذلك فان الحديث عن أركان الإسلام ينحصر فى العقيدة والشريعة والأخلاق .

وهذا ما سوف نتبعه فى هذا المبحث على النحو التالى :

أولا : العقيــدة

العقيدة : هى عقد القلب على علم بمعلوم عقداً قوياً مؤكداً معتمداً على اليقين التام والتمكين الحق .

وأساس العقيدة هو الإيمان بوجود الله تعالى . بل إن ذلك هو أساس الدين كله . لأن الإيمان الحق بالله يدفع الإنسان إلى التصديق بكل ما أخبر به ، وتنفيذ كل ما أرشد إليه من أمر ونهى .

ووجود الله تعالى حقيقة قررها الحكماء فى القديم والحديث بأدلةالإمكان والحدوث ، وأكثر القرآن الكريم من الدليل عليها بطريقته ، بل إن الفطرة الإنسانية تستشعر ذلك وتتيقنه .

جـــاء فى دائرة المعارف « إن اعتقاد الأفراد والنوع الإنسانى بأسره فى الخالق اعتقاداً اضطراريا قد نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على وجوده ومهما صعد الإنسان بذاكرته فى تاريخ طفولته فلا يستطيع أن يحدد الساعة التى حدثت فيها عقيدته بالخالق ، تلك العقيدة التى نشأت صامتة . وصار لها أكبر الآثار فى حياته . فقد حدثت هذه العقيدة فى أنفسنا ككل المدركات الرئيسية على غير علم منا (١) » إن الناظر فى تاريخ الرسالات يعلم أن الأمم قد آمنت بوجود الله فطرة منها . وما كان ضلالهم جميعاً إلا فى اتخـــاذ معبودات مجسمة كالأحجار والبيوت والكواكب .

---

(١) دائرة معارف وجدى جـ ١ ص ٣١٤ بتصرف .

وإيمان الإنسان بوجود الله ناشىء من رؤيته للحياة من حوله . وقد أورد الإمام الرازى فى تفسيره صوراً من هذه الرؤية (١) فقال :

١ — هجم بعض الناس على أبى حنيفة يريدون قتله . فقال لهم : أجيبونى عن مسألة ثم افعلوا معى ماشئتم فقالوا له : هات . فقال : ماتقولون فى رجل يقول لكم إنى رأيت سفينة مشحونة بالأحمال : مملوءة من الأثقال وقد احتوشها فى لجة البحر أمواج متلاطمة . ورياح مختلفة . وهى من بينها تجرى مستوية ليس لها ملاح يجريها . ولا متعهد يدفعها . هل يجوز ذلك فى العقل ؟ قالوا هذا شىء لا يقبله العقل . فقال أبو حنيفة : يا سبحان الله إذا لم يجز فى العقل سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها . وسعة أطرافها . وتباين أكفافها من غير صانع وحافظ ؟ ! فبكوا جميعاً . وتابوا وقالوا له : صدقت .

٢ — سألوا الشافعى رضى الله عنه ما الدليل على وجود الله تعالى ؟

فقالوا : ورقة الفرصاد (التوت) طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم فقالوا نعم . فقال : فتأكلها دودة القز فيخرج منها الإبريسم . والنحل فيخرج منه العسل . والشاة فيخرج منها البعر . وتأكلها الظباء فينعقد فى نوافجها المسك فمن الذى جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد ؟ ! فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا . اهـ .

والقرآن الكريم يقدم عديداً من الآيات الكونية ويبرز واقعها شاهداً على وجود الله تعالى . ودافعاً للإنسان لكى يراها . وإليك بعضها :

يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ١ ص ٣١٤ بتصرف .

وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(١)

ويقول :﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾(٢)

ويقول ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٣)

ويقول ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝ ﴾(٤)

وهناك آيات كثيرة تشير إلى الأدلة الكونية العديدة .

يقول الأستاذ سعيد حوى فى كتابه (الله جل جلاله) (٥) مشيراً إلى آيات الله فى الكون .

— لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هى عليه بمقدار بضع أقدام لامتصت ثانى أكسيد الكربون والأوكسيجين ولما أمكن وجود الحياة .

— ولو كان الهواء أقل ارتفاعاً مما هو عليه فإن بعض الشهب التى تحترق بالملايين كل يوم فى الهواء الخارجى كانت تضرب فى جميع أجـــزاء الكرة الأرضية وكان فى إمكانها أن تشعل كل شىء قابل للاحتراق .

— ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالى لكنا تجمدنا . ولو أنها زادت بمقدار النصف لكنا رماداً منذ زمن بعيد .

ولولا المطر لكانت الأرض صحراء لا تقوم حياة عليها . ولولا الرياح والبحار والمحيطات لما كانت حياة . ولولا أن الماء يتبخر بشكل يخالف تبخر الملح لما كانت حياة . ولولا أن البخار أخف من الهواء لما كانت حياة .

---

(١) البقرة آية ١٦٤ . .

(٢) الذاريات آية ٢١ .

(٣) الأنبياء آية ٣٠ .

(٤) الطارق ٥ ، ٦ ، ٧ .

(٥) نقلا من تبسيط العقائد الإسلامية ص ٢٨ .

— ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها لما أمكن وجود تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان ولا نبات .

— ولولا الجبال لتناثرت الأرض : ولما كان مثل هذه القشرة الصالحة للحيـــاة .

وباختصار نقول : سواء أكان دليل(١) وجود الله هو حدوث العالم . أم إمكانه أم آيات الله فى الكون . أم آياته فى القرآن الكريم فإن الإيمان به فطرة مركوزة فى الطبع . يقربه العقل المجرد ويؤكده النظر السليم .

لازم الإيمـــان بوجود الله :

الإيمان بوجود الله يستلزم التوحيد المطلق للألوهية والربوبية معاً ذلك أن المشركين فصلوا توحيد الألوهية عن توحيد الربوبية فتراهم يسلمون بتوحيد الربوبية ويقرون بوجود الله خالقاً مالكاً رازقاً ، كما يقول الله تعالى ،

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢) ويقول: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ

---

(١) يمكن إجمال الأدلة التى أشرنا اليها فيما يلى :

أ — دليل الحدوث يعتمد على أن العالم حادث وكل حادث له محدث والمحدث للعالم هو الله تعالى.

ب — دليل الإمكان : يقوم على أن العالم ممكن وكل ممكن يعتمد فى إيجاده على واجب . وواجب الوجود هو الله تعالى .

جـ — دليل الدقة يعتمد على أن كل ما فى الكون دقيق فى صنعه . وهذا يدل على أن له صانعا ويستحيل أن توجده الصدفة . وهذا الصانع هو الله سبحانه وتعالى .

د — دليل الغاية : ويقوم هذا الدليل على أن كل المخلوقات وجدت لهدف وغاية : وذلك لا يكون إلا من خالق عالم قادر مريد هو الله تعالى .

هـ — دليل العناية : يقوم هذا الدليل على أن العناية التامة أحاطت بالإنسان حيث خلقت أجزاء جسمه المختلفة : كل لوظيفته . وسخرت له كل ما فى الكون وهذه عناية من الله تعالى تدفع إلى الإيمان به .

والدليلان الأولان هما أدلة المتكلمين والفلاسفة . والأدلة الثلاثة مستنبطة من النظر فى آيات الكون وآيات القرآن الكريم . وقد أشار اليها ابن رشد فى « مناهج الأدلة » .

(٢) لقمان آية ٢٥ .

وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾(١)

ومع هذا الإقرار نجد المشركين يتخذون الأصنام ويعبدونها من دون الله فيعددون بذلك الألوهية ثم يقولون :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾(٢)

وهذا هو الشرك الذى يجب أن تبرأ منه عقيدة المسلم . وهو نفس الشرك الذى هدمته رسالات السماء كلها .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾(٣)

وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية بالضرورة لأن الإقرار بقدرة الله ومالكيته وعلمه ونعمه على خلقه يستوجب أن يعبد وحده شكراً على نعمه . واستزادة من عطاياه . وطلباً لتزكية النفس . لأن العبادة تكون لذلك ، وذلك لا يقدر عليه غير الله ، أما الاتجاه بها إلى من لا يملك ولا يقدر فهو عبث يأباه العقل السليم وتنكره الأعمال الهادفة ولذلك يخاطب القرآن الكريم الناس بهذه الحقيقة فيقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾(٤)

والإيمان بوجود الله يستلزم — كذلك — أن **يكون** وحده حاكماً فأمره الأمر ونهيه النهى . لأن ترك أمر الله إلى أمر سواه . أو فعل ما نهى عنه بأمر سواه نوع من العبادة لسواه . وبذلك يكون الشرك . يروى الترمذى عن

---

(١) المؤمنون ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) الزمر آية ٣ .

(٣) الأنبياء آية ٢٥ .

(٤) الحج آية ٧٣ .

عدى بن حاتم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ قوله تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » فقال له : إنا لسنا نعبدهم . فقال : أليسوا يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ ! فقلت : بلى . قال : فتلك عبادتهم إياهم (١) .

وقد وصل الإسلام فى تنزيه التوحيد من كل شائبة إلى حد جعله يأمر الناس بعدم اتخاذ المقابر مساجد ، وبترك الحلف بغير الله ، والنهى عن الذبح بغير اسم الله ويأمر بعدم إطراء الإنسان أو تعظيمه أو التوجه إليه . ليكون التعظيم كله لله والاتجاه كله له ، فهو سبحانه المستحق لكل ذلك .

والتوحيد الحق يستلزم — أيضاً — كمالا مطلقاً للواحد الأحد سبحانه وتعالى وعلى المعتقد أن يؤمن بذلك وينزه الذات العلية عن كل نقص ويثبت لها كل كمال ، ولا يسمى الله إلا بالأسماء الحسنى الواردة فى النصوص الثابتة من قرآن وسنة .

وعلى المعتقد كذلك أن يثبت لله كافة الصفات اللائقة بذاته العلية (٢) .

وعلى المسلم أن يرمز إلى هذا الإيمان اليقينى بـ «شهادة أن لا إله إلا الله» والشهادة تعنى العلم والإعلام والإخبار بالاعتقاد الثابت فى القلب . وهذه الشهادة مستلزمة لكل ما ذكرنا من لوازم توحيد الله تعالى .

الإيمان بالرسل

النقطة الثانية فى العقيدة : هى الإيمان بالرسل الذين اصطفاهم الله وأرسلهم إلى الناس لرسم طريق السعادة . وهداية البشر على وفق شريعة الله ، وهؤلاء الرسل بدئوا بآدم عليه السلام وختموا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهم عديدون . منهم من قصه الله فى القرآن الكريم . ومنهم من لم يقصصه . والواجب أن يؤمن المسلم إجمالا بأن رسل الله عديدون ، ويؤمن تفصيلا بمن

(١) العبادة فى الإسلام ص ٨١ .

(٢) صفات الله أنواع . نفسية وسلبية ومعانى . ومعنوية . وللمتكلمين مناقشات حولها . لا مجال للخوض فيها هنا .

ورد ذكرهم فى القرآن الكريم . ويؤمن بأن رسل الله متمتعون بكل كمال يليق بهم .

والإيمان بالأنبياء مستتبع للإيمان بالرسل .

وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والرسل . وقد ثبتت رسالته بالمعجزات التى تحدى بها . وهى عديدة كانشقاق القمر وحنين الجذع . والإخبار بالمغيبات إلا أن المعجزة الخالدة الكبرى هى القرآن الكريم الذى عجز العرب عن الإتيان بأقصر سورة منه بعد أن تحداهم النبى صلى الله عليه وسلم بأن يأتوا بمثله ثم بأن يأتوا بمثل عشر سور منه ثم بأن يأتوا بسورة من مثله ، لكنهم عجزوا فى كل ذلك .

وثبوت نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إثبات لمن سبقه من الرسل ، كما أن الإيمان بهم دافع لثبوت نبوته فهم بشروا به ، وهو الذى روى قصصهم الصادقة فى القرآن الكريم الذى نزل عليه ولولا ذلك لاستمر قصص كثير من الأنبياء فى غياهب التاريخ .

والإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم يستلزم طاعته فيما أمر به أو نهى عنه . لأن ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(١) وأيضاً فإن رسالته لم تجىء لمجرد الرواية والتاريخ ، وإنما جاءت لإصلاح العالم . ومحاربة الفساد ووضع أسس الحضارة القائمة على العدل والحق والحرية والمساواة ، ولم تأت رسالته صلى الله عليه وسلم لأمة بعينها . أو لزمان بعينه ، وإنما أتت شاملة لسائر الناس . ومستمرة على الزمن كله ، ومن هنا كان القرآن الكريم دستور الرسالة وأساس التشريع . والمدد المحفوظ بإرادة الله يوجه المؤمن إلى ضروة طاعة رسول الله فيقول تعالى .

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(٢)

والإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم يستلزم — كذلك — أن تتعلق القلوب به حباً وإعجاباً فهو ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾(٣) وهو ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ

(١) النساء آية ٨٠ . (٢) الحشر آية ٧ . (٣) الأحزاب آية ٦ .

رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(١) . وهذا الحب يقتضى احترام سننه وطاعتها . وعدم معارضتها بآراء فاسدة . لأنه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾(٢) ويقتضى كثرة الصلاة والسلام عليه ، والخشوع عند ذكره وعند زيارة قبره الشريف . ويقتضى الوفاء الدائم له ، وعدم إيذائه بالمعصية .

ويعتبر لفظ « وأشهد أن محمداً رسول الله » رمزا على الإيمان برسالة الرسول ولوازمها المذكورة ، ويأتى هذا اللفظ دائماً مع الشهادة بالتوحيد. حتى أن كثيراً من العلماء يعبر عن الشهادتين بشهادة التوحيد فقط .

الإيمان بالكتب المقدسة

النقطة الثالثة فى العقيدة الإسلامية هى الإيمان بالكتب المقدسة التى أنزلها الله على رسله مشتملة على كافة أوامره ونواهيه . وسائر كلم الله تعالى التى نزل الوحى بها إلى الناس . وهذا الإيمان تفصيلى بالكتب التى ورد ذكرها وإجمالى فيما عداها . يقول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۞ ﴾(٣)

وليس من مقتضى الإيمان بالكتب الإيمان بما حرف منها . بل يجب على المؤمن أن يعمل فكره فى معرفة المحرف من الصحيح على أساس عقلى سليم ، وإنزال الكتب أحد لوازم إرسال الرسل لأن فى الكتاب الصادق دين الله المنزل وشرعه الموحى به إلى رسول الله عليه السلام .

---

(١) التوبة آية ١٢٨ .
(٢) النجم آية ٣ ، ٤ .
(٣) النساء آية ١٣٦ .

الإيمـــان بالملائكة

النقطة الرابعة : فى العقيدة الإسلامية هى الإيمان بالملائكة ، والملائكة أجسام نورانية قادرة على التشكل بالأشكال الحسنة . وهم عباد لله مكرمون ، مطيعون ، معصومون ، وأنواعهم كثيرة . منهم حملة العرش ، ومنهم رسل الوحى ، ومنهم الكتبة والحفظة ، والموكلون بقبض الأرواح ورئيسهم عزرائيل ، والموكلون بالأرزاق ورئيسهم ميكائيل ، والموكلون بالجنة ورئيسهم رضوان ، والموكلون بالنار ورئيسهم مالك .

وطريق الإيمان بالملائكة هو السمع وحده ولا دخل للعقل فى الوصول إلى ذلك .

وعلى المسلم أن يصدق بأنواع الملائكة إن ذكروا بأنواعهم . وبأشخاص الملائكة أن ذكروا بأشخاصهم . وأن يصدق بسائر الأوصاف الخاصة بهم والتى وردت الأدلة الشرعية بها .

الإيمان باليوم الآخـــر

النقطة الخامسة والأخيرة فى العقيدة الإسلامية هى الإيمان باليوم الآخر . واليوم الآخر هو يوم القيامة ، ، وموعد بدايته أحد الغيبيات التى استأثر الله بعلمها فهو وحده «عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ» وآخره عندما يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، وعلى ذلك فيوم القيامة يشتمل على ما يأتى :

١ — البعث : وهو إحياء الله الموتى ليلقى كل منهم ما يستحق من عذاب أو نعيم .

٢ — الحشر : وهو سوق الناس إلى مكان الحساب .

٣ — الحساب : وهو توقيف الناس على أعمالهم وأقوالهم ومعتقداتهم .

وفى الحساب يكون الميزان . والصحف . والشهود . ومن توابعه تكون الشفاعة .

٤ — الصراط : وهو جسر ممدود على ظهر جهنم يمر به الأولون ،

والآخرون كل بحسب عمله . فمنهم من يمر كلمح البصر ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالجواد ، ومنهم من يزحف . وهكذا .

٥ ـ الحوض : لكل نبي حوض يرده أتباعه المؤمنون الطائعون . وحوض النبي صلى الله عليه وسلم أكبر الأحواض وأعظمها .

وليوم القيامة علامات تسبقه وهى نوعان: صغرى وكبرى . وفى كل ذلك تفصيلات محلها كتب التوحيد .

وقبل أن ننتهى من هذه العجالة عن العقيدة الإسلامية نذكر أن منكر واحد منها كافر بالجميع وهو فى حكم الإسلام كافر ، لأنه أنكر أمراً ثبت بدليل قطعى لا شبهة فيه .

ويجب أن يكون واضحاً كذلك أن للعقل مدخلا فى الوصول إلى الإيمان بالله والرسالة . والكتب ، وفيما عدا ذلك فالأمر وقف على السمع وحده ولا مدخل للعقل فيه . وهذا ما جعل الشيخ محمد عبده يقول : « للإسلام فى الحقيقة دعوتان دعوة إلى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده . ودعوة إلى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . على أن الاعتقاد بالله يتقدم على الاعتقاد بالنبوات وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة (١) .

ثانياً : الشريعة

الشريعة هى الطريقة الموضوعة ، للسير عليها . والمراد بها التكاليف الظاهرة التى تؤدى بالجوارح .

والتكاليف أنواع متعددة وأعظمها العبادات التى رسم الله حدودها وبين دقائقها كالصلاة والصوم والزكاة والحج . وتلك فروض عينية واجبة الأداء على كل فرد يأثم بتركها ويثاب على فعلها .

وهناك فروض الكفاية كالجهاد والعلم وأعمال الصناعة والزراعة وغيرها وهى واجبة على المجموع إن أداها البعض سقطت عن الباقين . وإن تركها الجميع أثموا جميعاً .

---

(١) الإسلام دين العلم والمدنية ص ٩٢ — ٩٧ بتصرف .

والشريعة فى الإسلام نظمت سائر علاقات البشر بالله وجعلتها أسساً لكافة العلاقات البشرية .

إن الإنسان وهو وحده أو فى أسرة أو فى جماعة أو فى وطن . وهو حاكم أو محكوم . وهو طفل أو كبير . وهو ذكر أو أنثى . هذا الإنسان تحيطه نظم الشريعة راسمة له المنهج السوى . وطريق النجاة الحقيقى فى الدنيا وفى الآخرة .

والشريعة لا تنفك عن العقيدة لأن كليهما وجهان لعملة واحدة كما يقولون ، فمن دان بالشريعة وأنكر العقيدة فهو كافر ، ومن آمن بالعقيدة . وأهمل الشريعة فهو غير سالك طريق الناجين عند الله .

إن العقيدة ثابتة بالأدلة القطعية . وكذلك ما حدد من عبادات الشريعة وما ثبت بدليل قطعى لا تغيير فيه . أما ما عدا العقيدة والعبادات فإن الشريعة قد وضعت له الأصول الثابتة والكليات العامة وتركت فروع التطبيق للناس لأن هذه الفـــروع تختلف باختلاف الزمان والمكان وترسمها المدارس الفقهية المختلفة :

والإحسان فى العقيدة والشريعة يكون ببذل الجهد والإخلاص فيهما . وبتوافق الظاهر والباطن . وأن يجمع الدين والعقـــل والجوارح بلا تناقض أو اضطراب .

ثالثاً : الأخـــلاق

عرف الغزالى الأخلاق فذكر أنها هيئة فى النفس راسخة تصدر منها: « الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية »(١) .

ومعنى ذلك أن الأخلاق انفعال الظاهر بحركة الباطن وإرادته . وهذا ما يجعلنا نربط الأخلاق بالشريعة والعقيدة معاً .

وتظهر أهمية الأخلاق فى الإسلام بقول النبى صلى الله عليه وسلم « إنما

---

(١) الإحياء جـ ٣ ص ٦٤ .

بعثت لأتمم مكارم الأخلاق (١) » ذلك لأن الأخلاق هى الجانب التطبيقى للمسلم فى سائر علاقاته ، ، والسمو بهذه العلاقات هو الهدف الأساسى للدين ومن هنا كان للإيمان بالله أثر واضح فى الأخلاق يقول النبى صلى الله عليه وسلم : **« الحياء والإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر »** ، ولو نظرنا فى أغلب الأوامر الأخلاقية لوجدناها للمؤمنين لأنهم أهل الطاعة . وهم الحريصون على إيمانهم وصيانته . ومن أمثالها قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾(٢)

إن العبادات المشروعة فى دين الله أعمال مكررة من أجل أن يتعود فاعلها على الأخلاق الفاضلة ، ويتجنب الرذائل والمفاسد ، وآيات القرآن تعبر عن ذلك بوضوح .

فالصلاة المشروعة الحقيقية ﴿ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾. والزكاة للناس ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ وفرض الصوم عليهم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ والحج أعمال أخلاقية ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ وعلى هذا النحو يرسم الإيمان ، وترسم العبادات أخلاق المسلم لأنها الهدف الأساسى من صناعتها للإنسان .

إن الإنسان وإسلامه يقاسان عند الله بأخلاق صاحبهما **سئل النبى صلى الله عليه وسلم من أحب عباد الله إلى الله قال : « أحسنهم خلقاً » ويقول عليه الصلاة والسلام: « أحسن الناس إسلاما أحسنهم خلقاً » .**

لقد كان الصحابة رضوان الله عنهم يتتبعون أخبار رسولهم ليتأسوا به ولذلك سألوا عائشة رضى الله عنها عن أخلاق رسول الله فقالت لهم **« كان خلقه القرآن »** . ومعنى ذلك أن لفظه وهمسه وظاهره وباطنه وعمله وصمته كان وفق القرآن ونابعاً منه ، ومن هنا نتفق مع الحقيقة حين نقول : إن القرآن الكريم هو دستور أخلاق المسلم .

---

(١) موطأ مالك جـ ٤ ص ١٩٢ ما جاء فى حسن الخلق .

(٢) التوبة آية ١١٩ .

والأخلاق فى الإسلام لها أصول يمكن حصرها فى الأمانة والعفة والصدق والعدل . وهذه الأصول الأربعة يمكن لها أن تشمل كافة الجوانب الأخلاقية فى حياة الإنسان .

وقد أمر الإسلام بهذه الأصول ودعا إلى فروعها كثيراً فى القرآن والسنة النبوية .

واكتساب الأخلاق ممكن بالقدوة ، وبالصحبة ، وبالبيت وبالمدرسة .

وقد وضع علماء النفس والجماعة وسائل كثيرة للاستعلاء بالغرائز . أو تبديلها أو تركها ، لكننا نرى أن التطبيق الدقيق للإسلام خير طريق لتكوين الأفراد على أخلاق سامية .

إن المسلمين الأول اتخذوا الرسول أسوتهم . وعملوا فى حياتهم على أن يطبقوا سائر تعاليم الإسلام ، فظهرت أمانتهم فى القول والعمل والمال ، ولم تتبدل فى حال ، وكانت عفتهم عن سائر المحارم ، وكان صدقهم التام ، وكان العدل يملأ حياتهم . وبذلك كان كمالهم الذاتى مع أنفسهم ومع النــاس لقد آمنوا بأنه لا إيمان لمن لا أمانة له ، وأن الصدق يهدى إلى الجنة . وأن الحياء خير كله وأن الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه . وأن المسلم أخو المسلم . وأن المسلم ليس بلعان ولا فحاش ولا بذىء . وأن المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل ذلك كان عملهم وفق إيمانهم ، ومن هنا كانوا المؤمنين بحق وطبقوا الإسلام كله بوفاء وكمال .

الفصل الثاني

أهداف الدعوة

تهدف الدعوة إلى الخير دائماً . وتحاول أن يصل الإنسان إلى تمام الخير وكماله ، فشرعت لأجله كثيراً من التعاليم كل منها له هدفه الخاص لتصل فى النهاية إلى الهدف الرئيسى الذى ترجوه الدعوة لمتبعيها ألا وهو **تحقيق السعادة ونشر الإسلام** .

يقول ابن مسكويه عن السعادة « **إن السعادة هى تمام الخيرات وغايتها والتمام هو الذى إذا بلغنا إليه لم نحتج معه إلى شىء آخر(١)** » فالسعادة غرض أسمى وغاية نبيلة . وهى النهاية المرجوة والأخيرة لكل مكلف من سائر عمله المستقيم وضدها الشقاوة . . يقول صاحب المختار : السعد اليمن . والسعادة ضد الشقاوة (٢) ، ومن المعلوم أن السعادة والشقاوة معان تتعلق بالشخص فيقال هو سعيد ومسعود . ولا تتعلق به إلا بتحقيقها فيه ووصوله بها إلى حالة خيرة فى ظاهره وباطنه ، ويقول صاحب المصباح المنير . سعد فلان فى دنيا وفى دين سعدا (٣) . أى فى أمور معاشه وأمور دينه وهما معاً يشملان الإنسان ظاهراً وباطناً .

ويكفى دليلا على أن تحقق السعادة هو الخير الشامل ما ذكره المفسرون فى تعريف السعيد والشقى إذ قالوا : أن السعيد هو الذى يكون من أهل الثواب . والشقى هو الذى يكون من أهل العقاب (٤) ، وقالوا أيضاً : إن السعيد هو من وجبت له الجنة بمقتضى الوعد . والشقى من وجبت له النار بمقتضى الوعيد (٥) ، وقالوا : إن السعداء هم المنعمون أتباع الرسل .

---

(١) تهذيب الأخلاق ص ١٢٣ .

(٢) مختار الصحاح مادة « سعد » .

(٣) المصباح المنير مادة « سعد » .

(٤) مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ١٣٣ .

(٥) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٩٣ تفسير أبو السعود جـ٣ ص ٤٧ .

والأشقياء هم المعذبون معاندو الرسل (١) ، وهكذا بينوا أن السعيد هو من استحق الثواب والجنة والنعيم فأكدوا بذلك أن السعادة الحقيقية هى الخير كله

يقول الفارابى : « والسعادة هى الخير المطلوب لذاته وليست تطلب أصلا ولافى وقت من الأوقات لينال بها شيء آخر ، وليس وراءها شيء آخر أعظم منها يمكن أن يناله الإنسان . والأفعال الإرادية التى تنفع فى بلوغ السعادة هى الأفعال الجميلة ، والهيئات والملكات التى تصدر عنها هـذه الأفعال هى الفضائل وهذه ليست خيراً لذاتها . بل لما تجلب من سعادة، والأفعال التى تعوق عن السعادة هى الشرور والأفعال القبيحة ، والهيئات والملكات التى تصدرعنها هذه الأفعال هى النقائص والرذائل والخسائس(٢) » ويقول ابن سينا « وليست السعادة مجرد لذة جسمية بل هى غبطة روحية وسمو معنوى واتصال بالعالم العلوى . هى عشق وشوق مستمران ، والنفوس البشرية إذا نالت الغبطة العليا فى حياتها الدنيا كان جل أحوالها أن تبقى عاشقة مشتاقة لا تخلص من علاقة الشوق اللهم إلا فى الحياة الأخرى (٣)».

وعلى ذلك فالسعادة لذة ورضى تستشعرها النفس وتهيم بها فرحاً وطمأنينة ، وتغمر الإنسان باليقين والبشر ، وتحيطه بالفضائل والجمال . وعلى الجملة فإنها تجعله يعيش فى الخير المطلق ظاهراً وباطناً .

إن عقول البشر تختلف فيما يظنونه موطن السعادة فبعضهم يرى أن الثروة هى السعادة ، وغيرهم يرى أنها فى كثرة الولد ، وآخرون يرونها فى الجاه والسلطان وغير ذلك ، وكل واحد يعتقد فى الذى يرى سعادة على الإطلاق (٤) .

إن الحق واحد رغم تعدد الآراء فى موطن السعادة . ومن هنا بينت الدعوة الإسلامية موطن السعادة الحقيقى وقررت أنه فى إسلام الأمر لله

---

(١) تفسير النسفى جـ ٢ ص

(٢) أهل المدينة الفاضلة ص ٤٧ .

(٣) الإشارات جـ٢ ص ٤٢ .

(٤) التنبيه على سبيل السعادة ص ٣ .

رب العالمين والإيمان بدعوته وتطبيق تعاليمه بكمالها . ولم تترك الإنسان لنفسه توصله إلى السعادة . لأن وصول النفس وحدها إلى السعادة لن يكون لكثرة شواغلها . ولأن السعادة الحقة لا يعرف طريقها إلا بنور النبوة الأمين .

يقول الفارابى — بحق — « ليس فى فطرة كل إنسان أن يعلم من تلقاء نفسه السعادة ولا الأشياء التى ينبغى أن يعلمها بل يحتاج فى ذلك إلى معلم ومرشد (١) . نعم لابد من المعلم والمرشد فى الوصول إلى السعادة . والرسل هم المعلمون ، والدعاة ورثتهم على نفس طريقهم ، ورسالتهم هى توضيح هذا الهدف الأسمى وسائر الأهداف الموصلة إليه والمنتهية عنده » .

أما السلام هدف الدعوة الثانى فهو أكثر اتساعاً من السعادة لأن الدعوة تطلب له أن يتحقق مع المسلمين ومع غيرهم ، ومع سعته هذه فهو أقل مرتبة من السعادة لأنه يعد طريقاً إليها ، وإنما كان — رغم هذا — من الأهداف الأساسية للدعوة لأنه يبرز دائماً معها ويلازم تحققها . فالمؤمنون المخلصون السعداء أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ، والجنة مأواهم هى دار السلام ، وتحيتهم فيها سلام ، ومن حقائق الواقع أنه لا سعادة بلا سلام . كما أن السلام لا يكون سلاماً فى الحقيقة إلا إذا زامل السعادة وشاركها فى ملء حياة الناس بالخير .

وقد اهتمت الدعوة بالسلام لمزاياه وخصائصه ، لأنه يعنى مع النفس النجاة . والسلامة والبراءة من العيوب والخلوص إلى الخير ، ويعنى مع الناس المسالمة والأمان ، ومع أهل الذمة الصلح وترك القتال والإحساس بالأخوة العامة ، جاء فى المختار « والسلام السلامة والسلام الاستسلام والسلام البراءة من العيوب » (٢) . وجاء فى المصباح « أن السلام هو الخلوص والنجاة » (٣). ويبين المفسرون أن للسلام معانى كثيرة تدور كلها حول السلامة من المكروه

---

(١) السياسات المدنية ص ٤٨ .

(٢) مختار الصحاح ٣٤٣ مادة « سلم » .

(٣) المصباح المنير جـ ١ ص ١٣٦ مادة « سلم » .

وإلقاء السلام إعلان عن المسالمة والأمان ونفى أى مكروه يأتى من قبل من ألقاه ، وسبل السلام وهى الطرق المؤدية إلى السلامة من العذاب والنجاة من العقاب ، ودارالسلام هى الجنة حيث السلامة من كل مكروه وأذى. والدعاء بالسلام هو طلب النجاة والفوز والبعد عن المكاره ، وتحية أهل الجنة سلام لأنه لا مكروه هناك .

إن السلام بهذا المعنى أمنية تهفو إليها البشرية لتأمن من الخوف وتنجو من المكاره وتشعر بالحرية المطلقة فى الفكر والقول والعمل .

إن حاجة الإنسان الملحة إلى السلام تتضح من تكونه . فباطنه من روح وضمير لا يحس بجمال إلا مع السلام ، والعقل لا يحسن التفكير إلا فى جنباته ، والجوارح لا تنطلق بحرية وقوة إلا إذا آمنت وسالمت .

إن السلام كالسعادة كلاهما معنى تستشعره النفس وترضى بأثره . وتحس به فى الحياة . جمالا . وخيراً . والسلام الحقيقى لا يوجد إلا بالتعاليم الدينية كالسعادة تماماً ، ذلك لأن تعاليم الدين تحدد الحقوق والواجبات للفرد وللجماعة ، وتنصف كل إنسان من أخيه ومن نفسه وتضع قواعد للسلوك قائمة على العدل والمرونة مع المحافظة على كرامة الإنسان وحريته ووجوده .

إن المتبعين لأوامر الله يسلمون بالقضاء ويؤمنون بالقدر خيره وشره حلوه ومره وهذا يجعلهم فى أمان وسعادة مع أنفسهم وفى حياتهم الدنيا وبهذا الرضا سيعيشون السعادة والسلام فى الآخرة أيضا .

إن المؤمنين المتبعين يؤمنون أن الله عدل كله ولا ظلم فى رحابه أبداً « إنه الرحمن الرحيم » ورحمته وسعت كل شىء . ومن هنا يندفعون إلى الله بالرجاء والدعاء وقت الضراء ، وبالحمد والشكر وقت السراء . وأصالتهم الدينية تجعلهم يتحررون من خوف الفقر وعبودية المنصب ورهبة السلطان . ويشعرون أن وجودهم الفانى متصل بالله القادر الرحيم ، ويدركون عن يقين أنهم إلى الله راجعون . وأن الدنيا تمهيد للآخرة وآثار الأعمال تظهر فى دار البقاء .

وإذا ما انتشر الأتباع فى المجتمع كله . وأحس الجميع بآثاره ومعانيه . إذا ما حدث ذلك تحققت السعادة وانتشر السلام بين الجميع .

تحقيق السعادة والسلام :

اتجهت الدعوة الإسلامية بتعاليمها إلى إشباع حاجات الروح وحاجات الجسد معاً ، فخالفت الماديين الذين يتجهون إلى نيل أكبر قسط من المادة مع إغفال كثير من المعانى الإنسانية ، وخالفت الروحانيين الذين ينادون بقتل النفس بالزهد والحرمان . ومن هنا فإن الإسلام يرى أن المادة بكل أنواعها خادمة للروح . فلابد من وجود المادة مع الروح ، ومن أجل تحقيق السعادة ونشر السلام توفر الدعوة للجسد والروح مطالبهما . وتحافظ على الضرورات اللازمة لهما .

ومن أهم ضرورات الجسد أن يكون له مال مضمون يكتسبه وينفقه على معاشه وحياته ، لأن المال ضرورة لازمة فبه يتغذى الجسم وينمو ويستطيع البقاء ، والروحانيون الزاهدون يرون أنه لابد من تغذية الجسم بالمقدار الذى يكفل البقاء محافظة على الروح . لذلك كان المال حبيب الناس ومعشوق البشر وضرورة مادية هامة للجميع .

ومن أهم ضرورات الجسد كذلك المحافظة على ذات صاحبه وعدم تعريض نفسه للهلاك ، لأن النفس المريضة لا تصنع لصاحبها نفعاً ولا تجلب له إلا الأذى والألم وإن هلكت النفس انقطعت الحياة وانعدم الإنسان نفسه .

ومن أهم ضرورات الجسد أيضاً أن يحافظ له على بقاء نوعه فى صورة ضمان الحرص على النسل الذى جعله الله زينة وأملا لصاحبه وفى الوقت نفسه يضمن بقاء النوع وامتداده .

وأيضاً فان الروح تحتاج حتماً إلى الفهم والتصرف والتدبر عن طريق ضمان صيانة العقل والمحافظة على حريته فى الفهم والتدبر . وتحتاج كذلك إلى ضمان عقيدتها التى آمنت بها وعدم اضطهادها بسببها . لأن العقيدة دين يملأ العقل والعاطفة والوجدان .

فتحقق بذلك أن ضرورات الجسد والروح معاً خمس هى المال والنفس والنسل والعقل والدين ، وهى جميعاً مترابطة يكمل بعضها بعضاً ، لأن النفس لو هلكت لانعدم من يتدين ولو انعدم العقل لارتفع التكليف ، ولو انعدم النسل لانقطع الجنس البشرى . ولو انعدم المال لم تبق حياة .

إن هذه الأمور الخمسة هى الضرورات التى تتعلق بهـا مصالح الدنيا والآخرة وبالمحافظة عليها تتحقق السعادة وينتشر السلام يقول الشاطبى « ومجموع الضرورات خمسة وهى حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل . وهذه الضرورات إن فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد وتهارج وفوت حياة وفى الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين (١) » .

وإنما سميت هذه الأمور الخمسة بالضرورية لأنه لابد منها لقيام مصالح الدنيا والآخرة وتمييزاً لها عن الأمور الحاجية المؤدية إلى التوسعة ورفع الحرج عن العباد ، وعن الأمور التحسينية التى هى محاسن العادات ومكارم الأخلاق وأيضاً فان الأمور الحاجية تابعة للضرورات تكملها وتجعل المحافظة عليها أمراً سهلا ميسراً وكذلك الأمور التحسينية فإنها تكمل الحاجية والمكمل للمكمل مكمل للأول .

إن تحقق الضروريات الخمسة يحقق السعادة والسلام لأن الإنسان مع تحقق هذه الضرورات سيكون متمتعاً بكل ما ينبغى ويرجو ، فعقله حر ومعاشه مصان . ونفسه آمنة وولده موجود . ودينه محفوظ .

وقد حقق الإسلام هذه الضرورات على النحو التالى :

---

(١) الموافقات جـ ٢ ص ٨ ، ١٠ .

أولا : نظام حفظ الدين

الدين فطرة إنسانية وغريزة عامة تجعل الإنسان يشعر دائماً بقوة غيبية من حوله ، والناس من أقدم العصور حيارى يجدون فى أنفسهم إلهاماً بالفطرة إلى التسليم بقوة قاهرة يستلهمونها ويستمدون منها العون ويستقبلون بالرضى منها الخير والشر . خوفاً وطمعاً . ويتوسلون إليها بالقرابين والعبادات ويجدون فى الإيمان بهذه القوة التى اختلفوا فى تكييفها سنداً وملاذاً من رهبتهم وسلوانا وعزاء عن ما هم فيه من قسوة الحياة وآلامها . ومن هنا كانت مهمة الرسل أن يوجهوا الإنسانية إلى الصراط المستقيم الذى يعرف بالإله الحق ويبين وجو ب عبادته وتقديسه وتعظيمه وبذلك صانوا صلوات الله عليهم أصالة الفطرة وأبعدوا عنها مظاهر الانحراف والضلال . وكانت خاتمة المطاف على يد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جاء يبين الدين ودعا إلى اتباعه وشرع عوامل حفظه المحملة فى أربعة عوامل هى :

العـــامل الأول

التكاليف المفروضـــة :

الدين الإسلامى عبارة عن الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والمحافظة على العبادات المحددة وغير المحددة مع الإحسان التام والإخلاص الدقيق ، والمسلم إذا نفذ تعاليم دينه من عقيدة وعبادة بقى دينه محفوظاً قوياً . ذلك لأن العقيدة تعرف بالله وصفاته . وتبرهن على وجوده واستحقاقه وحده العبادة ، وتتضمن بعد ذلك بقايا أركان العقيدة كما أن العبادة تربط الإنسان بالله ، فالصلاة خشوع وخضوع وتوجه إلى الله . والصوم إمساك عن بعض المباحات طاعة الله . وكذلك الحج والزكاة لأنهما مشقة بدنية ومالية يتحملها المكلف تعظيماً لله وعبادة له وطاعة . وبذلك يعيش المسلم مع دينه فى كل آن ومكان . وقد تميزت عقيدة الإسلام وعبادته بجملة من المزايا جعلتها مقبولة عند الإنسان وسهلة .

فهى — **أولا** — فطرية ويكفى أن محور العقيدة هو التوحيد المتفق تماماً

مع العقل السليم والمنطق الحق . ذلك لأن التوحيد يعتمد على فكرة بدهية مؤداها أن هذا الوجود المشاهد لابد له من إلّه موجد واحد يتصف بالعلم والقدرة والإرادة لايدانيه فى ذلك شيء آخر .

ولو تفحصنا الاحتمالات العقلية الممكنة لوجدناها تحتم ذلك . لأن **الوجود المشاهد** إما أن يكون وهماً وليس له موجد وهذا احتمال مرفوض بدليل الواقع المشاهد ، **والاحتمال الثانى** إما أن يكون هذا الوجود حقيقة إلا أنه وجد من تلقاء نفسه وهو أيضاً احتمال مرفوض لأنه ينكر قانون الأسباب والمسببات ويلغى قوانين العلم والحياة وكلها تثبت أن للوجود موجد وللأثر مؤثر . **والاحتمال الثالث** أن يكون هذا الوجود قديماً لا أول له ولا آخر وهذا الاحتمال يجعل الكون فاعلا ومنفعلا ومؤثِّرا ومؤثَّرا فيه فى وقت واحد ، وينسب الكمال المطلق والحكمة العالية والعلم الشامل لعناصر الكون كالتراب والهواء والماء وهكذا . وهو احتمال مرفوض بالبداهة والعقل لأن ما فى الوجود من علم وحكمة وكمال لا يصح أن تنسب للتراب مثلا . وما دامت الاحتمالات الثلاثة قد رفضت فان **الاحتمال الرابع والأخير** هو الجدير بالقبول لأنه التفسير المستقيم لسبب الوجود حيث يذكر أن الله سبحانه وتعالى هو الموجد لكل شيء .

إن العقل السليم يؤمن بذلك كما أن القرآن قد أثبته يقول تعالى مؤكداً هذه الحقيقة :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(١)

ويقول تعالى :

﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾(٢)

والبشر اليوم أقوى على التسليم بإمكانية الخلق بـ « كن » بعد أن رأوا أن الموجودات المادية تنتهى فى حسابنا إلى معان ومعادلات رياضية (٣) .

---

(١) سورة يس آية ٨٢ .

(٢) سورة سبأ آية ٣ .

(٣) الفلسفة القرآنية ص ١٨ .

إن القرآن الكريم كتاب الدعوة مليء بالأدلة السهلة الواضحة التى تؤكد فطرية العقيدة الاسلامية إذ تبعد الإنسان عن متاهات الفلسفة والتراكيب المعقدة وتجعله يوجه عقله إلى النظر فى نفسه وفى الكون من حوله مع لفت نظره إلى العناية الإلهية الكاملة واختراع القادر الحكيم . ذلك أن النظر فى النفس والكون يؤدى إلى الاقتناع واليقين بالدليل السهل الميسر .

وقد أجمل ابن رشد أدلة القرآن على فطرية العقيدة وإثباتها لوجود الله فى نوعين :

الأول : دليل الوقوف على عناية الله بالإنسان . حيث خلق سائر الموجودات من أجله وهذا الدليل يعرفه ابن رشد بأنه « دليل العناية » ويبين أن مبناه على أصلين .

أولهما: أن جميع الموجودات التى هاهنا موافقة لوجود الإنسان .

والأصل الثانى:أن هذه الموافقة هى — ضرورة — من قبل فاعل قاصد لذلك مريد وليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق . وهى واضحة فى موافقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الإنسان وكذلك موافقة الأزمنة الأربعة والمكان الذى هو فيه وكذلك تظهر العناية فى أعضاء الإنسان وموافقتها لحياته ووجوده(١) ولذلك فمعرفة منافع جميع الموجودات يبين عناية الله بالخلق .

الثانى : دليل سماه ابن رشد دليل الاختراع ويدخل فيه وجود المخلوقات كلها وينبنى هو الآخر على أصلين .

أحدهما:أن هذه الموجودات مخترعة . وهذا معروف بنفسه فى الحيوان والنبات . فإنا نرى أجساماً جمادية تحدث فيها الحياة فنعلم قطعاً أن هاهنا موجدا للحياة منعماً بها وهو الله تبارك وتعالى .

الأصل الثانى:أن لكل مخترع مخترع . ولذلك فمعرفة سائر المخترعات يؤدى إلى معرفة الله تعالى (٢) .

---

(١) مناهج الأدلة ص ١٥٠ .

(٢) مناهج الأدلة ص ١٥١ .

وكما أثبت القرآن الكريم وجود الله تعالى أثبت الوحدانية المطلقة له ، لأن انتظام المخلوقات فى طابع واحد يؤكد أن خالقها واحد . يقول تعالى :

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(١)

والتوحيد فى حقيقته شامل للألوهية والربوبية حيث يعرف الموحد قدر الإلّه ، ويعبد ربه وحده لأن شهادة الإنسان « لا إله إلا الله » ليست قولا ولا نطقاً مجردا بل هى تعبير عن الوصول إلى الحق كأنه شاهده بجوارحه . فصدق تصديقاً لا يحتمل النقض ولا يلغى بحال . وهذه الشهادة لها خطورتها عند المؤمن بها حيث يترتب عليها التكوين الشخصى وشمول النظرة إلى الكون كله . ويترتب عليها كذلك صناعة مجتمع محكوم بشريعة الدعوة لأنه دائماً مشدود إلى أصلها . متمسك بمبادئها . محافظ على سماتها . لأن المجتمع المسلم لو لم يكن كذلك فهو مخالف لما تستحقه شهادة التوحيد .

ومن لوازم الشهادة أن يتحول الشاهد إلى طاعة مطلقة لله وإلى توكل مطلق عليه ، وأن يتجه بكل عمل صغر أم كبر لله تعالى . أى أن تكون الشهادة عند صاحبها عقيدة وحالة تتعمق فيه حتى تصل إلى كل قلبه . وإلى كل نفسه ، وبذلك تكون شهادته حقة وعقيدته تامة ، والله سبحانه وتعالى محاسب على حقائق الأعمال ونياتها . يروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرّفه نعمته فعرفها . قال: فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال هو جرىء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه فى النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل، ثم أمر به فسحب

---

(١) المؤمنون آية ٩١ .

على وجهه حتى ألقى فى النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه أصناف المال فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت فعلت ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار (١)

فبرغم أن ظواهر الأعمال المذكورة طاعة إلا أن الله نظر إلى ارتباطها بالنية ودورانها معها وحاسب صاحبها على أساس ذلك .

والتكاليف — ثانياً — ميسرة حيث أن جميع عبادات الدين سهلة لا عناء على الفرد فى أدائها والمحافظة عليها . فالصلاة مثلا عبادة فرضها الإسلام على المسلمين ووزعها على أوقات متباعدة تشمل الليل والنهار وجعلها خمسا تؤدى فى أوقات خمسة لا تستغرق فى جملتها سوى دقائق معدودة . وحتى لا يغفل الإنسان عن مواقيتها شرع معها الآذان إعلاماً بوقتها لكى يؤديها وقتاً وقتاً . فلا تتراكم وتترك أو تضيع أعمالا أخرى بسبب تراكمها . والصوم فريضة مقدرة بشهر واحد فى السنة . والزكاة لا يؤديها إلا المستطيع . والحج مفروض على من استطاع إليه سبيلا .

وهى فرائض خالية من الحرج تماماً « يقول الشاطبى » واعلم أن الحرج مرفوع عن المكلف لوجهين :

أحدهما: الخوف من الانقطاع فى الطريق وبغض العبادة وكراهية التكليف .

والثانى : خوف التقصير عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالعبد . المختلفة الأنواع مثل قيامه على أهله وولده إلى تكاليف أخرى تأتى فى الطريق (٢) .

وهكذا ينفى الحرج من التكاليف محافظة على الدين ليبقى . ومحافظة على العبد ليقوم بكافة وظائفه .

ولا يقف تيسير العبادة عند بساطتها بل إن الشريعة تلاحظ أعذار الناس

---

(١) صحيح مسلم جـ ٦ ص ٤٧ كتاب الإمارة . باب من قاتل للرياء والسمعة .

(٢) الموافقات جـ ٢ ص ١٣٦ .

وتخفف عنهم العبادة على قدر طاقتهم فالوضوء لا ينقض بسبب سلس البول أو الرعاف الدائم ويستبدل به التيمم . والمسح على الخفين . وعلى الجبيرة . والصلاة تسقط عن الحائض والنفساء . وتقصر على المسافر ، ويتسامح فى بعض شروطها للمريض والعاجز والخائف وفى وقت المطر . والصوم يؤجل أويفدى عنه ، والحج فيه تخفيف كثير على أصحاب الأعذار . يقول العز ابن عبد السلام مبيناً أنواع تخفيفات الشرع على المكلفين « والتخفيفات أنواع منها تخفيف الإسقاط كاسقاط الجمعات والصوم والحج والعمرة بأعذار معروفة . ومنها تخفيف التنقيص كقصر الصلاة وتنقيص الركوع والسجود عن المريض إلى القدر الميسور له . ومنها تخفيف الإبدال كإبدال الوضوء والغسل بالتيمم وإبدال القيام فى الصلاة بالقعود . وإبدال العتق بالصوم وإبدال بعض واجبات الحج والعمرة بالكفارات عند قيام الأعذار. ومنها تخفيف التقديم كتقديم العصر إلى الظهر والعشاء إلى المغرب فى السفر والمطر وكتقديم الزكاة على حولها ومنها تخفيف التأخير كتأخير الظهر إلى العصر ورمضان إلى ما بعده . ومنها تخفيف الترخيص كصلاة المتيمم مع الحدث والتلفظ بكلمة الكفر عند الإكراه (١) وهكذا يكون التخفيف رفعاً للحرج . وبعداً عن المشقة » .

والتكاليف — **ثالثاً** — مفيدة حيث ترقى بالإنسان وتسمو به فصاحب العقيدة الصادقة عزيز لا يستذل لشيء . ولا يقبل ضيماً من أحد . ويستمد عزته من الله تعالى ولسوف يكون بعقيدته صادقاً أميناً مستقيماً . . كما أن العبادات بدورها تفيده بمقاصدها يقول تعالى :

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾(٢)

فبان بذلك أن الصلاة تبعد عن المنكر والفحشاء . وهكذا سائر

---

(١) قواعد الأحكام جـ ٢ ص ٨ ، ٩ .

(٢) العنكبوت آية ٤٥ .

العبادات لأن مقصد الصوم هو التقوى والصحة . ومقصد الزكاة تحقق الطهر والبركة والنماء ، والحج ذكر لله ومنافع للناس .

ويجب أن يبقى معلوماً أن التكاليف كلها راجعة إلى مصالح العباد فى دنياهم وأخراهم (١) . هذا ولئن كان المقصد الأصلى للعبادة هو التعبد لله تعالى فان مع المقصد الأصلى مقاصد تابعة تفيد الإنسان نفسه ولا حرج على الإنسان إن قصد من عمله البواعث الدنيوية مع قصد التعبد المجرد . ولا ينبغى له أبداً أن يقصرها على المقاصد الدنيوية وحدها لأنه إن قصر عمله على قصد الدنيا فقد ضيعه .

التكاليف – رابعاً – معتدلة بمعنى أنها تمزج مزجاً حسناً بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، وتشرع للدنيا والآخرة ، وتحافظ على حق الله وحق الحياة ، وهذا الاعتدال يسمو بالدين إلى حد الكمال وينفى عنه تهمة إضاعة الإنسان على الأرض وتخديره بأعمال مبهمة وشرع غير هادف . ذلك أن الناظر فى تعاليم الإسلام يراها ترعى حق الله لتعود الفائدة فى النهاية على الإنسان نفسه . يقول تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ ﴾(٢)

فدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم تحيي الأفراد . وتملأهم بالخير . يقول العز : إذا سمعت نداء الله تعالى فى كتابه فتأمل وصيته بعد ندائه فلا تجد إلا خيراً يحث عليه أو شراً يزجر عنه أو جمعا بين الحث والزجر (٣) ويقول تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾(٤)

---

(١) قواعد الأحكام جـ ٢ ص ٧٣ .
(٢) الأنفال آية ٢٤ .
(٣) قواعد الأحكام جـ ١ ص ١١ .
(٤) الحشر آية ١٨ ، ١٩ .

فإن الأمر هنا بالتقوى والخوف من الله والعمل للآخرة والتذكر الدائم لله وهذا كله لايتحقق إلا بصلاح الدنيا يقول أبو السعود: «كرر الله الأمر بالتقوى ها هنا للتأكيد أو لأن الأول فى أداء الواجبات كما يشعر به ما بعده من الأمر بالعمل. والثانى فى ترك المحارم كما يؤذن الوعيد وعدم نسيان الله بترك حقوقه لأن من فعل ذلك كان ناسياً لنفسه فلم يسمع ما ينفعها ولم يفعل ما يخلصها »(١).

ومن المعلوم أن الصلاة تحتاج إلى صحة وقدرة واحتمال. والصدقة تحتاج إلى مال يكتسب وينفق، والجهاد لابد له من مال ورجال وسلاح. وهكذا كل العبادات تحتاج إلى قوة وكسب مادى. ومن هنا حثت الدعوة الإسلامية على اكتساب مطالب الروح والجسد معاً. يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾(٢)

وهذه الآيات تبين أن المسلم قبل الصلاة فى بيع وعمل، وبعدها فى سعى على المعاش وكسب للرزق. فهو يحافظ على الدنيا والآخرة، وعلى المسلم أن يستمتع فى الدنيا بأقصى ما يمكنه من الحلال المشروع وأن يملأ الأرض سعياً ونشاطاً وقوة ويستثمر ما سخر الله له من أرض وسماء وشمس وقمر، وينبغى للمكلف أن يعرف أن العمل الدنيوى إن لازم الأمر المشروع وجاء موافقاً لحكم الله فإنه ينقلب إلى عبادة لـ « أن المكلف إذا فهم مراد الشارع من بيان أحوال الدنيا وأخذ فى العمل على مقتضى ما فهم فهو إنما يعمل من حيث طلب منه العمل ويترك إذا طلب منه الترك فهو أبداً فى إعانة الخلق على ما هم عليه من إقامة المصالح »(٣).

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٥ ص ١٥٤ بتصرف.

(٢) الجمعة آيات ٩، ١٠.

(٣) الموافقات جـ ٢ ص ٢٢٠.

والتكاليف فى اعتدالها تراعى الإنسان فى كل حالاته . فتشرع له فرداً مستقلا بذاته ومشتركاً فى جماعة وأمة . يقول العقاد « الاسلام هو العقيدة المثلى للإنسان منفرداً ومجتمعاً وعاملا لروحه أو عاملا لجسده فلا يكون المسلم مسلماً وهو يطلب الآخرة دون الدنيا ولا يكون مسلماً لأنه روح أنكر الجسد أو جسد ينكر الروح . إن شمول العقيدة فى ظواهرها الفردية والاجتماعية مزية توحى للإنسان بالكمال »(١) .

العـــامل الثانى

الدعـــوة إلى الدين :

شرع الله أن تستمر الدعوة إلى دينه من غير توقف . وفرض على الأمة المسلمة أن تبلغ الدعوة لأفرادها وللأمم الأخرى . فقال تعالى :

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(٢) وقال أيضا ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾(٣)

وهاتان الآيتان تشيران إلى وجوب أن يأخذ تبليغ الدعوة شكل الانتشار العام حيث يتناصح الناس بها فيما بينهم ويوجهون دعوتهم إلى الأمم الأخرى . ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . وهذا الوجوب إن صح من كل مسلم فان الواجب يحتم تعيين فئة للقيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بين المسلمين على الخصوص وهى فئة الحسبة وعليها أن تأمر بالمعروف إذا ظهر تركه وتنهى عن المنكر إذا ظهر فعله . يقول الغزالى :

---

(١) الإسلام فى القرن العشرين ص ٢٧ .

(٢) التوبة آية ١٢٢ .

(٣) آل عمران آية ١٠٤ .

«وتكون الحسبة فى كل منكر موجود فى الحال ظاهر للمحتسب بغير تجسس معلوم كونه منكراً بغير اجتهاد »(١) .

وقد بين القاضى أبو يعلى وأبو الحسن الماوردى مجال عمل المحتسب فى الأمر بالمعروف وقسماه إلى ثلاثة أقسام: **ما كان فى حقوق الله وما كان فى حقوق العباد وما كان مشتركاً بينهما**. وبينا أن عمل المحتسب يكون فيما ليس من عمل الولاة والقضاة وأهل الديوان (٢) .

ويقول ابن تيمية « ومن واجبات المحتسب أن يأمر العامة بالصلوات الخمس فى مواقيتها ، ويتعاهد الأئمة والمؤذنين فمن فرط منهم فيما يجب من حقوق الإمامة . أو خرج عن الأذان المشروع . ألزمه ذلك . وذلك أن الصلاة أعرف المعروف من الأعمال وهى عمود الإسلام . فاعتناء ولاة الأمر بها يجب أن يكون فوق اعتنائهم بجميع الأعمال . ويأمر المحتسب بالجمعة والجماعات وبصدق الحديث وأداء الأمانات وينهى عن المنكرات من الكذب والخيانة وما يدخل فى ذلك من تطفيف المكيال والميزان والغش (٣) .

وهكذا يجب أن تستمر الدعوة إلى الدين والمحافظة على المعروف بين أتباع الدعوة ومنع المنكر من أن يشيع فيهم .

ووصول المحتسب إلى هدفه يكون بالقول والعمل حيث يعرّف الناس بالمعروف والمنكر ومدى تطابقها أو تنافرها مع تعاليم الإسلام . ويعظ وينصح ويخوف — وله أن يغلظ فى قوله عند عجز الكلام الحسن عن التأثير . ويهدد باستعمال يده فى الضرب . وله أن يستعملها فى الضرب عند الضرورة وعلى قدر . وله بعد ذلك أن يرفع الأمر إلى الولاة والقضاة (٤) وإن جاهر

---

(١) الإحياء جـ ٢ ص ٢٨٥ .

(٢) الأحكام السلطانية لأبى يعلى ص ٢٦٨ — ٢٩٢ الأحكام السلطانية للماوردى ص ٢٤١ — ٢٤٨ . وقد قسما عمل المحتسبة فى مجال النهى عن المنكر إلى ثلاثة أقسام كذلك .

(٣) الحسبة فى الإسلام ص ٩ ، ١٠ .

(٤) الإحياء جـ ٢ ص ٢٨٩ ، ١٩٢ بتصرف وايجاز .

رجل مسلم بشرب الخمر فله أن يريقه عليه ويؤذيه بالضرب بعد ذلك .
وهكذا يقوم المحتسب بعمله حماية للدين وتبليغاً له .

العـامل الثـالث

حمـاية الدين من المعـاندين :

بعد تمام الدين وكماله وتمسكه باحترام الإنسان وتكريمه وضمان حريته قضى بحماية الدين ودعاته من المعارضين المعاندين الذين يبغون هدم دعوة الله وإزالتها ، وهذه الحماية إيجابية حيث شرع الله لها معاقبة المعاندين وجهادهم فقال تعالى :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾(١)

ذلك لأن جهادهم واجب رداً للظلم . وقطعاً لإفسادهم . وحتى لايصدوا الدعوة فى بلاغها . ويمنعوها من الانتشار .

وعلى هذا المفهوم تدور فلسفة الجهاد الإسلامى . وكل المعارك فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم لا تعدوا هذه الحقيقة . فلم يقاتل النبى صلى الله عليه وسلم العرب إلا لأنهم أخرجوه من مكة وآذوه واستولوا على أموال المسلمين وقصدوا فتنتهم فى دينهم ، ولم يحارب اليهود إلا لأنهم بدأوا العداوة للمسلمين ، ولم يكن جهاده للإبادة وإنما كان كله رحمة رقيقة حيث لا حرب إلا فى ميدان القتال ، ومع المقاتلين وحدهم ، وكان دائماً حماية للدعوة من معارضيها المعاندين لأن التقصير فى هذه الناحية يعرض الدين للزوال فلابد من حمايتـه .

العـامل الرابع

حماية الدين من الغلو والانحراف :

قد يأتى الانحراف فى الدين بسبب الغلو فيه . ومن هنا نرى الإسلام يضع الأسس التى تنجيه من الانحراف ولذلك نجده :

---

(١) سورة الحج آية ٣٩ .

ينهى عن تعظيم الشخص لذاته ويبين أن الكل (وإن علا أقدار بعضهم) ينتسبون لأب واحد وأم واحدة . يقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١)

فبين بذلك أن الناس جميعاً سواء . وليس لفرد أن يعظم . وإنما العظمة لله وحده وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير (٢) .

ونجده كذلك ينهى عن اتخاذ القبور مساجد مخافة أن يعظم ساكنوها الموتى ، كما حدث مع أصنام قوم نوح فقد ذكروا أنها كانت أسماء لقوم صالحين فلما ماتوا عكف أهلوهم على قبورهم . ثم صوروا تماثيلهم . ووضعوها فلما طال عليها الأمد عبدوها (٣) .

وهذا احتياط شديد من جانب الدعوة ليبقى التعظيم لله وحده . لأن التسامح فى هذا الباب مزلقة لانحرافات كثيرة ، والواجب أن تتجرد العبادة لله من غير ارتباط بميت أو حى. وأن يحس العابد بأن العبادة تكليف لضميره وحده يتجه بها إلى الله بلا توسط هيكل أوتقريب كهانة ، يصلى حيث أدركه موعد الصلاة وأينما كان فثم وجه الله . ويصوم ويفطر فى داره أو فى موطن عمله ويحج ليذهب إلى بيت لا سلطان فيه لأحد لأنه بيت الله الحرام وقد قال النبى (ص) مبيناً عاقبة اتخاذ القبور مساجد : **« لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يقول ابن عباس معلقاً:** بئس ما صنعوا (٤) ونجده كذلك ينهى عن الحلف بغير الله لأن الحلف تعظيم ولا تعظيم إلا لله تعالى ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام « **ألا إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت** » وكانت قريش تحلف بآبائها فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تحلفوا بآبائكم.

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .
(٢) الأصنام ص ٦٨ .
(٣) الأصنام ص ٥١ ، ٥٢ .
(٤) صحيح البخارى .

ثانياً : نظام حفظ النفس

الحياة منحة الله للأحياء وهو سبحانه معطيها وآخذها حين يريد . والمحافظة عليها ضرورة من أجل الإنسان نفسه فبها يعيش ويعمل ويفكر وبدونها يكون العدم والفناء وقد وضعت الشريعة الإسلامية أحكاماً لحفظ حياة النفوس يمكننا أن نجعلها فى أمور أربعة هى :

الأمــر الأول

حماية النفس من الأمــراض :

يوسع الإسلام نظامه فى حماية النفس من المرض حيث لا يتركها فريسة له ثم يعالجها ، إنه ابتداء يهتم بالوقاية ومن المعروف أن الطب الوقائى أكثر فى فائدته . وأعم من الطب العلاجى لأنه سهل التنفيذ واسع الأثر . .

وقد وضع الإسلام أسس الطب الوقائية حيث اهتم بالنظافة مطلقاً . ونهى عن الأعمال التى تساعد على انتشار المرض ، وأمر بالبعد عن المرض ومظانه ، وهذا كلام يحتاج إلى تفصيل .

فأما عن النظــافة :

فإننا نلحظ أن الإسلام قد جعلها من الإيمان . ولقد كان المشرك إذا أراد أن يسلم وسأل عما يفعل لذلك يقال له « **تغتسل فتطهر جسمك وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى ركعتين**»(١) . وقد ربط الإسلام عبادته بالنظافة ، فالصلاة تسبق بالاستنجاء والوضوء وبذلك يطهر مخرج الأقذار والأطراف المعرضة للأتربة والجراثيم . وفى تفصيلات الوضوء كندب تكرره وتثليثه وإيصال الماء إلى ما تحت اللحية وتخليل الأصابع وغير ذلك دليل واضح على مدى مراعاة الإسلام للنظافة . وفى قوله تعالى :

﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾

---

(١) سيرة النبى ﷺ جـ ٢ ص ٤٤ قصة إسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ .

نوع من الطهارة غير الوضوء وهو الغسل الذى يشمل الجسم كله . وفيه الدلك وعدم الاكتفاء بظاهر الأعضاء . كما أنه لا يقف عند حدوث الجنابة والحيض والنفاس بل إنه سن فى حالات كثيرة كشهود الجمعة والعيدين والجماعات وأكده فى بعضها خيفة إهماله فقال عليه السلام : « **الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم** »(١).

ولم يكتف الإسلام بالنظافة فى الوضوء والغسل بل سن تطهير أجزاء كثيرة تعد من أصول النظافة . منها غسل اليدين عند القيام من النوم يقول عليه السلام: « **إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده فى الإناء حتى يغسلها ثلاثا فإنه لا يدرى أين باتت يده (٢)** » .

ومنها تنظيف الأسنان بالسواك يقول عليه السلام : « **لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة** »(٣) . ومن الأمور ذات الأهمية فى النظافة ما عدده النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله: « **عشرة من الفطرة قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظافر وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء والمضمضة** »(٤).

وقد عرفتنا تعاليم الدعوة أن من يهمل النظافة يضع نفسه فى موضع العقاب الإلهى حيث ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم مر على قبرين فقال: « **أما أنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله** »(٥) وقد حث الإسلام على نظافة الثوب يقول تعالى :

﴿ * يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾(٦)

---

(١) صحيح البخارى جـ ١ ص ٢١٧ كتاب الصلاة باب وضوء الصبيان .

(٢) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٥١ كتاب الطهارة . باب كراهة غمس المتوضىء وغيره يده المشكوك فيها .

(٣) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٥١ كتاب الطهارة . باب السواك .

(٤) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٥٣ كتاب الطهارة . باب خصائل الفطرة — والبراجم هى مفاصل الأصابع والمرتفعات من ظهر الكف وانتقاص المـاء يعنى الاستنجاء .

(٥) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٦٦ كتاب الطهارة . باب الدليل على نجاسة البول .

(٦) الأعرف آية ٣١ .

والزينة لا تتم إلا بنظافة الثوب وحسنه ، والأمر شامل لكل مكان يمكن أن يسجد فيه وهو يعم الأرض كلها . وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بأن يهتموا بثيابهم . ومن أقواله لعمربن الخطاب رضى الله عنه **البس جديداً وعش حميداً ومت شهيداً** (١) . وكان يأمر النسوة إذا سألنه عن دم الحيض فى الثوب بالنظافة ويقول ﷺ « **تحته ثم تقرضه بالماء ثم تنضحه ثم تصلى فيه** » (٢) .

وكذلك يهتم الإسلام بنظافة المكان الذى يعيش فيه الإنسان ويعمل ويصلى . يقول النبى صلى الله عليه وسلم « **أصلحوا رحالكم ولباسكم فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش**» (٣) والرحل هو مسكن الرجل وما يصحبه يروى أنس رضى الله عنه أن إعرابياً **بال فى المسجد فلما قضى بوله أمر النبى صلى الله عليه وسلم بذنوب من ماء فأهريق عليه** (٤) .

وهكذا يحافظ الإسلام على نظافة الجسد والثوب والمكان ليكون مؤكد النفع قوى الأثر .

وأما عن الأفعال التى تسبب المرض فقد نهى الإسلام عن ارتكابها وهى كثيرة :

منها شرب الخمر حيث جاء النهى عنه وتحريمه بقوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ ﴾ (٥)

وذلك لأن الخمر تعوق الإنسان عن الحركة المنتظمة والعمل النشيط

(١) الفتح الربانى بترتيب مسند أحمد جـ ١٧ ص ٢٣٥ .
(٢) صحيح البخارى كتاب الوضوء . باب غسل الدم .
(٣) الفتح الربانى جـ ١٧ ص ٢٣٤ .
(٤) صحيح البخارى جـ ١ ص ٦٤ كتاب الوضوء باب يهريق الماء على البول .
(٥) سورة المائدة آية ٩٠ .

وتسبب الارتعاش فى الأطراف والشلل فى الأعصاب وتمزق خلايا الجسم وأنسجته وتحرق الكبد وتضعف الكلية (١) .

ومنها النهى عن أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وشحمه يقول تعالى:
﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾(٢)

يقول الرازى: إن تحريم هذه الأشياء موافق لما فى العقول لأن الدم جوهر لطيف جداً فاذا مات الحيوان حتف أنفه احتبس الدم فى عروقه وتعفن وفسد وحصل من أكله ضرر عظيم . والخنزير مطبوع على حرص عظيم ورغبة شديدة فى المشتهيات فحرم الله أكله على الإنسان لئلا يتكيف بتلك الكيفية . والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة كالميتة لأنها تموت حتف أنفها (٣) .

ومنها النهى عن مباشرة النساء وقت الحيض لأن ضررها محقق بالنسبة للرجل والمرأة قال تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)﴾(٤)

ومنها النهى عن التبول والتبرز فى الماء الدائم . وقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم **نهى عن التبول فى الماء الدائم وفى** طريق الناس وظلهم حيث قال عليه السلام « **اتقوا اللعانين قالوا وما اللعانان يا رسول الله . قال الذى**

---

(١) عناية الإسلام بالصحة ص ١٩ .
(٢) سورة المائدة آية ٣ .
(٣) مفاتيح الغيب جـ ٣ ص ٥٢٣ ، ٥٢٤ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٢٢ .

يتخلى فى طريق الناس أو ظلهم (١)». وذلك لأن فعل شىء من هذا يجلب كثيراً من المرض .

ومنها النهى عن الزنا لضرره البدنى حيث يجلب المرض ويحدث السيلان والزهرى يقول تعالى فى تحريم الزنا والنهى عنه .

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾(٢) .

وهكذا فالزنا فحش وسوء .

وفى البعد عن موطن المرض نلحظ أن الإسلام يأمر بمحاصرة المرض وعزله وخاصة ما كان معدياً . فبرغم أن الأمور كلها تسير كما يريد الله إلا أنه سبحانه وتعالى أجرى الأمور على مقتضى العادة فقال عليه السلام « **فر من المجذوم كما تفر من الأسد** » (٣) وقد قضى النبي بإقامة ما عرف حديثاً بالحجر الصحى حيث أمر بأن تحاصر المنطقة الموبوءة فلا يدخلها أحد أو يخرج منها أحد حتى ينتهى الوباء . روى البخارى بسنده عن أسامة ابن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « **إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض فلا تخرجوا منها** »(٤) . وقد ثبت أن المسلمين الأول نفذوا أوامر الرسول فى هذا الشأن روى البخارى بسنده عن عبدالله ابن عباس أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بـ « سرغ » لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام قال ابن عباس فقال لى عمر : ادع لى المهاجرين الأولين . فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا . فقال بعضهم: « **قد خرجت لأمر لا نرى أن ترجع عنه . وقال بعضهم معك بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نرى أن تقدمهم**

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٥٦ كتاب الطهارة باب النهى على التخلى فى الطريق .

(٢) الإسراء آية ٣٢ .

(٣) صحيح البخارى جـ ٧ ص ١٦٤ كتاب الطب . باب الجذام .

(٤) نفس المصدر جـ ٧ ص ١٥٨ كتاب الطب . باب ما يذكر فى الطاعون .

على هذا الوباء فقال ارتفعوا عنى . ثم قال ادع لى الأنصار فدعوتهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم فقال : ارتفعوا عنى . ثم قال : ادع لى من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم فلم يختلف عليه رجلان . فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء فنادى عمر فى الناس أنى مصبح على ظهر فأصبحوا عليه »(١) وهكذا وضع الإسلام نظام البعد عن موطن العدوى ومكانها .

وأما إذا وقع المرض ولم تنفع الوقاية فإن الإسلام يجابهه بالعلاج . ومن عجب أن الإسلام علمنا نوعاً من العلاج له أهميته هو **العلاج النفسى** الذى يتم بإدخال السرور على نفس المريض وإبعاد الحزن عنه وتهيئة جو له يعوده الصبر على الألم . وانتظار تحقق الأمن والشفاء . وهذا النوع من العلاج له أهميته وأثره . . يروى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : **سمعت** رسول الله ﷺ **يقول** : « **التلبينة مجمعة لفؤاد المريض تذهب ببعض الحزن** (٢) » أى مريحة للفؤاد ومضيعة لبعض الغم منه .

وقد شرع الإسلام عيادة المريض من أجل إدخال السرور على نفسه وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا دخل على مريض يعوده يقول له : « **لا بأس طهور إن شاء الله** » (٣) ومن أجل تعويد المريض على الصبر وتحمل الألم يقول عليه السلام « **ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه** » (٤) . وحتى يتمسك بالأمل ويترك اليأس وينظر إلى مستقبله نظرة فيها الرضى والهدوء يقول عليه السلام « **لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه فإن كان لابد فاعلا فليقل اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى (٥)** » . وهكذا يعمل الإسلام على جلب المسرة على نفسية المريض وتأميله فى الشفاء والخير .

---

(١) صحيح البخارى جـ ٧ ص ١٦٨ كتاب الطب . باب ما يذكر فى الطاعون .

(٢) صحيح البخارى جـ ٧ ص ١٥٢ كتاب الأطعمة . باب التلبينة .

(٣) صحيح البخارى جـ ٧ ص ١٥٢ كتاب المرضى باب عيادة الاعراب .

(٤) صحيح البخارى جـ ٧ ص ١٤٨ كتاب المرضى .

(٥) صحيح البخارى جـ ٧ ص ١٥٦ كتاب الطب . باب تمنى المريض الموت .

ويرى الإسلام كذلك أن على المريض أن يهتم بالعلاج ويتناول الدواء المناسب لمرضه بعد أن يحدده عالم بالطب والدواء . يقول عليه السلام « **ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (١)** » وأهل الذكر هم الذين يحددون المرض ودواءه ، وفى كتاب الطب فى صحيح البخارى كثير المطعوم والمشروب الذى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بتناوله من أجل العلاج وتخفيف الألم وفى قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ جماع لكل ذلك .

الأمر الثــانى

حماية النفس من الاعتــداء :

وضع الإسلام كثيراً من أحكامه لمنع الاعتداء على النفس أياً كان مصدره فنهى أن يقتل المرء نفسه بسبب غم يلحقه أو أذى يخافه فقال تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾(٢)

ذلك أن المؤمن مع كونه مؤمناً قد يلحقه من الغم والألم ما يكون القتل أسهل عليه من الحياة . وغير المؤمن أكثر ضجرا وثورة وقتله لنفسه أكثر احتمالا من المؤمن . ولذلك نهى الله فى هذه الآية عن قتل النفس وأعقبها بآية أخرى تبين شدة عقوبة من يقتل نفسه فقال تعالى :

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾(٣)

يقول عطاء هذا الوعيد خاص بقتل النفس لأنه أقرب ما ذكر فى الآية السابقة . وعم غيره الوعيد فجعله لقاتل النفس ولغيره (٤) . وعلى رأى الجميع فإن العقوبة مؤلمة لمن يقتل نفسه .

---

(١) صحيح البخارى كتاب الطب . باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء .

(٢) النساء آية ٢٩ .

(٣) النساء آية ٣٠ .

(٤) مفاتيح الغيب جـ ٣ ص ٣٠٤ .

ونهى الله كذلك عن أى عمل يعرض الإنسان فيه نفسه للهلاك والمخاطر فقال تعالى :

﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ ﴾(١)

أى لا توقعوا أنفسكم فى الهلاك ولا تلقوا بأيديكم أنفسكم إلى الهلاك بأى عمل سواء كان بترك النفقة أو بترك الجهاد . أو بالدخول فى شىء تعرفون أن الهلاك محقق فيه من غير نفع يأتى أو بارتكاب الذنوب وهكذا فإلحاق الضرر بالنفس هو إلقاء بها إلى الهلاك وقد نهى الله عنه .

وحرم الإسلام قتل النفس بغير حق فقال تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ ﴾(٢)

ويروى البخارى بسنده عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «**لايحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس . والثيب الزانى . والمارق من الدين التارك الجماعة (٣)** » . وعلى هذا فجريمة قتل النفس جريمة نكراء شدد الله عليها العقوبة وضاعف الجزاء يقول الزمخشرى عند تفسيره لقوله تعالى :

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾(٤)

هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ لأن القتل جرم كبير لدرجة أن ابن عباس ذكر أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة .

يقول سفيان الثورى : كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا : لا توبة له . وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله تعالى فى التغليظ والتشديد (٥) .

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٥ . (٢) سورة الإسراء آية ٣٣ .

(٣) صحيح البخارى كتاب الديات .

(٤) سورة النساء آية ٩٣. (٥) الكشاف جـ ١ ص ٥٥٤ .

وأيضاً فإن التوبة لا تتم إلا بعفو العبد عن حقه . ولا يستطيعه هنا لأنه قتل . ومن هنا قالوا : لا توبة للقاتل . ولم يكتف الإسلام بتهديد القاتل وزجره وإنما شرع القصاص حماية للنفس . ذلك لأن القتل أنفى للقتل ، ولكم فى القصاص حياة ، والإنسان إذا علم أنه إن قتل قتل فانه لا يقدم على القتل فتتحقق بذلك الحياة ويستقر الأمن والهدوء يقول الطبرى عند تفسير قوله تعالى :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُولِي الْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾(١)

فيما فرضت عليكم وأوجبت لبعضكم على بعض من القصاص فى النفوس والجراح والشجاج ما منع بعضكم من قتل بعض فحييتم بذلك فكان لكم فى حكمى بينكم بذلك حياة ويجب أن يكون واضحاً أن القصاص فى الإسلام متعلق بالحاكم ومختص به لأنه لو ترك لأولياء المقتول ينفذونه وحدهم لحدثت الفوضى والتهارج . ولذلك خاطب الله به سائر المؤمنين فى قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾(٢)

فنجد أن الله سبحانه خاطب المسلمين بالقصاص كجماعة لا كأفراد ومعنى ذلك أن الجماعة هى المسئولة عن تنفيذ القصاص ، وهى لاتقدر على تنفيذه فلا بد أن يتولاه الحاكم الذى اختاره المسلمون وولوه عليهم . والحاكم فى الإسلام مكلف بالمحافظة على حقوق الأولياء فى القصاص . وهكذا حدد الله جزاء من يعتدى على نفس غيره وبين له عقوبته فى الدنيا والآخرة .

وأعطى الإسلام للأفراد حق الدفاع عن النفس فمن هاجمه شخص يريد قتله فله أن يرد خطره ولو أدى إلى قتل المهاجم .

وللحاكم أن يتدخل إذا طغت جماعة من المسلمين على جماعة أخرى .

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٩ .

(٢) سورة البقرة آية ١٧٨ .

وعليه أن يقاتل البغاة حتى يتوبوا ويرجعوا إلى الحق والصواب ، يقول تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾(١)

وإذا تجمع الأشقياء وكونوا عصابات تقطع الطرق وتقتل الأنفس وتسلب الأموال وتخيف الآمنين . وجبت عقوبتهم يقول تعالى :

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٢)

فقد اعتبر الله أن هؤلاء الأشقياء يحاربونه ورسوله فأوجب عليهم هذه العقوبة وبين امتدادها عليهم فى الدنيا والآخرة . يقول الرازى: المحاربون المذكورون فى الآية هم القوم الذين يجتمعون ولهم منعة . أرادهم بسبب أنهم يحمى بعضهم بعضاً . ويقصدون المسلمين فى أرواحهم ودمائهم وإنما اعتبرنا القوة والشوكة لأن قاطع الطريق إنما يمتاز عن السارق بهذا القيد(٣) ألا وهو المنعة والقوة وإلحاق الأذى بالمسلمين وقد اتفق الفقهاء على أن قطاع الطريق يطبق عليهم الحكم السابق .

والجهاد الإسلامى مقصود منه حماية الناس والدفاع عن الأنفس والأموال وغير ذلك

---

(١) الحجرات آية ٩ .

(٢) المائدة آية ٣٣ .

(٣) مفاتيح الغيب جـ ٣ ص ٥٨٥ .

الأمر الثـــالث

حماية النفس من مشقة التكاليف :

من المعلوم أن التكاليف الشرعية وضعت رعاية لمصالح العباد . وضماناً لسعادتهم فى الدنيا والآخرة . إلا أن هذه التكاليف قد يصاحبها ظروف معينة تجعلها لا تنتج إلا الضرر للمكلف إن هو فعلها . وهنا نجد المشرع محافظة منه على سلامة الحياة يسقط هذه التكاليف بالكلية أو يستبدلها بغيرها فمثلا . الأصل فى الوضوء والغسل أن يكونا بالماء الطاهر المطهر . لكن إذا وجد الماء عند عدو مخيف أو تحت سطوة حيوان مفترس أو كان استعمال الماء ضارا بالصحة أو مؤخراً للشفاء أو كان الماء قليلا لا يكفى إلا للشراب والطعام فى هذه الأحوال يرشد الشرع إلى استبدال التيمم بالوضوء والغسل .

وأيضاً فان استقبال القبلة أثناء الصلاة يسقط إذا كان فى التوجه خطورة على النفس بسبب عدو أو مرض .

والصلاة كلها يقطعها المصلى إن دهمه خطر أو مر بجواره حيوان مفترس أو رأى غرقاً أو حرقاً وهكذا .

والصوم يسقط أو يؤجل بسبب عذر يلحق بالمكلف يقتضى الإسقاط أو التأجيل . والحج يسقط عن غير المستطيع بسبب المال أو بسبب الأمن . . كما أن التلفظ بالكفر مع اطمئنان القلب بالإيمان جائز لمن خاف على نفسه .

وهذه كلها إسقاطات تتعلق بالفرائض والواجبات من أجل المحافظة على النفس كما أن هناك أشياء محرمة يبيحها الشارع عندما تتعلق الضرورة بإباحتها كإباحة أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وشرب الخمر بسبب الاضطرار وكالطبيب يباح له النظر إلى العورة فى الجزء الذى يعالجه .

وهناك أمثلة كثيرة استقصتها كتب الفقه والمهم هنا أن الدعوة بشريعتها وضعت التكاليف — فعلا وتركا — من أجل المحافظة على النفس وسلامتها .

الأمر الرابع

حماية النفس بالتكاليف :

الناظر فى كثير من التكاليف الإسلامية يلحظ أنها تلتقى عند حماية النفس وحفظها وتقويتها فمثلا يهتم الطب الحديث بالحركات الرياضية والرحلات والامتناع عن الأكل بين الحين والحين . ولو قارنا اهتمامات هذا الطب بالتكاليف الشرعية لوجدنا التكاليف تؤدى كثيراً من هذه الاهتمامات مع سبقها فى التشريع وربطها بأصل دينى مقدس . ومن ذلك الصلاة فهى فريضة مقصدها الأصلى تأدية حق الله تعالى . ومع ذلك فمن مقاصدها التابعة أن يؤدى الجسم حركات بين القيام والركوع والسجود والقعود واليقظة المبكرة وتطلب الاعتدال فى الوقوف واستواء الظهر فى الركوع وانتصاب الساقين ومجافاة العضدين عن الفخذين . وكل هذا يقوى عضلات البدن ويزيده نشاطاً .

ومن المقاصد التابعة فى الحج أنه رحلة إلى الأرض المقدسة وسط الشمس المشرقة فى لباس أبيض فضفاض مع حركات متتابعة بين الطواف والسعى والزيارة والوقوف بعرفة والانتقال من مكان إلى مكان . وكل هذا يعود بالتقوية على النفس .

والصوم يفيد كثيراً فى الصحة والقوة يقول(مالك فادون). إن كل إنسان يحتاج إلى الصيام وإن لم يكن مريضاً لأن سموم الأغذية والأدوية تجتمع فى الجسم فتجعله كالمريض وتثقله ويقل نشاطه فإذا صام خف وزنه وتحللت هذه السموم فتذهب عنه حتى يصفو صفاء تاماً . والصوم لأمراض المعدة مثل العصا السحرية يسارع فى شفائها . ويرى المعالج به العجب العجاب وتليها أمراض الدم ثم أمراض العروق كالروماتيزم (١) .

ولو تتبعنا سائر التكاليف الشرعية لوجدنا فيها مدخلا لمراعاة الصحة وحماية النفس من الأمراض والأضرار .

وهكذا حفظت النفس بالأمور الأربعة المذكورة .

---

(١) من رسالة الصيام الوعى الإسلامى عدد رمضان سنة ١٣٨٦ .

ثالثاً : نظام حفظ النسل

الولد زينة الدنيا . وعنصر بقاء النوع الإنسانى . والنفس البشرية تحس مع الولد برضى وطمأنينة . وتمتلىء بالحب والجمال . والإنسان بطبعه يحب النسل ويتمناه هذا هو سيدنا زكريا عليه السلام بعد ما بقى مدة . بلا ولد يدعو ربه ويقول :

﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾(١)

وجاءته الإجابة الإلهية فى سرور وبشر وناداه وحي الله قائلا﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾(٢) .يقول العربى مبيناً منزلة الولد من أبيه :

إنما أولادنا أكبادنا تمشى على الأرض
إذا هبت الريح على بعضهم امتنعت عينى عن الغمض

وقد بين القرآن الكريم أهمية الولد فأقسم به . يقول تعالى :

﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾(٣)

يذكر الشيخ محمد عبده أن المقسم به فى الآية مناسب للمقسم عليه لأن المقسم عليه هو أن الإنسان خلق فى مشقة من أجل المحافظة على جمال الحياة فأقسم بالوالد وما ولد إذ كل منهما يلاقى مشقة فى سبيل المحافظة على النوع واستبقاء جمال الكون . وقد امتن الله على البشر بأن رزقهم أولاداً فقال تعالى :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾(٤)

والولد نعمة وأمانة يجب المحافظة عليه ، وقد وضعت الشريعة الإسلامية من التكاليف ما يضمن هذا الحفظ . وذلك بأمرين سنذكرهما فيما يلى :

---

(١) الأنبياء آية ٨٩ .
(٢) مريم آية ٧ .
(٣) البلد آية ٣ ، ٤ .
(٤) النحل آية ٧٢ .

الأمر الأول

الاستعداد الحسن لوجود الولد :

الأسرة هى البيئة الطبيعية لحياة الطفل . والزواج هو سببه المباشر . ودور الزواج والأسرة فى تنشئة الطفل وتكوينه هام . ولذلك وجدنا الإسلام يحث على الزواج مبيناً أن أحد أسبابه هو إنجاب الولد يقول عليه الصلاة والسلام لجابر بن عبد الله « **فعليك بالكيس الكيس (١)** » ليقصد من زواجه الاستيلاد لا مجرد اللذة ، ويرشد الإسلام إلى ضرورة اختيار الزوجة الفاضلة التى تتمتع بصفات الكمال . ذلك لأن الإنسان يضع لنفسه أسساً فى تخيره لزوجته . وهى أسس تدور مع الحسب والمال والجمال والدين . والإسلام يعرف هذه الأمور لكنه يفضل ذات الدين على غيرها حيث تعرف بسبب دينها حقوق زوجها وبيتها وأولادها كما أنها تنشىء أولادها على الدين ومحبته . يقول عليه السلام «**تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك (٢)** » ويشير الحديث إلى أن على الرجل أن يتخير زوجته على أساس الدين كى تعينه على المحافظة على ولده وتنشئته تنشئة فاضلة . ذلك لأن اللائق بذوى المروءات أن يكون الدين مطمح نظرهم . وأن تكون صحبة أهل الدين بغيتهم ليستفيدوا من أخلاقهم وخاصة الزوجة التى تمتدح بوضوح فى قدرتها على تربية الولد . يقول عليه السلام « **خير نساء ركبن الإبل صالحو نساء قريش إحناه على ولد فى صغره وإرعاء على زوج فى ذات يده(٣)** » ، وعلى هذا فعلى الرجل أن يتخير زوجة ذات دين تعينه على المحافظة على ولده . بل إن الرجل مكلف بأن لا يقدم على الزواج إلا إذا كان قادراً على الزواج وتوابعه من نفقة على الزوجة والولد . يقول عليه السلام « **يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء** »(٤)

---

(١) صحيح البخارى جـ ٧ ص ٥٠ كتاب النكاح .

(٢) صحيح البخارى جـ ٧ ص ٩ كتاب النكاح . باب الأكفاء فى الدين .

(٣) صحيح البخارى جـ ٧ ص ٧ كتاب النكاح باب إلى من ينكح وأى النساء خير .

(٤) صحيح البخارى جـ ٧ ص ٣ كتاب النكاح . باب من لم يستطع الباءة فليصم .

والباءة هى الجماع أو مؤن النكاح . ولا مانع من إرادتهما معاً . ومن مؤن النكاح أن يكون الزوج قادراً على تهيئة الحياة المستقرة لزوجته ولولده .

وهكذا فعلى الزوج أن يكون قادراً على النفقة قبل أن يقدم على الزواج. ثم عليه أن يتخير زوجته صالحة تحفظ له العرض والمال والولد . وهذا كله استعداد واجب مراعاته قبل المولد .

الأمر الثـــانى

العنـــاية بالولد بعد مولده :

يولد الطفل وتبدأ التكاليف الإسلامية من أجل المحافظة عليه والعناية به وهى تكاليف كثيرة موجهة إلى الوالدين :

منها أن يختار الأبوان لابنهما اسماً حسناً حتى لا يعود عليه الاسم القبيح بالهزء والهوان . وكثيراً ما يؤدى المدلول اللفظى لاسم قبيح إلى السخرية والضحك . ولقد كان النبى عليه السلام يكره الأسماء القبيحة حين يسمعها وكان يغيرها إلى اسم لائق جميل فعن على بن طالب رضى الله عنه قال : **«لما ولد الحسن سميته حربا فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أرونى ابنى ما سميتوه؟ قلنا : حربا قال : بل هو حسن . فلما ولد الحسين سميته . حربا . فجاء النبى صلى الله عليه وسلم وقال أرونى ابنى ما سميتوه؟ قلنا . حربا . قال : هو حسين . فلما ولد الثالث سميته حربا فقال النبى صلى الله عليه وسلم :أرونى ابنى ما سميتوه ؟قلنا :حربا .قال : بل هو محسن »**(١) فنجده عليه السلام يغير الاسم لغلظ لفظه وشدة مفهومه ودلالته على القسوة والدم والألم . وأيضاً ثبت أنه صلى الله عليه وسلم غير أسماء لقبح معناها كما فعل مع ابنة عمر بن الخطاب فلقد كانت تسمى « عاصية » فسماها النبى جميلة (٢) .

ومنها رضاعة الولد وحضانته ولذلك يقضى الإسلام بوجوب إرضاع الطفل وجوباً على أمه إن تعينت له بأن لم يقبل سوى ثديها أو انعدمت المراضع

---

(١) أسد الغـــابة جـ ٢ ص ١٨ .

(٢) صحيح مسلم جـ ٦ ص ١٧٣ كتاب الآداب .باب استحباب تغيير الاسم القبيح .

غيرها . أو عجز الوالد عن دفع أجرة لمرضعة أخرى (١) . وفى هذا يقول تعالى :

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾(٢)

فان قوله تعالى : « يرضعن » خبر فى معنى الأمر (٣) والمعنى يجب على الوالدات إرضاع أولادهن . وهو فى الحالات المذكورة واجب تجبر الأمهات على تحمله . وفى غير هذه الحالات إن رفضت الأم إرضاع ولدها فعلى الأب أن يستأجر مرضعة ترضعه : لكنه لو أجر مرضعة بأجر معين ورضيت الأم أن ترضعه بمثل هذا الأجر فالأم أولى مراعاة لحدبها على الولد ومحافظتها عليه .

ومن التكاليف الموجهة إلى الوالد أن يستأجر حاضنة لولده تتولى تدبير ملبسه ونومه ونظافته . وقد وضع الشرع للحاضنة شروطاً تضمن صيانتها للولد فهى لابد أن تكون أمينة . ليست مرتدة . ولا زوجاً لأجنبى عن الولد . ولا مقيمة فى بيت من يكره الولد . وأن تكون ذات رحم منه . وأن لا تكون فاجرة فجوراً يضيع الولد .

ولما كان الولد فى هذا السن يحتاج إلى الحنان والعطف والشفقة فقد رأينا الإسلام يجعل حق الحضانة أولا لمحارم الطفل من النساء ويجعل أحق النساء أمه ويجعل القرابة بالأم مقدمة على حق القرابة بالأب . هذا فى الوقت الذى يلزم الوالد بدفع نفقة الحضانة فإذا ما شب الغلام ووصل إلى سن معينة لا يحتاج معها إلى تعهد النساء ورعايتهن فإن حق الحضانة يكون لأبيه . أو جده لأبيه . ويصبح أحق الناس بإيوائه حينئذ هم أقرب عصباته من الرجال يهذبونه ويثقفونه ويعلمونه الصناعة والعلم ومكارم الأخلاق (٤) .

وهكذا تحفظ الشريعة النسل وتصونه من الضياع .

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ٢٥٠ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٣٣ .

(٣) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٦٩ .

(٤) الأحوال الشخصية فى الشريعة الإسلامية ص ٤٠٤ — ٤٢٠ بتصوف .

رابعاً : نظـــام حفظ المال

المال عصب الحياة . وزينة الدنيا وأساس قيمة الأفراد والأمم . والحضارة والرفاهية ظل المال يتبعانه أينما كان . وهو من أجل نعم الله على عباده يصلح دينهم ودنياهم وبه امتن عليهم فقال تعالى :

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾(١)

وحب تملك المال غريزة بشرية ولذلك استخلف الله الإنسان فى التملك والسيادة على الأرض وقال :

﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ ﴾(٢) ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ ﴾(٣)

وأعطاه مولاه مع الاستخلاف حقوقاً كاملة فى الملكية تجعله مسئولا عن كل تصرف فيه إرضاء لغريزته وتحديد للمسئولية فى تصرفه .

وقد وضعت الشريعة الإسلامية نظاماً يحفظ المال نجمله فى ثلاثة أمور هى : —

الأمر الأول : إباحة الأسباب المشروعة للتملك .

الأمر الثانى : تقييد حقوق التملك .

الأمر الثالث : ربط المال المملوك بوظائف محددة .

وسنفصل هذه الأمور فيما يلى :

---

(١) سورة الكهف آية ٤٦ .

(٢) سورة الحديد آية ٧ .

(٣) سورة النور من آية ٣٣ .

الأمــر الأول

إباحة الأسباب المشروعة للتملك :

المال لا يأتى هباء لصاحبه ولا بدله من سعى وكفاح . وقد شرع الله أسباب تملكه وحث الإنسان عليها فأوجب العمل يقول تعالى :

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾(١)

وأشار إلى أن العمل مع وجوبه شرف وفخار لصاحبه فقال تعالى :

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٢)

والعمل الصالح فى هذه الآية وفى غيرها شامل للعمل الدينى والعمل الدنيوى لأن عموم اللفظ يشملهما والعبرة بعموم اللفظ والإنسان الذى يمكنه الله من العمل عليه أن يشكر نعمة الله عليه يقول تعالى :

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾(٣)

وطبيعة الخلق تحتم على الإنسان أن يستعمر الكون ويستغل كل جوانبه عاملا بالتجارة أو الصناعة أو الزراعة . قد مكن الله له فى الأرض وسخر له كل شىء . حتى يسهل عليه التمكين والمعاش يقول تعالى :

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾(٤)

وهكذا تؤكد طبيعة الكون أن على الإنسان أن يعمل ويكتسب ويعيش ويبيع ويشترى ويتبادل المنفعة مع الناس .

---

(١) الملك آية ١٥ .

(٢) فصلت آية ٣٣ .

(٣) يس آية ٣٥ .

(٤) الأعراف آية ١٠ .

كما أن الشريعة نظمت انتقال المال من إنسان إلى إنسان كالهبة والوصية والميراث وهكذا . وفى كتب الفقه تفصيلات عن كل هذا وغيره .

والمهم من كل هذا أن الإسلام يوفر حقوق الملكية للأفراد **بحرية وبلا حدود ما دامت لا تحقق ضرراً لأحد** . وهى حقوق تكفل لصاحبها دوام المال معه بشكل حقيقى بمعنى استمراره تحت يده حتى يستهلك أو بشكل اعتبارى كأن يستمر معه حتى ينتقل إلى الورثة وتكفل له حرية التصرف فى المال إيجاباً أو سلباً . وأن يمتلك ما يريد من الأنواع وما يستطيع كسبه من المقادير . وهذه الحقوق يحفظها الإسلام وينظمها ويصونها من الضرر .

الأمر الثـانى

تقييـد حقوق التملك :

فى أحيان كثيرة يكون المال فتنة لصاحبه يدفعه إلى الفساد والغرور والإضرار بالمجتمع وفى هذه الحال يكون المال سبباً للسوء والإفساد . كما حدث من المترفين حيث طغوا بكفرهم وتعالوا على الرسل واستبعدوا أن يلحقهم عذاب لأنهم أكثر مالا وولداً . . ومن هنا وضع الإسلام حول التملك قيوداً تحفظه من الانحراف والفساد .

ذلك أن حقوق التملك أربعة هى **حق الدوام** . **وحق حرية التصرف وحق حرية امتلاك النوع** . **وحق حرية المقدار** . وكل هذه الحقوق وضع الإسلام لها قيوداً تضمن حفظها .

فأما حق الدوام فانه لو أطلق لأدى إلى الطغيان والاستبداد وبسط فئة قليلة بلا حق على سائر الناس .

وقد قيد الإسلام دوام المال عند صاحبه فأوجب على الأغنياء أعباء مالية كثيرة يدفعونها لمستحقيها . ومنها الزكاة المفروضة التى تعم كل الملكيات والصدقات الواجبة والنافلة والضرائب التى يفرضها ولى الأمر عند الحاجة إليها . ومنها الكفارات التى يدفعها الأغنياء من أموالهم دفعا لإثم بعض الأخطاء التى يقعون فيها كالحنث فى اليمن والظهار وبعض حالات

الفطر فى رمضان وبعض المخالفات التى تحدث فى مناسك الحج . وكلها أخطاء تقع كثيراً فى حياة الناس .

ولعل أقوى تشريع فى توزيع المال وضمان عدم دوامه مكدساً فى يد واحدة نظام الميراث الذى يوزع المال توزيعاً عادلا . ويقسم التركة على عدد كبير من أقارب الميت رجالا ونساء . لتوسيع دائرة الانتفاع والكسب وبفضل هذا النظام لا تلبث الثروة الكبيرة أن تتحول إلى ملكيات صغيرة . وحتى يؤدى الميراث دوره بدقة حرم الإسلام كل إجراء يخل به فهو نظام إلهى محدد لا تتغير أسسه ولا تتبدل تفاصيله .

وقد ربط الإسلام قيوده لهذا الحق بالدين لأن الزكاة فريضة كالصلاة تماماً فى مقاصدها وأهدافها . والكفارات دفع لآثام ارتكبها من يدفعها . والميراث انتقال المال من الأصل إلى فروعه . وهذا الربط يجعل الإنسان يسلم بالقيود وينفذها كسباً للثواب فى الدنيا والآخرة . كما أنه يعطى لولى الأمر سلطاناً شرعياً فى تنفيذه أن أبى صاحبه كما فعل أبو بكر رضى الله عنه مع ما نعى الزكاة .

وأما حق حرية التصرف ايجاباً أو سلباً فقد قيده الإسلام بما يكفل عدم الإضرار بحقوق الآخرين من ذلك الحجر على السفيه والصبى والمجنون لأنهم يتلفون ثروتهم ويسيئون التصرف فيضرون أنفسهم وغيرهم . ومنه توجيه الناس إلى تنظيم بيوتهم وزراعة أراضيهم بشكل يتفق مع المصلحة . ومنه تحريم طرق الكسب غير المشروع لأنها تعتمد على الغش واستغلال الناس وابتزاز أموالهم بالباطل . فحرم الربا بجميع أنواعه يقول تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(١)

(١) سورة البقرة آية ٢٧٥ .

فهو سبحانه يحرم الربا ويبين أنه كسب ضائع يؤدى بصاحبه إلى الهلاك والنار . وحرم التطفيف فى الكيل والميزان يقول تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾(١)

ويقول عليه السلام : « **البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما(٢)** » .

وحرم احتكار الضرورات للتحكم فى أسعارها وقد أجاز الإسلام للقاضى أن يجبر المحتكر على بيع ما زاد عن قوته وقوت أهله على اعتبار السعر فى ذلك فان أبى انتزع منه المال وباعه عليه بسعر معتدل (٣) وهكذا قيد الإسلام تصرف المالك فى ماله حتى لا يجلب أى ضرر .

وأما حق حرية امتلاك النوع فقد قيده الإسلام بما يكفل المصلحة . فليس من حق المالك أن يملك مالا لا يحتاج إلى مجهود ما فى إخراجه . أو كان بحيث يحتاج إليه الجميع بشكل ضرورى وذلك كالماء والمرافق العامة. يقول عليه السلام : « **الناس شركاء فى ثلاث الماء والكلأ والنار(٤)** » وقد خص الحديث الأمور الثلاثة لأنها كانت ضرورات الحياة فى البيئة العربية ولا يستغنى عنه أحد . ويقاس عليها كل ضرورة اجتماعية كالمرافق العامة لأن الأفراد لو تملكوها لتحقق ضرر أكيد يقول الإمام الشافعى : « كل عين ظاهرة كنفط أوقار أو كبريت أو مومياء أو حجارة ظاهرة فى غير ملك لأحد فليس لأحد أن يحتجرها دون غيره ولا لسلطان أن يمنعها لنفسه ولا لخاص من الناس لأن هذا كله ظاهر كالماء والكلأ ولو تحجر رجل لنفسه من هذا شيئاً أو منعه منه سلطان كان ظالماً (٥) يقول القدورى « ولا يجوز إحياء ما قرب من العامر بل يترك مرعى لأهل القرية ومطرحا لحصائدهم (٦) .

---

(١) المطففين آية ١ — ٣ .

(٢) صحيح مسلم جـ ٥ ص ١٠ كتاب البيوع . باب الصدق فى البيع .

(٣) الحسبة فى الإسلام ص ٣٤ .

(٤) الفتح الربانى جـ ١٥ ص ١٣٢ .

(٥) الأم جـ ٣ ص ٤٥ .

(٦) متن القدورى ص ٨٣ .

ومن هنا منع الإسلام إحياء الأرض داخل العمران لانتفاع الجميع بها . أو إحياء الأرض خارج العمران ولكنها من المرافق العامة . ومن المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم حمى أرضا بالمدينة يقال لها « البقيع » ومنع الناس من تملكها لترعى فيها خيل المسلمين أجمعين (١) وفى زمن عمر رضى الله عنه حينما حمى أرضاً بـ « الربذة » جاء الناس قائلين : «يا أمير المؤمنين إنها بلادنا قاتلنا عليها فى الجاهلية وأسلمنا عليها فى الإسلام . علام تحميها ؟ فأطرق عمر ثم قال : المال مال الله والعباد عباد الله . والله لولا ما أحمل عليه فى سبيل الله ما حميت من الأرض شبرا (٢) »والحمى اقتطاع جزء من الأرض وجعله مرفقاً عاماً للجميع . وهناك أنواع من الأموال أهدر الإسلام قيمتها بالنسبة للمسلم وحرم عليه امتلاكها كالخمر والخنزير .

وأما حق حرية المقدار المتملك فإن الإسلام لم يقف فى طريقه إلا إذا أتى من وجه فيه شبهة فإذا ما تحقق وجود شبهة فى اكتسابه فان الإسلام يقضى بمصادرته حدث أن استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلا من الأزد يقال له ابن اللتبيه على الصدقة فلما قدم بها قال : هذا لكم وهذا أهدى إلى فقام النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال ما بال عامل أبعثه فيقول : هذا لكم وهذا أهدى إلى . أفلا قعد فى بيت أبيه أو فى بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا (٣) . ذلك لأن المال يجب أن يكون بعيداً عن كل شبهة فى تملكه لأن وجود الشبهة فيه مدعاة لمصادرته . وقد صادر سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أموال خالد بن الوليد (٤) وصادر نصف أموال عمرو بن العاص وهو فى مصر وكتب له . « ولكنكم معشر الأمراء قعدتم على عيون الأموال ولم تعدموا عذراً وإنما تأكلون النار وتتعجلون العار وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة فسلم إليه شطر مالك (٥)

---

(١) الأموال ص ٢٩٨ .

(٢) الأموال ص ٢٩٩ .

(٣) صحيح مسلم جـ ٦ ص ١١ كتاب الإمارة باب تحريم هدايا العمال .

(٤) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٢٧٦ .

(٥) نفس المصدر جـ ٣ ص ١٦٦ .

ولولى الأمر أن يوزع الأموال العامة بما يضمن للمجتمع نوعاً من العدل فى التوزيع ضماناً لاستقراره كما حدث لما أفاء الله على رسوله أموال بنى النضير فانه وزعها على الفقراء كيلا يكون دولة بين الأغنياء . وقد جعل الله مصارف ألفىء للصالح العام وللمحتاجين من الناس مراعاة لتوزيع المال بين أكبر عدد منهم يقول تعالى :

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾(١)

وألفىء الذى استولى عليه المسلمون من أهل القرى هو فى بنى النضير الذى وزع على الفقراء وحدهم . وقد أعطاه النبى لفقراء المهاجرين على الخصوص حيث أن أوصافهم المذكورة فى قوله تعالى للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم تبين استحقاقهم للفىء وانضواءهم تحت أنواع مستحقيه (٢) .

لكن الواضح أن صاحب المال إذا اكتسب ماله بلا شبهة وأدى الحق الذى عليه فإن حرية المقدار لا تتقيد .

ويجب أن يكون واضحاً أن قيود المقدار لا يصح أن تكون دائمة وعامة لارتباطها بمصلحة الجماعة ومصلحة الجماعة غير ثابتة .

---

(١) الحشر آية ٧ .

(٢) تفسير أبو السعود ج ٥ ص ١٥١ .

الأمــر الثالث

ربط المــال بوظائفه المحددة :

المال ليس غاية لذاته إذا حصل عليه المرء وقف عنده . ولكنه وسيلة لغايات تتعلق بمصلحة الفرد ومصلحة الجماعة . وهذه الغايات هى الوظائف . وقد عرف الشرع بها وأشار إليها . ومن هذه الوظائف أن ينفق الإنسان من ماله على نفسه وأسرته ولا خير فى مال لا ينفع صاحبه . هذا والإنفاق واجب يقول تعالى :

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾(١)

وكما نهى الله عن الإسراف نهى عن التقتير فقال تعالى :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾(٢)

ومن وظائف المال الزكاة وقد جعلها الله أحد أركان الإسلام وأشار إلى أنها حق الفقراء على الأغنياء وقضى لها أن تعم سائر المال سواء أكان نقداً أم عقاراً أم ذهبا أم تجارة ، وقضى لهـــا أن تعم عدداً وفيراً من المحتاجين المحددين فى كتاب الله تعالى :

ومن وظائفه كذلك دفع الضرائب التى يقدرها الحاكم المسلم تبعاً للحاجة وذلك مشروع ، والفرق بين الزكاة والضريبة أن الزكاة فريضة دينية محددة المقدار . تؤخذ من المال إذا بلغ نصاباً وتصرف لأصناف معينة من الناس أما الضريبة فهى ليست فريضة وليست محددة وليست مرتبطة بمقدار

---

(١) الأعراف آية ٣١ .

(٢) الإسراء آية ٢٩ .

مالى أو بصنف يحتاجها وإنما تدور فى كل ذلك مع الضرورة . ومن هنا فان الزكاة والضريبة لا ينوب أحدهما عن الآخر .

ومن وظيفة المال كذلك الصدقات وهى ليست فرضاً ولا محددة وإنما هى مال يسخو به نفس صاحبه لينفقه فى سبيل الله طمعاً فى الثواب والأجر يقول تعالى عن هذا النوع من البذل .

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١)

وربط المال بهذه الوظائف يطهره من الشح والغى وينجيه من الحسد والكراهية ويساعد على حفظه ونمائه .

وهكذا حفظت الشريعة المال .

---

(١) البقرة آية ٢٦٢ .

خامساً : نظام حفظ العقل

العقل من أعظم النعم الإلهية على الإنسان وهو ميزته على سائر المخلوقات به يفكر ويفهم ويدرك ويتصور . وعلى هداه يعرف الحق ويعلم الصواب ويصل إلى الحكمة . وقد عنت الشريعة بالعقل ، فأعطته قدره ، وأحاطته بما يوفر له القيام بوظائفه وذلك على النحو التالى :

أولا : تقدير العقــل :

يثق الإسلام فى العقل ثقة تامة ، حيث وجه الدعوة إليه ، وخاطبه بالتكاليف وأبرز له الأدلة الموصلة إلى الحق ، وجعله موطن العقيدة وأساس الدين يقول أبو الحسن البصرى : « ينبوع الآداب هو العقل الذى جعله الله للدين أصلا وللدنيا عماداً (١) » وقد نزل القرآن عربياً ومفصلا من أجل أن يلائم عقول من نزل فيهم يقول تعالى :

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٢)

وقد وصل تقدير الإسلام للعقل أن تركه وحده يفكر ويؤمن ، ولم يشغله بالمعجزات الحسية ، وناداه بأن يترك تقليد السابقين ، واتباع الكهان ، ذلك لأن التقليد أو الاتباع كلاهما مضاد للعقل . ولا ينفع فى الإيمان . كما أن الإسلام أعطى للعقل حق النظر والتدبر فى كافة الشئون الدينية والمعاشية وترك له الاجتهاد ينطلق به إلى كافة الجوانب . يعلمها . ويصل بها إلى الصواب (٣) .

ثانياً : إحاطة العقل بالحــرية :

يصون الإسلام حرية العقل حتى يقوم بوظائفه حسب طاقته بلا قهر له أو إجبار ، فضمن له الحرية الدينية . يقول تعالى﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾(٤)

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٣ .

(٢) يوسف آية ١ .

(٣) انظر نظرة الإسلام للعقل فى موضعه من الكتاب .

(٤) سورة البقرة من آية ٢٥٦ .

وكفل له حرية البحث والعلم فى كافة الميادين ، وأعطاه الحرية السياسية والمدنية ، يساهم بها فى اختيار الحاكم . وينقده . ويناقشه ويتخير بها عملا ودراسته .

وفى إحاطة العقل بالحرية سيأتى مزيد تفصيل (١) .

* * *

وهكذا رأينا كيف أن الدعوة الإسلامية حفظت الضرورات الخمسة تحقق أسمى المقاصد . وأشرف الغايات .

ومن أجل أن تحفظ مقاصد الدعوة نجد القرآن الكريم ينادى بها كثيراً . لأنه لا فرق بين الدعوة والمقاصد فهما شىء واحد متكامل . والدعوة بدون مقاصدها لا تكون فهى لم تنزل مجردة كما أن المقاصد لا توجد من غير سبيل الدعوة .

---

(١) انظر الفصل الثالث من الباب الثالث .

الفصل الثالث

عناية الله بالدعوة الإسلامية

الدعوة الإسلامية إلهَية المنبع ، نزل بها الوحى الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى أوائل القرن السابع الميلادى ، لتكون ديناً شاملا للعالم كله . ومستمرا على طول الزمن ، وعلى الرغم من أن القوى العظمى يومذاك هى الفرس والروم . فقد اختار الله لها أن تظهر على يد رسول عربى نشأ بين قومه العرب وأظهر دعوته أولا بين أهله ، وكل ذلك حكمة دقيقة أحاطت بالدعوة ، فكفلت لها الانتشار المطلوب ، ولا عجب فإن الله سبحانه وتعالى:

﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ وهو سبحانه الذى ﴿ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ وهو سبحانه ﴿ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ وهو سبحانه ﴿ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾.

ونحن نوقن بأن حكمة الله لا يدركها بشر . وفى نفس الوقت نلمس أن فى مقدور البشر أن يعلموا شيئاً من هذه الحكمة ، خاصة بعد ما تنكشف بعض أسرارها .

والناظر فى واقع الدعوة الإسلامية من خلال أحداثها الأولى يرى العناية الإلهَية واضحة فى اختيار أرض الجزيرة العربية مكاناً لظهور الدعوة فيها أولا ، وواضحة كذلك فى اختيار الأمة العربية لحمل أمانة الدعوة ، وواضحة أيضاً فى اختيار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ، ليكون رسول الدعوة ومبلغها إلى الناس ، وواضحة أيضاً فى اختيار أوائل القرن السابع الميلادى لتظهر فيه هذه الدعوة .

لقد أظهر الواقع الذى مضى زمنه قيمة هذه الاختيارات للدعوة

الإسلامية ونحن ندرس هذه الاختيارات من واقع تطبيقاتها ، وعلى ضوء ظهور النظريات العلمية الحديثة التى تحاول أن تفسر التطور البشرى . وعوامل التأثير فيه وسوف يشمل هذا الفصل النقط الأربع التالية :

١ — اختيار مكان ظهور الدعوة .

٢ — اختيار زمان الدعـــوة .

٣ — اختيـــار أمة الدعوة .

٤ — اختيار رسول الدعوة .

وذلك على النحو التالى :

(١)

اختيار المكان لظهور الدعوة :

اشتهرت مكة منذ القديم بوضعها الخاص المتميز عن سائر المدن ، وقد حفظ العرب لها هذه المنزلة فأحاطوها بما يليق بها عن حب وعناية وتقدير فهى عندهم « أم القرى » وأصل المدائن وبها الكعبة المشرفة التى تحمل فى ثناياها ذكرى ابراهيم عليه السلام وترمز إلى الخير المبارك من الله تعالى .

ولقد توارث العرب منذ القديم حقيقة هى أنهم بسبب الكعبة فى أمن وشبع لدرجة أنه لما ضاق الأمر ببنى اسماعيل وجرهم وهم فى مكة تفسحوا فى البلاد وأخذوا معهم بعضاً من حجارة الحرم يعظمونه ويلتمسون فيه الخير تعظيماً للحرم وصبابة بمكة (١) ، وكانوا يعتقدون أنه ما من ظلم يقع بمكة إلا وتنزل العقوبة بالظالم أيا كان . وكثيراً ما حذرهم حكماؤهم لهذا . ومن كلام مضاض بن عمرو بن الحارث لقومه جرهم : « **إياكم والإلحاد فيه (الحرم) فإنه بوار وأيم الله لقد علمتم أنه ما سكنه أحد قط فظلم فيه والحد إلا قطع الله عز وجل دابرهم واستأصل شأفتهم (٣)** »

وكان الاهتمام بالكعبة مظهراً من مظاهر السيادة والشرف ولم يتم الأمر لقصى إلا بعد تملكه لمفتاح الكعبة بسبب زواجه من حبي بنت ابن حبشية (٣) ، ولبراعته بدأ سيادته فى مكة بتجديد بناء الكعبة وتسقيفها بخشب الدوم وجريد النخل (٤) ، وكان العرب جميعاً فى الجزيرة يفهمون لمكة وللكعبة هذه المكانة فيحيطونها بالجلال والتقدير ، ويذكرون دائماً أن أهل مكة أهل الله . ولم يندهشوا كثيراً يوم هلك « أبرهة » وجيشه فى

---

(١) أخبار مكة جـ ١ ص ٦٦ .

(٢) نفس المرجع جـ ١ ص ٤٦ .

(٣) سيرة النبى (ص) جـ ١ ص ١٣٠ .

(٤) بلوغ الأرب جـ ١ ص ٢٣٢ .

مكة بل قالوا : **أهل الله دافع الله عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم** ولم يزدادوا **إلا تعظيماً لساكنيها** (١) .

ولقد أدت هذه المفاهيم والأحاسيس إلى خلق نزعة دينية عند سكان مكة كثرت فيهم أكثر من غيرهم فى سائر البلدان .وما تمسك العربى المكى بصنمه سواء أكان مقيماً أم مسافراً . عند الكعبة أو فى بيته أو فى عمله . إلا محاولة لإشباع هذه النزعة . صحيح أن تفاهة معتقدهم جعلت العبادة للصنم لاتلمس شغاف قلوبهم ، وكيف تلمسه . والجميع يعتقدون أنالأصنام وسائط للإله الأكبر . وفى إمكان العربى أن يصنع معبوداً فى وقت قصير . لكنهم مع فهمهم هذا أبقوا على الأصنام ولم يتركوها إشباعاً لنزعتهم وحماية لها من العدم . هذا التقدير لمكة كان أحد أسباب اختيارها لظهور الدعوة كما أن الموقع الجغرافى للجزيرة على العموم ولمكة على الخصوص ساعد على نشر الدعوة وإبلاغها على النحو التالى :

أولا : تقع مكة والحجاز بوجه عام فى نطاق منطقة الحرارة القصوى . ويرجع الجغرافيون ذلك إلى أن قسما كبيراً من الجزيرة العربية يقع فى منطقة الزهو المدارية ذات الضغط العالى والمطر القليل . والقسم الآخر يقع فى حيز الرياح التجارية الشمالية الشرقية الجافة التى تزداد حرارتها كلما تقدمت إلى الجنوب (٢) ولقد أدى هذا الوضع إلى حالة جدب شديدة نشأت من قلة المطر وندرة سقوطه لدرجة أنه لا يسقط المطر فى بعض أماكن الجزيرة إلا كل ثلاث سنوات أو أربع . وبجانب قلة المطر لا توجد أنهار فى الجزيرة تمد الأرض بالرى وتعطى للناس معاشهم وأسباب الحياة . هذا الجدب الصعب جعل الناس يتجهون إلى السماء ضاجين بالاستغاثة ضارعين بالدعاء كما جاء فى القول الفصل من أن العرب تأتيهم الأمطار فى أوقات وتنقطع عنهم فى غيرها فكانوا لذلك شديدى التعلق بها وتراهم كثيراً ما يقلبون وجوههم فى السماء وذلك من أعظم المذكرات التى تذكرهم بالله وحاجتهم

---

(١) سيرة النبى (ص) ج ١ ص ٥٩ .

(٢) الشعراء الصعاليك ص ٦٢ .

إليه (١) خاصة وهم يعرفون أن الله هو مصدر الرزق وسبب الخلق كله .
وكثيراً ما مر عليهم سحاب واختفى ولمع فى السماء برق وانطفأ لكنه دائماً يترك فى نفس العربى عواطف ملتهبة تدور حول الألم والأمل . الألم من رهبة شره والأمل فى إنزال مطره . هذه العواطف صورها القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾(٢)

فكانوا يخافون على أنفسهم وعلى الرزق الموجود عندهم من البرق ويطمعون فى أن ينزل عليهم مطر يأتيهم برزق جديد ، وقدمت الآية الخوف على الطمع لأن الخوف كان على رزق متيقن وهو فى أيديهم والطمع كان فى رزق يتمنون إتيانه وشتان بينهما (٣) وهكذا جمع البرق للعربى بين الطمع والخوف . يقول المتنبى :

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى
يرجى الحيا منه ويخشى الصواعق (٤)

وعرفه بالله تعالى كذلك وهو ينظر إلى السماء يرقبها وينتظر خيرها فلم يكن جديداً عليه أن يدعى إلى الإيمان بالله والإسلام له .

وثانياً : فإن حالة الجدب المذكورة جعلت الغالبية فى العرب بعيدة عن الترف والنعيم منغمسة فى الفقر والحاجة . وهذا الوضع بدوره جعل الطبقة الثرية قليلة العدد مشهورة بالاستعلاء على الناس والاستغلال لبقية الفقراء والمحتاجين وكان من مفاسدها أن نشرت الربا الفاحش فى مكة وجعلت الفائدة أضعاف المال الأصلى وقد صور القرآن ذلك بقوله تعالى وهو ينهى المؤمنين عنه .

---

(١) القول الفصل جـ ٢ ص ١٤٦ .
(٢) سورة الرعد آية ١٢ .
(٣) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ١٠٠ .
(٤) مفاتيح الغيب جـ ٥ ص ١٣٩ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾(١)

يقول الزمخشرى : كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله زاد فى الأجل حتى يستغرق بالقدر الطفيف مال المدين كله (٢) . وأيضاً فلقد أطبق أغنياء مكة على جميع الشئون الاقتصادية بها فاشتروا الرقيق واستعبدوا الفقراء فى توجيه قوافل التجارة الضخمة . وهذا وضع يجعل الفقراء يستجيبون تلقائياً لدعوة عادلة قائمة على المساواة وتحريم الظلم وإحساس الفرد أياً كان بحقه وواجبه ويندفعون إلى مساعدة هذه الدعوة التى تمنوها لخلاصهم واستشعروها من قبل فى أنفسهم وخيالاتهم . ومن هنا كان الفقراء ينصتون للدعوة ويتدبرونها وهو شأنهم دائما . أما المترفون الأثرياء فهم أعداء كل إصلاح وهم معارضو الرسالات دائماً حفاظاً على وضعيتهم واستغلالهم . وقد اصطدم النبى صلى الله عليه وسلم من أول يوم بالمترفين يعارضون ويعاندون ورأى الفقراء يؤمنون ويتبعون قال تعالى تسلية لرسوله :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾(٣)

فهم يكفرون بما يأتيهم من غير سند نقلى أو عقلى وإذا سئلوا عن ذلك قالوا ما حكاه القرآن عنهم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾(٤)

فتراهم يهربون من الإجابة إلى تمسكهم بالتبعية والتقليد وإلغاء النظر والتفكير ومع ذلك يستعملون قوتهم فى الضغط على الفقراء المستذلين .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣٠ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٤٦٣ .

(٣) سورة سبأ آية ٣٤ .

(٤) سورة الزخرف آية ٢٣ .

ولولا موقف القلة المترفة فى مكة لدخل الجميع فى الإسلام من أول لحظة لكنهم وقفوا وصدوا غيرهم عن الإيمان بالتخويف والإيذاء متمسكين بما ورثوه عن آبائهم يقول الرازى : إن الداعى إلى التقليد هو حب التنعم والشهوات والكسل وبغض تحمل المشاق فى النظر والاستدلال وكلها صفات المترفين (١) .

وأيضاً فقد أدى هذا الحدب إلى تقليل الطبقة المترفة التى سرعان ما انهارت أمام الدعوة فدخل الناس فى دين الله أفواجاً بعد الفتح . يقول ابن خلدون : إن الترف يبدو فى بدايته قوة لكنه فى النهاية ضعف يمضى ولا أثر له (٢) وبالفعل ضاعت الطبقة المترفة ولم يبق لها أثر وآمن الفقراء والضعفاء .

وثالثاً : لقد أدى هذا الجدب بالعرب وأهل مكة إلى أن يبحثوا عن وسيلة للعيش فكانت التجارة وقد نظموها فى رحلتين إحداهما إلى الشمال صيفاً ، وثانيتهما إلى الجنوب أثناء الشتاء . وأدى اختلاط التجار العرب بالروم والفرس والهنود والأحباش خلال جولات التجارة أن أخذوا كثيراً من نظمهم ونقلوها إلى الجزيرة العربية وقد اشتملت الحياة العربية على سائر النظم والعقائد العالمية ، حتى قال البعض أن دار الندوة بنظامها منقول عن البلاط الرومانى . كذلك تعلم العرب فن الكتابة من هذا الاختلاط (٣) . وأيضاً نقلوا كثيراً من معتقدات هؤلاء الناس لدرجة أن سائر المعتقدات كان لها وجود عند العرب حيث كان فيهم الدهرية وعبدة الأصنام والأوثان وعبدة الحيوان والنار والكواكب . كما وجدت المسيحية واليهودية والمجوسية مع العرب ، فى اليهود النازحين أو الرقيق المجلوب للتجارة أو للخدمة . وقد أدى احتواء بلاد العرب لسائر النظم والمعتقدات أن بدت تعاليم الإسلام وهى تواجه العرب كأنها تواجه البيئة

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ٤٣٩ .

(٢) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٤٩٢ .

(٣) بلوغ الأرب جـ ٣ ص ٣٦٨ .

العالمية كلها عن طريق هذا التمثيل ولو بعدد قليل . ويلاحظ أن مكة على الخصوص ضمت بينها هذا العدد العديد من الملل والأعراف بسبب وقوعها فى مكان تلتقى فيه جميع الطرق الآتية من كل الجهات . فالطريق الغربى الذى يبدأ من ظفار جنوباً وينتهى عند تيماء يمر بمكة والطريق الشرقى الذى يبدأ من ظفار جنوباً وينتهى عند « صور » بسوريا يتصل بمكة بواسطة طريق عرضى يبدأ من مكة وينتهى عند«القطيف » ، (١) وتتصل مكة أيضاً بالبحر الأحمر عن طريق مينائها « جدة » وبذلك كانت مكة معبراً رئيسياً للقوافل الآتية من الشمال أو الجنوب فتأثرت بأوضاعهم وكأن الله أودع فى بيئة الدعوة الأولى ما جعلها كبوتقة ضمت كل عناصر البشر ومكوناتهم من يومذاك إلى يوم القيامة .

وهذا الأمر ساعد على وضع الأسس الإصلاحية التى لاتختلف من مكان إلى مكان وتناسب كل الأجناس وتناقش كل المعتقدات على اختلافها وليتحقق أخيراً ما أراد الله من بروز دين الحق وإظهاره على الدين كله ولو كره المشركون . ومن هنا نزل القرآن فى مكة والمدينة ومع ذلك تحدث عن البحر والقصور والحديد . وتكلم عن أجناس الناس والمترفين وأشار إلى مجادلات الدهرية والنصارى واليهود وعبدة الأوثان والأصنام إصلاحاً للموجود منها فى مكة وعلى مثيله يصلح العالم كله .

و — رابعاً — فإن التأخر الاقتصادى فى الجزيرة تسبب فى وجود طبقة عرفت بطبقة الصعاليك وقد اتخذت هذه الطبقة لنفسها مراكز فى الخلاء الواسع ومنه تغير لتنهب وتسرق لتعيش بسبب أنها كانت تعيش فى ضنك دائم وجوع مستمر (٢) . ووجود هذه الطبقة دليل على ضيق موارد الجزيرة ببنيها حتى مع وجود التجارة . ومن هنا نستطيع فهم السبب فى الهجرات التى خرجت من الجزيرة العربية فى أفواج متتابعة . وقبيل الإسلام حاول الكثير من أبناء الجزيرة أن يهاجروا منها بحثاً عن الكسب وهرباً من الفقر

---

(١) الشعراء الصعاليك ص ١٢٥ .

(٢) الشعراء الصعاليك ص ١٣٤ .

والحاجة إلا أن ثقل القوة فى العالم وتمركزها آنذاك فى دولتى الفرس والروم اللتين استوليتا على جميع الجهات المحيطة بالجزيرة العربية حبست القبائل فى مكامنها المضطربة . الأمر الذى أدى إلى توسيع هوة الخلاف بين القبائل بسبب القنص والصعلكة فقامت المنازعات المتكررة بينهم وعجزوا عن تأسيس قوة سياسية موحدة لها نظامها الواحد وجيشها المسلح . وكان لكل قبيلة نظام يختلف ولو نسبياً عن نظم سائر القبائل .

وقد استفادت الدعوة الإسلامية من هذا الوضع فلم تصطدم بتكتل واحد يطغى بقوته بل كان هناك دائماً صوت مع النبى صلى الله عليه وسلم من القبائل أثناء ضعف المسلمين وقلتهم . واستفادت الدعوة كذلك بأن صفت ما بين العرب من خلاف وأزالت الاضطرابات الموجودة فيهم فتوحدوا . ثم عمقت عندهم فكرة الدين وخاطبت عقولهم وأرواحهم حتى خالطت شغاف قلوبهم فشعروا أنهم بها قوة يتمكنون من السيطرة على أنفسهم وعلى الحياة من حولهم مع التخلص من كثير من أسباب فقرهم وحاجتهم . وبذلك خلقت الدعوة للرجل العربى اتجاهات جديدة وعلمته مناهج السلوك الممتاز مما جعله يحمل الدعوة مؤمناً بها ومنطلقاً بكل خصائصه ليبلغها إلى كل مكان فى العالم (١) .

و — **خامساً** — تعتبر الجزيرة العربية بموقعها الجغرافى سرة العالم لأنها تقع فى وسطه وتتصل بكل أجزائه وأقاليمه ففى شرقها توجد الدولة الفارسية . وفى شمالها توجد الدولة الرومانية وفى غربها توجد مصر والحبشة وفى جنوبها توجد الهند وغيرها ، وقد ساعد على التغلب على عوائقها الطبيعية من مرتفعات وبحار أن العربى كان على خبر كامل بشعابها وطرق مواصلاتها فكثيراً ما جابها راكباً إبله فى قوافل التجارة وأسواق العرب . وأيضاً فلقد ركب العربى البحر إلى الهند والحبشة ولذلك لم تقف هذه الموانع الطبيعية أمام إرادة العربى إذا أراد أن يخرج منها إلى العالم . ومن هنا سهل

---

(١) من بحث للدكتور حزين قدمه للمؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية .

تبليغ الدعوة من مكة إلى العالم بإرسال الرسل والكتب واستقبال الوفود وبعث الجيوش إلى كل مكان من غير جهد أو عناء .

و —سادساً— أحيطت الجزيرة العربية بحواجز طبيعية منيعة إذ وجدت المياه فى ثلاث من جهاتها والجهة الرابعة كانت مرتفعات فى الشمال . وهى حواجز تحتاج فى عبورها إلى تدريب وتمرس شاق ما تعلمها العربى إلا لحاجته. أما غيره فليس له إلى ذلك حاجة وبذلك وقفت هذه الحواجز كسد قوى أمام المجموعات الغازية من الفرس أو من الروم ولم تمكنهم من اختراقها فعاشت الجزيرة تبعاً لهذا بعيدة عن الخضوع لسيطرة الفرس والروم عسكريا أوعقائديا (١)وكثيراً ما حاول الفرس والروم الوصول إليها فى وسطها لكنهم عجزوا فاكتفوا بالاستيلاءعلى أطرافها فى الجنوب والشمال وإرسال الجواسيس إلى مكة كعاملين فى بيوت تجارية من قبل الدولة الرومانية أو الأحباش(٢) .

وقد ترتب على منع الغزاة من الوصول إلى سرة الجزيرة العربية آثار هامة حيث احتفظ العربى بسجيته وفطرته ولم تداخله تناقضات الفكر ولا متاهات الفلسفة والجدل . وكذلك اهتم بقوميته فأحيا الشعور الحاد تجاهها فى كل أرجاء الجزيرة وانتهز الفرص لإعلانها فلما كان يوم قدوم أبرهة بجيشه الذى قصد مكة فى أول محاولة عسكرية ضدها تصدى له فى الطريق منذ خروجه العرب فى البوادى لأنهم شعروا أنه بتوجهه إلىالكعبة ومكة موجه ضد مشاعرهم ومناسكهم فى نفس الوقت .

يقول الأزرقى : إنأبرهة لما خرج بجيشه يريد البيت الحرام خرج له رجل منأشراف اليمن وملوكهم يقال له «ذونفر»فدعا قومه ومن أجابه إلى مجاهدة « أبرهة » وقتاله لكنهم انهزموا (٣) وفى منتصف الطريق عند « خثعم » تصدى له نفيل بن حبيب الخثعمى وقبيلته لكنهم انهزموا كذلك . ولما وصل أبرهة إلى مكة وهلك جاءت التهنئة لأهل مكة من كل مكان تحمل

---

(١) حياة محمد ص ٧١ .

(٢) أسواق العرب ص ٢٥ .

(٣) أخبار مكة ج ٤ ص ٨٧ .

أشعاراً مطولة أوردها مؤرخوا السير (١) . ولقد وقف العرب ضد حملة « أبرهة » لمعرفتهم أن القصد منها ليس هو تأديب من عبث بـ « الكُلّيْس » والانتقام لها ولكن المقصود هو الاستيلاء على مكة والإفادة بما تدره تجارتها (٢) .

ومن هنا كانت المجابهة العربية ضد الحملة قومية شاملة لعرب اليمن والأعراب فى البوادى ولأهل مكة . وفى أكثر من موقف ظهر هذا الشعور القومى ففى يوم طرد الأحباش من اليمن وعودة الملك إلى « حمير » عمت الفرحة سائر الجزيرة العربية يقول الأزرقى : إن وفود العرب جميعاً خرجت لتهنئة « سيف بن ذى يزن » فخرج وفد قريش ووفد ثقيف وعجز هوازن وهم نصر وجشم وسعد بن بكر ومعهم وفد عدوان ووفد غطفان ووفد تميم ووفد قبائل قضاعة والأزد (٣) . وقد ساعد على نمو هذا الشعور القومى واستمراره شعور العربى بأن الروم والفرس يرقبونهم وينتظرون فرصة يهتبلونها ضدهم .

وأيضاً فقد خلط العرب هذا الشعور القومى بنزعتهم الدينية وتجارتهم وأعمالهم وأبرزوه فى عمل ملموس يرتبط بمكان معيشتهم ويدور مع الزمن بانتظام حيث جعلوا من أشهر السنة أربعة أشهر يحرم الصراع فيها . وأثناء هذه الأشهر تقام الأسواق حول مكة فتختلط التجارة وهى عملهم ، بالحج وهو عقيدتهم ، بالشعر والخطابة وهما رمز قوميتهم وفخرهم ، جاء فى أخبار مكة أنه « إذا جاء موسم الحج خرج الناس إلى مواسمهم فيصبحون بـ « عكاظ » يوم هلال ذى القعدة فيقيمون عشرين ليلة تقوم فيها أسواقهم بعكاظ والناس يبيعون ويشترون فإذا مضت العشرون انصرفوا إلى « مجنة » فأقاموا بها عشرا أسواقهم قائمة فإذا رأووا هلال ذى الحجة انصرفوا إلى ذى المجاز

---

(١) كثير منها فى سيرة النبى (ص) جـ ١ ص ٥٩ — ٦١ .

(٢) التاريخ الإسلامى العام ص ٤٩ .

(٣) أخبار مكة جـ ١ ص ٩٤ — ٩٦ .

فأقاموا بها ثمان ليال أسواقهم قائمة ثم يخرجون يوم التروية إلى عرفة آخر أسواقهم (١) . وكان القصد من إقامة هذه الأسواق فى موسم الحج وقرب مكة هوحضور أكبر عدد من سكان المناطق النائية لكىيزودوهم بالشعر القومى والنماء الاقتصادى ويؤكدوا الرابطة بين سائر العرب . وفى خلال الأسواق كانت تقام المسابقات الأدبية حيث يتبارى الشعراء والخطباء فى مفاخر قبائلهم وسمو لهجتهم تحت شعار الأمن والسلام الذى حتمته الأشهر الحرم . وقد أدى كل هذا إلى تقوية النزعة القومية وإلى تقوية النزعة الدينية يتجلى هذا بوضوح فى تقارب اللهجات واتحاد العرب فى لغة واحـــدة وفى وضع الأصنام متجاورة فى مكان واحد .

وهذا كله أفاد الدعوة الإسلامية إذ تمكنت من صهر النزعة الدينية عند العرب وتحويلها إلى معبود واحد . كما أن النزعة القومية أعطت العرب روح الغيرة والحماس والاندفاع تبعاً لمشاعرهم . وبالدعوة تحولت هذه الخصائص إلى مصلحة الإسلام وفى خدمته وأيضاً فإن بعد الروم والفرس عن وسط الجزيرة مكن الدعوة من النمو التدريجى على سنة البشر قبل أن تتمكن أى قوة من قهرها أو كبتها .

هذا ، ولو قارنا سائر الأماكن بالمكان الذى اختير لظهور الدعوة لوجدناها غير صالحة لأن تظهر الدعوة فيها ، فالفرس والروم ملكا قوة سياسية وعسكرية أخمدا بها كثيراً من الثورات فى عنف وقسوة كما أن نظام الطبقات فيهما جعل الرجل العادى يفقد شعور الحماس تجاه الدولة ويتمنى زوالها فى وقت لايملك فيه نزعة إلى شىء ما ، كما أن سائر الأمم فى هذا العصر كانت مهتمة بأفكار دينية خاصة بها ولم يحدث أن جمعت واحدة منها ما جمعته الجزيرة العربية من مختلف الملل والعقائد كما أن كافة البيئات حرمت أبناءها من النشاط الذى اكتسبه العربى بسبب خصائص بيئته . وأيضاً فإن النزعة الدينية كانت راقية عند العرب بسبب مكة والكعبة كما أن الجزيرة العربية تقع فى وسط العالم المعروف آنذاك مع صيانتها بالحواجز .

---

(١) نفس المرجع ج ١ ص ١٢١ — ١٢٢ .

وأخيراً نقول : إن المكان الذى ظهرت فيه الدعوة أحاطه الله بمجموعة من الظروف الطبيعية جعلته مكاناً ملائماً للدعوة الخاتمة العامة للجميع ، ومن المستحيل أن تجتمع هذه الظروف فى بيئة أخرى من كونها وسطاً ، ومحصنة ودافعة بنيها إلى الهجرة والتأمل وتكوين نزعة دينية وإحساس أخوى سليم يفيد الدعوة تماماً . وقد كان ، فتحولت النزعة إلى عقيدة ونظم الشعور الأخوى فى قوة انطلقت دفاعاً عن الدعوة وفى خدمتها .

(٢)

الاختيار الزمانى للدعـــوة :

فى أوائل القرن السابع وعلى حين فترة من الرسل ظهرت الدعوة الإسلامية هداية للناس أجمعين وخاتمة لكل الرسالات . وحكمة الله تعالى التى تجلت فى اختيار المكان الأول لظهورها تدفعنا إلى البحث عن بعض مميزات هذا الزمان لنعرف السبب الذى من أجله ظهرت الدعوة فيه خاصة وقد علمنا أحوال ذاك العصر فى العالم كله والله أعلم حيث يجعل رسالته ، والعلم يتعلق بسائر الحيثيات التى تحتاجها الدعوة لكى تصل إلى هدفها ومن بين هذه الحيثيات المختارة الزمن الذى ظهرت فيه وقد تميز بالخصائص التالية :

أولا : تعـــدد الصراع :

ساد العالم فى هذا الزمان صراع عام فلم تخل أمة أو منطقة منه سواء كان الصراع بين عناصر الأمة الواحدة أو بينها وبين غيرها . وأهم ما تميز به هذا العصر هو تكرار الصراع تكرراً متلاحقاً فمنهزم اليوم ينتصر غداً وهكذا دواليك من غير توقف . وغالباً ما كان الصراع بسبب سياسى أو اقتصادى أو دينى تبعاً لاختلاف البيئات فى البيئة العربية لم ينشأ صراع بسبب السلطة خاصة بعد أن وزع « قصى » الأعمال بين القبائل وجعلها فيهم وراثية ، وإنما كان صراع العرب بسبب الاقتصاد فى أكثر الأحيان .

وفى البيئة الرومانية كان سبب الصراع ينحصر فى الدين والسياسة وفى الفرس كان السبب هو الدين وفى الحبشة كان السبب كذلك هو الدين وفى الهند كان السبب هو نظام الطبقات المعروف فيهم . إلا أنه مع تنوع أسباب الصراع فان هناك أسباباً كانت موجودة فى سائر الأمم من أمثال **ظاهرة الرق التى أخذت** شكلا عاماً وسادت العالم كله وأوجدت بين الناس طبقة مستذلة لا تملك من أمر نفسها شيئاً وتباع وتشترى كالحيوان والمتاع تماماً، وقد انتشرت أسواقهم فى العالم كله وتعمقت هذه الظاهرة بعـــد أن أخذت الطابع المقدس فى كثير من الأقاليم .

وساد الصراع الداخلى سائر الأمم . ففى الدولة الرومانية الشرقية قامت ثورات عدة أشهرها ثورة الزرق والخضر فى أثناء حكم جستنيان سنة ٥٣٢م التى طالبت بإقصاء وزير المالية وإجراء تعديلات كثيرة . وقد قضى جستنيان على هذه الثورة بإرهاق دماء كثيرة وصلت إلى قتل خمسة وثلاثين ألفاً(١)

وفى الرومانية الغربية نشأت دولة جرمانية وقامت ثورات عدة وحروب كثيرة من أشهرها فى بلاد الغال « فرنسا » حيث ظهر الصراع بين كلوفسى وسيجاريوس والثورنجيين والبرجنديين واللاليمان (٢) وكان هناك صراع فى إيطاليا (٣) وبين البربر فى شمال أفريقيا (٤) .

وبين العرب كانت أيامهم كيوم داحس الذى استمر مدة طويلة . وكذلك حرب حاطب بين الأوس والخزرج وقد استمرت إلى قبيل الإسلام . وفى فارس كان الصراع مستحكماً بين أفراد البيت الواحد، بين الأب وبين الابن . ومما ساعد على ازدهار الصراع فى الفرس ظهور مذهب « مانى » القائم على الشيوعية المطلقة .

ومع الصراع الأقليمى وجد الصراع الدولى بين الفرس والروم إذ كانت الحرب مستعرة بينهما على الدوام فى أطراف الجزيرة العربية جنوباً فى اليمن وشمالاً بين الغساسنة والمناذرة .

إن الصراع بكافة أشكاله وصوره يؤدى حتما إلى تغيرات اجتماعية سواء كانت هذه التغييرات متجهة إلى التقدم أو إلى التأخر . وقد سلم علماء الاجتماع بضرورة هذه التغييرات(٥) . إلا أنها تتجه عندهم فى النهاية إلى التطور والتقدم . يقول إيمانول كانت : إن القوة التى تدفع التاريخ إلى التطور هى الصراع ، وهيجل يرى أن التعارض هو أهم العلاقات الإنسانية وأن حركة التطور

---

(١) الإمبراطورية البيزنطية ص ٦٠ — ٦٣ .

(٢) المسلمون والجرمان ص ٣٧ .

(٣) نفس المرجع ص ٣٠ .

(٤) نفس المرجع ص ٢٥ .

(٥) أصول علم الاجتماع ص ٢٢٠ .

الاجتماعى ما هى إلا النماء المستمر للأضداد ثم اندماجها فى النهاية لإيجاد مرحلة من التطور (١) .

ومن التغييرات التى يمكن أن تحدث بعد أى صراع ظهور قوى جديدة وبروز أفراد يقابلون المخاطر بفهم وشجاعة . كما أن التفتح الذهنى يجعل المتصارعين لا يتعصبون لشىء معين ويبحثون عن أية قيمة إنسانية تخلصهم من هذا الصراع . كما أن الطبقة المستضعفة تتمنى الخلاص والهروب مما هى فيه .

وقد استفادت الدعوة الإسلامية من كل هذا لأن القوى الجديدة التى ظهرت فى مكة ممثلة فى الحنفاء والحكماء كانت ركيزة لانطلاق الدعوة وفكرها وكان أتباع الدعوة الأول من هذه الفئات الجديدة التى لا تتعصب لمواريث قديمة لهم، كما أن الأفراد الأقوياء كحمزة بن عبد المطلب وعمر ابن الخطاب كان لهم دورهم فى الدعوة، وأيضاً فان الانفتاح الذهنى وذوبان التعصب الأعمى يفيدان الدعوة فى كثير فبالذهن الصافى تفهم التعاليم والأفكار وبذوبان التعصب تتخلص الدعوة من عدو بغيض يقف فى طريقها . كما أن فكرة البحث عن قيمة راقية وخلاص للضعفاء وجدا فى الدعوة بغيتهما فكان الضعفاء هم أتباع الدعوة فى العرب وفى كل مكان لأنهم بها يتخلصون من مهانة الرق وذل الطبقية وضعة المنبوذين وبها كذلك لا يتجهون بالتعظيم والتقديس إلى شخص ما لا ينالهم منه سوى الظلم والجبروت والتعالى وإنما يتجهون إلى الله الخالق صاحب النعم كلها الذى يملك الخلق كله ويحيط به علماً وإرادة وقدرة ويوزع رحمته على جميع الناس ويأمر فى الدعوة بالقيم الراقية والسلوك الممتاز ويحث على إقامة أخوة صادقة ومساواة حقيقية وعدل فى الكسب والعمل . ومن هنا كان أتباع الدعوة الإسلامية الأول من أمثال أبى بكر وعثمان بلينهما ورقتهما لا من أمثال عمر وخالد

---

(١) أصول علم الاجتماع ص ٨٥ .

بشدتهما وقوتهما (١) ذلك لأن وضيعة الضعفاء تتفق لأول وهلة مع روح الدعوة ومبادئها . كما أن المتصارعين يجدون بغيتهم فى الدعوة لأنها تهدم سبب صراعهم وتؤاخى بينهم بالحسنى وتعودهم على الألفة والخير ، ومن هنا لجأ المتحاربون فى الأوس والخزرج إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة ليؤمنوا بدعوته ويسلموا له كى ينتهى الصراع . وقد كان،فتم بعد الهجرة انتهاؤه وتسلم المهاجرون الأمر فى المدينة وتآلف الأوس والخزرج بحق تحت لواء الإسلام .

إن صراعات هذا الزمن تميزت عن كل ما سبقها بالشمول والعمق حيث انتشرت فى العالم كله بشكل مستمر ومتجدد كما أنها لامست سائر حياة الناس وعاشت فى نفوسهم وأحلامهم ولذلك كانت نهايتها أمنية صادقة على مستوى هذا الشمول وهذا العمق . فلما جاءت الدعوة الإسلامية هادفة إلى تغيير جذرى فى المجتمع وإزالة الصراع والآلام من حياة الناس وتحرير العبيد والمنبوذين والأجراء من وضعهم البائس ووضعهم فى الإطار النظيف الذى وضعته للناس أجمعين بما فيه من كرامة وحرية ومساواة . لما جاءت هكذا آمن بها الجميع وانتشرت بسرعة عجيبة قوية .

ومن هنا فإننا لا نعدو الحقيقة حين نذكر أن صراع هذا العصر كان من حكمة ظهور الدعوة فيه . وجلت حكمة الله القدير — وحاشاه — أن يختار زماناً غير ملائم للدعوة . أو يكون اختياره لهذا الزمان بالذات غير مقصود لأن الحقيقة الثابتة بكل إتقان ودقة والمتعلقة بكل شىء تنبع من قوله تعالى « وكل شىء عنده بمقدار » .

ثانياً : النضج الفكرى :

شاهد القرن السادس الميلادى تطوراً عقلياً فى كل أرجاء المعمورة بشكل لم يعهده الناس من قبل حتى كأن البشر قد ترقوا من طفولتهم الذهنية

---

(١) أسلم أبو بكر رضى الله عنه وعثمان مع أوائل ظهور الدعوة أما عمر فقد أسلم بعد الهجرة إلى الحبشة وخالد أسلم قبيل فتح مكة .

إلى مرحلة بلغ فيها الإنسان أشده كما يقول الأستاذ محمد عبده (١) ولعل المراد من النضج العقلى المذكور هو وصول الإنسان إلى التفكير الكلى المنظم الذى يستنتج من المحسوس ومن القضايا العقلية أشياء أخرى غيرها . وينظر للحياة نظرة فيها الرضى القائم على التحليل والنقد أو السخط المعتمد على الدليل والمناقشة ويحاول دائماً السمو إلى العلا والتقدم، ذلك أن طفولة الإنسان كانت تقوم على المحسوس فقط حيث تبهر بالعجائب وتسحر بالظواهر الخارقة كعهدها مع الرسالات السابقة . فإن الخوارق إليهم كانت حسية وكانوا يؤمنون بعدها خائفين ومندهشين كما حدث لما أحيا المسيح شاباً فى مدينة « نايين » أخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين : « قد قام فينا نبى عظيم وافتقد اللّه شعبه »(٢) .

ولقد كان عصر الدعوة الإسلامية يوافقه عصر نضج عقلى واضح ساد العالم كله وقد تجلى هذا الواقع فى نقد ظهر فى كل مكان متجهاً إلى الناحية الدينية وأوهامها ولم يجدوا مشقة أمام الخوض فيما كان ممنوعاً من قبل باسم الحق المقدس لرجال الدين وعقائدهم على اختلاف أممهم وأديانهم . فى العالم المسيحى الواسع بدأت الأصوات ترتفع ضد أوضاع لا تتفق مع الطبيعة العقلية من أمثال المناداة بألوهية المسيح وتركبه من طبيعتين مع أصرار هذه الأصوات على مذهب الفطرة القائل ببشرية المسيح وتكونه من طبيعة إنسانية واحدة . وقد اختاره الله ليكون رسولا نبياً من قبل الإله الواحد وأحاطه بالخوارق التى لا توجد مع الناس دفعا إلى تصديقه فى دعواه . وما دفعهم إلى هذا الرأى إلا عقلهم الذى أبى التصديق بما هو وهم وخيال . ولأن تصور أصحاب مذهب الطبيعتين تصور ينهار أمام النظرة الفاحصة وقد حدثت لهذه المعارضات أحداث خطيرة فى كل العالم المسيحى انعقدت لها مجامع عدة .

ولم يكن المنادون بمذهب التوحيد عدداً قليلا . يقول ابن البطريق:

---

(١) رسالة التوحيد ص ١٥٥ .

(٢) انجيل لوقا الإصحاح السابع فقرات ١٤ — ١٦ .

« إن الذنب ليس على أريوس وهوراس — المنادين بالتوحيد — بل على فئات أخرى سبقته فأخذ هو عنها ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديداً كما كان تأثير أريوس الذى جعل الكثيرين ينكرون سر الألوهية حتى انتشر هذا الرأى وعم (١) »، وهذا دليل على نضج عقلى وجدبين المسيحيين على سعة فيهم جعلهم يحاولون إصلاح معتقداتهم بل إن المسيحيين الذين عارضوا الإصلاح احتموا هم أيضاً بعقلهم وحاولوا التدليل على صدق معتقدهم بأدلة جدلية فى صورة تشبيه عقلى . وهذه إن دلت فانها تدل على تقدم ذهنى وفهم فيه نوع من التجريد والعقل . يقول الشهرستانى عنهم : « ولهم فى كيفية الاتحاد والتجسد كلام ، فمنهم من قال : أشرق على الجسد إشراق النور على الجسم المشف ومنهم من قال انطبع فيه انطباع النقش فى الشمع ، ومنهم من قال : ظهر به ظهور الروحانى بالجسمانى ، ومنهم من قال : تدرع اللاهوت بالناسوت ، ومنهم من قال : مازجت الكلمة جسد المسيح ممازجة اللبن الماء والماء اللبن » (٢) فهذه الأدلة مع ما فيها تدل على تقدم معين ويكفى أنها من أنصار التعصب المسيحى الذين آمنوا بألوهية المسيح وحاولوا جعل هذه الألوهية فكرة مستساغة أمام العقل فأتوا بهذه التشبيهات ليقربوا فكرة اتحاد ألوهيته مع إنسانيته .

ولو تركنا عالم المسيحية إلى غيرهم لوجدنا أن الهنود قد أيدوا ثورة « بوذا » على الهندوكية فى بعض تعاليمها، ومحاولتها تبسيط العقائد والاهتمام بالأخلاق والعودة إلى الفطرة . بل إن الهنود قبل الدعوة الإسلامية كانوا يتجهون لواحد من الآلهة ويخصونه باسم « رب الأرباب » و « إله الآلهة »(٣) وهذا نوع من التوحيد لم يعهده الهنود من قبل فلقد كانوا دائماً يعددون الآلهة ويقدسون كثيراً من مظاهر الطبيعة بلا التفات إلى حقيقتها أو فهم لمعنى عبادتهم

---

(١) محاضرات فى النصرانية ص ١٢٣ .

(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٠١ .

(٣) ملامح الهند والباكستان ص ١٤٣ .

لها إلا أنهم فى هذا العصر بسبب النضوج تمكنوا من تخطى الردة العقلية والقرب من توحيد الآلهة .

وفى الجزيرة العربية وعلى الرغم من تعمق القوم فى تقديس الأصنام وتعظيم الحجر فإن النضج الذى اتسم به العصر بدأ يظهر فى العرب إذ اتجهوا بعقولهم إلى حياتهم ينظرون فيها ويضعون لها نظاماً يكفل الأمن والسلام ويقلل الصراع والشرور . ولذلك نظموا نشاطهم خلال السنة فأحاطوا بفصولها ونظموا التجارة على وفق هذه الفصول وأقاموا أسواقاً تدور مع أيام السنة وفى جميع أماكن الجزيرة وحتى يحققوا أكبر فائدة من هذه الأسواق جعلوها مكاناً للكسب المادى وتقوية للشعور القومى وللتسابق اللغوى والأدبى وكأنها مؤتمرات تمهد لوحدة مقبلة .

وظهرت دقة تنظيم هذه الأسواق فى اختيار الأمكنة والأزمنة ، **فعن الأمكنة** وزعوها فى ملتقى جميع أبناء الجزيرة، **وعن الأزمنة** جعلوها فى الأشهر الحرم. وبهذه الدقة ضمنوا لأنفسهم الحركة الآمنة والقول الجرىء والنقد الحر وكل هذه أسباب ، تجعل العقل ينمو باطراد . وخصوا الأسواق الهامة بشهرى ذى القعدة وذى الحجة إذ جعلوا سوق « عكاظ » فى أول شهر ذى القعدة و« المجنة » فى آخره، وذى المجاز وعرفه فى شهر ذى الحجة (١) ربطا للدنيا بالدين إذ يقدم الحجاج فى هذا الوقت من كل صوب قاصدين مكة والكعبة فيعيشون هذه الأسواق ويكتسبون مع شعورهم الدينى بعض معاشهم .

ولعل أوضح مظاهر النضج العقلى عند العرب ظاهرة الحنفاء الذين أخذوا يحللون بعمق وفهم فساد ما عليه الناس ويبينون الحاجة إلى دين يعرّف بالخالق والطريق إليه مدللين على اتجاههم بما وقعت عليه حواسهم من مهاد موضوع وسقف مرفوع ونجوم تمور وبحار لن تغور وليل داج ونهار ساج وقد وصلت هذه الجماعة برجاحة عقلها إلى بعض شريعة ابراهيم عليه السلام .

---

(١) أخبار مكة جـ ١ ص ١٢١ ، ١٢٢ بتصرف .

وفى الحق لقد وصل النضج الفكرى إلى مستوى ممتاز ناسب ظهور الدعوة الخاتمة بمعجزتها التى جعلها الله فى قرآنه الكريم الذى نزل للناس يؤمن بالكلمة . ويخاطب العقول ، ويهتم بالمعانى والأفكار ، وينقل الإنسان من عالم الحس إلى الغيب والإيمان به . مع اشتماله على وسائل تتعدد أمام الفكر تؤكد وتجادل وتقترب قاصدة الإقناع العقلى واليقين النفسى والثبات مع الروح والوجدان أكثر من ثباتها مع الانفعالات والأحاسيس .

يقول الشيخ رشيد رضا : إن الله جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل فى ثبوتها وفى موضوعها لأن البشر قد بدأوا يدخلون بها فى سن الرشد والاستقلال النوعى الذى لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر منهم أمورا مخالفة للنظام الكونى. وانما جعل الله حجة نبيه كتابه المعجز للبشر بهدايته وعلومه وبإعجازه اللفظى والمعنوى ليربى البشر على الترقى فى هذا الاستقلال إلى ما هم مستعدون له من الكمال (١) » .

وقد جعل الله معجزة الإسلام هكذا لتتلاءم مع طبيعة البشر العقلية . ودائماً يجعل الله المعجزة من جنس ما تفوق فيه البشر الذين تأتيهم هذه المعجزة حتى يتمكنوا من تبيان صدق الرسول فى دعواه . وينظروا إلى ما جاءهم به ويعلموا أنه وحى من الله ، ودليلهم المعجزة التى يعرفونها يقيناً حيث تفوقوا فى جنسها ونوعها كما ظهرت لهم . إن معجزة موسى عليه السلام فى قوم اشتهروا بالسحر كانت قلب العصا ثعباناً وإخراج اليد بيضاء من تحت الجناح . ومعجزة عيسى إلى قوم اشتهروا بالطب هى إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص . فكان لزاماً أن تأتى معجزة الإسلام على هذه السنة وما دام العالم كله على وجه العموم فى موجة رشيدة من النضج الفكرى . وكان العرب على الخصوص أكثر اهتماماً بصناعة اللسان وعلوم البلاغة والفصاحة (٢) فإن المعجزة كانت هى القرآن الكريم مناسبة لهذا النضج ومراعاة للبلاغة والفصاحة وليؤمن العرب سراعاً بها وينطلقوا حاملين

---

(١) الوحى المحمدى ص ٦١ .

(٢) توضيح العقائد ص ١٧٢ .

الدعوة إلى كل العالم مقدرين نضجه الذى ساعد على أن تكون الرسالة عامة وخاتمة .

ثالثاً : انتظار رسول جديد :

كان للنضج الذى ساد العالم وكثرة الصراع وتنوعه قبيل الدعوة أن ظهرت موجة من النقد للعقائد يومذاك سبق أن أشرنا إليها . والنقد على العموم ظاهرة تدل على عدم اكتمال الثقة فى هذه العقائد التى توجه النقد إليها . ومن هنا صاحب عملية النقد شعور بقرب ظهور نبي من العرب يصلح فساد هذا العالم ويضع الحقيقة الفاصلة فى مسألة العقيدة والسلوك وكل ما يسنده الناس إلى الأصنام ويطلبونه منها ، وقد وصل هذا الشعور إلى حد الاحتمال المؤكد لدرجة أن اليهود فى المدينة « يثرب » كانوا ينتظرون هذا النبي على وجه اليقين وكثيراً ما ذكروا لجيرانهم من الأوس والخزرج أنهم سيتبعون هذا النبي (ص) فور ظهوره ليتمكنوا به من سيادة العالم وتملك الناس وقتل الأوس والخزرج قتل عاد وإرم . والقرآن الكريم يقص ما كان منهم فى هذا الشأن بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(١)

فهم كانوا يعرفون مبعث النبي ويعلمون أن زمانه قد حان فعن محمد ابن إسحاق عن عاصم بن قتادة عن أشياخه أن اليهود كانت تقول قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم » (٢) .

يقول ابن عباس إن اليهود فى المدينة كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه (٣) . ورأى اليهود له

---

(١) سورة البقرة آية ٨٩ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢١٣ هامش فتح البيان .

وزنه عند جيرانهم قبل البعثة لأنه قد اشتهر عنهم معرفتهم ببعض أسرار الوحى وعلاماته فلقد رووا أن مشركى مكة لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم فيهم أرسلوا وفداً منهم يسأل اليهود عن رأيهم فى هذا الرسول الذى أتاهم ودعاهم بدعوته وكان الوفد مكوناً من النضر بن الحارث وعقبة ابن أبى معيط (١) ولم تكن هذه المعرفة خاصة بيهود المدينة وحدهم فلقد انتشر خبرها فى أماكن كثيرة ووصلت إلى أقصى الشمال لدرجة أن سلمان الفارسى حينما أراد أن يترك المجوسية ويبحث عن الدين الحق ليعتنقه قال له كاهن عمورية :« **أنه قد أظل زمان نبى وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب مهاجرة إلى أرض بين حرتين بينهما نخل وبه علامات لا تخفى يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وبين كتفيه خاتم النبوة (٢)** » وليس ذلك بكثير على علماء اليهود والنصارى لأنهم .

﴿ يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾(٣)

جاء فى تفسير ابن كثير لهذه الآية أن صفة النبى محمد صلى الله عليه وسلم وجدت فى التوراة والإنجيل ولم تزل صفاته موجودة يعرفها العلماء والأحبار (٤) من أهل الكتاب .

وكما وصل خبر ظهور نبى إلى أقصى الشمال وصل كذلك إلى أقصى الجنوب فلقد روى الأزرقى أنه لما ذهبت القبائل العربية لتهنئة حمير أفضى سيف بن ذى يزن لعبد المطلب بما علمه من كتبه من أن نبياً سوف يظهر فى العرب يضمن الزعامة لقريش إلى يوم القيامة (٥) .

وهكذا ظهرت ملامح النبوة المحمدية فى عقول الناس وفى كثير من

---

(١) سيرة النبى (ص) جـ ١ ص ٣٢٠ .
(٢) نفس المرجع جـ ١ ص ٢٣٧ .
(٣) سورة الأعراف من آية ١٥٧ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٤٨ هامش فتح البيان .
(٥) أخبار مكة جـ ١ ص ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ .

الأماكن وهذه الملامح فى حد ذاتها تمهد للدعوة وتدعو إلى استماعها بشوق خاصة وقد حدثت أحداث كثيرة جعلت الناس ينتظرون التغيير على يد هذا الرسول المنتظر الذى كاد أن يلمس فى طفولته اوضوح صفته فى الكتب السابقة بل أن بحيرا الراهب عرفه وهو صغير ، يروى ابن هشام قاصاً ما حدث من بحيرا فيذكر **أنه أعد طعاماً لقافلة قريش وفيها أبو طالب ومحمد وهو صغير ودعاهم فحضروا جميعاً إلا محمدا لصغر سنه لكن بحيرا أصر على حضوره فلما حضر أخذ يسأله عن أشياء كثيرة وأخيراً قال لعمه** أبى طالب« أرجع بابن أخيك إلى بلده وأحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه **وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا فانه كائن لابن أخيك شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده (١) »** ولا غرابة فى تحديد بحيرا للنبى فى طفولته لأنه ممن يعرف صفته الموجودة فى التوراة والإنجيل .

وفى مكة نفسها كان كعب بن لؤى بن غالب يذكر بالنبوة ويبشر بها أهل مكة ويقول لهم **« زينوا حرمكم وعظموه فسيأتى له نبأ عظيم وسيخرج منه نبى كريم (٢) »** .

إن تجمع انتظار رسول جديد مع موجة النقد السائد ضد العقائد والمذاهب على يد الحنفاء وأتباع أريوس « والبوذية » ينتج فائدة عظمى للدعوة الإسلامية تساعد على انتشارها وما لاحظناه من معارضات للدعوة بعد ظهورها فمنشأة التعصب ومحاولة المحافظة على القديم الموروث وبقايا صراعات قبلية قديمة كما حدث من الأمويين فإنهم تأخروا عن الدخول فى الإسلام بسبب كون النبى من بنى هاشم لدرجة أن أبا سفيان الأموى حمل المعارضة للنبى فى مكة بلا سبب غير التنافس بين الهاشميين والأمويين وكانت « أم جميلة بنت حرب زوجة أبى لهب» التى كانت تحمل الحطب وتضعه أمام بيت النبى ﷺ وفى طريقه وكانت تقول عنه صلى الله عليه وسلم :

مذمما عصينا وأمره أبينا

ودينه قلينا (٣)

---

(١) سيرة النبى ج ١ ص ١٩٤ — ١٩٦ بتصرف . (٢) بلوغ الأرب ج ١ ص ٢٧١ .
(٣) سيرة النبى ج ١ ص ٣٧٩ .

مدفوعة بسبب كونها أختا لأبى سفيان الأموى (١) فدفعها التعصب إلى هذه الحملة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وما المانع إذا أن يكون موقف زوجها أبى لهب عم النبى صلى الله عليه وسلم من تأثيرها فيه .

وكذلك فان أصحاب المصلحة فى مكة عارضوا الدعوة حفاظاً على وضعهم لكن كيف تجدى الحيل الإنسانية أمام الإرادة الإلهية التى قدرت ظهور الدعوة واختارت لها هذا الزمان الذى تميز بالصراع والنضج وانتظار الرسالة لكى تنتشر الدعوة وتظهر على الأديان كلها بقدرة الله وعلى سنن البشر . والله أعلم حيث يجعل رسالته .

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٥ ص ٢٩١ .

(٣)

اختيـــار أمة الدعوة

كان لظهور الدعوة أولا فى الأمة العربية دليل على مميزات وضعها الله فى العرب واختارهم من أجلها ليكونوا أمة يبعث النبى فيها . وبلسانها . وينزل القرآن بلغتها مراعياً جانب التفوق العربى فى إعجازه ودقته . ولابد أن تكون هذه الأمة على مستوى ارتباط العالم كله بها واتجاهه إليها عند كل صلاة وحج وعلى قدرة تحمل مسئولية إبلاغ الدعوة إلى كل الآفاق وفق منهج مقدس . ونحن هنا نتلمس البحث عن بعض مميزات هذه الأمة لنعرف حكمة الله فى اختيارها . ويمكننا أن — نجمل هذه المزايا فى أمور نذكرها فيما يلى :

أولا : ان دول الحضارة يومذاك كالفرس والروم والهند عاشت مع صفات الحضارة كلها من بعد عن الفطرة الخيرة بسبب الإكثار من فنون الملاذ والترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتها (١) وانتشار الفحش فى القول والعمل بين الصغار والكبار وانصرافهم عن كل أمر ذى بال كتركهم أمر المعتقدات يوجهها نفر منهم ، ولم يقفوا ضد أى تغيير حتى ولو كان خطأ ما دام لا يتعارض مع عاداتهم الفاسدة وأمراضهم النفسية المتفشية . وقد كان ذلك هو الواقع فى دول الحضارة حيث انتشر فى الدولة الرومانية دين ملوكها واتبع الناس عقيدة السلطة حتى العلماء فى المجامع المقدسة سواء كانوا من أنصار الطبيعة الواحدة أو الطبيعتين كانوا يخضعون لآراء السلطة وكان المؤمل فيهم أن يتبعوا نهجاً حراً فى أبحاثهم ونتائج اجتماعاتهم خاصة فى الأمور الهامة التى تمس العقيدة لكنهم عاشوا مع روح العصر فى اتجاهاتهم .

وفى دولة الفرس استسلم الناس لتقديس القيصر وخضع له الجميع على أساس صلته بالإله وقربه منه .

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٤١٤ .

وفى الهند وجدت الطبقات باسم الدين وكان ذل الطبقة وخضوعها لغيرها يعد عملا مقدساً يتعبد به الهنود ويتقربون به لآلهتهم .

كذلك انتشر فى دول الحضارة **نظام الإقطاع** الذى أضعف روح العصبية والترابط بين الأفراد وجعل الرقيق والمزارعين جزءاً من الأرض يباعون إذا بيعت وإذا بقيت بقوا ومثل هذه المجتمعات لا تكون إلا شخصاً يعيش للتبعية وتنفيذ الأمر المتلقى ولا يحمى عقيدة دينية ولا يدافع عن مبـــدأ مقدس مما جعلهم غير أهل لنزول الدعوة فيهم . لأن العقيدة الدينية تحتاج فى كل أحوالها إلى عصبية الأفراد حتى يمكن أن يحملها الكل .

يقول ابن خلدون : « إن كل أمر تحمل عليه الكافة فلابد له من عصبية وكان حال الأنبياء عليهم السلام فى دعواتهم إلى الله بالعشائر والعصبية وهم المؤيدون عن الله بالكون كله لوشاء لكنه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة من أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم (١) » وذلك لأن الدعوة بلا عصبية تكون عرضة لأن تموت فى مهدها حينما يهاجمها المترفون أعداؤها .

ومن المعلوم أن الحضارة تفتت العصبية وتميت الشجاعة بسبب أن أفرادها يكلون أمر المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلىّ واليهم والحاكم الذى يسوسهم وينامون خلف الأسوار التى تحوطهم والحرز التى تحول دونهم فلا تهجعهم هيعة فهم غافلون آمنون (٢) كما أن الطبقة المترفة فى دولة الحضارة بعد فقدها للعصبية والشجاعة تبذل قصارى حيلها لتحافظ على مزاياها ومن هذه الحيل تنصيبها لمجموعة من الكهنة تخدع الناس وتلهيهم . وقد تحدثت الكتب السماوية عن بعض هؤلاء الكهنة فذكرت أنهم بسبب عيشتهم الحضرية وتمتعهم بمزايا الطبقة ومن أجل المحافظة على أوضاعهم حاربوا النبوات حيث ترى كهنة بنى إسرائيل ينكرون النبوات جاء فى العهد القديم الذى حرفه هؤلاء الكهنة **« يقول رب الجنود إنى أقطع أسماء الأصنام من الأرض فلا تذكر بعد وأزيل الأنبياء أيضاً والروح النجس**

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ ١ ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ . (٢) نفس المرجع جـ ٢ ص ٤١٨ .

من الأرض(١) » فتراهم ينسبون إلى الرب أنه سيزيل الأنبياء من الأرض أيضاً كالأصنام والروح النجس . بل إن الكاهن « أمعيا » كان أول من تصدى للنبي « عاموس » من أجل الملك ومن أجل المحافظة على وضعه وميزته وشي بعاموس عند يربعام تقول التوراة : « أرسل أمعيا كاهن بيت « إيل » إلى « يربعام » مَلِك مُلْك إسرائيل قائلا : قد فتن عليك بملك عاموس فى وسط بيت إسرائيل لا تقدر الأرض أن تطيق كل أقواله . وقال له عاموس « مباشرة » إذهب اهرب إلى أرض يهوذا وهناك كل خبزاً وهناك تنبأ وأما بيت « إيل » فلم تعد تنبأ فيها بعد لأنها مقدس الملك وبيت الملك (٢).

وقد أشــار القرآن إلى اليهود الذين يتزعمهم هؤلاء الكهان فذكر أنهم كانوا :

﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾(٣) .

وكانوا :

﴿ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾(٤)

فإذا ما انضاف إلى فقدان العصبية والشجاعة وفساد الكهنة ودورانهم فى خدمة سادتهم وسلطانهم إذا ما انضاف إلى ذلك تفشى الترف والفساد وخاصة بين هؤلاء الممتازين فى المجتمع الحضرى الذين تعالوا على من دونهم وبعدوا عن مشاركتهم حياتهم أو الاستماع لفكرهم أو الإصغاء لأية دعوة تأتى من قبلهم تحقق ما نهدف إلى إثباته من أن أمة الحضارة ليست هى الأمة المثالية لحمل الدعوة وإبلاغها . ولا يرد هذا الإثبات ما ظهر فى أمم الحضارة من نظام إدارى وفكرى منظم وقد ظهر فيهم حكماء وفقهاء كحكماء الهند وفقهاء الروم ذلك لأن الدعوة الدينية وإن احتاجت إلى النظام والحكمة

---

(١) سفر زكريا الإصحاح الثالث عشر فقرة ٢ .

(٢) سفر عاموس الإصحاح السابع فقرات ١٠ ، ١٢ ، ١٣ .

(٣) سورة آل عمران آية ٢١ .   (٤) المائدة من آية ٧٠ .

والفقه إلا أنها تحتاج أكثر إلى غير هذه الصفات كعصبية حامية وشجاعة دافعة واستقلال معين عند الأفراد تجعل النبي يدعو فرداً فرداً كما حدث فى مكة مثلا ، أما حينما يدعو أمم الحضارة فإنه صلى الله عليه وسلم لاحظ خصائصها ووجه رسله وكتبه إلى الأمراء والملوك وحملهم إثم رعاياهم لأنهم فى حوزتهم وتحت حمايتهم ولا رأى يعارضهم .

هذا عن **أمم الحضارة** أما البدو الخلص ففيهم عصبية وشجاعة ونخوة يكتسبونها من حياتهم ونظام بعيشتهم ذلك لأنهم يعيشون دائماً لرد غارة أو على استعداد له وما هدوءهم إلا اتفاق مدبر يتجنبون به شر الحيساة ويبتعدون به عن القتال والحروب التى يتوقعونها فى كل وقت . وأيضاً فإن البدوى يعيش منفرداً عن المجتمع بعيداً عن الحامية العامة ومن هنا يقوم بالدفاع عن نفسه وماله يحمل السلاح وهو يتلفت إلى جوانب الطرق (١) مخافة صعلوك صغير أو منبوذ ثائر . إلا أن البدوى مع هذه الصفات يرحل دائماً وينتقل تبعاً لمورد ماء ووجود عشب وهذا يجعله غير ميسر لأن يخضع لنظام معين وفى نفس الوقت لا يثق فيمن يجاورهم لفترة محدودة ولا يستمع لدعواهم . ومن هنا اقتصر البدو على بداوتهم وانعزلوا عن كل جديد يأتيهم . ولم يستمعوا إلى صوت الإيمان لأنهم لا يثقون فى غيرهم . وهـــذا كله لا يجعل البداوة الخالصة بيئة مثالية لظهور الدعوة فيها وإبلاغها للناس كالحضارة الخالصة تماماً .

إن الدعوة الدينية لابد لها من حماس معين يحقق الاندفاع الذاتى وراء المعتقد والالتزام به على أنه حياة . ولابد لها كذلك من تفتح العقل والفكر والفهم ليكون مع الحماس بساطة التصديق وعمقه بلا نفاق أو تردد . ولابد لها أيضاً من إيمان قوى مبنى على الاقتناع مع عصبية واعية ليس همها الحرب والغارة ولكن أهم أهدافها نشر الإيمان والدفاع عنه . ولابد لها من سهولة التغيير والتصديق ، وصعوبة التبديل والارتداد لتسهل طاعتها وتصعب الردة

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٤١٨ .

عنها . وكل هذه ضرورات تحتاج إلى شىء من صفات الحضر وشىء من صفات البدو فيفيدها من البدو الحماسة والعصبية وسهولة التغيير وصعوبته فليس أكثر من التغيير فى حياة البدوى لأنه دائماً على عزم السفر والترحال وليس أكثر من الثبات عنده لأنه محافظ على عهد الآباء والأجداد ويفيدها من الحضارة الاستقرار والتصديق والتكيف مع القواعد المنظمة فى المعاملة .

وهذا الخلط من الصفات البدوية والحضرية لا يتحقق إلا لقوم سكنوا مدناً وسط الصحراء تمر بها القوافل ويأتيها الناس من جميع الألوان لأهداف دينية أو دنيوية ومثل هذه المدن تلقى فيها بعض الصفات البدوية التى حافظت عليها منذ نشأتها وبسبب موقعها الذى لم يتغير وسط الصحراء التى سكنها البدو من حولهم فى كثير من الأوقات ، ونجد فيها كذلك بعض الصفات الحضرية المكتسبة من الوفود التى أتت إليها أو من سفر أبنائها إلى مناطق الحضر . وهذا شىء بدهى لأن الإنسان دائماً يتأثر ويؤثر فيمن يختلط بهم ويراهم . ومكة والمدينة والطائف مدن من هذا الطراز لأنها جميعاً تقع وسط صحراء مجدبة يسكنها أهلوها منذ القديم وتأتيهم القوافل من سائر الأقطار للتجارة وللحج وللاشتراك فى الأسواق وهم ينتقلون أيضاً إلى المواطن البعيدة متاجرين . ولذلك وقفت هذه المدن الثلاث بين الحضارة والبداوة فى صفاتهم وأخلاقهم ومن هنا كان أهلوها هم أمثل الأمم لحمل الدعوة الإسلامية وإبلاغها إلى الناس أجمعين، وإنما كانوا أمثل الناس لأنهم يمتلئون حماساً وتوثباً وشجاعة ويتمسكون بمواريثهم حتى الفناء ويندفعون فداء من أجل عرض يمس أو كرامة تهان . ومع هذا كانوا يحافظون على قواعد حماية الكعبة وإكرام أضيافها واستقروا حولها مستفيدين من التجارة والقوافل التى ترد إليهم أو يقومون بها إلى غير بلادهم . ووضعوا نظام إصدار الحكم فى دار الندوة . وكان حلف الفضول أساساً لوضع الحق فى نصابه ومحاربة الظالم أيا كان . كل ذلك فطرة سليمة وكبرياء عجيب .

ثم إن أصحاب هذه المدن الثلاث قد تركوا التعصب الدينى ، وقد رأينا أنه لم يحدث صراع قط بسبب الأصنام والأوثان بين العرب

كما أن المشرفين على الآلهة لم يكتسبوا ميزة ما . ولذلك لم يرد لطبقة دينية أى ذكر لأنها لم توجد . والبعد عن التعصب بهذا النمط يجعل الآذان مفتحة لسماع الدعوة التى تأتيهم كما أن انعدام الطبقة الدينية يجعل الفراغ واضحاً أمام من ينظر إليه ويتأمله وليس معنى هذا أن ساكنى هذه المدن خلوا من كل عيب ففيهم من عيوب الحضر وجود قلة مترفة مستغلة تبغى السيطرة والسيادة وتحارب كل مايعارض مرادهم ، لكن وقوع هذه المدن على مقربة من البداوة جعلها لا تخضع لطبقة واحدة لأن كل قبيلة تمثل دولة لها نظامها فى الحكم والرئاسة والتحكم وبذلك انحصرت القلة المترفة فى عدد نادر لا يؤثر كثيراً ولا يستمر طويلا أمام الدعوة الحادة . وهذه القلة هى التى وقفت أمام الرسول فى مكة تجادله وتضع العراقيل الممكنة فى طريقه وتصد الغالبية الفقيرة عن اتباعه .

وفى يوم القيامة سوف تظهر هذه الحقيقة حيث سيتجه بعض هؤلاء الأتباع لربهم ويقولون له :

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾ ﴾(١) .

فالسادة والكبراء هم الرؤساء والقادة الذين كانوا يمتثلون لأمرهم فى الدنيا ويقتدون بهم ولذلك يطلب الضعفاء أن يضاعف الله عذابهم ويلعنهم لأنهم ضلوا وأضلوا غيرهم . بل إن هؤلاء الأتباع يتناقشون مع سادتهم يوم القيامة على النمط التالى كما ذكره القرآن الكريم :

﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴾(٢)

فيرد السادة :﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾(٣) فيرد المستضعفون :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗا ﴾(٤)

(١) الأحزاب آيتى ٦٧ ، ٦٨. (٢) سورة سبأ آية ٣١ .
(٣) سورة سبأ آية ٣٢ . (٤) سورة سبأ آية ٣٣ .

ومن هذه المناقشة التى أوردها القرآن يظهر دور السادة فى إضلال القوم وصدهم ولولاهم لأسلموا وكانوا فى صدهم يتبعون وسائل كلها الخديعة والحيلة من غير فتور أو كسل فهم يأمرون بالكفر فى السر والعلن ليلا ونهاراً ولكثرة ذلك منهم أسند المكر إلى الليل والنهار ليفيد مداومة السادة على الإضلال والصبر فيه .

بل إن هؤلاء السادة رغم قلتهم كانوا يعقدون الاجتماعات ويطلبون من القوم أن يطلقوا الإشاعات التى يؤلفونها لهم فهم الذين اجتمعوا ذات يوم فى مكة ليخترعوا وصفاً منفرا ضد القرآن الكريم وبالفعل اختاروا وصفه بالسحر وقالوا .

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾(١)

ونادوا فى النـــاس .

﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾(٢)

لكن هذه القلة لم تدم طويلا فانها انزاحت بعد الهجرة بوقت وجيز وكان زوالها إيذاناً بدخول الناس فى دين الله . ورغم أن هذه الجماعة أطبقت بقسوتها على مكة قبيل الهجرة فانها ما لبث أن ضاع سلطانها وحينئذ وجد الضعفاء متنفساً لهم بزوال سلطان هؤلاء السادة يوم فتح مكة فدخلوا فى دين الله بأعداد كثيفة معترفين بالحق من غير التواء أو غضاضة .

يقول الزمخشرى عند تفسيره لقوله تعالى :

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾

إن الدين كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعد ما كانوا يدخلون فيه

---

(١) المدثر آية ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) فصلت آية ٢٦ .

واحداً واحداً واثنين اثنين (١) » . ولقد تأخر المستضعفون فى مكة عن إعلان إسلامهم حتى يوم الفتح بسبب ضعفهم فقط وكثيراً ما آمنوا بالله خفية وسراً وفى يوم الحديبية أشار الله تعالى إلى ماكان من هؤلاء المستضعفين بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فهؤلاء الرجال والنساء أسرّوا إسلامهم ولم يحيطوا به أحداً خوف الإيذاء والاضطهاد ومن أجلهم منع الله القتال يوم الحديبية وكتب السلام بين الفريقين لأن المسلمين لو دخلوا مكة لفتكوا بهؤلاء المستضعفين من غير علم بهم فيكون العار وهم لا يعلمون (٢) .

وفى هذه المدن التى جمعت من صفات البدو والحضر بعض عيوب البدو كعصبيتهم الحادة التى جعلت كل فرد يتصور نفسه ملكاً لا يخضع لغير قبيلته فلم تقم لهم بذلك دولة واحدة . وكان الرئيس فيهم كواحد منهم بل كان يتقرب إليهم بالحيل وتحسين المعاملة كسباً لودهم وفوزاً برضاهم عنه وعن رئاسته (٣) وهذه العصبية فاقت حدها فانقلبت إلى ضد المطلوب منها . لكن ما فيهم من سلامة الطبع وبعدهم قليلا من البداوة جعلهم يقبلون الخضوع للدعوة الدينية على أساس أن الوازع فى هذا الخضوع لم ينشأ بسبب قهر بشرى أو استذلال سلطان وإنما سببه من داخل أنفسهم كما أنه ليس خضوعاً لفرد أو لقبيلة ولكنه خضوع لدين الله الذى يبعد المرء كلية عن التحاسد والتنافس والبغضاء . وقد لاحظ ابن خلدون طبيعة العرب فى الإباء والشمم فذكر أنهم لا يجتمعون على ملك إلا بصبغة دينية (٤) والدين هو الذى يتولى بدوره إذهاب التنافس والتحاسد بينهم ويقصرها على الوجه الحق .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٩٤ .

(٢) تفسير سورة الفتح ص ٥٧ .

(٣) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٤٤٧ .

(٤) نفس المرجع جـ ٢ ص ٤٤٦ .

وهكذا ظهرت الدعوة الإسلامية فى أمة جمعت بين البدو والحضر هى أمة العرب فحملتها بكفاءة ومقدرة وبلغتها إلى الناس أجمعين.

و — ثانياً — تمتع العرب بصفات إنسانية عديدة أهلتهم لتحمل مسئولية الدعوة فلقد عرفوا بالشجاعة والجرأة والكبرياء العنيد ، كبرياء الرجل الحر حتى صار العرب كما جاء فى الشعراء الصعاليك أشجع الجنس البشرى (١) . ويكفى أن العربى لم يسمح بمرور قوافل أجنبية للتجارة فى أرضه إلا تحت إمرته وبعد موافقته (٢) . ولقد كان لأيام العرب التى نشبت قبيل ظهور الدعوة واستمرت طويلا فى أماكن متعددة أثر فى تكوين العرب على الشجاعة والتحمل وقبول المخاطر وأن الجيل الذى عاصر ظهور الدعوة من العرب هو الجيل الذى ولد ونشأ بين حديث الدم وصوت الرماح ولذلك تعد هذه الأيام مدرسة ناجحة فى تخريج حملة الدعوة الأقوياء .

ومع الشجاعة فى العرب كان الحلم الواسع والوفاء الرائع وهاتان الصفتان تجعلان الشجاعة تبذل فى موضعها وتظهر حين يستدعيها المقام ولا تبدو فى تهور أو طغيان وإنما تكون حماية للشرف وصيانة للمنزلة والعز والسلام .

وظهرت ملامح حلمهم فى القول والعمل . وما الكناية فى كلامهم ولغتهم إلا حساسية مرهفة وصيانة للسان من القول البذىء يستعان بها فى الأسلوب عوضاً عن التصريح بالقبيح وما يستكره . وقد كان عندهم كلمة يقولونها فى مواطن الثورة والغضب فيسكن الغضب وتهدأ الثورة هـذه الكلمة هى « **إذا ملكت فاسجع (٣)** » ومن حلمهم العملى **ما روى أن قيس بن عاصم المنقرى كان يحدث أصحابه يوماً وهو جالس حبوا فجاءوا بابن له قتيل وابن عم له كتيف فقالوا : إن هذا قتل ابنك هذا فلم يقطع حديثه ولا نقض حبوته . ولما فرغ من حديثه التفت إليهم وقال : أين ابنى**

---

(١) الشعراء الصعاليك ص ٧٣ .

(٢) الدولة الإسلامية وأمبراطورية الروم ص ٢٨ .

(٣) بلوغ الأرب جـ ١ ص ١٠١ .

فلان؟ فجاء . فقال : يابنى قم إلى ابن عمك فاطلقه وإلى أخيك فادفنه وإلى أم القتيل فاعطها مائة ناقة فانها غريبة لعلها تسلو عنه (١)

وأما وفاؤهم فهو يعد دليلا على سمو نفسياتهم واستقامة شجاعتهم واعتدال حياتهم فما نقضوا عهداً أو خالفوا وعداً وكانوا يرون أن الغدر من كبائر الذنوب فحكموا بذلك قوتهم وسيطروا على أنفسهم . ومن أمثلة هذا الوفاء العربى العظيم ما ورى من أن الحارث بن عباد أسر عدى بن ربيعة **ولم يعرفه فقال له : دلنى على عدى بن ربيعة فقال : إن دللتك عليه أتؤمنى فقال : نعم . قال : فليضمن ذلك عوف بن سليم فأمره الحارث بن عباد فضمن له عوف أن يؤمنه الحارث إذا دله على عدى فقال عدى : أنا عدى فخلاه وأوفى بوعده (٢)** . وهكذا التزم الحارث بكلمته وأطلق سراح خصمه تنفيذاً لوعد قطعه على نفسه وكان يمكنه أن يتحلل منه لكنه الوفاء الصادق الذى امتاز العرب به . وقد أشار النعمان إلى وفاء العرب وهو يناقش كسرى فارس فقال عنهم : إن أحدهم يلحظ اللحظة ويومىء الإماءة فهى عهد وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه وهم يجيرون من استجار بهم (٣) .

إن اجتماع الشجاعة والحلم والوفاء فى أمة يجعلها بعيدة عن الاستذلال وعن الاعتداء وعن الضرر وإذا ما اشتهروا بهذه الصفات حازوا الثقة ونالوا التقدير واستحقوا التصديق فى كل ما يقولون . وهكذا كان العرب الأمة التى ظهرت فيها الدعوة فحملتها إلى الناس فى كل أرجاء الأرض تصحبهم ثقة الناس فيهم ، ومعهم فى كل مكان التقدير والتصديق والأمان .

و — **ثالثاً** — : فإن العرب قد تمتعوا بفكر عقلى متقدم جعلهم يلامسون التوحيد عن قرب فجميعهم أقر بالإله الأعظم الذى يعلو كافة الآلهة التى هى وسطاؤهم عنده وشفعاؤهم إليه . وقد أقر العرب بالإله الأعظم عن وعى كامل بقدرته وقدر آلهتهم معه . ولولا بقية طفيفة من ضباب لكفر

---

(١) نفس المرجع جـ ١ ص ١٠٢ .
(٢) نفس المرجع جـ ١ ص ١٢٣ .
(٣) بلوغ النور جـ ١ ص ٢٤٩ .

العرب بكل آلهتهم المدعاة وآمنوا بالإله الواحد العظيم . وقد حدث أن جماعة من العرب هم الحنفاء وصلوا إلى الحق فى هذا الموضوع فسخروا من الأصنام والأوثان واتجهوا إلى الله الواحد . وتعتبر ظاهرة الحنفاء دليلا على مستوى التقدم العقلى عند العرب . فلقد خطب الحنفاء فى المجتمعات بأفكارهم ولم يقف فى وجههم عربى . بل إن المشركين العرب كانوا يعتزون ببقايا دين ابراهيم عليه السلام ويعتبرون خدمة البيت وحجيجه شرفاً يورثونه لأبنائهم وأحفادهم .

ويبدو سمو العرب جميعاً فى فكرتهم عن الله الأعظم حين نقارنهم بسائر الأمم فى إيجاز . ذلك لأننا نرى الروم رغم أن المسيحية دين توحيد فإنهم أبعدوها عن حقيقة التوحيد . واشتغل مفكروها بفلسفات جوفاء عقدت الدين وحرمته من بساطته الأصلية وجعلت العامة فى حيرة من فكرة الطبيعة الواحدة لذات المسيح أو الطبيعتين وقدسية العذراء وبشريتها إلى غير ذلك.

واليهودية تحولت إلى مذاهب متناقضة لا يجمعها إلا الإيمان بعنصرية جنس مقدس هو العنصر اليهودى ، ولا يوحدها إلاشعار الخداع لكل البشر ما عدا اليهود . والفرس بعد أن كانوا يتقربون للنور والظلمة على أساس أنهما رمزان للخير والشر أصبحا يعبدانهما على أساس أنهما إلهان اثنان ويعبدون غيرهما من المظاهر الطبيعية .

والهنود قد ارتضوا لأنفسهم عبادة الحيوان والمظاهر الطبيعية وقد علمهم « بوذا » أن يتجهوا إلى الاهتمام بالأخلاق ويهملوا العقيدة .

أما العرب فقد تطوروا حتى تمثلوا أصنامهم صورة روح خفية وعبدوها لتقربهم إلى الله الأعظم ، ولم يتحمسوا ضد الحنفاء ، وحينما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعارضوه بشكل مطلق بل رجوه أن يصدق بأصنامهم ويجعل لها موضعاً فى عقيدته ليؤمنوا جميعاً بالدعوة الإسلامية على هـــذا

الاتفاق . يبين رجاءهم هذا آيات فى سورة « ن » وهى من أوائل السور المكية يقول تعالى مبيناً هذا الرجاء .

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾(١)

فان المعنى تمنوا أن تلين لهم فيلينون لك وطلبوا أن تؤمن بآلهتهم مدة فيؤمنوا بإلهك مدة أيضاً (٢) .

ولقد برز هذا النضج العقلى عند العرب بسبب ذكاء فريد بدا فى مجتمعهم بفهم سريع وحفظ متين وبيان فصيح عاشوا له وقدروه .

أما فهمهم فيكفى أن العربى يفهم باللمحة ويعرف بالإشارة من ذلك ما رووا أن فزارياً ونميرياً تسايرا فقال الفزارى للنميرى : غض لجام فرسك فقال : إنها مكتوبة . وإنما أراد الفزارى ما قيل فى بنى نمير :

فغض الطرف أنك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وعنى النميرى ما قيل فى بنى فزارة :

لا تأمن فزارياً خلوت به ... على قلوصك واكتبها بأسيار (٣)

وكانوا كذلك يستدلون باللفظة على الأمر الجليل . ومن غريب ما يروى فى ذلك ما ذكره المرزبان من أن رجلا كثير المال صحب عبدين فى سفر فلما توسطا الطريق همّا بقتله فلما صح ذلك عنده قال لهما : أقسم عليكما إذا كان لابد لكما من قتلى أن تمضيا إلى دارى وتنشدا ابنتى هذا البيت :

من مبلغ ابنتى أن أباهما ... لله دركما ودرأبيكما

فلما قتلاه جاءا إلى داره وأخبرا ابنته الكبرى بالبيت فاستدعت أختها الصغرى فلما أسمعتها البيت خرجت حاسرة وقالت هذان قتلا أبى . والدليل أن المصراع الأول يحتاج إلى ثان والثانى يحتاج إلى آخر . ويكونا كالآتى :

من مبلغ ابنتى أن أباهما ... أمسى قتيلا فى الفلاة مجندلا

لله دركما ودرأبيكما ... لن يبرح العبدان حتى يقتلا

---

(١) سورالقلم آية ٩ . (٢) لباب التأويل جـ ٤ ص ٣٢٦ .

(٣) بلوغ الإرب جـ ١ ص ٢٢ و ٢٣ .

فلما استخبر العبدان كان الأمر كذلك (١) . ومن حدة فهم العرب ما أظهره بعض الصحابة يوم نزول سورة النصر إذ فهموا منه قرب أجـــل النبي صلى الله عليه وسلم .

وأما قوة حفظهم فهى بادية من محافظتهم التفصيلية على أيامهم وحروبهم وشعرهم وخطبهم وكأنها طبعت فى خواطرهم بنصها كما كانت لتمثل كتابا ناطقاً للناس من بعدهم . ومن ذلك ما روى أن الصحابى عبد الله ابن عباس استمع إلى الشاعر الشيطان عمر بن ربيعة فى قصيدة غزل تزيد على السبعين بيتاً فحفظها من أول مرة فلما قيل له أوقد حفظتها قال له : أو منكم من يسمع شيئاً ولا يحفظه(٢) . وكان الشاعر يصحب معه راوية ليحفظ عنه كل ما ينطق به من شعر ونثر . وهذا الأصمعى من متأخريهم يقول : ما بلغت الحلم حتى حفظت اثنى عشرة ألف أرجوزة للأعراب (٣) .

وعلى الجملة فهم يملكون قوة حفظ خارقة عند الخاصة والعامة ويبدو أن سببه هو أميتهم التى أعجزتهم عن كتابة مايحتاجون إليه فاضطروا إلى حفظه وعلى الأيام صار الحفظ ملكة لديهم توارثوها جيلا عن جيل . ولقد ساعد العرب على الحفظ ماكان فى لغتهم من سهولة وسعة ، مع الدقة والإحكام وكان العرب ينظرون إلى بيانهم نظرة إجلال وتقدير فمن أجله عقدوا المسابقات الأدبية وكان نتاجها المعلقات السبع التى علقت فى جوف الكعبة تقديراً لأصحابها وتشجيعاً للتقدم البيانى بين العرب ، ولحكمة من الله كانت معجزة الدعوة هى القرآن الكريم الذى يحتاج إلى الفهم الواعى لمعانيه والحفظ الدقيق لألفاظه مع اشتماله على بيان سحر العرب وقادهم من لسانهم ونزل فيهم منزلة الفطرة الغالبة فيهم وسيطر باللغة على عقولهم وأرواحهم وقد أشار قوله تعالى :

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾(٤)

---

(١) بلوغ الإرب جـ ١ ص ٣٩ .
(٢) نظرات فى القرآن ص ٣٠ .
(٣) بلوغ الإرب جـ ١ ص ٢٩ .
(٤) سورة الزمر آية ٢٨ .

إلى هدف من أهداف استقامة القرآن على العربية وهو لعلهم يتقون الكفر والتكذيب بسبب ما يرون فيه من فصاحة عجيبة بعيدة عن التنافس وقد أشار الزمخشرى إلى أن لفظ ذى عوج يفيد خلو القرآن من التناقض أصلا فهو أبلغ من مستقيم ومعوج ويختص بالمعانى (١) .

ولقد ثبت بما رواه ابن هشام من أن العربى كان يؤخذ ببيان القرآن الكريم ، من ذلك ما روى أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليستمعوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فى بيته ليلا فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض . لا تعودوا ولكنهم عادوا مرتين بعد ذلك إلى ما تناهوا عنه (٢) . وما جذبهم إلا بيان القرآن وفصاحته حتى أن رؤساءهم من أجل صد الناس عن القرآن قالوا لهم ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾(٣)، يقول مجاهد معناه والغوا فيه بالمكاء والتصدية والتخليط فى المنطق على رسول الله ﷺ وكانت قريش تفعله (٤) ويقول الرازى أن القوم علموا أن القرآن كلام كامل فى المعنى وفى اللفظ وأن كل من سمعه وقف على جزالة ألفاظه وأحاط عقله بمعانيه . وقضى بأنه كلام حق واجب القبول فدبروا تدبيراً فى منع الناس عنه فقال بعضهم لبعض: «لا تسمعوا لهذا القرآن إذا قرئ وتشاغلوا عن قراءته برفع الأصوات بالخرافات والأشعار الباطلة والكلمات الباطلة حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوه(٥)»، ومن هذا ما فعله الوليد بن المغيرة فانه بعد أن حكم على القرآن بأن له حلاوة وأن عليه طلاوة وأنه يعلو ولا يعلى عليه رجع عن الإيمان به عنادا وأخذ فى تدبير اتهام كاذب للقرآن

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣٩٦ .

(٢) سيرة النبى ﷺ جـ ١ ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٣) سورة فصلت آية ٢٦ .

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٩ ص ٨٩ هامش فتح البيان .

(٥) مفاتيح الغيب جـ ٧ ص ٣٦٨ .

عساه به يغلب فقال : «إنه سحر منقول عن الأولين وهو قول بشر لم ينزل به وحى ما » .

ورغم هذه المعارضات فان العرب لم يلبثوا طويلا فى عنادهم بل آمنوا بالدعوة والقرآن وأسلموا أمرهم لله فصنع منهم فى وقت قصير لا يذكر خير أمة أخرجت للناس تتحلى بمكارم الأخلاق وعظائم السلوك وتسعى فى كل مكان لهداية البشر على نهج القرآن الكريم . يقول الرافعى :« فالقرآن بتحكمه من فطرة العرب البيانية على وجه المعجز قد نزل منهم منزلة الزمان الطويل فى عمله وآثاره لأن الذى أنزله بعلمه وقدره بحكمته إنما هو خالق الزمن نفسه فهدم فى نفوس العرب وكان هدمه بناء جديداً جعل الأمة نفسها قائمة على أطلال نفسها »(١) .

وعلى الجملة فان الدعوة أثمرت أكلها بظهورها فى الأمة العربية حيث ناسبتها طبيعتهم البدوية الحضرية وأخلاقهم الرفيعة وشجاعتهم الحليمة الوفية وذكاؤهم الحاد وفهمهم الدقيق وحافظتهم القوية حيث جاءت الدعوة إلى كل هذه المزايا فنشطتها وسمت بها . وأزالت منها السلبيات الموروثة فوجد العرب أنفسهم بعد الإسلام تلقائياً يبذلون حماستهم وقوتهم للدعوة الإسلامية ويعطون شجاعتهم وإمكانياتهم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى خدمة دعوته فتحركوا إلى كل مكان من أجل نشرها تاركين كل ما يهمهم وأصبح تعصبهم اندفاعاً لتنفيذ أوامر الدعوة وتعاليمها . وكان لهم من استعدادهم ما جعلهم يستفيدون بالدعوة ويفيدونها يقول الشيخ ولى الدين الدهلوى :«وأراد سبحانه أن يزكى العرب بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم ويزكى سائر الأقاليم بالعرب فلزم أن تكون مادة الشريعة على رسوم العرب وعاداتهم وإذا نظرت إلى الشريعة الحنيفية ولاحظت رسوم العرب وعاداتهم لتأيد لك أن الشريعة تقوم بدور التسوية والإصلاح وبهذا نزل القرآن على عادات العرب فسواها حتى استقام أمرها (٢) » .

وهكذا وضح الله السر فى اختيار الأمة العربية لتظهر الدعوة فيها أولا . والله أعلم حيث يجعل رسالته .

---

(١) إعجاز القرآن ص ٩١ .   (٢) محاسن التأويل ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٤)

اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم للدعوة

كما اختار الله للدعوة المكان الملائم واختار لحملها خير أمة أخرجت للناس . اختار لها كذلك رجلها المتميز بصفات جعلته خير من يتلقى الوحى ويبلغه للناس ويتحمل فى سبيل ذلك كل اضطهاد وعنت . وتلك سنة الله مع كل رسالاته ورسله فهو سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾(١)

وهو سبحانه :

﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾(٢)

فاصطفاء الله للرسل يتم على مرحلتين مرحلة تهيئة وتأهيل ، ومرحلة تكليف وإبلاغ . ولولا أن النبوة اصطفاء وإحسان لقلنا إن الرسل بصفاتهم يستحقونها كسباً . لكن جمهور المسلمين أجمعوا على أن الرسالة لا تكتسب فلا بد أن يخلق الله لها استعداداً خاصاً عند صاحبها بحيث يجعله أهلا لحملها وإبلاغها وبعد ذلك يصطفيه للرسالة .

إن النبى صلى الله عليه وسلم تميز من بين سائر العرب بما يلى :

(١) عراقة الأصل

هيأت العناية الإلهية سلسلة ممتازة من الآباء والأجداد للنبى صلى الله عليه وسلم ليأخذ منها عن طريق الوراثة كثيرا من الخلق والطباع ، ذلك لأن الوراثة عامل هام فى تكوين الشخصية فهى تعمل فى أصل النمو . وتأتى من داخل الكائن الحى ، وأنه لمن المشاهد أن الولد غالباً يشبه والديه . وما علم القيافة الذى امتاز به العرب إلا مثل من أمثلة القول بالوراثة .

---

(١) الحج آية ٧٥ .

(٢) القصص آية ٦٨ .

وقد اعترفت السنة بذلك فقد روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها مسروراً تبرق أسارير وجهه ، فقال : ألم تسمعى ما قال المدلجى لزيد وأسامة ورأى أقدامهما فقال : إن بعض هذه الأقدام من بعض »(١) ، وحينما قذف هلال بن أمية زوجته فى شريك بن سحماء وهى حامل . قال عليه السلام : أبصروها فإن جاءت بـه أبيض سبطا قضىء العينين فهو لهلال بن أمية . وإن جاءت به أكحل . جعد . أحمش الساقين . فهو لشريك بن سحماء . فجاءت به على الشبه الذى رميت به(٢) ، وهذا اعتبار واضح يؤيد القول بتوارث الصفات.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قول نوح عليه السلام لربه :

﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾(٣)

فذكر أن صفات الآباء من الكفر والفجور سيتوارثها الأبناء عن آبائهم ، وما ذكر نوح ذلك إلا لأنه عاشر القوم ما يقرب من ألف عام فعاينه بالتجربة والمشاهدة كما أشار إليه المفسرون (٤) .

ومن كل هذا تعلم أن الوراثة تنقل الصفات الجسمية والعقلية ، بل ويعتقد علماء النفس أن الذكاء والطبع يخضعان لقوانين الوراثة (٥) ، ولذلك كان من عناية الله بمحمد صلى الله عليه وسلم ، أن وضعه فى نهاية سلسلة فاضلة من الناس أتته من قبل والديه

فأبوه عبدالله وجده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى .

---

(١) صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢٢٩ كتاب بدء الخلق . باب صفة النبى ﷺ .

(٢) صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٩ كتاب اللعان (سبط الشعر : مسترسله ، قضىء العين : فاسدها . أكحل : أسود . أحمش الساق : دقيقها) .

(٣) سورة نوح آية ٢٦ و ٢٧ .

(٤) تفسير ابن السعود جـ ٥ ص ١٩٩ .

(٥) أسس الصحة النفسية ص ٣٧ — ٤٠ .

وأمه هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، فهما يلتقيان معاً فى الجد الخامس كلاب بن مرة .

إن قصى هو مجمع قريش . ومنظم أمورها . ومقسم المهام فيها ومؤسس دار الندوة . وكان أمره فى العرب مطاعاً فلما قال لهم : « **يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم وأن الحجاج ضيف الله وأهله وزوار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم ففعلوا** » (١)

وإطعام الحجيج هو ما يعرف بالوفادة ، وقد قام بها عبد مناف بعد وفاة أبيه قصى ، مع السقاية والقيادة (٢) . وكانت رئاسة قريش لعبد مناف بعد قصى فجاد وساد ، وكان يسمى القمر لجماله ، وقد اشتهر بالجود وحسن السياسة (٣) .

ولما مات عبد مناف خلفه ابنه هاشم فقام بالرفادة خير قيام ، وكان يقول : والله لو كان مالى يسع الرفادة ما كلفت أحداً . وقد امتاز بالكرم . وهو لذلك هشم الثريد لأهل مكة . فسموه هاشماً . وقد اشتهر بالحكمة والدقة ومكارم الأخلاق . ومن أقواله لقومه : « **يا بنى قصى أنتم كغصنى شجرة ، أيهما كسر أوحش صاحبه . والسيف لا يصان إلا بغمده . ورامى العشيرة يصيبه سهمه ، ومن أمحكه اللجاج أخرجه إلى البغى . أيها الناس الحلم شرف والصبر ظفر . والمعروف كنز والجود سؤدد . والمرء منسوب إلى فعله وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رافعة وإياكم والأخلاق الدنية فإنها تضع الشرف وتهدم المجد** » (٤) .

وعبد المطلب هو جد النبي الأول وابن هاشم من زوجته « سلمى بنت عمرو » وقد شرف فى قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه . حيث أحبه قومه

---

(١) سيرة النبى ﷺ ج ١ ص ١٤١ .

(٢) أخبار مكة جـ ١ ص ٦٢

(٣) أعلام النبوة ص ١١٣

(٤) أعلام النبوة ص ١٣٩

وعظم خطره فيهم ، وهو شيخ مكة يوم قدوم أبرهة ، وهو الذى حفر زمزم بعد أن هدى إليها ، وهو الذى قدم أحد أبنائه العشرة للذبح عند الكعبة وفاء لنذره بأن يقوم بذبح أحد أولاده إن رزق عشرة ذكور . فلما رزقهم أقرع على الذبيح فجاء على عبدالله،وكاد يذبحه لولا نصح القرشيين له وتضحياتهم لكنه استبدل الذبح بالفداء كنصيحة عرافة « خيبر » (١) .

والذبيح الذى أفدى هو « عبدالله » أصغر أبناء عبدالمطلب ووالد النبى صلى الله عليه وسلم . وقد اشتهر بالعفة والطهر ، ومما رووه فى هذا الباب أنه مر ذات يوم بعد فدائه على فاطمة بنت مر الخثعمية فقالت له : هل لك أن تغشانى وتأخذ مائة من الإبل فرد عليها بقوله :

أما الحرام فالممات دونه | والحل لاحل فاستبينه
فكيف بالأمر الذى تبغينه | يحمى الكريم عرضه ودينه

قال ذلك ولم يلتفت إليها ، ثم تزوج من « آمنة » نزولا على مشورة والده ، ثم ترك آمنة بعد العرس بقليل للتجارة ، لكنه مات وهو عائد من هذه الرحلة ودفن فى الطريق تاركاً وحيده فى بطن آمنة

ويجب أن يعرف أن نسب النبى من جهة أمه عالياً هو الآخر ، إذ يصف ابن هشام آمنة بقوله : « **إن آباءها من فضلاء قريش وسادة بنى زهرة (٢)** » ولم يكن للنبى أخ ولا أخت من أمه وأبيه . يقول الماوردى : لم يشركه فى ولادته من أبويه أخ ولا أخت لانتهاء صفوتهما إليه وقصور نسبهما عليه ليكون مختصاً بنسب جعله الله للنبوة غاية ولتفرده بها آية ، فيزول عنه أن يشارك فيه ويماثل به (٣) .

على أن هناك مزيتين وضحتا فى آباء النبى وأجداده يجب أن نشير إليهما ، وهاتان المزيتان هما :

---

(١) أعلام النبوة ص ١٤٣-١٤٣

(٢) سيرة النبى ج١ ص ١٦٩

(٣) أعلام النبوة ص ١٤٧

١ — عقيدتهم وصلتهم بالشرك .

٢ — صلتهم بسائر قبائل قريش والعرب .

أما عن المزية الأولى فإننا نعنى بالآباء الآباء المباشرين من والد وجد وهكذا إلى النهاية . هؤلاء الآباء لم ينغمسوا فى الشرك والوثنية على غير عادة معاصريهم ، ودائماً كانوا على ذكر بالله ، وما أبعدهم عن حقيقة الألوهية إلا طول الزمن بهم ، وتلك إرادة الله فى آبائه عليه السلام حيث أبقى فيهم هذا الفهم الدينى . وقد قال تعالى :

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾(١)

فأشار إلى هذه المسألة . لأن الكلمة المرادة هى قوله « لا إله إلا الله » وبذلك فسرها مجاهد وقتادة وغيرهما وقد بقيت هذه الكلمة كما جعلها الله فى ولد إبراهيم صلى الله عليه وسلم وولد ولده وذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو إلى توحيده (٢) . وقد ذكر السيوطى أن أجداد النبى صلى الله عليه وسلم من آدم إلى ابراهيم كانوا مؤمنين (٣) فلما أتى ابراهيم بولده إسماعيل قال قبل أن يتركه داعياً له .

﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾(٤)

يقول الطبرى فى روايته عن مجاهد « استجاب الله لإبراهيم دعوته فى ولده . قال : فلم يعبد أحد من ولده صنما بعد دعوته ، واستجاب له كذلك فى غير ولده فجعل هذا البلد (مكة) آمنا ورزق أهله من الثمرات . وبالفعل كان من نعم الله على أهل مكة أن أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف . وجعل أولاد إبراهيم الذين هم آباء الرسول صلى الله عليه وسلم فى بعد عن الشرك .

---

(١) سورة الزخرف آية ٢٨

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٧٤

(٣) الحاوى ج ٢ ص ٣٧٣

(٤) سورة ابراهيم آية ٣٥

ومما يؤكد أن آباء النبي كانوا فى قرب من التوحيد ما ورد من آثار تدل على أن كل أصل من أصول النبي صلى الله عليه وسلم من خير أهل قرنه وأفضلهم ، ومنها ما أخرجه البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **بعثت من خير قرون بنى آدم قرناً فقرنا حتى كنت من القرن الذى كنت فيه** »(١) . والخيرية التى يشير إليها الحديث تشمل كل صفة وأهمها الدين . فإذا ما عرف أن العالم لم يخل فى أى قرن من جماعة مؤمنة موحدة . كما أخبر الجندى عن مجاهد فى فضائل مكة قال : « **لم يزل على الأرض سبعة مسلمون فصاعداً ولولا ذلك هلكت الأرض ومن عليها** » **(٢)** وإذا ما انضاف إلى ذلك ما أكده التاريخ من وجود جماعة الحنفاء بين العرب فى مكة ، ومنهم الموحدون الذين كفروا بما عليه الناس ، وبحثوا عن الدين الحق ، وهم بالطبع أفضل من عباد الحجر والأوثان ، لو علمنا ذلك للزم أن يكون آباء النبى صلى الله عليه وسلم من أفضل أهل زمانهم فى الدين وغيره .

وهذا يعطى لشخصية النبى قوة ولدعوته طاعة فإن القوم منذ القديم وفى عصر الدعوة ، وحتى يومنا هذا ينظرون للابن على ضوء ما يعرفونه عن أبيه . ويرون أن من « **يشابه أبه فما ظلم** » . ومن ذلك ما حكاه القرآن الكريم من عجب قوم مريم ، حينما رأوها أتت بغلام من غير أب وسألوها مستنكرين.

﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾(٣)

وذلك لأن قضية الواقع هى أن معايب الآباء تمتد بظلالها السوداء على الأبناء ، كما أن فضائلهم تنشر خيرها عليهم . ولذا كان من رحمة الله بالنبى صلى الله عليه وسلم أن جعله نتاجاً لآباء فضلاء فى دينهم وأخلاقهم ، مما ألجم كفار قريش ومنعهم من أن يعيبوه فى نسبه ولم يجدوا إلا أن يطعنوا فى زوج حليمة السعدية مرضعته ويقولون « **هذا ابن أبى كبشة يُكلم من السماء** » .

---

(١) البخارى كتاب المناقب باب صفة النبى صلى الله عليه وسلم جـ ٤ ص ٢٢٩ .

(٢) الحاوى جـ ٢ ص ٣٧١ .

(٣) سورة مريم آية ٢٨ .

وليس بعيب أن يكون أبوه عبدالله أو عمه أبو طالب فى بعد عن الرئاسة والغنى . لأن بروزهم الأخلاق أولى . وأيضاً فإن ذلك يبعد عن الرسول صلى الله عليه وسلم تهمة أنه باحث عن ملك آبائه . أو ساع لزيادة أموالهم (١).

وعن النقطة الثانيـــة :

فإن النبي صلى الله عليه وسلم ينتسب إلى بطن بنى هاشم كما سبق ذكره وهم بطن يقطن مكة ويرتبط مع سائر بطون قريش فى قرابة ، ولذلك فعروبة النبي ثابتة موطنا وجنساً ولغة وقد أكد القرآن هذا فى آيات كثيرة .

فقوله تعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾(٢)

يشير إلى أن مكة هى قرية النبي وموطنه حيث أضاف القرية إلى ضميره صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾(٣)

وقوله :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾(٤)

يشير إلى عروبته صلى الله عليه وسلم لأن الأمية صفة للعرب فى مقابلة أهل الكتاب وهو أمى منهم

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(٥)

---

(١) رسالة التوحيد ص ١٣٠ .

(٢) سورة محمد آية ١٣ .

(٣) سورة الجمعة آية ٢ .

(٤) سورة الأعراف آية ١٥٧ .

(٥) سورة يوسف آية ٢ .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾(١)
يشير إلى لغة النبي العربية التي جاء بها القرآن .

وهذه العروبة الثابتة لها فوائدها ، لأن ظهور النبي صلى الله عليه وسلم فى قبيلة قريش العربية المكية يعطى للدعوة قوة معينة . لأن مكة هى أم القرى وبها الكعبة . وقد درج الناس والعرب على تقديرها . والمشاركة فى مواسمها الدينية والتجارية والأدبية ، ويعدون هذه المشاركة واجباً تجاه مكة وأهلها القرشيين . الذين ينظمون أمور الكعبة ويحرسون الحجيج ويطعمونهم ، وهم لجوارهم للكعبة أهل الله . يعرفونه فيدافع عنهم ويخصهم بالفضل من دون الناس .

وبنو هاشم بطن من أوسط بطون قريش ، ويتصل بهم جميعاً ، وتلك ميزة لداعية يظهر فيها ، حيث يجد نفسه مرتبطاً بقربى مع سائر البطون وهذا ما كان ، فلقد أخرج البخارى عن ابن عباس **أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا وله فيه قرابة (٢)** ، والقربى النسبية تدفع بدورها إلى الوحدة القومية ، والاتجاه النفسى الواحد . وتجعل رأى الفرد منها مسموعاً مطاعاً . خاصة فى عصر كثرت فيه التكتلات القائمة على العنف والقوة . لدرجة أن عرب مكة جاءوا فى البداية وفى هدوء إلى أبى طالب وشكووا إليه أمر محمد لأنه يفرق ولا يجمع ، وبذلك تضعف قوتهم . وكان الأمل أن يكونوا ومعهم محمد يداً واحدة حتى ولو جعلوه أغناهم أو ملكاً عليهم .

وبسبب هذا الاتحاد النسبى كان من التوضيحات الإلهية للعرب وأهل مكة أن الله بعث فيهم رسولا منهم ، وقد كرر القرآن ألفاظ « من أنفسهم » و « منكم » و« منهم » فى معرض مخاطبتهم حيث يقول :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾(٣)

---

(١) سورة مريم آية ٩٧ .
(٢) صحيح البخارى كتاب المناقب ج ٤ ص ٢١٧ .
(٣) سورة التوبة آية ١٢٨ .

و ﴿ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾(١) و﴿جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾(٢)

وكونه منهم وفيهم لا يقتضى اختصاصه بهم وإن لا لجاءت الآية بـ « لهم » إشارة إلى ذلك ، وقد بين صلى الله عليه وسلم أن رسالته عامة للبشر أجمعين . وإنما الذى تقتضيه هذه الإشارات أن يكونوا هم أولى الناس باتباعه وأسرعهم إلى ذلك فهو أشد الناس حنواً عليهم ، وأكثرهم أملا فى هدايتهم لارتباطه بهم بأكثر من طريق . وله أعمام وأخوال وعمات وخالات من سائر بطون مكة ، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾(٣)

فهذه الآية تدل ، فى صراحة على وجود أعمام وعمات وأخوال وخالات له فى مكة وأنه تزوج من بناتهم المهاجرات بعد الهجرة . وبالبحث فى زوجات النبي القرشيات وعددهن ست نجد أنهن لسن من بنات بنى هاشم ولـكنهن من بقية البطون . فعائشة من بطن « تيم » وحفصة من بطن « عدى » وأم حبيبة من بطن « بنى أمية » وأم سلمة من بطن « بنى مخزوم » وسودة من « بنى زمعة »وزينب من « بنى أسد »(٤) .

فثبت بذلك أن القرابة كانت موجودة بين بطون مكة وبين بنى هاشم ، وأن للنبي صلى الله عليه وسلم أخوال وخالات وأعمام وعمات من سائر البطون .

ولذا يوم أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقوله :

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾(٥)

---

(١) سورة آل عمران آية ١٦٤ .

(٢) سورة النحل آية ١١٣

(٣) سورة الأحزاب آية ٥٠

(٤) زاد المعاد جـ ١ ص ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ ، سيرة النبى لدووزة ص ٢٠

(٥) سورة الشعراء آية ٢١٤

نادى بطون قريش بطنا بطنا لأنهم جميعاً عشيرته ، وأولى الناس بمودته وطاعته . وقد بين لهم هذا بقوله .

﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(١)

فهم أقرباؤه لا يطلب لهم إلا الخير والمصلحة ، وعليهم أن لا يعصوه ولايسبوه ، وهو لا يسألهم غرماً أو مقابلا ، وكل ما يرجوه هو أن يؤدوا حق القرابة الموجودة بينهم وبينه يقول الزمخشرى « لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قربى فلما كذبوا وأبوا أن يبايعوه نزلت هذه الآية والمعنى لا تؤذونى فى القربى أى فى حق القربى يعنى أنكم قومى وأحق من أجابنى وأطاعنى فإذا أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى ولا تؤذونى » (٢) وقد وردت آيات عدة فى القرآن الكريم تشير إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم كلف بأن يعرف قومه بأنه لن يأخذ منهم أجر (٣) ، وهذا يسند المعنى الذى أوردناه للآية ويجعله الأقوى خاصة وأنه لا يعارض كغيره .

وهكذا كانت تهيئة الله لنبيه قبل ميلاده ، فجعل آباءه من خير الخلق خلقاً وديناً ومسلكاً . وجعل آباءه من بطن يتصل بكل بطون قريش اتصالا قائماً على النسب والقربى .

— ب —

سمو الصفات

رغم أن النبى صلى الله عليه وسلم نشأ يتيما فقيراً إلا أن العناية الإلهية كانت له أهم من الوالد والمال فلازمته منذ مولده . وكانت له عوضاً عن كل شىء فرزقته شخصية لها صفاتها العظيمة .

ومن أهم هذه الصفات — **الواقعية فى تحليل الأمور** — وقد نشأت هذه

---

(١) سورة الشورى آية ٢٣

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٣٣٩ و ٣٤٠ .

(٣) آيات ٩٠ الأنعام ٧٢ المؤمنون ٧ الفرقان ٤٧ سبأ ٤٠ الطور ٤٦ القلم .

الصفة لأن النبي صلى الله عليه وسلم من البداية عاش عيشة واقعية . فهو اليتيم المسترضع عند حليمة. المزامل للأطفال من بنى الحرث فى بادية بنى سعد بجمالها وسعتها وصفائها وبساطتها ، فإذا ما ترك البادية إلى مكة تأخذه أمه لزيارة قبر أبيه بجوار المدينة . ثم تموت هى الأخرى فيعيش محمد بلا أب ولا أم . ويرحل وهو صغير إلى البادية ويشب ، ويعيش فى مكة فقيراً يعتمد على نفسه .

إن هذه الواقعية هى التى جعلته فى صغره يرعى الغنم لأهل مكة على أجر يتعاطاه ويتعيش به . ويتاجر بأموال الأغنياء بعد ما شب .

وقد وضعه الله فى رعى الغنم ليعلم كيف يكون راعياً . وكيف يسوس رعاياه ، ووضعه فى التجارة ليتعلم من أعظم مدارس الحياة العملية فهم الناس وطريقة الغور إلى أعماق الجماهير .

وحتى لا يرى النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً من خطورة اليتم وضرره جعل الله له مأوى قوياً رحيماً . يقول تعالى :

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾(١)

وليس الإيواء بالمال فقط لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان فى غنية عنه بالرعى والتجارة . وإنما الإيواء يبرز فى وجود جانب قوى يأنس به ويثق فيه . وينتسب إليه على عادة البشر . وقد تم هذا الإيواء بحنو أبى طالب على النبي وحمايته له وإعزازه وتقديره .

ومن صفاته الواقعية كذلك سعة معارفه . وقد تم له ذلك بسبب منهج نشأته . فلقد رأى أقاليم مختلفة الطبع والطبيعة . وشاهد العديد من العقائد بسبب تنقله بين مكة ويثرب وديار بنى سعد والشام . واطلع على المطالب النفسية للطوائف المختلفة حيث عاش مع المراضع . وعاشر الرعاة . وشارك التجار والعمال . ولم ينشأ منعزلا .

---

(١) سورة الضحى آية ٦

وقد وقاه الله من شرور المخالطة وأعانه على أن يفهم منها ويستفيد: **يروى ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مع غلمان يحملون الحجارة رافعين مآزرهم إلى رؤوسهم فجاء من لكم رسول الله لكمة وجيعة . ثم قال شد عليك إزارك . قال : « فأخذته وشددته على » (١)** وهكذا كان يبعده الله عن مساوىء الاختلاط ويكفل له الخير والحق .

ومن صفاته الواقعية كذلك . سلوكه المثالى . فى هذه الفترة كان للنبى مسلك فاضل اشتهر به . ورضى الجميع عنه . ولعل سبب هذه المثالية هو واقعيته ومعارفه . وقد شارك القوم فى مهام الأمور . وساهم فى حرب الفجار وحلف الفضول . وهما عملان لهما أهميتهما الخاصة لأن « حرب الفجار » لم تكن كالحروب التى قامت من أجل كلمة هينة . أو مظنة متوقعة وإنما كانت دفاعاً عن حرمةمقدسة . وقد دخلتها قريش وكنانة ضد هوازن عندما قتل البراص بن قيس عروة الرجال فى الشهر الحرام . وقد اشترك النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الحرب وعمره خمس عشرة سنة ليساعد أعمامه فى رد نبال عدوهم (٢) ، ويعد اشتراكه تدريباً عملياً من أجل الاستعداد لأعباء الدعوة الشاق . و« حلف الفضول » هو الآخر كان لوضع نهاية للمظالم فى مكة ، وحلف هذا شأنه حرى بأن يجعل كل من شارك فيه إنساناً واجبياً يملك عقلا يمكنه من الحماسة للحق والدفاع عنه .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم مثال الصدق والأمانة فى سلوكه . حتى اشتهر بهاتين الصفتين وسماه الناس بالصادق الأمين . يصفه عمه أبو طالب يوم أن خطب له خديجة ويقول : **«إن ابن أخى هذا محمد بن عبدالله لا يوزن به رجل إلا رجح به » (٣) .**

وتجلت عناية الله به فى هذه المرحلة ، فلم يسجد لصنم قط . ولم يقسم به مرة . وبدأ يتلمس الهدى متبعاً ما بقى من دين إبراهيم ، وكانت العرب تعرف بعض هذا الدين .

---

(١) سيرة النبى جـ ١ ص ١٠٧ — (٢) سيرة النبى جـ ١ ص ١٩٨ — ٢١٠

(٣) صفوة الصفوة جـ ١ ص ٢٥

وقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم فى بحثه عن الهدى معتمدا على الملامح القليلة الباقية من دين ابراهيم . والفكر العميق الدقيق الذى بذله وهو يتحنث داخل « غار حراء » حيث مكث فيه الليالى عابداً مفكراً آملافى أن يلهم الخروج من الحيرة والقلق اللذين كانا يساورانه دائماً من مستقبل القوم والعالم . وفى هذه الفترة أغناه الله بمال خديجة (١) ، ومكنه من التأمل الكثير والبحث الطويل . وكفاه بذلك مؤنة السعى والتعب ، وكانت قمة العناية فى هذه الفترة هو هدايته إلى الحق ووصله إليه بالوحى ليخرج من قلقه وحيرته . يقول تعالى :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾

يقول القالى شارح الشفا : « إن الرأى المعول عليه أن المراد بكونه ضالا فى الآية عدم معرفته الشريعة وأحكامها فهداه الله إليها وأرشده بتمامها » (٢) وهو معنى قوله تعالى لرسوله .

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

وباختصار فإن العناية الإلهية . تضمنت تهيئة النشأة القوية للنبى صلى الله عليه وسلم حيث أحاطته بإيواء قوى رحيم . وشكلت شخصيته بالواقعية والأصالة عن طريق الاختلاط الواسع . والاعتماد على النفس والاستغناء عن الناس . مع سعة الأفق . ودقة النظر . وحب البحث عن الحق والتمسك به .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٦٥ .

(٢) شرح القالى على الشفا جـ ١ ص ٢١٣ .

الباب الثانى

بين الإسلام والدعوات السابقة

ويتكون من أربعة فصول :

الفصل الأول:
موجز عن الدعوات السابقة

الفصل الثانى :
السمات العامة للدعوات الإلهية

الفصل الثالث:
فائدة معرفة الدعوات السابقة للاسلام

الفصل الرابع :
مميزات الدعوة الاسلامية

الفصل الأول

الدعوات السابقة

الدعوات السابقة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم هى دعوة نوح . وهود وصالح وإبراهيم ولوط ويوسف وشعيب ، وموسى وداود وسليمان ويونس وعيسى عليهم السلام . وأما سيدنا آدم عليه السلام فكل ما ورد عنه يمكن تلخيصه فى قصة خلقه ودخوله الجنة ، وخروجه منها ، وموقف إبليس معه ، وحديث موجز عن ولديه من غير إشارة إلى مبادىء دعوته أو فروعها ، ولذلك سنبدأ الحديث بدعوة نوح عليه السلام . ومع إيماننا بأن رسل الله عديدون إلا أننا سنتحدث عمن تحدث القرآن الكريم عنهم فقط ، لأنهم فقط ، الذين علمنا دعوتهم ، وعلى نمطهم يمكن فهم خصائص سائر دعوات الله تعالى .

١ - دعوة نوح عليه السلام :

سيدنا نوح هو أبو البشر الثانى . وأول أولى العزم من الرسل . أرسله الله إلى قومه فأخذ يدعوهم مدة استمرت ألف سنة إلا خمسين عاماً .

لقد كان قوم نوح يعبدون أصناماً متعددة ، وينقسمون إلى طبقات عديدة ، ويملكون أموالا ومزارع ، وصناعات ، وكانوا يتصفون بصفات الكبر ، وعدم الخوف من الله تعالى .

ومن هنا دعاهم نوح إلى توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له ، والخوف منه سبحانه فقال لهم :

﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾(١)

---

(١) الأعراف آية ٥٩ .

﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾(١)

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾

﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾(٢)

وهذه أدلة تشير إلى العناية والدقة وتدور حول النظر فى النفس وفى الكون وفى نعم الله . وتؤكد وجوب عبادة الله وحده . والخوف منه . وطاعته فى كل ما أمر به .

ورغم وضوح هذه الأدلة . وصدق دعوة نوح عليه السلام . إلا أن قوم نوح عارضوه وقالوا له ، ما حكاه الله عنهم :

﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ۚ
وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ۚ
وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ .
بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾(٣)

وقالوا لأقوامهم :

﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾(٤)

إنهم كانوا يريدون رسولا من الملائكة ، ويريدون طرد الضعفاء من

---

(١) الشعراء آية ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .
(٢) نوح آيات ١٣ — ٢٠
(٣) هود آية ٢٧
(٤) نوح آية ٢٣

حول نوح ، ويريدون الاستمرار على جرمهم واستكبارهم . فقال لهم نوح عليه السلام .

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾(١)

وأخيراً قال قوم نوح لنوح :

﴿ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾(٢)

وبعد ما بذل نوح كل ما فى وسعه من ترغيب وترهيب طيلة هذه المدة الطويلة بلا فائدة ، اتجه إلى ربه وقص له ما حدث من قومه . وسأله أن يعاقبهم فأمره الله سبحانه وتعالى بصنع سفينة تحمله وتحمل القلة المؤمنة معه . فلما أتم صنعها ركب المؤمنون فيها وأخذوا معهم من كل زوجين اثنين . وبعد ذلك نزل المطر مدراراً ، وتفجرت الأرض عيوناً ، وكانت النتيجة هلاك الكافرين وفيهم امرأة نوح . وابنه ونجى الله المؤمنين جزاء طاعتهم .

٢ — دعوة هود عليه السلام :

سكنت عاد فى جنوب الجزيرة العربية فى منطقة الأحقاف . ووصلوا إلى مستوى رفيع من التقدم الحضارى . حيث شيدوا الحصون العالية ، وأقاموا القصور الشاهقة ، وأسسوا المصانع الكبيرة ، وملكوا كثيراً من أسباب القوة والجبروت ، وكان عليهم أن يتجهوا بسبب كل هذه النعم إلى شكر الله معطيها لهم ، لكنهم استغلوها فى اللهو والمجون ، واستعملوا قوتهم فى البطش على الضعفاء من الناس ، واتجهوا إلى عديد من الأصنام والأوثان يعبدونها من دون الله .

---

(١) هود آية ٢٩

(٢) هود آية ٣٢ .

لكل هذا أرسل الله سبحانه وتعالى إلى عاد أخاهم هودا بدعوة الله ، فقال لهم هود عليه السلام :

﴿ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾(١)

وأمدهم بالأدلة التى تدفعهم إلى عبادة الإله الواحد فقال لهم :

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾(٢)

وهذه أدلة تبين نعم الله فى النفس وفى الكون . وفى الحياة . وكلها فى خدمة هؤلاء القوم ، وكان عليه السلام يركز على النعم الواضحة ويأتيهم من حيث حاجتهم ويقول لهم :

﴿ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾(٣)

ومع كل هذا فإن القوم أبو االطاعة وقالوا لهود :

﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ ﴾(٤)

﴿ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ ﴾(٥)

ولقد تناول هود عليه السلام كافة الوسائل الممكنة ، فبين دعوة الله برفق ووضح الأدلة التى تؤيد هذه الدعوة ، وجعلها أدلة بسيطة تلامس المحسوس عند الناس ، ورغب قومه فى نعم عديدة تأتيهم إن آمنوا بخالقهم وعبدوه وحده ، وخوفهم من عذاب الله ينزل بهم إن لم يؤمنوا ، وكل هذا لم يحقق عند القوم شيئاً فقالوا له :

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾(٦)

---

(١) الأعراف آية ٦٥ (٢) الشعراء آيات ١٣٢ ، ١٣٤ (٣) هود آية ٥٢ .
(٤) الأعراف آية ٧٠ (٥) هود آية ٥٣ ، ٥٤ (٦) الأعراف آية ٧٠

وقالوا له :

﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾(١)

وكانت نهاية هؤلاء الناس أن أرسل الله عليهم عذابه الذى بدأ بمقدمات عنيفة ، حيث أجدبت الأرض ، واشتد الحر ، وانقطع المطر ، وغاصت الآبار ، وغابت عنهم هذه النعم التى بطروها . وأخيراً أتت :

﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾(٢)

هى ريح الصرصر السامة المهلكة واستمرت سبع ليال وثمانية أيام متوالية :

﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾(٣)

وأما هود عليه السلام والذين آمنوا معه فقد نجاهم الله وورثوا أموال الكفرة بعد استئصالهم .

٣ ــ دعوة صالح عليه السلام :

ثمود من العرب العاربة ، سكنت فى الحجر قرب تبوك ، وملكوا كثيراً من أسباب الحضارة حيث نحتوا من الحجارة ، وأقاموا المصانع ، وتمتعوا بنعم الله التى أتتهم فى البر والبحر ، ومع كل هذا أعماهم الهوى فعبدوا غير الله ، ومن هنا أرسل الله لهم أخاهم « صالحاً » يدعوهم إلى الحق فقال لهم :
﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾(٤) .

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾(٥)

ومع بساطة هذه الدعوة ، وقوتها . فإن صالحاً عليه السلام أسندها

---

(١) الشعراء آية ١٣٦ .

(٢ ، ٣) الأحقاف آية ٢٤ ، ٢٥ .

(٤) الأعراف آية ٧٣

(٥) الشعراء آيات ١٥٠ — ١٥٢ .

بالأدلة الدامغة التى يعيشها قومه . وأبرز لهم النعم التى أعطاها الله . ودعاهم إلى النظر والتصديق والطاعة . حيث قال لهم :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾(١)

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾(٢)

لكن هذه الأدلة لم تحى عاطفة التعقل عند القوم ، فاستمروا على كفرهم وقالوا :

﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) ﴾(٣)

﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾(٤)

ومن باب وضع العراقيل أمام صالح قالوا له :

﴿ فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾(٥)

وقالوا للضعفاء من قبيل الاستهتار :

﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾

فلما قال الضعفاء لهم :

﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾(٦)

ردوا عليهم :

﴿ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

فأعلنوا كفرهم واستكبارهم بهذه الآية :

وأتتهم آية الله مبصرة حيث رأوا بينهم ناقة ، وأخبرهم صالح أنها

---

(١) هود آية ٦١ .
(٢) الأعراف آية ٧٤ .
(٣) هود آية ٦٢ .
(٤ ، ٥) الشعراء آية ١٥٤ .
(٦) الأعراف آية ٧٥ .

ستقاسمهم المياه ، وهى الآية التى طلبوها ، وقد وردت المعجزة بهذه الصورة إعلاماً للناس بأن النعم من الله يصرفها كيف يشاء ، واحتقاراً لهم حيث تساويهم جميعاً ناقة .

ولم يترك الطغاة الناقة تأكل فى أرض الله ، ولم يؤمنوا بعد رؤيتها . بل إنهم اجتمعوا وأرسلوا أشقاهم لقتل الناقة : ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾(١)

وهنا أنذرهم صالح عليه السلام بالعذاب والفناء وقال لهم :

﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾(٢)

وفى هذه الأيام الثلاثة حاولوا قتل صالح لكن الله نجاه ومن معه وأرسل عليهم صيحة أهلكتهم جميعاً .

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٣)

٤ — دعوة إبراهيم عليه السلام :

نشأ سيدنا ابراهيم عليه السلام فى بيئة فاسدة تؤله الحجر والإنسان والنجوم وتعبدها ، وتسىء إلى نفسها بأخلاق فاسدة ، ومعاملات سيئة . وقد دعاهم سيدنا ابراهيم عليه السلام إلى توحيد الله وعبادته وحده ونبذ مفاسد العبادات والمعاملات ، وقدم لهم الأدلة الدامغة وناقشهم بصورة فيها رقى عن أدلة الرسل السابقين ، لكنها على كل حال ، بدأت بسيطة تعتمد على المحسوس ولا تحتاج إلى دليل مركب أو منطق وتفلسف ، لأن ذلك هو الذى كان يناسب بساطة القوم ويتمشى مع فكرهم يومذاك :

انظر إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو الذى حاور كثيراً وجادل عديداً من الطوائف تلقاه لم يتخط الأدلة المنظورة لإفحام مجادليه .

حين جادل عبدة الأصنام عرفوه أن الأصنام آلهة آباءهم . ولن يتركوها. وهنا لم يناقشهم فى حقيقة الإلهية ومدى أحقية الآباء فى عبادتها وإنما أشار

---

(١) القمر آية ٢٩ .　　(٢) هود آية ٦٥ .

(٣) النمل آية ٥١ .

إلى أن الركود إلى الأصنام ضلال . ثم استعمل الدليل المفيد المعتمد على الحواس فكسر الأصنام ليثبت لعبدتها أنها لا تنفع نفسها فكيف تؤله وتعبد .

وكذلك حينما رأى عليه السلام البعض يعبدون الكواكب لم يدخل معهم فى نقاش وجدل ، وإنما وافق رأيهم . وأشعرهم أنه معهم فى عبادة الكواكب محاراة لهم لأن الموافقة فى العبارة على طريق الإلزام من أبلغ الحجج وأوضح المناهج ، ومن هذه الموافقة أنه لما رأى كوكباً قال :

﴿ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾(١) .

ومن الدقة فى المحاراة أنه اعترض على الأفول دون الطلوع ، ليتأكدوا من موافقته لمذهبهم ، لأنه لو اعترض على الطلوع لما بدت هذه الموافقة ، ومما يؤكد أن الموافقة محاراة فقط قوله « لئن لم يهدنى ربى » يقول الشهرستانى : إن رؤية الهداية من الرب تعالى غاية التوحيد ونهاية المعرفة والواصل إلى الغاية والنهاية لا يكون أبداً فى مدارج البداية .

وجاء للنمرود يدعوه إلى الله الذى يحيى ويميت فقال النمرود : أنا أحيي وأميت ، ومع وضوح المغالطة فى رد « النمرود » لم يناقش عليه السلام فى أصل الإحياء وطريقة الإماتة ، وإنما ترك هذه المناقشة إلى استدلال منظور فقال له :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾(٢)

وهنا عجز الملك ولم يجد جواباً .

---

(١) الأنعام آية ٧٦ – ٧٨ .

(٢) البقرة آية ٢٥٨ .

إن مناقشات سيدنا إبراهيم مع عبدة الكواكب ، أو مع عبدة الأصنام ، أو مع الملك . تشير إلى نوع من الترقية عن الأدلة السابقة ، مع أنها أيضاً بسيطة . لأن الإنسان فى عهد سيدنا إبراهيم ، كان قد ترقى أكثر من ذى قبل بحكم طول الزمن ومجيء رسالات كثيرة إليه .

ومن مناقشة سيدنا إبراهيم مع أبيه تبدو هذه الترقية بوضوح . حيث حدثه عن صفات الله تعالى ، وعن العلم الغيبي ، وعن الشيطان ، حيث قال له :

﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾(١)

ورغم كل هذه الأدلة القوية فقد تمسك الطغاة بكفرهم ، وحاولوا قتل سيدنا إبراهيم عليه السلام فجمعوا له الحطب ووضعوه فيه وأشعلوه بالنار . لكن الله نجاه وقال للنار :

﴿ يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾(٢)

فاستجابت النار . ونجى الله سيدنا إبراهيم من النار التى أعدت لحرقه .

وبعدها ترك ديار قومه إلى الأردن ثم إلى مصر ثم إلى الحجاز . وفى الحجاز أنجب إسماعيل عليه السلام من زوجته هاجر ، ويمتد العمر بسيدنا إبراهيم حتى يرفع قواعد البيت الحرام مع إسماعيل . ويطهره للطائفين والعاكفين والركع السجود .

وتعتبر دعوة إبراهيم عليه السلام خطوة فى الترقية العقلية ، وحركة أوسع فى اتجاه الدعوة العالمية .

---

(١) مريم آية ٤٢ ، ٤٣

(٢) الأنبياء آية ٦٩ .

٥ ــ دعوة لوط عليه السلام :

سكن قوم لوط أرض سدوم التى تقع بجوار البحر الميت بالأردن ، وقد عبد هؤلاء القوم غير الله ، وانغمسوا فى الفواحش والخبائث حيث كانوا يأتون الذكور ويتركون الإناث ، وقد اشتهروا بهذا الطبع الشنيع ، وأصبحوا لا يخجلون من ارتكاب تلك الآثام ، حتى عرفوا بهذا الفسوق ، وأصبحوا رمزاً عليه ، فهم :

﴿مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾(١)

وكان كل ما يشغلهم هو فحشهم ، فإذا ما اجتمعوا فاجتماعهم لهـــذا الفسوق يأتونه علناً بلا حياء يقول الله تعالى عنهم :

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾(٢)

ولكل هذا فسدوا فى العقيدة ، والمعاملة ، والأخلاق ، وأصبحوا وبالا على أنفسهم وعلى الناس معهم .

ومن هنا أرسل الله لهم سيدنا لوطا عليه السلام ليدعوهم إلى الله ، من أجل توحيده ، وإخلاص العبادة له ، ووجوب طاعته فى سائر أوامره ونواهيه . وكان طبيعياً أن يركز سيدنا لوط على السيئات المتفشية فى قومه وأشهرها إتيان الذكور شهوة من دون النساء . وقال لهم :

﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(٣)

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾(٤)

فنجده عليه السلام يدعو إلى الله تعالى ، فهو الخالق ، وهو القادر ، وهو

---

(١) الأنبياء آية ٧٤ .
(٢) العنكبوت آية ٢٩ .
(٣) الشعراء آيات ١٦١ — ١٦٣
(٤) الشعراء آيات ١٦٥ ، ١٦٦

الذى يتعلق الرجاء به والخوف لا يكون إلا منه ، ويدعوهم إلى التصديق برسالته .

ويوجههم إلى مكارم الأخلاق . ومع كل هذا فإن قوم لوط أبوا طاعته وقالوا لأتباعهم :

﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾(١)

وهكذا أصبح الطهر عندهم عيباً يستحق الطرد والإيذاء وزادوا فى جرمهم فقاطعوا لوطا وتركوه . فاعتزلهم ، وذات يوم جاءه رجال . فعجب لمجيئهم لأنهم أتوا إلى القرية الظالم أهلها ولذلك .

﴿سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾(٢)

لأنه خاف من قومه الإيذاء لهم ، وأقسى ما يهين كرامة الإنسان الاعتداء على أضيافه . . وصح ما توقعه لوط فإن قومه جاءوا سراعاً إليه يبغون السوء بهؤلاء الغرباء عن القرية ، خاصة وقد أخبرتهم امرأة لوط بجمالهم وشبابهم ، وحاول لوط أن يرد قومه عن الضيوف فقال :

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾

وقال :

﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾(٣)

لكنهم استمروا فى غيهم ، فعرض عليهم لوط أن يتزوجوا ببناته ، ليفعلوا الطهر ، ويتركوا الفحش فقال له :

﴿مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾(٤)

ولما يئس لوط من قومه . طلب من ربه النجاة وقال :

﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾(٥)

---

(١) النمل آية ٥٦ .
(٢) هود آية ٧٧ .
(٣) الحجر آيات ٦٨ ، ٦٩
(٤) هود آية ٧٩ .
(٥) الشعراء ١٦٩ .

هنا فاتح الأضياف لوطاً وعرفوه أنهم رسل من الله أتوا لتحقيق وعدالله بإنجاء الطائعين . وتعذيب العصاة .

﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾(١)

فاطمأن خاطره . وبعد ذلك أمروه أن يترك القرية قبل أن يحل عذاب الله ويذهب مع من أطاعوه إلى حيث يأمرهم الله تعالى .

وكانت نهاية القوم أن أصيبوا بالعمى جميعاً فى الليلة التى خرج فيها لوط من القرية . وعند الصباح أتتهم صيحة من المشرق زلزلتهم وأمطرت السماء حجارة فوق رءوسهم فتهدمت القرية . وامتلأت بالدخان . وهكذا كان الجزاء من جنس العمل .

ولقد هلكت زوجة لوط مع الكافرين فلقد أصابها ما أصابهم بسبب خيانتها للرسالة . وعدم طاعتها لزوجها .

وأبقى الله قصة دعوة لوط لتكون آية للذين يخافون العذاب الأليم .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾(٢)

٦ — دعوة شعيب عليه السلام :

سكن قوم شعيب مدينة (معان) بالأردن وسكن أصحاب الأيكة مدينتهم التى نسبوا إليها ، وقد لعب الهوى بالقبيلتين ، وأغرقتهم النعم المديدة ، فعبدوا غير الله ، وتركوا شريعة الخالق ،وأخذوا يسرفون فى الكيل والميزان . وهنا أرسل الله إليهم رسولا يوجههم إلى الحق بالحسنى فقال لهم :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾(٣)

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ ﴾(٤)

---

(١) هود آية ٨١ . (٢) هود آية ١٠٢ (٣) الأعراف آية ٨٥ .

(٤) الشعراء آيات ١٧٦ — ١٧٩ .

﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾(١)

فنجده عليه السلام يدعو إلى توحيد الله تعالى ، فليس هناك إله غيره . وإلى قصد العبادة لله وحده ، وإلى رجاء الخير فى الآخرة ، وإلى ترك الفساد ، وحاول عليه السلام أن يدلل لهم على صدق ما يدعوهم إليه بنعم الله عليهم فى أنفسهم . وفى الحياة من حولهم . فقال لهم :

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾

لكن القوم أبو وكفروا ، واعترضوا على ترك ما يعبدون من أوثان واستبعدوا أن يكون الرسول بشرا منهم وقالوا :

﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾

﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾(٢)

ولم يقفوا عند حد الاعتراض بل تجاوزوه إلى التهديد والسب وقالوا :

﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾(٣)

﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾(٤)

وقد استمر شعيب عليه السلام يدعوهم لكنهم استمروا على عتوهم واستكبارهم وكفرهم بآيات الله .

وأخيراً أنزل الله أمره ، حيث نجى شعيباً والذين آمنوا معه ، وعذب الكافرين عذاباً فى صورة صيحة مدمرة ، أتتهم فأهلكتهم . وشلت أجسادهم. وهكذا كانوا عبرة لسائر الأمم من بعدهم إلى يوم القيامة .

---

(١) العنكبوت آية ٣٦ . (٢) هود آية ٨٧ .
(٣) الشعراء آية ١٨٥ . (٤) هود آية ٩١ .

٧ ـ الدعوة فى بنى إسرائيل :

انقسم النور الإلهى الذى أتى سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى شطرين : شطر ذهب إلى ولده إسماعيل عليه السلام وتسلسل حتى وصل إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وشطر ذهب إلى إسحاق عليه السلام وتسلسل فى أنبياء عديدين من بنى إسرائيل أشهرهم يعقوب ، ويوسف ، وموسى ، وسليمان ، وداود ، وزكريا ، ويحيى ، ويونس ، وعيسى ، عليهم صلوات الله وسلامه .

وأشخاص هذه السلسلة التى ينتهى نسبها إلى إسحاق عليه السلام هم من أنبياء بنى إسرائيل الذين جاءوا بدعوة الله إلى نسل يعقوب عليه السلام .

ذلك أن إسرائيل هو يعقوب . وأبناؤه هم هذه السلسلة الطويلة من الرسل والأنبياء .

ولأن هؤلاء الرسل جميعاً جاءوا إلى أمة واحدة فنحن نجمل الحديث عنهم جميعاً هنا .

وبنو إسرائيل هم بنو يعقوب عليه السلام عاشوا فى البادية . ينتجعون الكلأ ويرتحلون من مكان إلى مكان آخر . من غير أن يعرفوا لأنفسهم وطناً معيناً ، وأول استقرار لهم حينما أتى بهم يوسف عليه السلام من البادية وأسكنهم مصر وأغدق عليهم من نعم الله وآلائه ، فعاشوا بين المصريين . عاملين فى شئون مصر الاقتصادية كما وظفهم يوسف عليه السلام .

وظلوا هكذا حتى طغى عليهم فرعون مصر . لأنهم لم يندمجوا مع أفراد الشعب الذى آواهم ، وحاولوا أن يكونوا طبقة السادة فيه ، وكان طغيان فرعون باغياً حيث أمر بقتل الذكور وترك الإناث مخافة أن يظهر فيهم رسول من الله كما ذكر له أحد العرافين ، لكن الله غالب على أمره فاستبقى موسى عليه السلام وكلفه بالرسالة يبلغها إلى الإسرائيليين وإلى فرعون أيضاً .

وإرسال الرسالة فى هذا الزمان أمر ضرورى حتمته غيبة الرسالات السماوية عن أفكار الناس وضلالهم وكفرهم . فلقد ادعى فرعون الألوهية ، واتخذ

المصريون آلهة عديدة يعبدونها من دون الله . وانشغل الإسرائيليون بالمادة . وتلهوا بها عن كل جوانب الفضيلة والأخلاق .

وكانت دعوة موسى واضحة إذ نادى بتوحيد الله تعالى ، وإخلاص العبادة له وحده . والاتجاه المطلق لرب العالمين ، وفى إطار دعوته قال لفرعون (١) :

﴿قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾

لكن فرعون سخر من دعوة موسى وأخذ يذكره بفضل تصور أنه أسداه لموسى فقال :

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ .

وقال ساخرًا : ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ؟

ورد سيدنا موسى عليه بأدلة من الواقع الملموس فقال :

﴿رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾

﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ .

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾

ومع وضوح هذه الأدلة وقوتها نجد فرعون يتجه إلى التهديد والوعيد ويقول : ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ .

ثم يتجه إلى القوم يحرضهم ضد موسى ويقول :

﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ .

---

(١) إقرأ قصة فرعون فى سورة طه والشعراء .

ويجمع فرعون سحرته ويتحدى موسى بهم ويحشد القوم فى يوم عيد لهم ليشاهدوا التحدى ، وقد بدأ السحرة فألقوا حبالا خيل للناظرين أنها ثعابين ، وثنى موسى عليه السلام فألقى عصاه فإذا هى تلقف ما صنع السحرة ، وبعدها ينتصر الحق وتظهر النتيجة فى إيمان السحرة بدعوة موسى عليه السلام والكفر بفرعون .

وهنا ينتقل فرعون إلى قتل موسى ومن معه . لكن الله يأمر رسوله بالرحيل من مصر بقومه ومتبعيه : فيخرج موسى بقومه ويعبر البحر إلى برية سيناء بعد ما انفلق البحر وصنع طريقاً ، ولما حاول فرعون أن يعبر هو الآخر من هذا الطريق انطبق البحر عليه وغرق فرعون وجنوده .

وبرغم هذه النعم التى أحيطت بالإسرائيليين فى مصر نجدهم بعد نجاتهم يطلبون من موسى أن يجعل لهم آلهة من الأصنام . ويحنون إلى عبادة شىء مادى ملموس . فأضلهم السامرى وصنع لهم عجلا من الذهب عبدوه . هنا يقول لهم سيدنا موسى بعد رجوعه إليهم :

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾

ويذكرهم بنعم الله تعالى عليهم : ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾

ويصل سيدنا موسى بقومه إلى مشارف الأرض المقدسة ويطلب منهم أن يستعدوا لدخول (بيت المقدس) فيقولون له : ﴿لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾

وكانت النهاية التى لخصها قول سيدنا موسى عليه السلام .

﴿رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

فكتب الله عليهم أن يتيهوا فى الأرض أربعين سنة . وبعدها تجمعوا . وساروا على دعوة موسى عليه السلام فترة من الزمان ثم انحرفوا عنها وتشردوا فى البلدان . فأرسل الله لهم سيدنا داود عليه السلام فشجعهم على التجمع وقتال أعدائهم . فلما وافقوا على ذلك كتب الله عليهم القتال واختار لهم طالوت قائداً عليهم . لكنهم اعترضوا على قيادته . فعرفهم سيدنا داود بأنه اختيار الله .

وسار بنو إسرائيل إلى أعدائهم بقيادة طالوت ، وسار سيدنا داود جندياً مع الجنود وتمكن من قتل جالوت . . وعلى يد داود أعطى الله للإسرائيليين عديداً من النعم منها إلانة الحديد وتسخير الجبال والطير .

ومع كل هذا فقد كفر الإسرائيليون بدعوة داود عليه السلام .

وكتاب (داود) عليه السلام هو الزبور . وكان يدعو النـــاس بشريعة موسى عليه السلام .

وعلى شريعة موسى عليه السلام بعث الله أنبياء عديدين إلى بنى إسرائيل من أشهرهم سيدنا سليمان ، وزكريا ، ويحيى ، ويونس ، عليهم السلام .

وقد بذل كل نبى قصارى جهده كداعية صادق إلى الله تعالى ، لكن الإسرائيليين كفروا بكل ما سمعوا وتمسكوا بما ثبت فى نفوسهم من غرائز ، وعادات ، أشهرها الحقد ، والمداهنة ، والكذب ، والتآمر ، وفقدان الإنسانية ، والجبن ، والخداع . إلى غير هذه الصفات التى لازمتهم خلال تاريخهم الطويل الممتد من بدء تجمعهم فى مصر إلى وقتنا الحاضر .

وكانت دعوة سيدنا عيسى عليه السلام آخر الدعوات الإلهية إلى بنى إسرائيل .

٨ ــ دعوة عيسى عليه السلام :

آخر دعوات الله إلى بنى إسرائيل هى دعوة عيسى عليه السلام وهى الدعوة التى سبقت دعوة الإسلام مباشرة ، وقد نادى السيد المسيح بتخليص

بنى إسرائيل عن ماديتهم ، ودعاهم إلى وجوب الطاعة والانقياد ودعوة السيد المسيح تتضمن ما يلى :

(١) توحيد الله تعالى :

دعا عيسى عليه السلام إلى توحيد الله توحيداً مطلقاً فى الذات والصفات والأفعال وبين أن هذا التوحيد حقيقة توضحها خالقية الله لسائر الموجودات وقدرته الأزلية والأبدية .

والله فى دعوة المسيح ليس ذاتاً مركبة وهو منزه من مشابهة الحوادث . والواجب على كل إنسان دعاه المسيح أن يعتقد فى كل كمال يليق بالله تعالى وينفى عنه كل نقص .

والقرآن الكريم ينص على ذلك صراحة فى قوله تعالى :﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾(١) .

فنجد أن عيسى عليه السلام قد دعا قومه إلى توحيد الله كما يجب أن يكون التوحيد .

وليس القرآن وحده هو الذى يشير إلى هذه الحقيقة ، بل إننا نجد بعض فقرات الأناجيل تؤكد دعوة عيسى عليه السلام إلى توحيد الله . جاء فى إنجيل متى قول المسيح لتلاميذه « فصلوا أنتم هكذا أبانا الذى فى السموات ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض لله الملك والقوة والمجد إلى الأبد آمين » (٢) .

---

(١) المائدة آية ١١٦ — ١١٧ .

(٢) إنجيل متى ٦ — ٩ .

وجاء فى إنجيل يوحنا « وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته » (١) .

(ب) إثبات الرسالة :

تضمنت دعوة عيسى عليه السلام إثبات رسالته . حيث قال لهم : « إنى رسول الله إليكم » « ويسوع المسيح الذى أرسلته » فهو عليه السلام مبارك من الله . وشاهد على الناس ما دام فيهم .

(ج) إثبات البعث :

دعا المسيح قومه إلى الإيمان بالبعث حيث يحيى الله الخلائق فى يوم القيامة من أجل مجازاتهم خيراً أوشراً . ولذلك المسيح قال للصدوقيين : «وأما من جهة الأموات أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل : أنا إله ابراهيم وإله اسحق وإله يعقوب . ليس الله إله أموات بل إله أحياء فلما سمعوه بهتوا من تعاليمه (٢) »

(د) الدعوة إلى العبادة :

عبادة الله تعالى من الأسس الرئيسية فى دعوة المسيح لأن التوحيد الخالص يستلزم العبادة النقية المتجهة إلى الله الواحد بلا واسطة وعلى هذا النمط كانت دعوة عيسى إلى العباد فليس لأحد من الأحبار والرهبان توسط بين العبد وربه . بل على كل مسيحى أن يتصل بالله بنفسه فى العبادة المحددة التى عبر عنها المسيح فى قوله « **وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً** » وفى العبادة غير المحددة التى أشار إليها المسيح فى قوله «**أنصفوا المسكين والبائس . نجوا المسكين والفقير** » (٣) وفى قوله « **من يرحم الفقير يقرض الرب** » (٤) .

(ه) الدعوة إلى الأخلاق :

من المبادىء التى اشتملت عليها دعوة المسيح الأخلاق الفاضلة وفى ذلك

---

(١) إنجيل يوحنا ٧ / ٣ ...
(٢) إنجيل متى ٢٣ — ١١— ٣١ .
(٣) الأمثال ١٩ .
(٤) المزامير ٢ — ٤ .

يقول المسيح « **وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً** » : **ولما سأله أحد** الفرسيين قائلا : يا معلم أية وصية هى العظمى فى الناموس ؟ فقال له يسوع : « **تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك هذه هى الوصية الأولى العظمى والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك فبهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء** » (١) .

(و) الاختصاص ببنى إسرائيل :

دعوة المسيح خاصة ببنى إسرائيل . يقول تعالى :﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ﴾(٢) .

ويقول : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾(٣)

وجاء فى إنجيل متى : « **ثم خرج يسوع من هناك . وانصرف إلى نواحى صور وصيدا وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت قائلة : أرحمنى يا سيد** يا ابن داود . ابنتى مجنونة جداً . فلم يجبها بكلمة . فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : أصرفها لأنها تصيح وراءنا . فأجاب وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة »(٤)

وفى أعمال الرسل نصوص تدل على تمسك الحواريين بعد عيسى بأن المسيحية دين لبنى إسرائيل خاصة . فقد خاصم اليهود بطرس لأنه أدخل غير اليهود . وتكلم معهم ، ويروى برنابا قول عيسى : «ولقد أقامنى الله نبياً على بيت إسرائيل لأجل صحة الضعفاء » (٥) .

وقد وقف الإسرائيليون ضد عيسى عليه السلام . فخانه يهوذا أحد

---

(١) متى ٢٢ — ٢٧ .
(٢) آل عمران آية ٤٩ .
(٣) الصف آية ٦ .
(٤) إنجيل متى ١٥ – ١٢ .
(٥) إنجيل برنابا ٥٢ — ١٣ .

الحواريين ، وأسلموه للرومان ، وكفروا بدعوته ، وقد رفعه الله إليه ، وأتباعه يعدون على أصابع اليد .

وصدق الله فى قوله عن مخالفيه ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (١)

وقد كثر الأنبياء فى بنى إسرائيل كرد فعل لتأصل الفساد فى نفوس الإسرائيليين . وانقسامهم إلى طبقات متباينة ، وتنوع الماديات فيهم إلى صور كثيرة

ومع كل هذا فإنهم كفروا واستكبروا وملأوا الأرض بالفساد والشر .

وأخيراً كانت دعوة الإسلام خاتمة لكل الدعوات الإلهية مستفيدة منها . متميزة بشمولها وعمومها ودوامها . معبرة عن سائر مطالب الإنسان فى أسمى مراحل تطوره بما حوت من عقيدة وشريعة وأخلاق .

---

(١) المائدة آية ٧٨ .

الفصل الثانى

السمات العامة للدعوات السماوية

تكاد الدعوات السماوية أن تكون واحدة فى سننها العامة ، وهذا وحده يعتبر درساً لسائر الدعاة إلى الله يوجههم إلى الاستفادة من الرسل ودعوتهم . لأن الرسل صناعة إلهية ، ورسالتهم توجيه من الله سبحانه وتعالى ، ومن هنا فهم أسوة وقادة .

ويمكننا أن نجمل سنن الدعوات فيما يلى :

(١) الإخلاص التام :

الوفاء للحق ، والقيام على أمره ، ومواجهة الناس به ، من أول السمات التى عاش بها رسل الله أجمعين حتى كان هو الجزء الأساسى فى كيانهم كله .

وقد استمر الرسل فى إخلاصهم لدعوة الله لا يخافون من اضطهاد ، ولا يملون من معارضة الناس ، ولا يهتمون بنوعية المستمع إليهم .

فسيدنا نوح عليه السلام يدعو قومه طويلا بلا كلل ولا ملل ، وإذا أعرضوا عنه لا يتركهم . يشير إلى ذلك قول الله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ ﴾(١)

وعلى نمط سيدنا نوح كان رسل الله أجمعين . يتصدون للناس فى صبر وإصرار . ويعيشون كلية فى النور الذى شرفهم الله به . ومن المستحيل أن يخافوا عرفا سائداً ، أو يتملقوا رضى العامة والجماهير .

إن سيدنا يوسف عليه السلام دخل السجن لأنه تمسك بدعوته ، ولم

---

(١) نوح آيات ٥ ، ٨ ، ٩ .

ينحرف إلى ما أرادته امرأة العزيز ، وبعد ما دخل السجن أخذ يدعو إلى دين الله تعالى ، وفى توضيح هذا الموقف يقول لربه :

﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾(١)

ويقول لأصحابه فى السجن :

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾(٢)

وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم استمر فى دعوته بإخلاص تام . ولمــا عرض عليه أهل مكة المال والملك أباه ، ولما هددوه بالإيذاء والإهانة صبر ، واستمر فى طريقه إلى الله تعالى حتى تم له النصر ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

وعلى نمط هؤلاء الرسل الثلاثة كان سائر الرسل فى الإخلاص للدعوة والتصدى للناس ، والوفاء للحق .

(ب) الوضوح التــام :

الرسل جميعاً واضحون فى رسالاتهم ، ليس فى دعواتهم خفاء أو غموض أو التواء ، فهم جميعاً جاءوا بلغة أقوامهم ليبينوا دعوتهم بسهولة ويسر ، ومن تتبع آيات القرآن الكريم نرى أن الوضوح خصيصة لازمة لكل الدعوات . يقول تعالى :

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ويقول ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ويقول ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ .

ومن هذا الوضوح أن الدعوة كانت تنزل منجمة . حتى يفهم السائل : ويقتنع المجادل ، وتنمحى الشبه ، وتستقر الدعوة على أسس ثابتة مؤكدة .

(١ ، ٢) يوسف آية ٣٣ ، ٣٩ .

إن التزام الرسل بالوضوح أبعدهم عن مهادنة الخرافات ، ومسالمة الأفاكين ، وكان هدف الرسل دائماً .

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾(١)

ومن وضوح الرسالات أنهم كانوا يذكرون أصول دعوتهم ابتداء ، ولا يحيدون عنه أبداً ، ويستمرون بعد ذلك فى التدليل على ما دعوا إليه ، صابرين على كل المعارضات ، موقنين بنصر الله لهم فى النهاية .

(ج) تشابه المعارضة :

جوبه الرسل جميعاً بصورة واحدة تكررت مع سائر أممهم ، حيث نجد سائر الأقوام كانوا يعبدون الأصنام من دون الله ، فإذا ما طلب الرسول منهم أن يعبدوا الله وحده أبوا ذلك متعللين بأنهم لن يتركوا ما كان يعبده الآباء والأجداد .

ومن المعلوم أن سائر الأقوام كانوا يوحدون الربوبية . ويتخذون عدداً من الآلهة يعبدونها ، وذلك خلط كبير يجعل الرب فاقداً لكافة الصفات التى سلموها له . لأنهم فى الوقت الذى يوحدون الله ويذكرون قدرته وخلقه للموجودات يعبدون الشركاء معه ويثبتون لهم بعض القدرة ويعطونهم جزءاً كبيراً من التعظيم والتقديس .

ولذلك جاء الرسل على مدى الزمن ليبينوا للناس ما يجب أن يكونوا عليه فى عقيدتهم فيوحدون الله ويخصونه وحده بالعبادة والتعظيم لأنه لا إله سواه ومن هنا كان أول صوت نادى به الرسل أقوامهم هو قوله تعالى :

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾

فنراهم فى ندائهم يقرنون التوحيد بالأمر بالعبادة لأن التوحيد كما يقول الرازى كالعلة للعبادة فإذا لم يكن لهم إله غيره كان كل ما حصل عندهم من وجوه الإحسان والنفع والعطف والبر حاصلا من الله . ونهاية الإنعام توجب نهاية التعظيم فوجبت عبادة الله لأجل العلم بأنه لا إله إلا هو (٢) .

---

(١) الأنفال آية ٤٢ .　　(٢) مفاتيح الغيب ج ٤ ص ٣٦١ .

ويجب أن يكون واضحاً أن المراد من الإله المدعو إليه فى دعوات الرسل هو الإله المستحق للعبادة حقاً دون سواه (١) لأن الأقوام قبل الرسالات كانوا يعتبرون الأصنام والأوثان آلهة . ويعبدونها على هذا الاعتبار . فكان الخطأ فى العبادة تابعاً لخطأ فى التأليه . ولذلك كان على الرسل أن يصححوا نظرة الناس فى التأليه والعبادة ليعبدوا فى إخلاص الإله الواحد الذى لا شريك له .

وجوبه الرسل جميعاً بالمعاندين من أقوامهم . حيث كانوا يوجهون إنكارهم إلى الرسالة كذلك ، بدعوى أن الرسول لا يصح أن يكون بشراً من الناس وعجبوا واستهزأوا لأن من يدعوهم إلى الله بشر من بينهم فكان على الرسل أن يردوا هذا الإنكار بأدلة سهلة ومقنعة ولذلك اعتمدوا فى ردهم على دليلين :

الأول : فى بيان مشابهة رسالتهم للرسالات السابقة .

والثانى : ذكر أن الرسالة اختيار إلهى محض يختص الله به من يشاء .

وقد وضح القرآن هذا الإنكار والرد عليه .

فعن الإنكار قال قوم نوح حينما أرسل إليهم نوح « **ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة** » . وقال قوم هود : « **إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين** » وعلى نمط هذا التكذيب كان سائر الأمم .

وقد أخذ الرسل فى إثبات الرسالة بالدليلين المشار إليهما سابقاً فهم جميعاً كانوا يذكرون أقوامهم بالرسالات التى سبقتهم ويعرفونهم أن الرسالة نعمة خصهم بها الله .

انظر إلى هود فلقد رد على قومه بقوله لهم :

﴿ وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾(٢)

---

(١) تفسير أبى السعود ج ٢ ص ١٧١ .

(٢) الاعراف اية ٦٩ .

وصالح هو الآخر لقومه :

﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾

وشعيب يقول لقومه :

﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾

ويقول أيضاً :

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾

وهكذا بين الرسل لأقوامهم أن الرسالة سنة الله فى الناس منذ القديم وما دام هكذا الأمر فعلى الناس أن يسلموا به فقد ثبت فى الواقع وتأكد منه السابقون .

وأثبت الرسل رسالتهم بالدليل الثانى كذلك ، فبينوا أن النبوة نعمة من الله ورحمة يختار لها من يشاء من البشر تبعاً لمميزات وضعها الله فيمن يختاره ثم يكمله بالوحى ، وبذلك يستطيع أن يقوم بواجبات الرسالة على الوجه الأكمل ومن هذا ما قاله نوح لقومه :

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾

وما قاله صالح لقومه :

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾

وما قاله شعيب لقومه :

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ﴾

والمراد بالرزق الحسن والرحمة المؤتاه هى النبوة التى بعثوا بها وعارضهم الناس فيها .

وهكذا أثبت الرسل رسالتهم بطريقة واقعية لأنهم أعادوا القوم إلى التاريخ المنظور ليتدبروا فيه ويعتبروا به ويصدقوا بالرسالة بعد ذلك . فإن كذبوا بعد ذلك فهو تكذيب بكل الرسالات وإن صدقوا فهو إيمان بجميعها .

ويلاحظ أن معارضى الدعوات دائماً هم الأغنياء ، وكانوا يفخرون بأن أتباع الرسل أغلبهم من الفقراء ، بل إن الأغنياء طالبوا الرسل بطرد الفقراء من أتباعهم . وهكذا كانت سنة الله فى الناس حيث تشابهوا جميعاً أمام رسالات الله تعالى .

(د) اتحاد أصول الدعوات :

من الإجمال السابق لدعوات الله تعالى نعرف أنها جميعاً ذات أصول واحدة نذكرها فيما يلى :

١ — التوحيـــد :

رسل الله جميعاً دعوا إلى التوحيد المطلق لله تعالى الذى يقتضى توحيـــد الألوهية والربوبية معاً . كان ذلك هو الهدف الأساسى من كل رسالة . يقول تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾وقد بينا ذلك .

٢ — إثبات الرسالة :

أثبت الرسل جميعاً رسالتهم لأن ذلك هو الطريق الذى يثبت الوحى ، ويؤدى إلى التصديق فى كل ما يأمرون به أو ينهون عنه .

ولقد حاول المعاندون رد رسالة البشر فأنكروها ، ليسقط بهذا الإنكار كل ما يدعون إليه ، لكن رسل الله أثبتوها بالمعجزة ، وبالإقناع العقلى وإسقاط شبه المعارضين على نحو ما بيناه .

٣ — الدعوة إلى العبـــادة :

كان لاتفاق الرسالات فى إثبات وحدانية الله أن اتفقت بالضرورة فى حتمية التوجه إلى الله الواحد بالعبادة الخالصة التى تشعر بالإنسان المخلوق

باحتياجه إلى الله الخالق وضرورة العيش فى حقيقة العبودية وصدقها ، جاء فى محاسن التأويل « العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة . والطويق المذلل للسير يسمى معبداً . وما سمى العبد بالعبد إلا لذلته لمولاه . وفى العبودية تحرير النفس لله وتخليصها لعبادته وحده لا يشركه شيء ما.لا فى حبه ولا فى خوفه ، أو رجائه ، أو التوكل عليه والتقرب إليه » (١) .

إن العبادة تعتمد أساساً على غريزة التدين فى نفس الإنسان والتى تبدو فى الإحساس الخفى بوجود سلطان غيبي فوق قوى الكون والأسباب . وصاحب هذا السلطان هو خالق السموات والأرض وما فيها . وهو مصدر النفع والضر والمستحق لأن يعظم ويقدر .

إن الرسالات جاءت لتؤكد هذه الفطرة وترسم لها طريق استقامتها حتى لا تنحرف كما انحرفت من قبل واتجهت إلى عبادة صنم أو وثن تحسب أن له دخلا فى هذا السلطان الكبير .

والعبادات التى دعا إليها الرسل نوعان :

الأول : محدد مقدر مكيف بنص مقدس لا يقبل التغيير والتبديل .

والثانى : ليس كذلك ويدخل فى دائرة الأخلاقيات المشتملة على كل ما هو حسن وصالح .

أما عن النوع الأول فيقول الغزالى عنه : « إنه محدد مقدر من جهة الأنبياء لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة (٢) ويقول العقاد عنها : إنها شعائر توقيفية تؤخذ بأوضاعها وأشكالها (٣) . والعبادات المحددة التى هى عادة ما يلتمس أثرها ويطلب سرها كالصوم والصلاة والزكاة والحج اتفقت الدعوات السابقة فى وضع أصولها للناس حتى يتحقق الانقياد العملى ويظهر الإخلاص لله تعالى بها » .

---

(١) محاسن التأويل جـ ٢ ص ٠ ، ١٠ .　　(٢) المنقذ من الضلال ص ١٨٥ .

(٣) حقائق الإسلام ص ١٠٨ .

هذا هو سيدنا إبراهم عليه السلام يدعو ربه أن يمكنه وذريته من إقامة الصلاة فيقول :

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ .

ومن الأوصاف التى استحق بها سيدنا إسماعيل المدح إقامته للصلاة .

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾

وحينما كلف موسى بالرسالة كان أول ما أمر به هو الصلاة حيث قال الله له :

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾.

وأمر هو وأخوه هرون بها فقال تعالى :

﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومن وصايا لقمان لابنه :﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾

والصلاة أول ما نطق به عيسى فى المهد إذ قال :

﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾

فنرى الرسل قد كلفوا بإقامة الصلاة وبلغوا هذا التكليف .

إن الصلوات الواردة على ألسنة الرسل أعمال مكررة فى مواعيد ثابتة . وتحتاج إلى تدبر وتذكر وخشوع كما يدل على ذلك لفظ إقامة الذى أسندت إليه الصلاة وكيفية هذه الصلاة من ناحية الإحاطة بها تحتمل رأيين :

الأول : أن يطلع الله كل رسول على كيفية صلاة الأمم السابقة وتفاصيلها وهيآتها لتبقى معلومة لديه .

الثانى : أن لا يطلع الله الرسل على التفاصيل وإنما يعرفهم بها فى إجمال .

وهذان الرأيان ذكرهما الرازى عند تفسيره(١) لقوله تعالى :

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾

وقد ذكر فى سورة لقمان أن هذه الكيفية للصلاة اختلفت هيئاتها من رسالة إلى رسالة وإن اتحدت فى حقيقتها وغرضها (٢) .

وسواء كانت كيفية الصلاة معلومة للرسل أو غير معلومة فإنه لا يمنع أن يكون هناك اشتراك فى بعض أجزاء هذه الكيفية كالتوجه إلى قبلة وإن اختلفت : فلقد ثبت أن اليهود كانت تتوجه إلى بيت المقدس كما ثبت من مشاركة النبي صلى الله عليه وسلم لهم فى هذا التوجه بعد الهجرة واستمر فى هذه المشاركة سبعة عشر شهراً حتى أمر بالتحول إلى الكعبة (٣) فى مكة .
وكالركوع والسجود فإن إبراهيم عليه السلام قال :

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾

ومريم نوديت :

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾

وداود عليه السلام :

﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾

وكتأدية الصلاة فى مكان طاهر كالمسجد والبيع والكنائس . والزكاة أيضاً بمعناها البسيط الذى هو إعطاء المحتاج جزءاً من المال معونة له . جاءت أصولها فى الرسالات السابقة .

فعن إبراهيم وابنه إسحق يقول تعالى :

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾

---

(١) مفاتيح الغيب ج ٦ ص ١٨ .
(٢) مفاتيح الغيب ج ٦ ص ٧٣٦ .
(٣) لباب المنقول ج ١ ص ٢٣ و ٢٤ .

ومن صفات اسماعيل عليه السلام .

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ﴾

ومن أقوال المسيح فى مهده .

﴿وَأَوْصَٰنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ﴾

والصيام معروف فى الرسالات السابقة يقول تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

والحج منذ سيدنا إبراهيم عليه السلام معروف للناس بعد أمر الله له ،

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾

وعلى هذا فأصول العبادات موجودة فى جميع الرسالات السابقة . وذكر وجود هذه الأصول منذ القديم يفيد تقبلها ، لأن العبادة تكليف ومشقة والشىء الشاق إذا عم سهل تحمله ، يقول أبو السعود : فى ذكر العبادات تأكيد للحكم وترغيب فيه وتطييب لأنفس المخاطبين (١) .

وكما سبق من اختلاف كيفية الصلاة فكيفية العبادات على نمطها ومنها الصوم فإن جميع الرسالات جعلته امتناعاً عن المفطرات فى وقت معلوم والتشبيه الوارد فى قوله ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يفيد المماثلة فى أصل الوجوب ، أوفى الوقت ، أو فى المقدار ، وقد رجح الفخر الرازى أن المماثلة فى أصل الوجوب فقط لأن الكيفية تختلف على حسب استعدادات المكلفين وقدراتهم (٢) .

ويكفى أن تعلم أن الكيفيات التى وضعت فيها العبادات سابقاً كانت تضمن الانقياد لله والامتثال المطلق فى النفس والمال وكافة ما يستطيعه البشر .

---

(١) تفسير أبو السعود جـ ٢ . (٢) مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ١٧١ .

والعبادات الإسلامية تتحد مع أصول العبادات عموماً وتقصد أهدافها تماماً وقد جاءتنا مفصلة الهيئات معروفة بدقة من ناحية الوقت والكيفية والمقدار .

٤ — الدعوة إلى الأخلاق :

بدأ الرسل فى دعوتهم إلى الأخلاق مع بداية الدعوة ، حتى يصنعوا بالأخلاق حاجزاً بين النفس وشهوتها والقلب وهواه ويرسموا للإنسانية طريقاً مليئاً بالفضائل والصلاح .

وإنما بدأوا هكذا لأن الإيمان بالله قرين الأخلاق وكلاهما يستلزم خضوعاً وخشوعاً وطاعة مطلقة لله تعالى . وتجنب المظالم وإنصاف النفس من كل ما يشينها ويرديها . وكلاهما يستوجب على صاحبه أن يتحلى بالآخر ، ولا يكمل الآخر إلا مع الأول ، ولذلك لم يبعث رسول إلا إلى قوم فسدت أخلاقهم . وضلت عقائدهم . وعاثوا فى الأرض فساداً واستكباراً ، فى هذا الوقت تعمل الرسالات على إصلاح هذا الحال مع الدعوة إلى الإيمان .

هذا هو سيدنا نوح عليه السلام بعث فى قوم ضلت عقائدهم وفسدت أخلاقهم وأخذوا فى تلقين ناشئتهم هذه المبادىء الضالة فى العقيدة والأخلاق يقول أبو السعود عنهم : إنهم أصروا على المعاصى والكفر واستكبروا استكباراً شديداً عن الاتباع والطاعة ، ، ولوضعهم هذا طلب الرسول منهم أن يعبدوا الله ويتركوا المعاصى وقال لهم : ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

وهود عليه السلام دعا قومه إلى توحيد الله وعبادته ، وفى نفس الوقت أمرهم أن يتوبوا عن المعاصى ويستغفروا الله من الذنوب ولا يصروا على الإجرام والظلم فقال لهم : ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً

إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)﴾

ولقد دعا هود قومه إلى التوبة والاستغفار مع دعوتهم إلى التوحيد . لأنهم عتوا عتواً كبيراً واستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا غروراً وتعالياً :
﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ .

وصالح عليه السلام بعثه الله لقومه فطلب منهم أن يعبدوا الله الواحد وينبذوا فاسد الأخلاق ويتوبوا عنها .

وقد أخذت التوبة أهمية كبرى فى دعوة صالح لأن قوم صالح عتوا كثيراً وأفسدوا فى الأرض وعبدوا الأوثان فى الوقت الذى تمتعوا فيه بنعم من الله وفيرة . إذ خلفوا عادا وطالت أعمارهم وكثر رخاؤهم ونحتوا من الجبال بيوتاً وحصوناً . واتخذوا من السهل قصوراً ومساكن فكان لابد أن يذكرهم صالح بهذه النعم عند دعوتهم كما قال لهم :

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

وهكذا دعا صالح عليه السلام قومه إلى التوحيد وفى نفس الوقت دعاهم إلى ترك الفساد والاستكبار .

وشعيب عليه السلام دعا قومه إلى التوحيد واستقامة الأخلاق .

و « لوط » عليه السلام يبـدأ دعوته بأن يستنكر على قومه مفاسدهم فطالبهم بتنقية أخلاقهم قبل أن يطالبهم بالتوحيد . ذلك لأنهم كما ذكر صاحب قصص الأنبياء كانوا قد ابتدعوا من المنكرات ما لم يسبقهم إليه أحد من الناس حيث كانوا يأتون الذكران من العالمين شهوة من دون النساء ولا يرون فى ذلك سوءاً أو قبحاً فيعلنونه ولا يستترون (١) ، فهم فى هـذا الباب فريدون لا سابق لهم .

---

(١) قصص الأنبياء ص ١١٣ .

ومن بعد سيدنا لوط رأينا موسى عليه السلام يدعو إلى الأخلاق ويقول لفرعون :

﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾

فقد بين له أن الهدف هو أن يتطهر من دنس الكفر والطغيان عن طريق خشية الله . وقد خاطبه بأسلوب الاستفهام ليستدعيه بالتلطف فى القول ويستنزله بالمداراة من عتوه تنفيذاً لقوله تعالى :

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾

وعيسى عليه السلام لما سأله أحد الفريسيين قائلا : يا معلم أى وصية هى العظمى فى الناموس ؟ فقال له يسوع . تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك . هذه هى الوصية الأولى العظمى والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك فبهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء (١) فقد دعاهم إلى الله ومكارم الأخلاق .

وقد ضمت آيات كثيرة التوحيد والخلق معاً وجاءت أمراً إلى الأمة الإسلامية ومن هذه الآيات قوله تعالى :

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾

وهكذا تلتقى الدعوات جميعها على الدعوة إلى مكارم الأخلاق .

٥ — إثبات يوم القيامة :

يوم القيامة وما فيه من فوز للمطيعين وعقاب للعصاة بعد بعث الخلائق وحسابهم . أمر أجمعت الدعوات على تأكيد إثباته حتى يشعر الإنسان

---

(١) إنجيل متى ، الاصحاح الثانى والعشرين ، الفقرات ٣٧ — ٤١ .

بالمسئولية الدائمة فى كل شىء ويعلم أن كل ما يفعله فى حياته الدنيا سوف يلقاه فى الآخرة إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

ولما كان الإنسان بفطرته يحس أن حياته ليست جسداً فقط ينتهى بالموت بل إن له مع الجسد روحاً لا تفنى . ولكنها تنتقل إلى مكان آخر تسعد فيه أو تشقى . وتنعم بأعمالها أو تعذب .

هذا الإحساس النظرى عند الناس كان أساساً اعتمدته جميع الرسالات السماوية ووضحته بنصوصها المقدسة . وبينت أن العبث الأخروى أمر مؤكد وأنه فى يوم القيامة سوف يحاسب الجميع بأعمالهم ويجزون على الطاعة ثواباً خالداً ونعيما مقيما ، وعلى العصيان العذاب والألم .

ولعل الهدف من بيان حقيقة البعث وإثباته أولا عند الناس هو تخويفهم من الإهمال وتحذيرهم من العصيان ، ذلك أن الرسل صلوات الله عليهم قدموا التخويف والتحذير فى دعوتهم وذكروهما قبل أى شىء آخر . وأعظم التخويف هو بالبعث ويوم القيامة . وإنما قدم الرسل ذلك لأن غالبية القوم مقلدون . والمقلد لا ينظر فى الدليل ولا يعتبر بالآيات إلا إذا خاف . يقول الرازى : إن المقلد إذا خوف خاف وما لم يحصل الخوف فى قلبه لا يشتغل بالاستدلال ولهذا السبب قدم الرسل التخويف دائماً كما أشارت لذلك سورة الشعراء حيث كان الرسل يقدمون قوله تعالى :

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ على ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(١)

وقد تتابع الرسل بعد نوح عليه السلام وكلهم يثبت المعاد ويؤكده ويخوف قومه منه . فلقد خوف « هود » قومه من عذاب يوم عظيم وقدم لهم قوله (ألا تتقون) ليشعرهم بالخوف من عذاب الله الذى سينزل بهم .

وسيدنا شعيب رضى الله عنه خوف قومه من يوم القيامة ودعاهم إلى العمل الصالح من أجل الفوز فيه فقال لهم :

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٦ ص ٥٣٣ .

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(١)

وإنما قال لهم هذا رجاء أن يستجيبوا لدعوته ويؤملوا فى ثواب يوم الآخرة .

وأيضاً فلقد بين سيدنا إبراهيم عليه السلام أن الإيمان بالله جزء من العقيدة لا تتم إلا به ولا ينزل الخير والأمن فى الدنيا إلا على أساس الإيمان كله ، بين ذلك وهو يدعو ربه قائلا :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

فنراه عليه السلام يقصر دعوته بالخير والأمن على من يستحقها من الناس، والمستحق هو من آمن بالله واليوم الآخر . أما الكافر بهما فهو إن تمتع فإنما يتمتع قليلا فى الدنيا لكنه فى الآخرة سوف يعذب بعذاب النار وبئس المصير.

وفى هذه الآية يوضح سيدنا إبراهيم حقيقة الإيمان والكفر ومآل كل واحد منهما عند الله .

إن المؤمنين بالله يسلمون باليوم الآخر ويصدقون بالبعث ويعملون الصالحات من أجل النجاة فى الآخرة وهم لا يؤثرون أى عمل على طاعة الله . انظر إلى سحرة فرعون لما آمنوا قالوا لفرعون :

﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾

وقالوا أيضاً :

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾

---

(١) العنكبوت آية ٣٦ .

فإنهم بذلك أعلنوا إيمانهم الذى لا يعبأ بالدنيا وعذابها وذكروا أنهم ينتظرون الآخرة وما فيها من حساب وجزاء وفق ما أرشدهم سيدنا موسى عليه السلام فلقد نقل إليهم قول الله له

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾

ونقل كذلك قوله تعالى :

﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾

فالإخراج من الأرض بالبعث وعودة الروح إلى الجسد من أجل الحساب والجزاء على الأعمال ذكره موسى ليثبت لهم البعث الذى هو من أصول دعوته وأحد الأركان التى يقوم عليها الإيمان .

إن المؤمنين من أتباع موسى عليه السلام لشدة يقينهم بالقيامة كانوا يخوفون أهاليهم من أقوالها كالرجل الذى آمن منهم ونادى فيهم قائلا﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ويوم التناد هو يوم القيامة لأنه ينادى فيه بعضهم بعضا للاستعانة . أو يتصايحون بالويل والثبور. أو يتنادى أصحاب النار وأصحاب الجنة . أو يند بعضهم من بعض على قراءة التشديد ، وعن الضحاك إذا سمعوا — أى الكفار — زفير النار ندوا هرباً فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفاً فبينما هم يموج بعضهم فى بعض إذ سمعوا منادياً أقبلوا إلى الحساب (١) .

والبعث هو أول ما نطق به عيسى عليه السلام وهو فى المهد إذ قال : ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾، وكان يقول لليهود الصدوقيين الذين ينكرون البعث « وأما من جهة قيامة الأموات أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل أنا إله ابراهيم وإله إسحق وإله يعقوب ليس الله إله أموات بل إله أحياء ، فلما سمعوه بهتوا من تعليمه » (٢) .

ولقد حفلت الدعوة الإسلامية بإثبات البعث وبينت أنه أحد أركان العقيدة الإسلامية والإيمان به شرط حتمى للإيمان .

---

(١) تفسير أبو السعود جـ ٥ ص ٩ . (٢) إنجيل متى ، إصحاح ٢٢ ، الفقرات ٣١ — ٣٣ .

الفصل الثالث

فوائد ذكر الدعوات السابقة

تعرضت الدعوة الإسلامية بعد ظهورها لسيل من التكذيب وتلقى المسلمون ألواناً كثيرة من التعذيب . ولم يقف الخصوم عند حد فأنكروا النبوة، وكذبوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وعذبوا المسلمين ومنعوا أتباعهم من الإيمان ، فكان من حكمة الله تعالى أن بين فى القرآن المكى ما يؤيد الدعوة ويفيدها بذكر الدعوات السابقة ومناقشاتها وتأتى الفائدة فى الأمور التالية :

١ ـ إثبات النبوة والرسالة .

٢ ـ إظهار ترابط الدعوات بالإسلام .

٣ ـ تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم فى دعوته .

٤ ـ دفع الناس إلى اتباع الدعوة الإسلامية .

وسنذكر هذه الأمور على النحو التالى :

١ ـ إثبات الرسالة والنبوة :

النبوة أساس الدعوة ودستورها وطريقها المؤدى إلى تنزل الوحى الأعلى على البشر فى الأرض . وكان العرب فى مكة متوهمين أن الواسطة ضرورة للاتصال بالإله فاتخذوا أصنامهم لتقربهم إليه . فلما ظهرت الدعوة الإسلامية ونودى فى الناس أن محمداً هو النبي المختار لتلقى الوحى من الله . لما ظهر ذلك أنكر العرب أن تكون النبوة لبشر وأن تكون لمحمد من بين سائر البشر وبنوا إنكارهم على أساسين توهموهما صواباً فقالوا :

أولا : النبوة شرف كبير ومنزلة خاصة لا ينبغى أن تكون للبشر وشأنها أن تكون خاصة بالملائكة وحدهم .

وقالوا : ثانياً : وحتى لو كانت لبشر فانه لا يصح أن يكون من أقلنا بل اللازم أن يكون من أغنيائنا وسراتنا ولتوهمهم الصدق فى أفكارهم

أخذوا يجادلون عنه ويتعجبون ويثيرون من حوله المناقشات الساخرة . وقد صور القرآن موقفهم فقال تعالى :

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾(١)

والناس هم كفار مكة وقد اتخذوا العجب من هذا الشأن ملهاة دائمة ومما جعل القرآن يؤثر اللام بدل عنه فى قوله « للناس » يقول الرازى : « إن اللام تفيد أن القوم جعلوا الإنكار لأنفسهم أعجوبة يتعجبون منها ونصبوه وعينوه لتوجيه الطيرة والاستهزاء والتعجب إليه (٢) »

ولم يكن مصدر هذا كله عندهم إلا لأن المبعوث بشر من جنسهم يروى الضحاك عن ابن عباس لما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا أنكرت العرب ذلك فقالوا : **الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً (٣)** وهذا مصداق قوله تعالى حاكياً موقفهم :

﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾(٤)

وتوقفوا عن الإيمان بالنبوة وتساءلوا فى إنكار قائلين :

﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾(٥)

بل أنكروها صراحة .

﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾(٦)

ولم يكتفوا بالإنكار بل رأوا أن يكون الرسول ملكاً تؤهله طبيعته للرسالة والوحى ، ورأيهم هذا قائم على جهل بالحق والواقع فهم يمنعون

---

(١) يونس من آية ٢ . (٢) مفاتيح الغيب جـ ٤ ص ٧٧٧ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٩٦ هامش الجامع لأحكام القرآن جـ ٨ ص ٣٠٦ .

(٤) سورة ق آية ٢ .

(٥) سورة الإسراء آية ٩٤ .

(٦) سورة الأنعام آية ٩١ .

رأيهم فى موضع الخالق « وحاشاه » وقد اقترحوا بعد ذلك اقتراحاً وسطا وهو أن ينزل مع البشر إذا أرسل ملكا يشاركه الرسالة ويصدقه فى دعوته .

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾(١)

وأنكروا كذلك أن يكون البشر هو محمد لأنه فقير يتيم رعى الغنم بأجر ، وتاجر فى أموال الناس بمقابل وذكروا أن البشر الرسول يجب أن يكون غنياً ذا وجاهة فى الناس واقترحوا بديلا لمحمد فى أحد عظماء مكة أو الطائف.

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾(٢)

وعينوهما فى الوليد بن المغيرة المخزومى وعروة بن مسعود الثقفى أو فى غيرهما ممن جمع العظمة بالجاه والمال . ولم يتضمن قولهم هذا اعترافاً بالقرآن ولكنه يرده معللا بالسبب وهو أنه لو كان قرآناً لنزل إلى أحد هؤلاء لتتناسب جلالة الرسالة مع جلال الشخص من حيث المال والجاه (٣) ، ولم يتركهم القرآن فى غيهم وإنكارهم بل رد عليهم وأفحمهم وعرفهم أن الرسالة تقتضى تجانساً بين الرسول والمرسل إليهم لكى يفهم مشاعرهم وخواطرهم وحتى تتحقق بينهما وحدة فى الخطاب وفى الفهم وفى كافة الأحاسيس . وما دام المرسل إليهم بشر فلابد أن يكون الرسول بشرا ولا يكون ملكاً إلا إذا بعث إلى الملائكة . يقول تعالى :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾(٤)

وهذه بديهية مؤداها أن الله لو بعث إلى البشر ملكاً فلابد أن يتشكل بالبشرية وإلا لما استطاعوا رؤيته ولأصيبوا بالضرر إن رأوه على صورته الأصلية . وإن ظهر الملك فى الصورة البشرية فكيف يؤمن البشر أنه ملك

---

(١) سورة الفرقان آية ٧ .
(٢) الزخرف آية ٣١ .
(٣) تفسير أبى السعود جـ ٤ ص ٤٣ .
(٤) سورة الإسراء آية ٩٥ .

وهم يرونه كواحد منهم . وهكذا تبقى شبهتهم وتستمر فى دورانها بلا انتهاء . يقول تعالى مشيراً إلى هذه البديهية .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾(١)

وما دام رأيهم يستلزم هذا الإشكال فعليهم أن يؤمنوا بالرسول البشر .

ورد القرآن عليهم أيضاً فى ظنهم أن الرسالة يجب أن تكون لغنى ذى جاه كما طلبوا لأنهم بنوا هذا الطلب على أساس خاطىء مؤداه أن جلال الرسالة يستلزم غنى الرسول وتمتعه بجاه كبير . وهم بذلك الوهم ما دروا أن الرسالة رتبة روحية وسمو نفسى لا يجعلها الله إلا لذوى النفوس الزكية المؤيدة بالقوة القدسية وقد أبطل الله وهمهم بقوله تعالى :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(٢)

فأنكر الله عليهم قسمة النبوة لأنه سبحانه لم يترك لهم قسمة المعاش الدنيوى فكيف يترك قسمة النبوة لهم وهى أعظم ؟ وأيضاً فإن تفاوت درجات الناس فى الغنى ليس أمراً اختيارياً فكيف تكون النبوة التى هى خير من كل مال الدنيا اختياراً (٣) .

إن النبوة منحة إلهية يعطيها الله لمستحقها من البشر وخير الناس محمد صلى الله عليه وسلم الذى ينكرون نبوته ومع ردود القرآن المنطقية على كفار العرب فانهم حاولوا وما آمنوا . فكان لابد من رد أكثر إفحاماً لهؤلاء المعاندين وهو إثبات المسألة بالواقع المحسوس لأن العقول البشرية بطبعها تصدق بما له نظير ولذلك لم يكتف القرآن بالرد العقلى النظرى . وإنما أخذ يبين لهم أن إنكارهم باطل بالنظر إلى الواقع الذى حدث فى الزمن قبلهم حيث ثبت أن الله أرسل إلى الناس رسلا من

---

(١) الأنعام آية ٩ . (٢) الزخرف آية ٣٢ .

(٣) تفسير النسفى جـ ٤ ص ١١٧ و ١١٨ بتصرف .

البشر وفى أقوامهم على فترات مكررة منذ أن خلق الله الناس إلى زمن عيسى عليه السلام . وما دامت النبوة قد تحققت هكذا فى الجنس البشرى من قبل فمن باب أولى أن تتحقق لمحمد صلى الله عليه وسلم لأن نبوته ليست بدعا حتى تنكر ، أوفريدة حتى تستحق كل هذا العجب والاستهزاء . ولقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم للناس هذه الحقيقة حينما ذكر لهم أمر الله إليه فى قوله تعالى:

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾(١)

فبين لهم بذلك أن الشأن هو الشأن ولا جديد فى أن يكون المبعوث بشرا لأن واقع الماضى أثبته وقرره وهذا أكبر دليل على إثباته فى الحاضر . وحتى تثبت النبوة بهذا الطريق العملى اهتم القرآن المكى وهو كثير باثبات الرسالة عن طريق إثبات الرسالات السابقة للبشر وهذا أسرع طريق فى الإثبات .

إن السور المكية هدفت إلى هذا الموضوع بوضوح . وقلما تجد سورة مكية خلت من هذا الاتجاه وكثيراً ما تشير السورة المكية . وهى تثبت الرسالات السابقة . إلى أن القصد الأساسى هو الرسالة الخاتمة من أجل إثباتها ورد منكريها .

والقرآن المكى يثبت ذلك بأكثر من اتجاه . ولنأخذ سورة لنلقى نظرة سريعة على محتوياتها فى هـذا الشأن ولتكن هى سورة الأنعام المكية (٢) فنجدها تقصد أولا بالذات إلى إثبات الرسالة للبشر وتؤكد أن ذلك جار على السنن الإلهى منذ قديم وهى لكى تصل إلى غرضها هذا تتنوع فى اتجاهها . فنراها تارة تعرض شبهة القوم وترد عليهم بما يبطل شبهتهم ويثبت الرسالة للبشر . وترد أحياناً بجواب عقلى مقنع . وأحياناً أخرى تشير إلى الرسل السابقين وبعض ما حدث لهم . وتبين فى مكان آخر أحوال متبعى الرسل لإثبات مدعاهم . ولا تبعـد عن أعداء الرسالات فتذكرهم وتصفهم وتبين منطقهم المخادع وتختم هذه الاتجاهات بحديث عن وحـدة الأديان وحديث آخر موجز عن الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام . على هذا التخطيط سارت سورة الأنعام . وقد لاحظنا أن أكبر أهدافها هو إثبات

---

(١) سورة الأحقاف آية ٩ .

(٢) الإتقان جـ ١ ص ٩ الأنعام مكية إلا ثلاث آيات من « قل تعالوا .. » .

الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم البشر وذلك الهدف الغالب على جميع السور المكية مراعاة لأهميته لأن الرسالة إذا ثبتت وآمن الناس بها فان بقية العقائد تثبت عن طريقها بالنص المسموع الذى نزل الوحى به على لسان الرسول الكريم الذى ثبتت رسالته .

إن إثبات الرسالة بالواقع الماضى لدليل أكيد الأثر فى الناس ولذلك ركزت عليه السور المكية ولننظر سريعاً فى بعض آيات سورة الأنعام التى أخذناها نموذجاً لبقية السور حيث لا تختلف عنها إلا فى القليل .

يقول تعالى فى سورة الأنعام : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾(١)

ويقول : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾(٢)

ويقول : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾(٣)

ويقول : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾(٤)

ويقول : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(٥)

---

(١) سورة الأنعام آية ٨ و ٩ .
(٢) سورة الأنعام آية ٣٤ .
(٣) سورة الأنعام آية ٤٢ .
(٤) سورة الأنعام آية ٩١ .
(٥) سورة الأنعام آية ١٥٩ .

ويقول : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(١)

ويلاحظ أن هذه الآيات ليست هى كل ما فى السورة لإثبات الرسالة لكنها شواهد رئيسية تدل على منهج السورة فى عمومها وعلى منهج السور المكية الأخرى . إن اتجاهات هذه الآيات التى اخترتها تدور على ما يلى :

١ — تثبت أن القوم قد أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لكونه بشرا وادعوا أن المبعوث لابد أن يكون من الملائكة أو يجب على الأقل أن ينزل مع البشر ملك يصدقه ويعينه وتبنوا هذا الادعاء كما بينته الآية ٩ .

٢ — تشير إلى أن الأمم السابقة قد كذبوا رسل الله إليهم وآذوهم لكن الرسل صبروا واحتملوا حتى جاءهم نصر الله الحتمى لرسله . وهذا الشأن فى الناس أجمعين . آية ٣٤ . وتشير آية ٤٢ إلى أن المكذبين أخذوا بشدة بالغة لكى يعرفوا عاقبة تكذيبهم وعساهم أن يعتبروا .

٣ — تبين أن القوم فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ليسوا على صواب فى طلبهم أن يكون الرسول ملكاً لأنه لو كان ملكاً لحصل كما تشير الآية ١٠ أن يظهر الملك فى صورة بشرية تمكنه من الاتصال بالناس . وفى هذه الحالة ينشأ لبس على أفهام الناس المعاندين حيث يظنونه بشرا حقيقياً فلا يزول الإشكال إذاً ويبقى طلبهم بلا انتهاء .

٤ — يخطىء القوم فى إنكارهم رسالة البشر وزعمهم أن الله لم ينزل على البشر كتاباً قط . ويكفى لتخطئتهم أن يوجه إليهم سؤال مؤداه : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى كما فى آية ٩١ . وهنا سيعترفون بأن الله هو منزل الكتاب على موسى البشر الذى لا يزيد عن محمد فى شىء أبداً فكلاهما بشر .

٥ — تبين أن دين الله واحد تتشابه سننه ولا تختلف تطبيقاته . ومن أجل هذا تشير آية ١٦١ إلى أن دين النبى محمد ﷺ هو ملة إبراهيم عليه السلام الحنيفية فدعوتهما صورتان لدين واحد ظهر فى زمانين مختلفين .

---

(١) سورة الأنعام آية ١٦١ .

وعلى الجملة فذكر الرسالات السابقة طريق أكيد لإثبات الرسالة المحمدية وإمكان بعثة البشر للناس . يقول ابن تيمية فى هذا المجال : « يقرر الرب سبحانه وتعالى فى القرآن أمر النبوة وإثبات جنسها بما وقع فى العالم من قصص الأنبياء فهو سبحانه يثبت وجود جنس الأنبياء ابتداء حتى يثبت نبوة محمد من باب أولى (١) . وهكذا فإن سبق الحدث وتكروره أكبر دليل على إمكان حدوثه من جديد . والبشر دائماً يصدقون بما صدقوا بمثيله مسبقاً . ولذلك قال مؤمن آل فرعون ينذر قومه .

﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾(٢)

فخوفهم بالمماثلة الماضية ليكونوا إلى تصديقه أسرع وقال ورقة ابن نوفل حينما ذهب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم يستفتيه فى أول الوحى « **هذا الناموس الذى نزل الله على موسى (٣)** » . ولما هاجر المسلمون إلى الحبشة وحاول القرشيون إعادتهم واستمع النجاشى إلى رأى المهاجرين ومندوبى قريش قال عن رسالة الإسلام « **ان هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة (٤)** » . فعامل المماثلة هو الذى أدى بهؤلاء إلى التصديق بما صدقوا به . ومن هنا كان إيراد السور المكية للرسالات السابقة طريق سهل فى إثبات الرسالات الخاتمة . وكثيراً ما تذكر هذه السور علة تفصيلها عن الماضين وأسباب ذكرها للرسالات وتشير إلى أنه يهدف الأمة التى نزل القرآن لها . ومن هذا الذكر قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٥)

---

(١) النبوات ص ٢٣ و ٢٤ . (٢) سورة غافر آية ٣٠ و ٣١ .
(٣) صحيح البخارى – كيف كان بدء الوحى ج ١ ص ٤ .
(٤) سيرة النبى (ص) ج ١ ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .
(٥) الأعراف آية ١٧٤ .

ومن قوله تعالى :

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١)

ومنه قوله تعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى الْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢)

وعلى هذا النمط تدور السور المكية من أجل هدف هو أن يؤمن النــاس بالرسالة التى بين أيديهم فهى بهذا موعظة ونجاة وعبرة وإنذار وآية ورجاء أن يؤمن الناس ويرجعوا إلى الله تعالى وما دامت النبوة قد ثبتت للبشر فاثباتها لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سهل خاصة وأنه أظهر للناس قرآن الله المعجز وتحداهم فلم يقدروا . وأما اعتراضهم بأن الرسالة لا يصح أن تكون لرجل فقير لا جاه له كمحمد فهو اعتراض مردود لأن النبوة اختيار إلهى يخص بها الله من يستحقه من الناس بسبب سمو نفسه وطهارة كيانه وسبب تمتعه بكمال يمكنه من الاتصال بالملأ الأعلى . أما المال فهو ظل زائل لا يعطى للنفس كمالاً غير كمالها . كما أن أمر المعاش كله لله يبسطه بإرادته لمن يشاء ويقدره إن أراد عمن يشاء . واختياره سبحانه للنبوة وقسمته للمال والمعاش تابع لعلمه المحيط وحكمته الدقيقة . وكل شيء عنده بمقدار .

يقول أبو السعود « والذى تقتضيه الحكمة أن ينزل الوحى على الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب ويلقوا إلى جانب (٣) » .

وان كان سبب اعتراض المعاندين هو أن الرسول منهم فالرد سهل كذلك، لأن إرسال الرسول وسط قومه أمر عادى فلقد أرسل الله إلى عاد أخاهم

(١) يونس آية ١٠٣ . (٢) يوسف آية ١١١ .

(٣) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٣٠٦ .

هودا وأرسل إلى ثمود أخاهم صالحا وأرسل إلى مدين أخاهم شعيبا فلا مانع أن يبعث محمد ﷺ فى العرب أولا لينطلق منهم إلى العالم كله خاصة وأن محمد ﷺ بينهم سباق إلى إحراز الفضائل منذ عرف قبل النبوة وأخلاقه المعلومة لهم تحوى كثيراً من صفات الكمال والصفاء . وهكذا فسبقه بالرسل واشتهاره بالفضائل يرد كل اعتراض ويدفع إلى إثبات الرسالة له صلى الله عليه وسلم .

إن ذكر الرسالات تثبت الرسالة الخاتمة وتؤكدها لمحمد البشر صلى الله عليه وسلم الذى تحدى بالقرآن المعجز وأخبر فى ثناياه عن هذه الرسالات دفعاً للناس إلى الإيمان بدعواه والتصديق برسالته . وهكذا تستفيد الدعوة الإسلامية وتثبت الرسالة .

٢ ـ إظهار ترابط الدعوات بالإسلام :

«تتفق الدعوات السماوية كلها فى محاولة النهوض بالإنسانية عن طريق تحقيق السعادة وإقرار السلام . ولأن الهدف فى الجملة واحد عند سائر الدعوات فإنها ترابطت فى دقة وتماسكت فى تعاون واضح وبدت كسلسلة متشابكة مكونة من مجموعة من الحلقات . وكل دعوة تمثل حلقة فيها وهى مع زميلاتها تعطى تكوينا متكاملا يستفاد به . ولذلك قامت كل دعوة بدورها فى هذا الترابط حيث تكمل ما سبقها وتصدقه وتمهد لما سيأتى بعدها ، لأن كل رسالة قبل الإسلام كانت تصدق بسابقها وتكمل بما يطاق وتمهد للأحق الآتى من رسالات الله (١) » . وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذا التكامل بقوله : « **مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين(٢)** » وهكذا فصاحب الدار هو الله سبحانه وتعالى والأنبياء برسالاتهم لبنات فيه .

(١) المدخل إلى دراسة الأديان ص ١٣ .

(٢) صحيح مسلم جـ ٧ ص ٦٤ و ٦٥ كتاب الفضائل باب ذكر أن النبى (ص) خاتم النبيين .

والنبي ﷺ ودعوة الإسلام تمام هذا البناء وآخر اللبنات ، واللبنات كلها تتضافر فى إعطاء البيت كماله الدقيق وجماله اللافت للعقول المدركة . واتحاد الدعوات على هذه السورة يظهر مدى الترابط بينها . ولذلك لما تم الدين الإسلامى قال تعالى :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾(١)

فاستعمال لفظ الكمال والتمام يشير ان إلى اشتمال الدين على مجموعة من الأجزاء إذا وجدت جميعاً تحقق الكمال والتمام . فكمال الدين يفيد تحقيق معانيه وذاته بلا نقص ، وتمام النعمة يفيد اجتماع الأجزاء كلها والحسن الجميل والإبداع الدقيق فى تلاقى كل اللبنات فى بناء واحد كامل وتام . ونهاية الحسن والجمال يكون باللبنة الخاتمة فى بناء الله العظيم الذى جعله الله دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد أشارت كتب أهل الكتاب إلى هذا الترابط وهى تحكى أقوال الرسل عليهم السلام لأقوامهم . جاء على لسان عيسى « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل (٢) » وعلى لسانه كذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾(٣)

فنرى أن عيسى لم يهدم ما سبق بل صدقه وحاول إتمامه وبشر برسول

---

(١) المائدة من آية ٣ .
(٢) إنجيل متى الأصحاح الخامس فقرة ١٧ .
(٣) الصف آية ٦ .

يأتى بعده اسمه « أحمد » (١) .

والكتب بدورها لأنها لسان الدعوات لا تعارض بينها فى قواعدها وأهدافها فعن التوراة يقول تعالى :

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾(٢)

وعن الإنجيل يقول تعالى :

﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(٣)

فشأن الإنجيل تصديق التوراة واشتماله على الهدى والرشاد الملائم لعصر نزوله . وكذلك القرآن . يقول الله تعالى عنه .

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾

فهو لا يكذب كتاباً سبق وإنما يصدقها جميعاً ويهيمن عليها لأنه يرقبها ويشهد لها بالصحة والثبات ، ويبطل مادخل عليها من تحريف وزيف ويذكر أصول شرائعها وفروعها الدائمة وبعض المؤقتة . فهو بذلك حافظ وحارس ومهيمن عليها جميعاً وتلك هى ميزة القرآن الكريم وحده (٤) من بين سائر الكتب . ولا ينقض كون الكتاب يصدق الكتب التى سبقته ما يرى من مخالفات فى بعض الجزئيات . فهى ليست مخالفة فى الواقع ويكفى أن كل جزئية فى عصرها كانت حقاً ولأن الجزئيات من قبيل الوسائل المتغيرة تبعاً لتغير البيئات والعصور .

والمعجزات التى تظهر على يد الأنبياء لا تتناقض هى الأخرى ، يقول

---

(١) أحمد أفعل تفضيل من الحمد أى أن له حمداً كثيراً كما يفيد مسماه وهو مفهوم لفظ « فارقليط » المبشر به فى الإنجيل — انظر قصص الأنبياء ص ٣٩٨ .

(٢) المائدة من آية ٤٤ . (٣) المائدة آية ٤٦ .

(٤) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٣٢ بتصرف .

ابن تيميه : «إن الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً فلا يتصور أن نبياً يبطل معجزة نبي آخر وإن أتى بنظيرها فهو يصدقه ومعجزة كل منهما آية له وللآخر أيضاً فما أتى به الأول من الآيات فهو دليل على نبوته ونبوة من يبشر به وما أتى به الثانى فهو دليل على نبوته ونبوة من يصدقه ممن تقدم» (١) .

إن الإحاطة بهذا الترابط الحقيقى يوجد فوائد متعددة للدعوة الإسلامية فهو يظهر حقيقتها وتناسبها فى السلسلة الواحدة وعدم تناقضها مع أية دعوة سماوية أخرى بل إن إقرارها لمبادىء الدعوات السابقة يسهل لأهل الكتاب أن يؤمنوا بها لأنهم سيجدون أنفسهم معها مؤمنين بسائر الرسل وبكافة الكتب وبكل الأساسيات التى آمنوا بها من قبل لأن المسلمين بحق هم الذين يوصفون بقوله تعالى :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾(٢)

أما غيرهم من المفرقين فهم الكافرون يقول تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾(٣)

وما دام المسلمون هم هؤلاء الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله بلا تفرقة فإن الشأن يقتضى أن يندفع أهل الكتاب إلى الإسلام ويتعجب الشهرستانى من موقف أهل الكتاب وعدم إسلامهم ويقول : «ومن العجب أن من رأى غيره يصدق ما عنده ويكمله ويرقيه من درجة إلى درجة كيف يسوغ له تكذيبه (٤)» .

---

(١) النبوات ص ٢١ و ١١٣ .
(٢) البقرة آية ٢٨٥ .
(٣) النساء آية ١٥٠ و ١٥١ .
(٤) كتاب الملل والنحل جـ ١ ص ١٩٥ .

إن ذكر الدعوات السابقة فى القرآن تعريف بالدعوة الإسلامية أولا، وتحقيق جو صالح للإيمان بها عند المؤمنين برسالة سابقة. ثانياً، ثم إن وضعها فى إطارها الموضوعى يحقق لها التجانس مع الفكر البشرى والملاءمة مع دين الله الواحد الذى تنزل من قديم . وهذا يحقق لها كثيراً من القبول والتأييد .

٣ — تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم :

جوبه النبي ﷺ ممن دعاهم فى مكة بصلابة قاسية وموقف متشدد ويكفى دليلا على قسوتهم وشدتهم أن المعارضين منهم أخذوا فى إلحاق كافة التهم لمـــا يظهره ويبديه لهم من غير اقتصار على المجادلة العقلية والنقد النزيه . بل إن عدداً منهم بالغوا فى إيذائه عليه السلام حتى اكتسبوا اسماً سماهم الله به هو اسم المستهزئين .

وقد أشار إليهم أبو السعود عند تفسير قوله تعالى :

﴿إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾(١)

« فذكر أنهم كانوا خمسة من أشراف مكة هم الوليد بن المغيرة والعاص ابن وائل والحرث بن قيس بن الطلاطلة والأسود بن عبد يغوث والأسود ابن عبد المطلب وهم الذين بالغوا مبالغة شديدة فى إيذائه عليه الصلاة والسلام فخصوا بهذا الإسم دون سواهم » (٢) . وكان غالبية القوم على وتيرتهم ضد رسول الله حيث عارضوه فى أمور هم أول المؤمنين بها وسبب ذلك هو التعنت والعناد فنجدهم حينما دعاهم إلى توحيد الألوهية عارضوا وأنكروا وقالوا كما حكى القرآن عنهم :

﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾(٣)

فتعجبوا من توحيد الألوهية وهم الذين سلموا به بشعارهم المشهور عن أصنامهم والذى حكاه القرآن عنهم بقوله :

---

(١) سورة الحجر آية ٩٥ . (٢) تفسير أبى السعود ج ٢ ص ١٥٩ .

(٣) سورة ص آية ٥ .

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾(١)

فتراهم يقرون بأن كافة الأصنام والأوثان تقرب إلى الله ومع ذلك أنكروا على محمد ما آمنوا به سابقاً وما اتخذوا هذا الموقف خوفاً من قصور الإله الواحد حيث أنهم كما يقول أبو السعود لا يدعون لآلهتهم علما وقدرة . أو مدخلا فى حدوث الأشياء مع إيمانهم بأن العلم والقدرة وإحداث الأشياء هى لله تعالى الذى اتخذوا معه شركاء هم زلفى إليه ووسطاء عنده حتى يلزم من نفى ألوهيتهم تحقق قصور ما . ولكنهم اتخذوهم تقليداً وعادة(٢) .

وقد بالغ الخصوم فى معارضتهم لدرجة أنهم تجاوزوا المعارضة فى المدعى إلى إلحاق التهم بالرسول نفسه فوصفوه بالكذب والسحر على وجه يفيد المبالغة فيهما وحكوا اتباعه لأساطير الأولين التى كتبها وأخذها من كاهن فى مكة (٣) . وسجلوا هذه الاتهامات فى أقوالهم التى نقلها القرآن عنهم فقال تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾(٤) ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴾(٥) ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾(٦)

جاء فى مفاتيح الغيب أنه تعالى جمع كل ماعول عليه الكفار فى إثبات اتهامهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهى شبه ثلاث :

أحدها : ما يتعلق بالألهيات .

والثانى : ما يتعلق بالنبوات .

والثالث : ما يتعلق بالمعـــاد .

---

(١) سورة الزمر آية ٣ . (٢) تفسير أبى السعود جـ ٤ ص ٢٨٢ .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ٦ ص ١٩٩ .

(٤) سورة ص آية ٤ . (٥) سورة الصافات آية ٣٦ .

(٦) سورة الفرقان آية ٥ .

وثلاثتها شبه واهية لأنهم فى الأولى قاسوا الغائب على الشاهد فأنكروا وحدانية الإله لما رأووا أن العمل العظيم لا يستقل به رجل واحد مهما كان شأنه ولابد له من مساعد ومعين ، وفى الثانية والثالثة أنكروا قياس الغائب على الشاهد فنفوا النبوة مع سبقها بنبوات غيرها واستبعدوا المعاد مع أنه أسهل من الخلق أول مرة (١) .

إن المعارضين قصروا نشاطهم على معارضة الرسول عناداً وجدلا حتى يمنعوا دعوته من الانتشار ويصنعوا سداً بينه وبين الناس بباطل هم أعرف الناس بحقيقته . وكان أملهم أن يتسرب اليأس إلى قلب النبي محمد (ص) فيتوقف عن دعوته . **من ذلك ما حدث من الوليد بن المغيرة حين اجتمع معه نفر من قريش وقال لهم : يامعشر قريش قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم « محمد » فاجتمعوا على أمر واحد فى شأنه حتى لا يكذب بعضكم بعضاً . قالوا : نقول : كاهن قال : لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقة ولا تخالجه ولا وسوسته قالوا : فنقول شاعر . قال : ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه فما هو بالشعر . قالوا : فنقول ساحر قال : ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا : فماذا تقول يا أبا عبد شمس قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة وما أنتم من هذا إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه أن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وأخيه وزوجه وعشيرته فتفرقوا من عنده إلى السبل يعذرون الناس على نهج ما علموا من الوليد (٢) .**

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٧ ص ١٧٥ و ١٧٦ بتصرف .

(٢) سيرة النبى ﷺ جـ ١ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

وفى الوليد نزل (١) قوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾(٢)

فتراه فكر كثيراً ، وأخذ يتابع آيات القرآن عله يجد فيها مطعناً لكنه لما لم يجد تألم وتعالى وادعى أن القرآن قول بشر وهو سحر مأخوذ عن الأولين . وقد أطال تدبره وفكره ونظره وأخيراً قال لهم إن هذا إلا سحر يؤثر . كما يفيده حرف العطف « ثم » فهو فكر ثم نظر ثم عبس ثم أدبر وما ذلك إلا لتضليل القوم والوفود الآتية إليهم مما يجعلهم لا يصدقون بالقرآن وفى نفس الوقت لا يصدقون بالرسول لأن القرآن هو لسانه الذى تضمن دعوته للناس وفى الصد عنه صد عن الرسالة كلها . .

وهذا الموقف صورة لمواقف عديدة وقفها المعارضون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من آثارها على النبي ﷺ أن نفسه كانت تتألم لما يرى وكانت مواقفهم تجعله يحزن ويتأسف الأسف البالغ الذى قد يضر بحياته نفسها ، وما ذلك إلا شفقة على الناس ، ورحمة بهم ، وخوفاً على هؤلاء القوم الذين لا يفكرون فى عاقبة مواقفهم ، ولولا الحصانة الإلهية مع رسول الله ﷺ أثناء هذا الألم والأسف لتغيرت مسيرة الأمور . لكن الله الذى أحاط علما بكل شىء علم ضيق الرسول البالغ وتأزم نفسه من التكذيب المستمر المنصب على شخصه الفاضل ودعوته السامية علم ذلك وذكره فى قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾(٣)

---

(١) لباب النقول جـ ٢ ص ١٠٠ هامش الجلالين .

(٢) سورة المدثر آيات ١٨ ، ٢٥ . (٣) الحجر آية ٩٧ .

وفى قوله :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾(١)

فى الآية الأولى أكد الله تعالى تحقق الضيق وأفاد بصيغة الاستقبال استمرار العلم حسب استمرار متعلقة باستمرار ما يوجبه من أقوال الكفرة الدائرة حول الشرك والطعن فى القرآن والرسول عليه السلام (٢) . وفى الآية الثانية أفاد أن النبي (ص) لحزنه وغضبه كاد أن يهلك نفسه غما وأسفا على عدم إيمانهم بالقرآن الكريم لولا عناية الله . . نعم لولا عناية الله به وعصمته إياه فهما اللذان ثبتاه على ما أرسل به ومنعاه من أن يركن أدنى ركون إلى الكفار كما قال تعالى :

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾(٣)

فتثبيت الله له هو الذى أبعده عن الركوب الذى هو أدنى ميل وأيسره مع قوة الداعى الناشىء من حيل القوم وخدعهم ومؤامراتهم وأذاهم لكن عناية الله أقوى وأقدر .

وكان من بين وسائل الله فى تثبيت النبي (ص) أن يقص عليه قصص السابقين من الأنبياء لينظر فى أحوالهم ويتبصر فيما جرى لهم ويعرف العاقبة المؤكدة للرسل ودعوتهم والعاقبة السيئة للمكذبين المعارضين .

وعلى الجملة يأخذ النبي من ذكر الدعوات السابقة فى القرآن مدداً يمكنه من الدعوة إلى الله بشكل كامل . وبرغم العصمة التى تمتع بها النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن منهج العناية الإلهية جرى على سنن البشر لأنه بشر أرسل إلى بشر بدعوة تصلح الناس وتغير حياتهم ومن شأن دعوة كهذه أن تكون محفوفة بالمخاطر محوطة بالأشواك والآلام . وقد تؤدى هذه المخاطر والآلام إلى

---

(١) سورة الكهف آية ٦ .

(٢) تفسير أبي السعود ج ٣ ص ١٥٩ .   (٣) الإسراء آية ٧٤ .

تثبيط همة الداعى وتسرب اليأس إلى نفسه فكان من الخير أن يحال بين اليأس وبين الداعى بأن يعلم أن العقبات والشدائد لا غنى عنها وأنها سنة من سبق وكيف ينجو المصلح من هذه الشدائد وهو يحول بين النفس والشهوة وبين القلب والهوى ويرسم طريقاً جديداً غير الطريق المألوف ويؤدب النفس بالفضائل ويهذب القلب بالإيمان والدين (١) .

ولهذا كان ذكر ما جرى للدعوات السابقة تثبيتاً لقلب النبى محمد صلى الله عليه وسلم وتقوية لهمته وطرحاً لليأس من طريقه قال تعالى :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢)

فأخبار الرسل السابقين مقصود منها تثبيت النبى محمد وتقويته ولذلك قص الله أنباءهم .

وقد سلك القرآن طريقاً واضحاً ومركزاً إلى هدفه فى وقت تكذيب القوم للنبى ﷺ وادعائهم أنه ساحر أو مجنون يحكى القرآن ما حصل للرسل من مثل هذا الاتهام بالذات فيقول تعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾(٣)

يقول الرازى هذه الآية دليل على أن كل رسول قد كذب فكان الله تعالى قال لا تيأس على تكذيب قومك فإن أقواما قبلك كذبوا ورسلا كذبوا (٤) . وهذا الاتهام المتتابع سببه الطغيان والإثم لكن تتابعه أظهرهم فى ثوب أقوام تواصوا جيلا بعد جيل بأن يتهموا رسلهم بالتكذيب والسحر . وينكروا الدعوة التى تأتيهم من قبل رسولهم .

---

(١) دعوة الرسل إلى الله .. المقدمة بتصرف .

(٢) سورة هود آية ١٢٠ . (٣) سورة الذاريات آية ٥٢ ، ٥٣ .

(٤) مفاتيح الغيب جـ ٧ ص ٦٧٤ .

ونظرة تفصيلية إلى الأمم السابقة فى هذا الموقف ترينا تشابههم فهؤلاء قوم نوح قالوا له :

﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾(١)

وهؤلاء قوم هود :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾(٢)

وهؤلاء قوم صالح :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(٣)

ومثلهم قوم لوط :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(٤)

ونفس الموقف كان من آل فرعون يقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾(٥)

وهكذا يخبر القرآن النبى ﷺ بما كان من قبل مع الدعوات والرسل وذلك ليصبر على ما يجرى ويتحمل ما يقوله المعاندون له فما قولهم هــذا إلا إلف الكافرين الذى واجهوا به كل رسل الله السابقين . ومن هنا يجب الصبر والتحمل . ولذلك قال الله تعالى لرسوله مهوناً عليه الأمر .

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٦)

---

(١) سورة هود من آية ٢٧ .
(٢) سورة الأعراف آية ٦٦ .
(٣) سورة الشعراء آية ١٤١ .
(٤) سورة الشعراء آية ١٦٠ .
(٥) سورة القمر آيات ٤١ و ٤٢ و ٤٣ .
(٦) سورة فصلت آية ٤٣ .

فمن أجل صبر الرسول وتحمله الأذى وإبعاد الضيق عن نفسه وسد أبواب اليأس أن تقرب من حياته قال الله له هذه الآية « ما يقال لك » ومصدر القول ، كما يقول الرازى إما أن يكون هم الكفار وحينئذ فالمعنى أن كفار قومك يقولون لك مثل ما قال الكفار السابقون لرسلهم من الطعن فى الرسالة والكتب وغير ذلك . وإما أن يكون مصدر القول هو الله ويصبح المعنى أن الله يأمرك كما أمر كل الأنبياء قبلك بالصبر على سفاهة الأقوام وعدم التأثر بأقاويلهم الباطلة (١) .

إن رسل الله السابقين تحملوا كثيراً من أذى قومهم وصبروا عليها وشأن الرسول هو شأنهم وها هى قضيتهم تعرض عليه ليكون مثلهم صبرا وتحملا . وقد أمره بذلك فقال تعالى : ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٢)

وقال تعالى له :

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(٣)

فشأن الرسل أنهم ذو عزم دائم وقوة صلبة يتحملون بهما تكذيب القوم وأذاهم وفى النهاية يأتى نصر الله لرسوله وتقع الهزيمة على أعدائه لا محالة . هكذا مع كل رسول بلا تخصيص ومن هنا يرجح أن تكون « من » فى قوله « من الرسل» فى الآية الأولى بيانية . وضعف أن تكون تبعيضية، وأيضاً فإن الرسل جميعاً كذبوا وجميعهم تحمل وصبر ولم يتحدث القرآن عن نبى وصل إلى النصر بلا عناء ومشقة أو استقبله قومه بالتصديق والإيمان لأول وهلة .

---

(١) مفاتيح الغيب ج ٧ ص ٣٧٨ . (٢) سورة الأحقاف آية ٣٥ .

(٣) سورة الأنعام آية ٣٤ .

فلزم أن يتخلق كل رسول بالعزم والقوة . وإن تفاوت الرسل فيهما فإن تملك الجميع لأصل هاتين الصفتين مؤكد وضرورى حيث لا يختار الله من الناس إلا الكفء للرسالة . ومن الكفاءة فى الرسول أن يكون قوياً ذا عزم وجلد .

ولم يكتف القرآن بمجرد ذكر صبر الرسل وتحملهم ولا بمجرد أمر الرسول بذلك وإنما أخذ يبين للرسول حقيقة من الحقائق الثابتة التى تدفع إلى الصبر والتحمل . هذه الحقيقة أن النصر الإلهى حتمى وعلى الرسول أن يصبر حتى ينتصر وهذا النصر سوف يأتيه بلا ريب وحتى يكون التأميل فى النصر مسلما هو الآخر يذكر القرآن أن النصر واضح من انتصار الرسل ودعواتهم بعد كل ما تحملوه يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾(١)

وهكذا الشأن مع كل الرسل السابقين حيث نصرهم الله وجعل جندهم غالباً وهزم المعارضين المعاندين ، والدعوة تبين ثبات هذه الحقيقة فمع نوح نقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٢)

ومع هود نقرأ :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾(٣)

---

(١) الصافات آيات ١٧١ و ١٧٢ و ١٧٣ .

(٢) سورة هود آية ٤٩ .

(٣) سورة هود آية ٥٨ .

ومع صالح نقرأ :

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾(١) .

ومع شعيب نقرأ :

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾(٢)

وهكذا اتبع القرآن فى تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم من خلال ذكره للدعوات السابقة ما سبق من أمره بالصبر والتحمل كالرسل السابقين . والتأميل فى النصر بعد الصبر . وتسهيل كل المشاق عليه بسبب هذه المشابهة بينه وبين إخوانه السابقين .

ولئن كان هذا درساً للرسول فهو درس كذلك للدعاة يبين الطريق ويعرف بالنصر ويؤكد أن الفوز بالصبر،والنجاح بالتحمل والعمل ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين .

٤ ـ دفع الناس إلى الإيمان بالدعوة :

أكثر القرآن من ذكر الدعوات السابقة وكيفية ما حدث لها مع النـــاس من طاعة أو عصيان وما جاء هذا التفصيل الذى نلمحه فى ذكر الدعوات حيث كررها القرآن وأتى بقصصها مطولا فى موضع،وموجزا فى موضع آخر ما جاء هكذا إلا لتصل إلى أفهام الناس وعقولهم .

والملاحظ أن كل سورة تتجه اتجاهاً خاصاً حين تذكر الدعوات وشئونها مع القوم والرسل وتقصد هدفا معيناً .

---

(١) سورة هود ٦٦ .

(٢) سور هود ٩٤ .

وعلى سبيل المثال نرى سورتى الأنعام والأنبياء آتياً بذكر الأنبياء على طريقة العد والإيجاز من غير إشارة لدعوتهم أو ذكر لقومهم ، وإطالتهما معاً عند ذكر دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام فقط بياناً لمنزلته وإيضاحاً لنماذج مجادلته مع الخصوم ، وهذا الاتجاه نحو العد فى السورتين يشير إلى أن الهدف بيان الوحدة بين الرسل ولذلك كانت الآية التالية لذكر الرسل فى الأنعام هى قوله تعالى :

﴿أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾(١)

فهديهم واحد ويجب أن يستمر هكذا فى وحدته وفى سورة الأنبياء كانت الآية التالية لذكر الرسل هى قوله تعالى :

﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾(٢)

وأيضاً تذكر سورة مريم إنعامات الله على الرسل مما يشير إلى أن هدفها هو بيان فضل الله وتأكيد نصره للرسل . ولذلك ختمت السورة حديثها عنهم بقوله تعالى :

﴿أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾(٣)

وقد اهتمت سورتا العنكبوت والصافات بالإشارة إلى امتحان المؤمن وجزاء من صدق وعاقبة من كذب . . وهناك سورة تقص بتوضيح وتفصيل حيث تورد المناقشات التى دارت والنهايات التى انتهت إليها دعوات الله . وذلك كسورتى الأعراف وهود .

وسواء أكان ذكر القرآن للدعوات موجزاً فى كمه وكيفيته . أم كان

---

(١) سورة الأنعام آية ٩٠ . (٢) سورة الأنبياء آية ٩٢ .

(٣) سورة مريم آية ٥٨ .

مطولا مفصلا فإن بعض الهدف هو خلق تأثير لدى المطلع قارئاً أو مستمعا يجعله يؤمن بالدعوة المعروضة عليه لأن المسألة من خلال ما سمع قد وضحت منذ البداية وهى أن سنة الله بمن يؤمن أو يكفر بالرسل لا تتخلف وسريانها على أمة محمد ﷺ أمر حتمى فمن آمن نجا ومن كفر هلك . ولقد استمع المكيون للقرآن المكى يتلو فيهم قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (١)

فترى أهل مكة قد أقسموا بكل قدرتهم أن يؤمنوا بالرسول الذى سيبعث فيهم ويسبقون غيرهم فى الإيمان به . فلما جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقفوا عند حد التردد فى تصديقه بل بالغوا فى التكذيب وزادوا فى الكفر والضلال فمن قبله كانوا يكفرون بالله وحده ولهم عذرهم حيث لارسول يعرفهم ، ومن بعده صاروا كافرين بالله وبالرسول وبالقرآن وبالدعوة ولا عذر لهم لأن الرسول فيهم يبلغ ويدعو . وقد نسوا أقسامهم . . والواجب حينئذ أن يطلعوا على مصيرهم من خلال توجيه نظرهم إلى ما حدث لمن سبقهم حيث نفذ فيهم حكم الله المؤكد والقاضى بإهلاك الكافر بسبب عصيانه وإنجاء المؤمن بسبب طاعته . ولن يبدل الهلاك إلى نجاة ولن يحول الهلاك إلى غير الكافر . وقد أضافت الآية السنة إلى الأولين رغم أنها ليست سنتهم ولكنها سنة الله فيهم لشهرة هذه السنة فيمن سبق حتى صارت خاصة بهم وبها يميزون ولتأكيد وقوعها عليهم قوية قاهرة أسندها الله بعد ذلك إلى ذاته وكرر هذا الإسناد فى قوله : « فلن تجد لسنة الله تبديلا ولا تجد لسنة الله تحويلا » وهكذا فعادة إهلاك الكافرين لن تتبدل من سىء إلى حسن ولن تتحول إلى غير مستحقها من البشر (٢) » .

---

(١) سورة فاطر آية ٤٢ و ٤٣ .
(٢) مفاتيح الغيب جـ ٧ ص ٥٥ بتصرف .

إن هذا التحذير نزل عليهم فى مكة منذ البداية حينما بدأ كفرهم فقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن أبى هلال أن قريشاً كانت تقول: **«لو أن الله بعث منا نبياً ما كانت أمة من الأمم أطوع لخالقها ولا أسمع لنبيها ولا أشد تمسكاً بكتابها منا فنزل قول الله تعالى «وأقسموا بالله جهد . . الآية (١)»** ولم يبق هذا التحذير محملا بل كثر تفصيله فى القرآن وعلى البشر أن يسيروا وينظروا ويتدبروا فى الأمم التى خلت ليدركوا عن يقين واطمئنان صدق هذا التحذير. ولقد جاء التوجيه إلى السير والنظر ثلاث عشرة مرة فى القرآن الكريم منها ما ورد بالأمر صراحة ومنها ما يفهم بالأمر من سياقها. وكلها تأتى بعد إخبار بالقصص تأكيداً لاخبارها بالرؤية وتكميلا بالتدبر والتفكير . . ولا يكتفى القرآن بالحكاية ولا يقصرها مجردة عن أغراضها بل نراه يطلب إلى جانب الأخبار مع أن فى مجرد ذكرها مدخلا كبيراً للاعتبار نراه يحث على الرؤية وعلى تدبر القلب وإعمال الفكر حتى يكمل الاعتبار ويتم، ولذلك جاءت المواضع كلها بعد الاخبار عن الأمم السابقة ومنها أمر بالمسير والرؤية وحث على الاعتبار والتفكير وقد جاء الأمر الصريح فى ستة مواضع هى :

يقول تعالى :

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾(٢)

ويقول تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(٣)

ويقول تعالى : ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(٤)

---

(١) لباب النقول جـ ٢ ص ٥٥ هامش الجلالين .
(٢) سورة آل عمران آية ١٣٧.
(٣) الأنعام آية ١١ .
(٤) النحل آية ٣٦ .

ويقول تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾(١) .

ويقول تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾(٢)

ويقول تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾(٣)

وفيها جميعاً أمر واضح للناس بالسير فى الأرض حيث مواطن الأمم السابقة لينظروا ما حدث لهم ويتأكدوا من سنة الله الخالدة فى الناس ويعرفوا عاقبة المكذبين المشركين .

وأما المواضع السبعة الباقية فهى فى قوله تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾(٤)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾(٥)

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(٦)

---

(١) النمل آية ٦٩ .
(٢) العنكبوت آية ٢٠ .
(٣) الروم آية ٤٢ .
(٤) يوسف آية ١٠٩ .
(٥) الحج آية ٤٦ .
(٦) الروم آية ٩ .

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤)﴾(١)

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١)﴾(٢)

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)﴾(٣)

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠)﴾(٤)

ويلاحظ أن هذه المواضع السبعة قد جاءت باحدى صيغتين هما : « أفلم يسيروا » أو : « أو لم يسيروا » وكلاهما يتضمن محذوفاً بين الهمزة والواو أو الهمزة والفاء تقديره . أجهلوا فلم يسيروا فينظروا . وهذا مشتمل على الحث على السير مع التدبر . لأن الصيغة كما يقول الرازى تحتمل أمرين وهى أنهم أهملوا المسير فحثوا عليه أو ساروا ولم يعتبروا فأمروا بالاعتبار الذى هو المهم (٥) وقد اكتفى بذكره أبو السعود ليرددوا فكرهم فى كل ما يرون .

إن الأمم التى سبقت كانوا أكثر من قريش مالا وولداً وأشد منهم قوة حيث عمروا الأرض بالزرع والصناعة والنشاط وملأوها قصوراً ومصانع ومع ذلك لم يفلتوا من الهلاك والتدمير لما كفروا . وحكايتهم فى القرآن

(١) فاطر آية ٤٤ . (٢) غافر آية ٢١ .
(٣) غافر آية ٨٢ . (٤) محمد آية ١٠ .
(٥) مفاتيح الغيب جـ ٦ ص ٢٤١ .

الكريم تؤكد عنصر القدرة والقهر وهو الأمر الذى لا يقدر عليه إلا الله تعالى خاصة عند مجيء أمره بإنجاء المتبعين وإهلاك المخالفين . وهذا يجعل الناظر فيها عالماً بأن العاقبة لم تحكم بأمر طبعى عادى بل أن الله عندما يعاقب يأخذ أخذ عزيز مقتدر . انظر ما حدث لقوم نوح حيث اجتمع المؤمنون فى سفينة عامت على سطح الطوفان ونجت بهم فى الوقت الذى غرق بهذا الطوفان كل الكافرين وكانت نهايتهم « فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا آياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين » وكذلك ما حدث لعاد وثمود ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ ﴾

هذه النتائج الظاهرة الشديدة تمثل دافعاً قوياً عند المستمع على الإيمان بالدعوة الخاتمة . وكان هذا الحال القائم على التخويف بالأمر السابقة موجوداً فى كل زمان (١) كما قال مؤمن آل فرعون : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ۝٣٠ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾(٢) وقال شعيب : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ۝٨٩ ﴾(٣)

وكل ما تضمنه هذا القصص من وعد للمطيع ووعيد للعاصى هو من الترغيب والترهيب أشار إليه صاحب هداية المرشدين (٤) بقوله : ما من خبر أو قصة عن نبي وعن موقف قومه من رسالته إلا وهو يقصد به الترغيب والترهيب ومثل الآيات كل الأحاديث التى ترغب فى الطاعات وتخوف من المعاصى .

إن معرفة عواقب المدعوين بالدعوات السابقة عبرة وعظمة لأمة الدعوة المخاطبة بهذه المعرفة . والقرآن نفسه أشار إلى مقصده فى العبرة فقال

---

(١) النبوات ص١١١ .
(٢) غافر آية ٣٠ و ٣١ .
(٣) هود آية ٨٩ .
(٤) هداية المرشدين ص ١٩٣ .

تعالى بعد قصه الموجز لدعوة نوح ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(١) ومعناها كما جاء فى الجلالين جعلناها عبرة لمن بعدهم من الناس إن عصوا رسلهم (٢) ، والضمير فى جعلناها للسفينة أو القصة والحادثة لتشير إلى القدرة الإلهية التى أمرت بصنع السفينة وانجائها من الرياح الهوجاء والحيوانات المؤذية ولتكون عبرة للناس بعد ذلك . وقوم لوط لما أتاهم الهلاك والعذاب أبقى الله من آثار قريتهم ما يفيد العبرة والعظة كما يفيد ذلك قول الله تعالى :

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(٣)

فهذه الآية البينة قصة عجيبة لقوم يستعملون عقولهم فى الاستبصار والاعتبار والذى بقى منها كما ذكر المفسرون ديارها الخربة أو الحجارة الممطورة أو الماء الأسود . نعم لا يعتبر بهذه القصص التى يسوقها القرآن إلا قوم ذووبصر وتدبير يعلمون أن نجاتهم فى اعتبارهم الذى يوجههم الله إليه ومن أجله أبقى آثار إهلاكه لتطلع عليها الأقوام بعد ذلك . وكما أبقى الله آثاراً من قوم لوط فقد أبقى جسد فرعون بعد إغراقه للعبرة والعظة كما قال تعالى :

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾

ففرعون وقومه عندما غرقوا فى اليم . نزلت أجسادهم جميعاً إلى قاع البحر إلا جسد فرعون فانه طفى على وجه الماء عارياً من اللباس كاملا لم يقتطع شيء منه ليكون آية يعتبر بها بنو إسرائيل وهم معاصروه . وكل من يأتى من الأمم بعدهم يشير أبو السعود إلى أن ما حصل لفرعون وقومه عبرة ونكال لمن وراءهم أو من يأتى بعدهم من كافة الأمم (٤) وليس هذا هو هدف قصة فرعون وحدها وإنما هذا كل أهداف سائر القصص . ولذلك نجد سورة الشعراء تكرر عقب قصصها قوله تعالى : « إن فى ذلك

---

(١) سورة العنكبوت آية ١٥ .
(٢) تفسير الجلالين جـ ٢ ص ٥٥ .
(٣) سورة العنكبوت آية ٣٥ .
(٤) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٣٤٨ .

لآية » يشير الزمخشرى إلى روعة الآيات بقوله : وأية آية لا توصف وقد شاهدها الناس وشاع أمرها فيهم (١) » وعليهم أن يعتبروا ويتفكروا ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)﴾ فلو تفكروا لفعلوا ولو كانوا أصحاب عقل لاتعظوا واعتبروا ولاندفعوا إلى الإيمان بالدعوة الخاتمة ولتركوا الجدل الخالى من الهدف وبعدوا عن الخصومة المتعصبة والمعارضة من غير واقع ودليل .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١١٥ .

الفصل الرابع

مميزات الدعوة الإسلامية

دراسة مقارنة

اتصفت الدعوات السابقة بأنها خاصة بقوم معينين . حيث كان الرسول يأتى لقومه فقط ، ولهذه الخصوصية أسباب ونتائج .

أما أسبابها فهو بداائية الإنسان الذى كان يرتبط ببيئته فقط ، ومن هنا كان ما يناسب بيئة مالا يناسب بيئة أخرى وهكذا مما حتّم أن تختص الرسالة ببيئة واحدة ، لا تتعداها لغيرها .

ومن أسبابها كذلك ارتباط الفكر البشرى فى القديم بالمحسوس وحده الذى هو أول أسباب المعرفة ، وأول مراحل التفكير .

وكان من نتائج هذا الوضع أن تعددت الرسالات تبعاً لتعدد البيئات وتطور مراحل التفكير . وكان من نتائجه كذلك أن وجد فى وقت واحد رسولان وثلاثة ، وكان كل رسول يذكر أنه جاء لقومه فقط .

ومن الممكن أن نقسم رسالات الله إلى ثلاثة مراحل :

فى المرحلة الأولى :

عاشت الإنسانية طفولة فكرية اقتضت رسالات بسيطة تنادى بالتوحيد وبالأصول العامة . من غير أن تضع تشريعاً ونظماً مع ارتباطها بقوم الرسول وحدهم .

وفى المرحلة الثانية :

تطورت الإنسانية فى فكرها إلى مرحلة صباها . مما جعل الرسالات تتطور من البساطة إلى بعض التعمق ، حيث نجد فيها الأصول العامة وبعض النظم والتشريع مع اتساع دائرتها قليلا لتشمل أكثر من قوم الرسول المرسل

كما حدث لشعيب عليه السلام حيث أرسل إلى قومه وإلى أصحاب الأيكة ، وكما حدث لموسى عليه السلام حيث أرسل إلى فرعون وإلى بنى إسرائيل .

وفى المرحلة الثالثة :

وصلت الإنسانية إلى منتهى النضج حيث انتقلت إلى مرحلة الفكر العقلى ، وأصبح فى إمكانها أن تنظر إلى الأمور نظرة مجردة عن المحسوس ، وبسبب ذلك أصبح من الممكن أن تخاطب الإنسانية كلها برسالة واحدة ، وصوت من الله واحد .

إن الرسالة فى كل مرحلة كانت تغاير غيرها فى مرحلة أخرى ، ومع ذلك كانت كل رسالة تصدق بالرسالة السابقة ، وتكمل بما يحتاجه من جاءت الرسالة لهم ، وتمهد للرسالة الآتية بعدها ، وما كان ذلك إلا لأنها جميعاً من الله سبحانه وتعالى ، وتهدف إلى غاية واحدة .

وبنظرة موضوعية فى تاريخ الرسالات نرى أن الإسلام هو رسالة المرحلة الثالثة ، وأن رسالات المرحلتين السابقتين تعتبر تمهيداً للدعوة الإسلامية ، وقد صور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة بقوله : **«مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »** (١) وهكذا فصاحب الدار هو الله سبحانه وتعالى ، والأنبياء جميعاً برسالتهم لبنات فيه . والنبى محمد صلى الله عليه وسلم بدعوته تمام هذا البناء وآخر اللبنات ، واللبنات كلها تتضافر فى إعطاء البيت كماله الدقيق . وجماله الواضح ، ومع هذا الترابط بين دعوات الله فى الناس فإنه يمكننا أن نميز الدعوة الإسلامية عن سائر الدعوات الإلهية بالمزايا التالية :

---

(١) صحيح مسلم جـ ٧ ص ٦٤ ، ٦٥ كتاب الفضائل . باب ذكر كون النبى صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين .

— ١ —

أولا : الدعـــوة التامة

اكتملت نعمة الله فى الدعوة الإسلامية ، ولم يكن لها أن تكتمل قبلهـــا لأن قصور العقول قبل ذلك اقتضى أن تأتى دعوات الله بسيطة خالية من التشريع . أو مشتملة على نزر يسير منه ، فلما تبدل هذا القصور إلى كمال أنزل الله دعوته فى العالمين تامة ، مناسبة للرقى الإنسانى فى أرقى صوره ، وفى مختلف أماكنه وأزمانه ، ومن علامات تمامها ما يلى :

(١) المحافظة على الحيـــاة :

الحياة الفردية أو الجماعية قائمة على المادة وعلى الروح . والدعوة الإسلامية تراعى ذلك ، وتحافظ على الناحيتين معاً . وبذلك خالفت الماديين الذين يتجهون إلى نيل أكبر قسط من المادة مع إغفال كثير من المعانى الإنسانية وخالفت الروحانيين الذين ينادون بقتل النفس بالزهد والحرمان .

إن الإسلام يرى أن المادة بكل أنواعها خادمة للروح . فلا بد من وجود المادة مع الروح ، ومن أجل تحقيق السعادة ونشر السلام توفر الدعوة للجسد والروح مطالبهما وتحافظ على الضرورات اللازمة لهما . ومن أهم ضرورات الجسد أن يكون له مال مضمون يكتسبه . وينفقه على معاشه وحياته ، لأن المال ضرورة لازمة . فيه يتغذى الجسم وينمو ويستطيع البقاء ، والروحانيون الزاهدون يرون أنه لابد من تغذية الجسم بالمقدار الذى يكفل البقاء محافظة على الروح . لذلك كان المال حبيب الناس ومعشوق البشر وضرورة مادية هامة للجميع .

ومن أهم ضرورات الجسد كذلك المحافظة على ذات صاحبه وعدم تعريض نفسه للهلاك ، ذلك لأن النفس المريضة لا تصنع لصاحبها نفعاً ولا تجلب له إلا الأذى والألم وإن هلكت النفس انقطعت الحياة وانعدم

الإنسان نفسه . ومن أهم ضرورات الجسد أيضاً أن يحافظ له على بقاء نوعه في صورة ضمان الحرص على النسل الذى جعله الله زينة وأملا لصاحبه ، وفى الوقت نفسه يضمن بقاء النوع وامتداده .

وأيضاً فإن الروح تحتاج حتماً إلى الفهم والتصرف والتدبر عن طريق ضمان صيانة العقل والمحافظة على حريته فى الفهم والتدبر . وتحتاج كذلك إلى ضمان عقيدتها التى آمنت بها وعدم اضطهادها بها وأن تكون تلك العقيدة هى دين الفطرة والإنسانية .

فتحقق بذلك أن ضرورات الجسد والروح معاً خمس هى : المال . والنفس . والنسل . والعقل . والدين . وهى جميعاً مترابطة يكمل بعضها بعضاً . لأن النفس لو هلكت لانعدم من يتدين ولو انعدم العقل لارتفع التكليف ، ولو انعدم النسل لانقطع الجنس البشرى . ولو انعدم المال لم تبق حياة .

إن هذه الأمور الخمسة هى الضرورات التى تتعلق بهما مصالح الدنيا والآخرة وبالمحافظة عليها تتحقق السعادة وينتشر السلام يقول الشاطبى « ومجموع الضرورات خمسة : وهى حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل . وهذه الضرورات إن فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد وتهارج وفوت حياة ، وفى الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين » (١) .

(ب) شمول التشريع :

جاءت تشريعات الإسلام شاملة لأنواع الناس ولكافة مراحل تطور الإنسان من الميلاد إلى الوفاة ، وبذلك تشمل كيان الفرد كله والمجتمع بأسره .

والناظر فى تشريعات الدعوة الإسلامية ، يرى أنها كانت مع الإنسان جنيناً فى بطن أمه وبعد مولده وفى شبابه ورجولته . وتسايره هكذا فى أطواره المختلفة حتى تسلمه لأجله . ويرى أنها تضع القوانين التى تمهد لوجود الإنسان مستقيا سوياً فى الدنيا وفى الآخرة ، وتنظم سائر ما تركه بعد موته .

---

(١) الموافقات جـ ٢ ص ٨ و ١٠ .

ولا تفرق الدعوة بين ذكر وأنثى ، ولا تضع فى اعتبارها ميزة للون أو لجنس ، أو لعارض من عوارض الدنيا كالمال والجاه والأسرة . وبذلك يحقق التشريع الإسلامى الإخاء والعدل والحرية والمساواة ، وتلك الأمور هى غاية ما تتمناه الإنسانية الرشيدة لنفسها .

(ج) مراعاة طبيعة الإنسان :

تناسب الدعوة الإنسان وتتفق مع فطرته ، ذلك أن الإنسان كائن يحس بما حواليه . ويرغب فى الاتصال به والتعاون معه . وهو فى إحساسه هـذا يشعر بقوى غيبية لا يدركها فيتمنى أن يحيط بها . ومن هنا تأتى الدعوة محققة كافة مطالب الإنسان ورغباته فتوضح له هذه القوى الغيبية . وتركزها فى عقيدة تعرف بالله وعبادته . وتدعو إلى الإيمان بالرسل والملائكة والكتب واليوم الآخر ، وتصنع شريعة تمكن من الاتصال بالناس والتعاون معهم . وتتمم مكارم الأخلاق التى تبين الحسن فى كل شىء وتحتمه ، وهكذا ناسبت الدعوة حقيقة الإنسان فى سائر تعاليمها .

وهى — أيضاً — جعلت المصالح مرتبة على تنفيذ التكاليف ، وتلك حكمة إلهية ، حيث ربط الله الأسباب بالمسببات لتعريف العباد عند وجود الأسباب ما رتب عليها من خير وما رتب عليها من شر . ولو شاء سبحانه لقطع كل مسبب عن سببه . ولخلق المسببات كلها مجردة عن الأسباب . ولخلق الأسباب مجردة عن المسببات . لكنه قرن الأسباب بالمسببات فى مطرد العادة ليكون طريقاً مسلماً يعرف الناس منه أن الاتباع الدقيق يهدى للتى هى أقوم ، وأن الله لا يضيع أجر من يحسن عمله .

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾(١)

والدعوة — كذلك — تبين علل بعض المسائل الأساسية والفرعية توجيهاً للإنسان حتى يعرف أن سائر التكاليف تهدف مصلحته وخيره ، ويدرك أن الله لم يشرع أمراً أو يوجد خلقاً لحكمة ومصلحة . وكل شىء عنده بمقدار .

---

(١) الأحزاب آية ٧١ .

(د) اليسر ورفع الحرج :

الدعوة الإسلامية ميسرة حيث إن جميع عبادات الدين سهلة لا عناء على الفرد فى أدائها والمحافظة عليها ، فالصلاة مثلا عبادة فرضها الإسلام على المسلمين ووزعها على أوقات متباعدة تشمل الليل والنهار ، وجعلها خمساً . تؤدى فى أوقات خمسة لا تستغرق فى جملتها سوى دقائق معدودة ، وحتى لا يغفل الإنسان عن مواقيتها شرع معها الأذان إعلاماً بوقتها لكى يؤديها وقتاً وقتاً . فلا تتراكم وتترك أو تضيع أعمالا أخرى بسبب تراكمها . والصوم فريضة مقدرة بشهر واحد فى السنة والزكاة لا يؤديها إلا المستطيع . والحج مفروض على من استطاع إليه سبيلا .

وهى فرائض خالية من الحرج تماماً . يقول الشاطبى : « وأعلم أن الحرج مرفوع من المكلف لوجهين» :

أحدهما : الخوف من الانقطاع فى الطريق وبغض العبادة وكراهية التكليف .

والثانى : خوف التقصير عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالعبد المختلفة الأنواع ، مثل قيامه على أهله وولده إلى تكاليف أخرى تأتى فى الطريق (١) « وهكذا ينتفى الحرج من التكاليف محافظة على الدين ليبقى . ومحافظة على العبد ليقوم بكافة وظائفه» .

ولا يقف تيسير العبادة عند بساطتها ، بل إن الشريعة تلاحظ أعذار الناس وتخفف عنهم العبادة على قدر طاقتهم . فالوضوء لا ينقض بسبب سلس البول أو الرعاف الدائم . ويستبدل به التيمم والمسح على الخفين وعلى الجبيرة . والصلاة تسقط عن الحائض والنفساء . وتقصر على المسافر ويتسامح فى بعض شروطها للمريض والعاجز والخائف وفى وقت المطر . والصوم يؤجل ويفدى عنه . والحج فيه تخفيف كثير على أصحاب الأعذار .

يقول العز بن عبد السلام مبيناً أنواع تخفيفات الشرع على المكلفين :

---

(١) الموافقات جـ ٢ ص ١٣٦ .

« والتخفيفات أنواع منها تخفيف الإسقاط كإسقاط الجمعات والصوم والحج والعمرة بأعذار معروفة . ومنها تخفيف التنقيص كقصر الصلاة وتنقيص الركوع والسجود عن المريض إلى القدر الميسور له . ومنها تخفيف الإبدال كإبدال الوضوء والغسل والتيمم وإبدال القيام فى الصلاة بالقعود . وإبدال العتق بالصوم وإبدال بعض واجبات الحج والعمرة بالكفارات عند قيام الأعذار . ومنها : تخفيف التقديم كتقديم العصر إلى الظهر والعشاء إلى المغرب فى السفر والمطر . كتقديم الزكاة على حولها . ومنها تخفيف التأخير كتأخير الظهر إلى العصر . ورمضان إلى ما بعده . ومنها تخفيف الترخيص كصلاة التيمم مع الحدث . والتلفظ بكلمة الكفر عند الإكراه (١) . وهكذا يكون التخفيف رفعاً للحرج وبعداً عن المشقة ، وهذه العلامات المذكورة بعض أدلة تمام الدعوة كما أن الواقع التطبيقى خير شاهد . فلقد مضى أربعة عشر قرناً على نزول الدعوة الإسلامية ومع ذلك فما زالت تشريعاتها محكمة . دقيقة . تناسب الإنسان فى تقدمه وتطوره وهى على ما نزلت عليه بلا تغير .فى الوقت الذى تتبدل قوانين البشر يوماً بعد يوم .

إن الإنسان فى الشرق وفى الغرب ، فى الحضر وفى البوادى ، يلمس مصلحته فى الدعوة الإسلامية ، وفى تشريعاتها له كفاية .

إن التشريع فى بنى إسرائيل لم ينزل إلا على موسى عليه السلام ، وكل الرسل من بعده دعوا بنى إسرائيل إلى شرع موسى ، ومع ذلك فإن شريعة الإسرائيليين قاصرة على بعض النصائح والعظات ، وهذا يجعلنا نشعر عند المقارنة بتمام الدعوة الإسلامية ، ونسخها لسائر الرسالات التى سبقتها .

---

(١) قواعد الأحكام جـ٢ ص ٨ ، ٩ .

ثانياً : الدعوة الخـــاتمة

ارتبطت الدعوات السابقة بأقوام معينين . وهذا جعلها قاصرة عن أن تكون لغيرهم وفى نفس الوقت جعلها غير صالحة لنفس القوم بعد تطورهم . ومن هنا كثرت الدعوات ، وتنوعت وسائلها ، إلا أنها جميعاً لم تأت عبثاً أو بالمصادفة ، وإنما أتت لأسباب ضرورية دعت إليها . ويمكننا أن نجمل هذه الأسباب فيما يلى :

١ — أن تختفى تعاليم الرسالة السابقة بسبب بعد الزمان ، أو لاضطهاد الطغاة . أو لغير ذلك من الأسباب ، مما يؤذن بانتشار جهالة وسط الناس تبعدهم عن هدى الرسالة وصفائها ، وتعزلهم كلية عن الله تعالى ، وهذا الوضع يجعل للناس عذراً فى ضلالهم لأنهم لم يسمعوا برسالة ، ولم تأتهم أيضاً رسالة ، وقوم هذا شأنهم هم أهل الفترة الذين وجدوا دائماً بلا دعوة فيهم ، وكانوا يظهرون قبيل كل دعوة . . .

فى هذه الحالة تأتى رسالة الله تعالى تذكر القوم بما نسوا ، وتحيى لهم ما غاب عنهم .

ولهذا رأينا سائر رسل الله تعالى يأتون إلى قوم سيطر العمى عليهم ، وبعدوا كلية عن دين الله ، فعبدوا الأصنام والأوثان ، واتخذوا من دون الله آلهة ، وابتعدوا عن أخلاق الدعوات السماوية ورأينا الرسل وكأنهم يدعون بيئة واحدة . لأن أصول هذه الدعوات كانت واحدة ، وما كان ذلك كذلك إلا لتحقق هذا السبب مع كل رسالة .

٢ — أن يرتد البشر الذين نزلت الرسالة فيهم عن مستواهم يوم أتتهم هذه الرسالة ، لدرجة تجعل الرسالة معهم قاصرة . وهذا وحده سبب يؤذن بضرورة وجود رسالة أخرى حيث أدت الرسالة الأولى دورها ، وأصبح

على الرسالة الجديدة أن تصدق بالرسالة السابقة ، وتكمل بما يحتاجه الارتقاء البشرى .

وقد يكون هذا السبب أحد أسباب كثرة الأنبياء فى بنى إسرائيل الذين تغيرت معجزاتهم وتباينت فى بعض الأحيان مواعظهم . وما كان ذلك كذلك إلا لارتقاء وتطور كانا يحدثان فى بنى إسرائيل ، والتغاير بين دعوة موسى عليه السلام . وبين دعوة عيسى عليه السلام تظهر ذلك بوضوح .

٣ — أن يحتاج البشر فى مكان ما إلى رسالة غير الرسالة الموجودة فى مكان آخر ، بسبب تغاير البشر تبعاً لاختلاف البيئات . وقد حدث هذا مع رسالات الله السابقة يوم أن كان البشر منعزلين عن بعضهم فكرا ومكاناً . مما أدى إلى تعدد الرسالات فى وقت واحد . فلقد أرسل الله تعالى سيدنا لوطاً عليه السلام إلى أهل سدوم فى دائرة الأردن . وأرسل سيدنا إبراهيم إلى قومه فى أرض بابل بالعراق ، وتوزع أنبياء بنى إسرائيل بعد موسى فى أماكن عديدة فى أقوامهم ، وكثير منهم جاء فى وقت واحد .

وقد حدث فى بعض الحالات أن أرسل الله تعالى أكثر من رسول إلى قوم معينين فى وقت واحد كما حدث مع موسى عليه السلام فإن أخاه هارون أرسل معه . وكما حدث فى « انطاكية » إذ أرسل الله إليهم رسولين معاً فكذبوهما . فعززهما الله برسول ثالث ، فقالوا جميعاً لهم :

﴿ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾(١)

ويبدو أن سبب ذلك هو عتو القوم واستكبارهم مما جعل الله يؤيد رسوله بآخر كسند له يشد أزره . ويشاركه الرأى والمشورة . ولا ضرر فى ذلك فالرسالة واحدة . والرسل يتعاونون فى تبليغها إلى من أرسلوا إليهم .

وبالتتبع التاريخى لسائر رسالات الله نرى أنها لم تأت إلا لواحد من الأسباب المذكورة ، بل أن النظرة العقلية الشاملة لا تجد سبباً سوى هذه الأسباب .

---

(١) يس آية : ١٤ .

ولا يصح مطلقاً أن يتصور إتيان رسالة لغير سبب لأن حكمة الله جل وعلا تتنزه عن ذلك ، والنقل والعقل يؤكدان أن سائر الرسالات جاءت لهدف وبعد وجود سبب يدعو إليها .

وجود الأسباب قبل الإسلام :

ظهرت الأسباب التى من أجلها يأتى رسل الله برسالاتهم قبل الإسلام بكل وضوح ، حيث انتشر الضلال فى كل مكان واختفت التعاليم الصحيحة لرسالات الله ، وكان كل الموجود فى كل أرجاء المعمورة مسميات الأديان فقط . مع اختفاء تعاليمها ونسكها ومن هنا اتخذت الأديان صورة الوثنية . حيث اتجه اليهود إلى المادة ونظروا إليها نظرة التعظيم والإجلال ، ونشروا فى الأرض الربا والفساد ، ولم يؤمنوا بدعوة عيسى عليه السلام ، واتجه الروم المسيحيون إلى تثليث الإله ، حيث جعلوا الألوهية جامعة لله وللمسيح وللروح القدس ، وقدسوا أم المسيح عليه السلام لأنها أم الإله فى نظرهم ، ونسجوا حول عيسى خصائص لم تكن له استنباطاً من آية خلقه ونشأته ، وكل ذلك ضلال ، واتجه العرب إلى اتخاذ الأصنام والأوثان مدعين أنهم على دين ابراهيم عليه السلام . واتجه الفرس إلى عبادة النار وإلى الشيوعية المطلقة فى المال والمرأة . . .

واتجه الهنود إلى الطبقة البرهمية المقدسة وخصوها بالتقديس والطاعة ، وكل ذلك ضلال ساد العالم قبيل الدعوة الإسلامية ، مشيراً إلى تحقق السبب الأول الذى من أجله تأتى رسالة الله ، صحيح أن موجة من النقد أخذت تتجه إلى هذه المفاسد تبغى إصلاحها . وتبحث عن الحقيقة التى يجب أن تسود الناس .

لكن هذه الموجه لم تصل إلى غرضها لاعتمادها على منهج العقل البشرى وحده بعد غيبة دعوات الله . والمهم أن السبب الأول قد وجد قبل الإسلام مما دعا إلى وجود الرسالة .

وقد وجد السبب الثانى أيضاً حيث وصل النضج العقلى إلى مستوى كامل

من الرق . وانتقل البشر من طور المحسوس وحده إلى طور الإدراك العقلى . ولم يعد للهيئة أثرها فى عزلة الناس وتنوع إدراكاتهم لدرجة أن اتجاهاً إلى التوحيد ساد العالم كله . وأمام هذا النضج أصبحت بقايا الدعوات السابقة غير صالحة للناس ، مما دعا إلى وجود دعوة إلهية تناسب الناس . وتهديهم إلى الله تعالى .

وبسبب النضج العقلى . وتعدد الاتصالات بين مناطق العالم المختلفة لم يعد لاختلاف الأمكنة أثرها فى اختلاف الأمزجة والطباع على نحو ما كان فى القديم ، وأصبح من الممكن أن تأتى رسالة شاملة لكل الأماكن . عامة لسائر البشر . مراعية للاختلافات الضرورية بين الناس .

ومن هنا وجدت الدعوة الإسلامية ، واضحة بهديها وتعاليمها أمام الناس ، مناسبة للكمال البشرى وتطوره ، متجه إلى العالم كله .

وأصبح الناس بعد مجىء الدعوة الإسلامية مكلفين بها . فمن استقام نال الخير والثواب . ومن عصى حقت عليه لعنة الله .

هل هناك دعوة أخرى بعد الإسلام ؟

وعلى الفور نجيب بأنه لن تكون هناك دعوة إلهية بعد الإسلام كما تظهره الحقيقة المجردة ، إن الأسباب التى تدعو إلى وجود رسالة من الله لن توجد بعد الإسلام أبداً . وذلك كلام موضوعى لا تعصب فيه ولا عاطفة .

إن تعاليم الإسلام لن تغيب عن الناس ولسوف تبقى ثابتة . وكل الشواهد تدل على ذلك .

فهى — أولا — مجموعة من الحقائق فى العقيدة والشريعة والأخلاق . والحقائق لا تتغير مهما تغير المكان أو تغير الزمان . وما هو ثابت فى نفسه يستوى فى ضرورة العلم به أن يكون عند بدء الخلق ، أو عند قيام الساعة .

وهى — ثانياً — مسجلة فى القرآن الكريم ، الذى نقله جبريل عن الله بأمانة تامة . ونقله كذلك محمد عليه السلام عن جبريل ، ونقله الصحابة من

رسولهم ، ثم تتابعت الجماهير الغفيرة تنقله عبر القرون حتى بلغت به إلينا ، مثلما نزل قبل أربعة عشر قرناً ، وسنورثه نحن غيرنا . وهكذا إلى يوم القيامة.

إن ثبوت القرآن الكريم متحقق بمداومة المسلمين على تلقيه وكتابته . وهو كذلك إلى الأبد ، وفى العصر الحديث سجله المسلمون ترتيلا على الآلات الخاصة بذلك ، وسيستمر المسلمون على ذلك وأكثر منه ، يصونون كتابهم . ويتعبدون بذلك لله تعالى . يقول السيوطى : « والأمة كما هى متعبدة بفهم معانى القرآن الكريم وأحكامه . متعبدة بتصحيح نطق ألفاظه . وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة من الأئمة القراء . وهى الصفة المتصلة بالحضرة النبوية».

وتعاليم الإسلام — ثالثاً— واقعية بمعنى إنها تعايش الإنسان ، وتقدم له الحلول العلمية لمعاشه ونشاطه . وتحيط به فى النواحى التى يتجه إليها . وبذلك تحقق لدى الناس تذكراً دائماً لها .

إن تعاليم الإسلام ليست رهبنة ، وليست عزلا ، وليست ملائكية ، ولكنها للبشر على مستوى إدراكهم . وذلك سر نجاحها وخلودها .

و — رابعاً — فإن رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم معروف بوضوح وسائر أعماله ، وأقواله ، وصفاته ، وأخلاقه مسجلة بدقة ، وقد تتبعها مؤرخو السير بالدرس والفحص ، حتى جلوها للمسلمين لتبقى حية فى العالمين .

ومن المعلوم أن القرآن الكريم والسنة النبوية هما جماع الدعوة ودستورها . يقول أبو الأعلى المودودى : إن هداية النبي صلى الله عليه وسلم لا تزال حية فى متناول الأيدى ولا حاجة إلى نبى آخر يجددها ويعرضها على الناس مرة أخرى (١) .

وهكذا فتعاليم الدعوة ما غابت . ولن تغيب . . هذه واحدة . .

وأيضاً . . .

فإن تعاليم الإسلام لن تقصر عن البشر مهما وصل مستواه . لأن تعاليم

---

(١) مبادىء الإسلام ص ١٦٠ .

الإسلام اتجهت لسائر دعوات الله السابقة وصدقتها . وكملت بما يناسب الرقى الإنسانى .

وقد بين الله تضمن الإسلام للكمال والتمام بقوله تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ حيث كمل الدين وتمت النعمة ورضى الله أن يكون الإسلام دينهم . وإنما عبر بالكمال والتمام ليشير إلى ارتباط الدعوة الإسلامية بالدعوات قبلها وأنها معهم مكملة ومتممة .

وعلى ذلك فالإسلام دعوة احتوت كل الدعوات السابقة ، وهيمنت عليها ، وهو بذلك مصدق لما سبق ، مكمل بما أتى ، مهيمن بحقيقته على كل ما مضى .

وقد راعت تعاليم الدعوة الإسلامية فى هيمنتها الارتقاء العقلى للإنسانية فدعت إلى وحدانية مطلقة لله فى الذات والصفات والأفعال . واجتثت الوثنية بأشكالها . وألفاظها . وتأثيراتها السيئة . على الأفراد وعلى الجماعات بحيث لا يخضع الإنسان إلا لخالقه . ولا يعبد إلا الله سبحانه وتعالى .

وأيقظت الدعوة العقل من نومه فعابت على المقلدين والأتباع الذين كان شعارهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾

وأمرت بالنظر والتدبر ووجهت الإنسان إلى الآيات والبراهين الكثيرة **﴿ لعلهم يعقلون ﴾**[1] ، **﴿ لعلهم يتفكرون ﴾**[2] ويكفى إن المعجزة الخالدة للدعوة الإسلامية كانت القرآن الذى خص العقل بالخطاب وأعطى لقوة الكلام وصحة الدليل حقه الأصيل . ولم يكن أخذاً للأبصار ودهشة للمشاعر والحواس كمعجزات رسل الله السابقين .

ولم تهدم الدعوة الإسلامية الدعوات السابقة . بل بينت أنها على نمطهم كما وضح من قوله تعالى :

---

(١) وردت مادة « عقل » فى ٤٩ موضعا فى القرآن الكريم .

(٢) وردت مادة « فكر » فى القرآن ١٨ مرة .

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾(١)

وأتى الإسلام فى كل مجال بتوجيه رائع وإصلاح سليم ولم يترك مشكلة إلا أزالها . ولا عقدة إلا حلها . ولا خطأ إلا أصلحه . يقول الشيخ محمد عبده : « لم يدع الإسلام أصلا من أصول الفضائل إلا أتى عليه ولا أما من أمهات الصالحات إلا أحياها ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها . فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده حرية الفكر واستقلال العقل وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع وما فيه إنهاض العزائم إلى العمل وسوقها فى سبل السعى (٢)».

وعدم مجيء رسالة بعد الإسلام يعنى أنه الرسالة الخاتمة . وأنه الدائم إلى يوم القيامة .

وبما ذكرنا يصبح ما نعنيه هنا أمراً مقرراً بالدليل المسلم من العقل والنظر. وهو ما أرشدنا إليه الله سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾(٣)

وعلى هذا فأى مدع لرسالة بعد الإسلام كاذب ، وهو مساو تماماً لبعض المعاندين المنكرين للإسلام الذين ينكرونه أصلا أو ينكرون أنه لغير العرب من الناس (٤) .

ويجب أن يكون واضحاً أن رسل الله جميعاً قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بشروا برسول من بعدهم . وبذلك أكدوا أن دعوتهم ليست خاتمة . وأنها لفترة خاصة من الزمن . ولقوم معينين ، فلما جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عرف الناس أنه الرسول الخاتم الذى مهد له سائر الرسل . وقد انتهت الرسالات برسالته وختمت النبوات بدعوته صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الشورى آية ١٣ .   (٢) رسالة التوحيد ص ١٦٤ .   (٣) الأحزاب آية ٤٠.

(٤) يدعى البهائيون والقديانيون أنهم أصحاب رسالة . وأن لهم رسلا . كما أن اليهود والنصارى لا يؤمنون بالإسلام حتى الآن . وذلك كله عناد وهوى .

ثالثا : الدعوة العالميـــة

الإسلام دعوة تامة ، ودعوة خاتمة ، ومعنى ذلك أن دين الله للناس قد كمل لا يحتاج لإضافات أخرى ، ويعنى أيضاً أنه لا رسالة بعد الإسلام أبداً.

ومن مستلزمات هذا أن تكون الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ليصل التمام الدينى إلى كل نسمة فى العالم ، وحتى لا يشعر أحد فى العالم بحجة عدم وصول رسالة إليه .

وعالمية الإسلام أحد الميزات فيه . لأن سائر رسالات الله السابقة كانت خاصة لقوم معينين . ولزمان معين . على نحو ما بينا .

وعالمية الإسلام مقررة ومسلمة بما وضع الله فيه من خصائص . .

فهو – أولا – لم يرتبط اسما باسم شخص أو قبيلة كما ارتبطت اليهودية بـ « يهوذا » وكما ارتبطت المسيحية بالمسيح أو بأنصار المسيح . . ولكن الإسلام ارتبط بأمل يراود الناس جميعاً . ذلك الأمل هو السلام ، بل إن السلام هو الهدف الأكبر للدعوة الإسلامية وهو فى الوقت ذاته الهدف الأسمى للإنسانية .

ويرتبط بأمل آخر تندفع إليه الفطرة الإنسانية ، ذلك هو تسليم الأمر لله فى إخلاص وطاعة ، وبذلك يشبع قوة الوجدان عند الإنسان . ويكمل الإرادة له ويطرد اليأس والقنوط . ويجعله يتعلق برجاء فى القوة الغيبية التى يحس بها ويستشعرها .

وأمل الإنسان فى السلام والتسليم هو الذى جعل رسالات الله السابقة تتسمى بالإسلام(١) . جذباً للناس ، وإشارة إلى الغاية التى يجب أن ينتهى إليها سائر البشر . وهى الإذعان لله وحده . وتسليم الأمر له سبحانه

فنوح عليه السلام يقول : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

---

(١) وهى تسمية لغوية لأن لكل دين اسمه الاصطلاحى الذى صار اسم علم له .

وابراهيم واسماعيل عليهما السلام يقولان ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾
وابراهيم ويعقوب يوصيان أولادهما ويقولان :﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

ويوسف عليه السلام يقول لربه :﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾
وسليمان يرسل إلى بلقيس قائلا : ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾
فلما أسلمت بلقيس قالت :
﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.
وابراهيم عليه السلام﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾وحواريو عيسى قالوا : ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾
ولا غرابة فى هذه التسمية لأنها تتفق مع مفهوم الإسلام فى كثير من الجوانب إذ الأصل اللغوى لمادة الإسلام تحتمل معان ثلاثة :

أحدها : الانقياد والمتابعة . وفى الحديث « إن الله أعانني عليه حتى أسلم » (١) أى انقاد لى وكف عن وسوستى قال تعالى﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾أى لا تقولوا ذلك لأنه صار منقاداً لكم ومتابعاً .
والثانى : السلامة والأمانة : قال الأزهرى المسلم من دخل باب السلامة .
والثالث : قال ابن الأنبارى : المسلم معناه المخلص لله فى عبادته (٢) فالإسلام هو الإخلاص لله فى عبادته .

وهكذا يوحى الإسلام بالشمول من مسماه .

والإسلام – ثانياً – حدد تعاليمه بدقة متناهية ، فجميع عناصر العقيدة وجميع الفرائض العينية من الشريعة ، مفصلة بحكمة وإحاطة لدرجة أنها غير قابلة لزيادة ولا نقص لأن أى تغيير فيها يلغيها . وأما بقية أمور الشريعة

---

(١) صحيح مسلم ج ١٧ ص ١٧ بشرح النورى .
(٢) مفاتيح الغيب ج ٢ ص ٦٢٨ .

وكافة جوانب الأخلاق فقد وضع الإسلام لها القواعد العامة التى ترسم للفقهاء من المسلمين مبادىء اجتهاد فى فروع هذه القواعد العامة .

وهذا التحديد يدل على عالمية الإسلام لأن الأمور المحددة هى الأمور الثابتة التى لا تختلف تبعاً لاختلاف الزمان والمكان . كالايمان بالله . والصوم مثلا . إذ من الإمكان تطبيقها على حقيقتها فى كل مكان . وفى كل زمان . أما الأمور المحددة قواعدها فقط فهى المسائل التى تختلف تطبيقاتها زماناً ومكاناً كالجهاد فان وسائله تختلف ، وكالشورى فإن تطبيقاتها تتغاير . وكالعلم فإن موضوعاته تتقدم وتخصصاته تختلف ، فإذا أضفنا إلى ذلك . أن تعاليم الإسلام ثابتة لظهر لنا بيقين أن تعاليم الإسلام دليل على عالميته .

والإسلام — ثالثاً — يركز على الجانب الأخلاقى ، بل أنه يطلبه من أعمال الباطن والظاهر معاً ، ويرى أنه الهدف الأساسى للإسلام ، وأنه النتيجة الحتمية للتطبيق الصحيح للإسلام . يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » والتركيز على هذا الجانب يعنى الاتجاه إلى سعادة الناس فى الدنيا وفى الآخرة . وهذا وحده كفيل بإثبات عالمية الإسلام .

والإسلام — رابعاً — يوضح بجلاء اتفاقه مع الدعوات السابقة فى أصولها ، وهو من هنا يؤمن بسائر الرسل . يصدق بدعواتهم . ويبين تعاليمهم وبعض شرائعهم . وهذا جمع للأسرة الإنسانية فى إطار الدعوة الإسلامية ، ولذلك نجد الجميع تكريماً لرسلهم فى هذا الدين مما يجعلهم يؤمنون بهم وهم يؤمنون بهذا الدين .

وعالمية الدين لا تتناقض مع ظهوره بين العرب أولا ، وعلى يد رسول عربى ، ولا مع ظهوره فى القرن السابع الميلادى . لأن ذلك كله كان بعض العوامل المساعدة على انتشاره فى العالم وبلوغه إلى الناس أجمعين لمزايا علمها الله فوضعه هذا الموضع . وقد بينا ذلك بوضوح ومن أجل هذه العالمية كانت نداءات الدعوة الإسلامية إلى الناس أجمعين حيث صدرت آيات الدعوة إلى الله بقوله تعالى :

﴿ يأأيها الناس ﴾[1] **﴿ يأأيها الذين آمنوا ﴾**[2] **﴿ يابنى آدم ﴾**[3]

---

(١) الحج آية : ١. (٢) البقرة آية : ١٠٤ (٣) الأعراف آية : ٣٥ .

ولم تقف العالمية عند النداء بل شملت سائر التكاليف ، ومن هنا رأينا آيات القرآن الكريم تتجه إلى بنى إسرائيل وتجادلهم . وتتجه للمجوس . والذين أشركوا . والذين كفروا . والقائلين بالدهر . وعبدة الأصنام والأوثان. وتناقشهم فى معتقداتهم الباطلة وتدعوهم إلى طريق الله المستقيم .

إن آيات القرآن الكريم تشير إلى عالمية الإسلام بما ذكرنا . بل إنها تذكر هذه العالمية صراحة فى قوله تعالى :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾(١)

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾(٢)

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾(٣)

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(٤)

﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾(٥)

فهذه الآيات تفيد صراحة أن الدعوة الإسلامية للعالمين . وأنها تعم المعاصرين لنزول القرآن ومن سيأتى بعدهم إلى يوم القيامة . بل أنها تشمل الجن مع الإنس باتفاق جمهور العلماء .

إن تأكيد هذه العالمية من الأمور الهامة فى العصر الحديث . لأن أعداء الدعوة يريدون إثبات أن الإسلام خاص بالعرب . وبذلك يثبتون أنه دين جنس معين كاليهودية ، ويذكرون أن الاتجاه به إلى غير العرب خروج على طبيعة الإسلام ذاته ، ويتصورون أنهم بهذه الأباطيل سيقفون ضد المد الإسلامى فى أقاليم العالم المختلفة .

وأعداء الدعوة الإسلامية لا يقفون عند حد المنازعة الفكرية . بل إنهم لعجزهم يباشرون النزاع المسلح ، ويحاولون إبادة المسلمين من غير العرب ، كما هو حادث فى أطراف آسيا وأفريقيا وغيرهما .

---

(١) الأنبياء آية ١٠٧ . (٢) الفرقان آية ١ . (٣) سبأ آية ٢٨ .
(٤) الأعراف آية ١٥٨ . (٥) الأنعام آية ١٩ .

ومع كل محاولات الأعداء فإنهم سوف يبوءون بالفشل ، وسوف ترتد سائر موجات الإلحاد والتبشير على أعقابها خاسرة مدحورة ، وسوف تبقى فى النهاية الحقيقة المجردة الناطقة بعالمية الدعوة الإسلامية .

إن ما ذكرنا من أدلة سمعية وعقلية لم تكن كافية لرد أفكار الخصوم بل إنهم حاولوا مع ذلك أن يثبتوا خصوصية الدعوة الإسلامية بالعرب . واستدلوا بما يلى :

أولا : قالوا إن ظهور الإسلام على يد رسول عربى ، وبين قومه العرب ، ونزول تعاليم الإسلام بلسان عربى ، يوحى باختصاص الإسلام بالعــرب ، ولا يستطيع أحد إنكار عروبة الرسول والقوم . واللسان .لقوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ والأميون هم أمة العرب يذكرون فى مقابلة أهل الكتاب من بنى إسرائيل ، ويقول تعالى :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(١)

ويرون أن التسليم بهذه الأمور الثلاثة يستتبع اختصاص الإسلام بالعرب ، لأن كل دعوة تأتى بلغة قومها .

ثانياً : نظروا إلى بعض الآيات . وقالوا : إنها تساعدهم فى دعواهم ، وهذه الآيات هى قوله تعالى :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾(٢)

﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾(٣)

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾(٤)

وقد وقفوا أمام هذه الآيات ، وذكروا أن الدعوة الإسلامية متجهة إلى عشيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وإلى أم القرى « مكة » والبوادى

---

(١) يوسف آية ٢ .
(٢) الشعراء آية ٢١٤ .
(٣) الشورى آية ٧ .
(٤) القصص آية ٤٦ .

حولها ، وإلى العرب الذين لم يأتهم رسول من عهد إسماعيل عليه السلام . ورأوا استنباطاً من ذلك أن الدعوة خاصة بالعرب .

ثالثاً : ادعى هؤلاء الخصوم أن فكرة العالمية لم تظهر على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى عمله . ولا فى زمنه . ولكنها ظهرت مع الفتوح الإسلامية فى بلاد فارس والروم فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وزعموا تبعاً لذلك أن فكرة العالمية فى الإسلام تعنى السيطرة والاحتلال العسكرى ، ويسمون عمر بن الخطاب بالمستعمر العربى .

رابعاً : يحاولون قصر النصوص الدالة . على العموم على عموم العرب وحدهم ، فالجميع هم جميع العرب ، والعالمون هم عالم العرب ، والكافة هم كافة العرب .

* * *

وأدلة الخصوم باطلة . وقبل إثبات بطلانها نذكر أنهم فكرياً يحاولون قصر الدعوة بالعرب ، وأنهم اقتصادياً يحاولون إفقار العرب ، وأنهم سياسياً يحاولون عزل العرب ، وذلك كله اتجاه فى الأساس ضد الإسلام ودعوته .

ونذكر أنهم يحاولون إلحاق تهمة الاستعمار بالإسلام ، وإلصاق تهم التخلف والرجعية بالدعوة الإسلامية ويشيعون ذلك فى العالم ليحولوا بين الإسلام وبين أفكار الناس .

ونذكر أن الأعداء تجمعوا ضد الإسلام وحده يصدون عنه لأنه الدعوة النشطة الإيجابية التى تشتمل على إصلاح الحياة ، ولو تركوها للجماهير حرة لآمن بها الناس ، ودخلوا أفواجاً فى دين الله ، وحينئذ تضيع أطماعهم ، وتنهزم أهواؤهم . وأما غيرها من الدعوات فهى بعيدة عن شئون الحياة والعيش معها لا يمثل خطورة على فساد .

ونذكر أن واجب الأمة الإسلامية خطير لأن العداء يتجه إلى الدين أولا وفى الأساس ، وبعد ذلك يتجه إلى كل شىء .

وبعد ذلك نأتى لأدلة الخصوم نناقشها موضوعياً لنأتى بالقول الفصل فيها، وذلك فى كل نقطة على حدة وعلى الترتيب الذى أوردناه فى عرض أدلتهم :

أولا : نحن نسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم عربى ظهر فى قومه العرب أولا ، ولكننا لا نسلم أن هذا دليل على عدم عالمية الدعوة ، لأن الله جعل دعوته فى العرب أولا ، لأن هذه الأمة جمعت من المزايا ما جعلها خير أمة تصلح لحمل الدعوة وتبليغها إلى العالم كله ، فهى أمة قريبة من التوحيد ، غير منفعلة بالأصنام والأوثان ، وغير خاضعة لطبقة الكهنة والأحبار ، ولم تستذلها طبقة سياسية متحكمة ، ولم يوجد فيها نظام حاكم له قوة منظمة ، إلى غير ذلك من المزايا التى وجدت لأمة العرب ، ولم توجد لأمة سواها .

وما دامت هذه الأمة هى الأولى بحمل الرسالة العالمية ، فلابد أن ينزل الوحى بلغتها ، حتى يفهموا ما ينزل الله ، ويحيطوا بما شرع لهم ، وبعد ذلك ينطلقون به إلى كل الآفاق .

وليس من المعقول أبداً أن ينزل الوحى بلغة غير لغة من نزل عليهم ، لأنهم حينئذ لا يفهمون شيئاً ، ويصيرون فى حكم من لايعلمون بوحى الله . ومن المعلوم أن البشر فى العالم وجدوا مختلفين وطناً ، وجنساً ، ولغة ، فلو اشترطنا اتحاد لغة الدعوة مع سائر اللغات للزم تعدد الرسالة ، أو معرفة الرسول لكل لغات العالم ، وحينئذ فلن توجد الدعوة الخاتمة ، لأن تعدد الرسالات لا يسمح بوجودها ، ولأن معرفة الرسول لكل اللغات أمر لا يقره عقل ، ولا يستقيم فى مفهوم أولى الألباب . . . ولكن الرسالة الخاتمة وجدت واقعاً ، وهذا يشير إلى أن اشتراط اللغة الواحدة غير وارد ، وغير سديد .

وما المانع فى تنوع لغات الناس وإتيان الدعوة بلغة واحدة ؟ !

وما المانع أن تكون هذه اللغة هى اللغة العربية ؟ !

وما المانع أن تكون الأمة العربية هى حاملة الدعوة بلغتها ؟ !

لا مانع يمنع ذلك على الإطلاق ، وقد رأينا فى العصور القديمة أن مختلفى

اللغة كانوا يتفاهمون بواسطة الترجمة والمترجمين ، وفى العصور الحديثة تجتمع الأمم جميعاً بلغاتها المختلفة تحت سقف واحد ، ويتفاهمون بواسطة الترجمة بلا تعثر أو غموض .

ومن المعلوم أن اللغة العربية غنية بمفرداتها ومرادفاتها ، وواسعة بمشتقاتها وميسرة التعليم والفهم .

والعرب أصحاب هذه اللغة هم أقدر الناس على إتقان لغات العالم كله حفظاً ولفظاً وفهماً ، ولو قارنا عربياً وأجنبياً فى لغة الأجنبي لما بدا فرق بينهما ، أما لو قارناهما فى اللغة العربية لبدأ الفرق واضحاً بين الإثنين فى اللهجة والنطق والحفظ والفهم ، وهذا دليل من الواقع يجعل العرب أولى الناس بترجمة تعاليم الإسلام إلى الناس .

ومن أجل التغلب على مسألة تعدد اللغات أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتعلم لغات الآخرين . قال صلى الله عليه وسلم لزيد بن ثابت : « **أتحسن السريانية إنها تأتيني كتب بها ؟ قال : لا . قال صلى الله عليه وسلم فتعملها . يقول زيد : فتعلمتها فى سبعة عشر يوماً**»(١)

وكان أبو جمرة يترجم بين الناس وبين ابن عباس (٢) .

وقد نال موضوع الترجمة قسطاً كبيراً من آراء الفقهاء . فمن اعتبره إخبارا أجاز أن يقوم به واحد كالأحناف ، ومن اعتبره بينة وشهادة لم يجزه إلا لرجلين معاً أو لرجل وامرأتين كالشافعية . يقول الكرمانى : ولا نزاع لأحد أنه يكفى ترجمان واحد عند الأخبار . وأنه لابد من اثنين عند الشهادة . فيرجع الخلاف إلى أنها أخبار أو شهادة . فلو سلم الشافعى أنها أخبار لم يشترط العدد . ولو سلم الحنفى أنها شهادة لقال بالعدد (٣) .

وهكذا تكون العروبة — قوماً ولغة — فى خدمة عالمية الدعوة ، وتكون عاملا هاماً فى انتشار الإسلام وتبليغه إلى العالم كله .

---

(١) الفتح الربانى بترتيب مسند أحمد جـ ١ ص ١٤٥ . كتاب العلم والعلماء .

(٢ ، ٣) نيل الأوطار جـ ٨ ص ٢١٧ .

ثانياً : نحن نؤكد صدق الآيات القرآنية ، لأن كل ما أورده القرآن الكريم حقائق لا تتخلف ، لكننا نخالفهم فى فهمهم لدلالة الآيات .

ذلك أن قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) نزلت فى بداية الدعوة ، ولو أنها فهمت كما يريد المعارضون . لما اشتملت على كل عشيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولاشتملت حينئذ على الأشد قرباً من العشيرة كما يفيده أفعل التفضيل (الأقربين) فى الآية ، وهم لا يقولون بذلك وبذلك يسقط استشهادهم بالآية .

إن الفهم الصحيح للآية يشير إلى أنها تساير المنهج العملى لنشر الدعوة فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى كل عصر . وهذه الطريقة هى أن يبدأ الداعية بنفسه . ثم بالأقرب . فالأقرب .

يقول الرازى : إن الله بدأ بالرسول نفسه فتوعده إن دعا مع الله إلهاً آخر بقوله له :

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾(١)

وبعد مباشرة أمره بدعوة الأقرب فالأقرب . وذلك لأنه إذا تشدد على نفسه أولا ، ثم على الأقرب ، فالأقرب ثانياً ، لا يكون لأحد مطعن عليه البتة وكان قوله أنفع وكلامه أنجح (٢) .

ولذلك نظير من مسلك الدعوة حينما صعد النبى صلى الله عليه وسلم على جبل الصفا ونادى وقال : **« يابنى عبد المطلب . يابنى هاشم . يابنى عبد مناف يا عباس عم النبى . يا صفية عمة رسول الله . إنى لا أملك لكم من الله شيئاً» (٣).** فنرى أنه عليه السلام نادى الأقرب فالأقرب .

ويذكر أبو حيان أن العشيرة تحتمل بنيها ولا تقسوا عليهم . وهى أكثر

(١) الشعراء ٢١٣ .

(٢) تفسير أبو السعود جـ ١ . مفاتيح الغيب جـ ٦ .

(٣) تفسير الزمخشرى جـ ١ انظر باب وأنذر عشيرتك الأقربين من كتاب الإيمان صحيح مسلم جـ ١ .

سماعاً لهم من غيرهم فيقول : « إن العشيرة مظنة الطواعية وبمكنه من الغلظة عليهم مالا يمكنه مع غيرهم . وهم له أشد احتمالا » (١) فالآية إذاً تدل على منهج البداية فى الدعوة مع التدريج فى الاتساع وليس فيها ما يمنع دعوة غير الأقربين وغير العرب .

وأما عن قوله تعالى (لتنذر أم القرى ومن حولها) وأم القرى هى مكة . ونحن نسلم معهم أنها أساس دائرة الإنذار .

ونسأل عن مدى ومقدار المكان من حولها الذى يجب أن يشمله الإنذار ؟ إنه يضيق على مساحة قليلة محيطة بمكة ويتسع حتى يشمل العالم كله .

ولو سلمنا أن المراد بمن حولها هم البدو والحضر المحيطون بمكة فإن التخصص بالذكر لا يدل على نفى الحكم عما سواه ، وإن دلت هـــذه الآية على كون الرسول بعث إلى هؤلاء فان قوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس) يدل على كونه رسولا إلى العالمين ، ولا تناقض بين مفهوم الآية الأولى ومفهوم الآية الثانية على هذه الصورة ، لأن خطاب الناس كافة يمنع أن يكون الخطاب مقصوراً على أم القرى ومن حولها وخطاب أم القرى ومن حولها لا يمنع أن يعم الخطاب الناس أجمعين .

وأيضاً لما ثبت كونه رسولا إلا أهل مكة وجب كونه صادقاً ، ثم إنه نقل إلينا بالتواتر أن محمداً كان يدعى أنه رسول إلى كل العالمين فوجب تصديقه فى ادعائه هذا .

وأما عن قوله **﴿ لتنذر قوماً ما آتاهم من نذير من قبلك ﴾** فنحن معهم ونعلم أن المقصود من الآية هم العرب ، وإذا كان العرب فى الجزيرة لم يأتهم رسول منذ إسماعيل عليه السلام فإن الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يعم معهم المتدينين الذين سبقت إليهم الرسل . ويقوم النبى العربى بالدعوة إليه ليظهره على الدين كله كما قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ

---

(١) البحر المحيط جـ ٧ ص ٤٦ .

بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾(١) والإظهار بالعلم . والحجة والسيادة ، والغلبة ، والشرف ، والمنزلة ، ولا يكون كذلك إلا حيث كان خاتماً للأديان وعاماً لجميع الناس .

ثالثاً : وأما ادعاء أن عالمية الدعوة لم تظهر إلا فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فهى واهية كسابقيها ، لأن الآيات التى ذكرناها فى عموم الدعوة نزلت قبل الهجرة . وهذا يوضح أن عالمية الدعوة كانت واضحة من البداية ، وبعد الهجرة وفى يوم الخندق أمل النبى صلى الله عليه وسلم فى نشر الإسلام فى سائر الأرض ، وذلك عندما ضرب معوله الصخرة ثلاث ضربات وفى كل مرة تلمع برقة منها . **فسأل سلمان الفارسى رسول الله وقال له : بأبى وأمى يا رسول الله ما هذا الذى رأيته لمع تحت الأرض ؟ فقال عليه الصلاة والسلام ، « أما الأولى فإن الله فتح على بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح على بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح على بها المشرق (٢) » .**

ومن أجل هذه العالمية جاءت التعاليم الإسلامية خطاباً لسائر البيئات وبياناً لنعم الله على كافة الناس ، فخاطبت أهل الزرع وليس هم العرب على الخصوص ، وخاطبت أهل البحر والسفن يقول الله تعالى﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾(٣)

---

(١) التوبة آية ٣٣ .

(٢) سيرة النبى ﷺ جـ ٣ ص ١٧٣ .

(٣) إبراهيم آيات ٣١ – ٣٣ .

فهذه الآيات خاطب القرآن أقواماً سخر الله لهم الأنهار والليل والنهار والشمس والقمر ، وليسوا هم أبناء الجزيرة العربية دون غيرهم لأنها نعم عامة .

على أن هذه العالمية لم تقف على الدليل النظرى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل إنه عليه السلام باشرعملياً تنفيذ عالمية الدعوة يوم أن سنحت له الفرصة بعد الحديبية حيث أرسل إلى الملوك والأمراء فى كل الأرض يدعوهم إلى الإسلام ويحملهم إثم أتباعهم إن لم يبلغوهم .

وقد جاء فى الكتاب الذى أرسله إلى هرقل« **بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى : أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (١) »** .

يقول أنس بن مالك رضى الله عنه : « **إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشى وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى وليس هو النجاشى الذى صلى عليه النبى صلى الله عليه وسلم** » .

وهذه الكتب ثابتة بالواقع التاريخى وإن لا،فمن يستطيع أن ينكر ردالمقوقس على رسول الله وإرساله « مارية » فى هدية للرسول صلى الله عليه وسلم . وهى التى تزوجها النبى وأنجب منها ابنه إبراهيم .

وهكذا ثبت أن عالمية الدعوة قد وضحت فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم . ولم تتأخر حتى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه كما زعم الخصوم .

---

(١) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٦٥ ، ١٦٦ كتاب الجهاد باب كتاب النبى صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام .

رابعاً : تخصيص آيات العموم بعموم العرب ، تخصيص بلا مخصص .
وهذا لم يقل به عاقل ، لأن من القواعد المقررة أن العام يبقى على عمومه ما لم يخصصه دليل فى قوته ثبوتاً وصحة . .

* * *

وهكذا ثبتت عالمية الدعوة بأدلة العقل وأدلة السمع . ورد أدلة الخصوم وبذلك يتضح تمام الدعوة وكونها خاتمة وعالمية . وهذا يقتضى دوامها إلى آخر الزمان .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن اليهود ينكرون حتى الآن الدعوة الإسلامية ويدعون أن الشريعة لا تكون إلى واحدة وقد ابتدت بموسى وانتهت به (١) وما زالوا ينتظرون رسولا من بعده يدعو الناس بشريعته .

وكذلك النصارى فهم يرفضون الدعوة الإسلامية ولا يتصورونها من الله . وكلا من أتباع اليهودية والنصرانية يتصورون رسالتهم هى الخاتمة ، وهذا موقف يبطله ما ورد على لسان موسى عليه السلام مبشراً شعبه بنى إسرائيل بالرسالة الخاتمة . ويقول « يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون » (١) والمسيحيون يفسرون هذه الآية على أن المبشر به هو المسيح عليه السلام ، وتفسيرهم غير سديد لأن المماثلة لابد أن تكون حقيقية وهى لا تنطبق على عيسى على حسب نظرتهم . والواقع . لأن عيسى عندهم إله . وموسى نبى وشريعة عيسى ناقصة . وشريعة موسى تامة . وموسى تزوج وحارب أعداءه . بينما لم يتزوج عيسى ولم يحارب أحداً وإنما المماثلة فى الحقيقة تنطبق على محمد عليه السلام لأنه نبى وشريعته تامة وقد تزوج وحارب أعداءه .

وأيضاً جاء فى العهد القديم أن : « نبوخذ نصر » رأى حلماً فسر له دانيال بأن ملكاً سيأتى بعد تنازع الأمم واختلافها ، وهذا الملك باسم الرب .

---

(١) سفر التثنية الإصحاح الثامن عشر فقرة ١٥ .

وبإرادته . وسيدوم إلى الأبد حيث قال له « وفى أيام هؤلاء الملوك — أى المختلفين يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبداً وملكها لا يترك لشعب آخر وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهى تثبت إلى الأبد — الله العظيم عرف الملك ما سيأتى ، الحلم حق وتعبيره يقين » (١) .

ورغم أن هذه النصوص من العهد القديم فما زال اليهود على إنكارهم للدعوة الإسلامية وكذلك المسيحيون . ويفسرون هذه المملكة بأنها مملكة المسيحية . مع أن المسيح لم يأت إلا بمجموعة من المواعظ والنصائح والحكم تقصر عن جميع حاجات الإنسان وقد توفاه الله إليه . وأتباعه قليلون فى عددهم وعدتهم .

إن هذا يرد إنكار اليهود والنصارى ويؤكد أن كل البشارات تنصب على سيدنا محمد وأمته . جاء فى أشعيا قوله : غنوا للرب أغنية جديدة تسبحه من أقصى الأرض . أيها المنحدرون فى البحر وملئه والجزائر وسكانها . لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التى سكنها قيدار . ليترنم سكان سالع من رءوس الجبال ليهتفوا ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر (٢) ، ويبين هذا القول أن الدعوة الإلهية ستكون فى جبل سالع وتنتشر إلى أقصى الأرض وتصل إلى المنحدرين فى البحر والمقيمين فى البرية وتبيد الأصنام المنحوتة وتزيلها فى قوة ظاهرة . وهذه أوصاف تنطبق على الدعوة الإسلامية تماماً . لأن جبل « سالع » المذكور هو الجبل الموجود غرب المدينة (٣) ، وقد امتدت التعاليم الإسلامية إلى كافة أنحاء الأرض ولم يحدث أن جاء نبى بعد أشعيا أباد الأصنام سوى محمد صلى الله عليه وسلم .

ولعل اليهود حينما علموا بهذه الحقائق حضروا إلى يثرب وفضلوا سكناها عن سائر المدن ليسكونوا بجوار سالع المذكور ، عسى أن يبعث النبى المنتظر

---

(١) سفر دانيال الإصحاح الثانى فقرات ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) سفر أشعيا الإصحاح الثانى والأربعين فقرات ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

(٣) قصص الأنبياء ص ٣٠٢ .

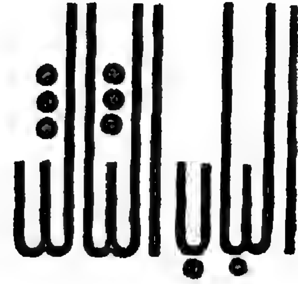
من جنسهم . ولذلك كان يبشرون به ، وأيضاً جاء فى سفر التثنية « أن الرب جاء من « طور سيناء » وأشرق من « ساعير » وتلألأ من جبل « فاران »(١) . وساعير جبال بيت المقدس التى كانت مظهر عيسى عليه السلام وفاران جبال مكة التى كانت مظهر المصطفى صلى الله عليه وسلم . ولما كانت الأسرار الإلهية والأنوار الربانية أشبه فى الوحى والتنزيل والمناجاة والتأويل على مراتب ثلاث: مبدأ. ووسط . وكمال. والمجىء أشبه بالمبدأ ، والظهور أشبه بالوسط والإعلان أشبه بالكمال عبرت التوراة عن طلوع صبح الشريعة والتنزيل بالمجىء من طور سيناء ،وعن طلوع الشمس بالظهور على ساعير ، وعن البلوغ إلى درجة الكمال بالاستواء والإعلان على فاران . وفى هذه الكلمات إثبات لنبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم (٢) .

وهكذا وضحت الميزات التى اختصت بها دعوة الإسلام . وقد حصرتها فى التمام والختام والعموم .

---

(١) سفر التثنية الإصحاح الثانى والثلاثون فقرة ٢ .

(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ١٩٤ .



الباب الثالث

تبليغ الدعوة الإسلامية

ويتكون من ثلاثة فصول :

الفصل الأول :
أهمية تبليغ الدعوة وحكمه

الفصل الثاني :
حكم من لم تبلغه الدعوة

الفصل الثالث :
تبليغ الدعوة في إطار العقل والحرية

الفصل الأول

أهمية التبليغ وحكمه الشرعى

أولا : أهمية تبليغ الدعوة الإسلامية

لا يستغنى الإنسان عن دعوة الله تعالى . لأن الإنسان محدود بالزمان والمكان ، يتأثر بهما ، وينفعل بسببهما مع بيئته وأقرانه ، وأيضاً فإن مكونات الشخص تتحكم فى صاحبها . حيث نرى خلفيات الإنسان توجهه نحو غاية معينة تختلف غالباً عن غايات الآخرين .

ولعل ذلك هو السبب فى اختلاف البشر فى تفسير المفاهيم الإنسانية العامة ومن أمثال ذلك مفهوم « العدل » فإنه يأخذ فى كل بيئة شكلا معيناً . فما هو عدل فيه بيئة يكون ظلماً فى بيئة أخرى . وقد يعدل الشخص مع بيئته ، ولا يفعل ذلك مع الآخرين . . ومن أوضح الصور فى هذا المجال نظرة الناس إلى الحرية فهى فى الغرب غيرها فى الشرق وهكذا .

وقد يصل الإنسان بفطرته إلى الحق إلا أن الغضب قد يساوره . أو تسيطر عليه اللذة فينقلب على الحق الذى أدركه .

وقد يقع التنازع بين الأفراد فى بيئة واحدة ، فتختلف اتجاهاتهم ، فترى الرجل يستحسن عين ما يستقبحه آخر ، بل إن تقلب الأحوال تجعل الشخص الواحد يستحسن ما كان يستقبحه . أو يستقبح ما كان يستحسنه .

ونظرة موضوعية على مجموعة نشأت فى بيت واحد تكشف مدى اختلاف أمزجة البشر وميولهم .

ولكل هذا لا يستغنى الإنسان عن دعوة الله تعالى لأنها تحمل معها تعاليم الخالق جل وعلا . بدقتها — وحكمتها — وما كان كذلك الحال إلا أن الخالق

سبحانه وتعالى يعلم سر من خلق . ظاهره وباطنه ، ويعلم مصلحة الفرد والجماعة ويعلم المصلحة الدائمة والمنقطعة .

ومن هنا أتت الدعوة الإلهية على منهج البشر . شاملة للجميع . واضحة أسس الحياة على مفاهيم لا تختلف من مكان إلى آخر . تعتمد الفكرة القائمة على المبادئ والغايات فقط . بلا ارتباط بزمان أو مكان أو سلالة . أو قوم .

والدعوة الإلهية تسلم الأمر لله لأنه الخالق ، وهو الرب المتصرف فى كافة الشئون ، وما الإنسان مع هذا التسليم إلا خليفة لله فى الأرض ، وعليه أن يباشر كافة أوامر الله فى أرض الله ، ويتمتع بما أعطاه من نعم تمكنه من القيام بواجب الخلافة فى هذه الأرض .

وتجلت رحمة الله للإنسانية فى الإسلام الذى أنزله وجعله خاتماً للأديان وعاماً لسائر الناس ، وأودع فيه من التعاليم ما يشمل كافة جوانب النفس والحياة ، ويوجه الفرد والجماعة إلى السعادة فى الدنيا والآخرة ، وجعله نشطاً يتجه إلى الناس حيث يوجدون . بواسطة دعاته المؤمنين به . المخلصين فى حمله . الذين يملكون الصفات التى تمكنهم من أخذ الناس إلى الخير . وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

إن أهمية تبليغ الدعوة تأتى من جانبين ، من جانب الناس حيث مصلحة الناس وسعادتهم تدعو إلى هذا التبليغ ، ومن جانب الدعوة لأن طبيعتها الحركة الهادفة والوصول إلى كل مكان فى الوجود .

وكان من حكمة الله بالناس أن كلفهم بدينه ، وأمر المؤمنين باستمرار الدعوة إلى هذا الدين حتى لا يغيب عن ذاكرة المؤمنين ، أو يبتعد بيانه عن واحد ما من سائر الناس .

ولذلك وجب أن يستمر دعاة الإسلام فى الدعوة لدينهم ، ولا يتكلوا على وجود بعض المظاهر فى اتجاه الخير ، لأن الشيطان مستمر فى الإفساد ، والمعارضين للدعوة ، كثر عددهم وتعددت وسائلهم . وعظمت إمكانياتهم .

يقول الشيخ محمد الخضير حسين — بحق — : (ولا تنس أن المضلين

المخادعين فى هذا العصر قد تهيأ لهم من وسائل الدعاية ما لم يتهيأ لغيرهم . فمن نواد تفتح . وصحف تنشر ، وجمعيات تعقد . وأموال تنفق . وجاه يبذل ، . . وهناك طائفة لم تفسق عن جحود وتمرد وإنما أوتيت من قبل الجهل وعدم صفاء البصيرة . فوضعت بجانب حقائق الإسلام ما يتبرأ منه الإسلام) (١) .

وهذا يجعل الدعوة إلى الدين من أفضل الواجبات . وأحمد المساعى ، حيث أن الفائدة حينئذ محققة .

ومع ما للدعوة من فائدة فإننا نرى بعض الفلاسفة (٢) ينكرون فضل الدعوة ، ويرون أن الناس جبلوا على صفات معينة ، صنعتها البيئة والوراثة ولا أمل فى تغييرها ، ومن هؤلاء الفلاسفة أبو العلاء المعرى ، وشو بنهور ، وإسبينوزا .

يقول أبو العلاء :

وما قبلت نفسى من الخير لفظة وإن طال ما فاهت به الخطباء

ويقول : « شوبنهور » الألمانى : « يولد الناس أخياراً أو أشراراً كما يولد الحمل وديعاً ، والنمر مفترساً . وليس لعلم الأخلاق إلا أن يصف سيرة الناس وعوائدهم » .

ويقول « أسبينوزا » الفيلسوف الهولندى : « إن أفعال الناس كغيرها من سائر الظواهر الطبيعية تحدث ويمكن استنتاجها بالضرورة المنطقية الهندسية كما يستنتج من طبيعة المثلث أن زواياه تساوى قائمتين » .

ونحن لا نوافق هؤلاء فى تشاؤمهم ونرى أهمية الدعوة . وضرورتها . لإصلاح الناس . ونرى أنها مؤكدة الفائدة . شريطة أن يقوم بها القادر عليها .

إن الإنسان قابل للتغيير . فى أخلاقه وغرائزه وطبائعه ورسالات الرسل تؤكد ضرورة الإصلاح والتغيير . وإن لا فلا معنى لإرسالهم .

---

(١) الدعوة إلى الإصلاح ص ٩ .

(٢) مبادىء علم الأخلاق ص ٧٦ .

يقول الشيخ على محفوظ : « إن الأمراض والعلل تعرض للأجسام فتذهب بجمالها . وكثيراً ما تؤدى بحياتها إذا لم تسعف بالعلاج الناجح قبل استفحالها . واشتداد خطرها ، والقلوب كالأجسام يعرض لها من الأمراض والعلل ما يطفىء نورها. وماقد يفقدها حياتها. وذلك بورودها مورد الغى والضلال . وإنهماكها فى اللذات والشهوات . وعدم المبالاة بأنواع الفسق والفجور وسيئات البدع » .

فمن هذه الأفعال تكون أمراض القلوب وعللها ، ولا دواء لها إلا من مراهم الشريعة الغراء المركبة تركيباً علمياً كيماوياً دقيقاً من أجزاء الخطب والمواعظ وغيرها (١) .

ولعل أوضح ما يدل على تغير الإنسان ما نشاهده من انتقال الأفراد من دين إلى دين آخر . ومن صفة إلى صفة أخرى وهكذا .

إن العلوم الحديثة كعلم الاجتماع والأخلاق والنفس من العلوم التى تهدف إلى تغيير الإنسان للوصول به إلى المستوى اللائق بإنسانيته . كل بطريقته ، وعلم الدعوة هو الآخر يهدف إلى التغيير كى يندرج الناس جميعاً تحت لـــواء الدعوة وهديها .

وبالجملة فإن الدعوة إلى الله هى العلاج الوحيد لصلاح العالم ويجب أن يشمر الدعاة عن سواعد الجد حتى يتقنوا وسائل الدعوة ، ويوصلوا دين الله إلى كل مكان فى الوجود .

---

(١) هداية المرشدين ص ٦٩ ، ٧٠ .

ثانياً : حكم تبليغ الدعوة

الدعوة ليست كائناً متحركاً بذاته حتّى تصل وحدها إلى الناس ، ولكنها مفهوم معنوى يطبقه مخلوق مكلف بعد أن يدركه ويحيط به .

ولأنها هكذا أوجب الله تبليغها ، فأرسل بها رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأمره بتبليغها حيث يقول الله له :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾(١)

ويقول له :

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾(٢)

وبذلك عرف الله رسوله أن تبليغ الدعوة واجب . بل إن واجبه كله ينحصر فى هذا التبليغ ، فإذا بلغ ما أرسل به فقد أدى ما عليه .

ومن هنا حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرص كله على تبليغ الدعوة فى مكة وفى المدينة .

ففى مكة عرض دعوته على القاصى والدانى من أبنائها . وكان يركز فى البداية بصفة خاصة على الأشد قرباً ، والأكثر ليناً . كزوجته خديجة رضى الله عنها وأصحابه أبى بكر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أجمعين ، وتحمل كثيراً من الأذى حيث كذبه كفار مكة واتهموه بالسحر . وحاولوا إغراءه بالمال والملك . وقد صبر لكل ذلك حتّى هاجر المسلمون إلى المدينة .

وفى المدينة تأسست الدولة الإسلامية تحت قيادة النبي صلى الله عليه وسلم . وتحولت كافة الجهود لتبليغ الدعوة الإسلامية إلى كل الآفاق مع التدرج فى التبليغ من البعيد إلى الأبعد ، وهكذا حتّى وصل خبرها إلى كل مكان بعد صلح الحديبية .

---

(١) المائدة آية ٦٧ . (٢) النور آية ٥٤ .

وخلال الفترة المكية والفترة المدنية وجدت الأدلة الكثيرة المثبتة لحكم تبليغ الدعوة . وقد حصرته فى الفرضية . وهذه الأدلة مبثوثة فى القرآن الكريم والسنة .

أدلة القرآن الكريم :

وردت آيات كثيرة تأمر بالدعوة صراحة وذلك كقوله تعالى :

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(١) وكقوله تعالى ﴿فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ﴾(٢)

وكقوله تعالى :

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٣)

ومن الآيات ما ورد خبراً عن رسول الله مع الدعوة . كقوله تعالى :

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾(٤)

وهذه الآيات تفيد الفرضية لأن الأمر يفيد الفرضية إذا لم يوجد ما يصرف معناه عن ذلك ولا صارف له فى هذه الآيات ، كما أن هـــذه الآيات لا تحتمل إلا معنى واحداً ، ولذلك فهى قطعية الدلالة .

ومن الآيات الدالة على فرضية الدعوة قوله تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾(٥)

والأمر بتبليغ الدعوة إيجاب لما تضمنه الأمر .

ومن الآيات قوله تعالى :

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٦)

---

(١) النحل آية ١٢٥ . (٢) الشورى آية ١٥ . (٣) القصص آية ٨٧ .
(٤) يوسف آية ١٠٨ . (٥) المائدة آية ٦٧ . (٦) آل عمران آية ١٠٤ .

والدعوة إلى الخير تعنى الدعوة إلى الإسلام . وهى هنا مأمور بها بواسطة لام الأمر الداخلة على الفعل المضارع ومن الآيات الدالة على وجوب تبليغ الدعوة قوله تعالى :

﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾(١)

فإن الأمر بالإنذار . هو تبليغ للدعوة بطريقة الترهيب . كما أن التبشير تبليغ لها بطريقة الترغيب .

وفى القرآن أدلة كثيرة تدل على فرضية تبليغ الدعوة .

أدلة السنة :

دلت أحاديث كثيرة على وجوب الدعوة إلى الله تعالى . ومنها :

- « ليبلغ الشاهد منكم الغائب(٢) » .
- « جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألسنتكم(٣) »
- « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر . وليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم(٤) » .

وهذه الأحاديث تدل على الوجوب من صيغة الأمر الواردة فيها .

ووجوب الدعوة إلى الله مقرر بالعقل أيضاً ، لأن الله سبحانه وتعالى حرم قتل الكافرين قبل بعث الرسول ﷺ لدعوتهم إلى الله لئلا تبقى لهم شبهة عذر تجعلهم يقولون ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ ﴾(٥) وأيضاً فإن القتال ما فرض لعينه بل للدعوة إلى الإسلام ، ومن المعلوم أن الدعوة باللسان أهون من الدعوة بالقتال . لأن فى القتال مخاطرة بالروح والنفس والمال . وليس فى دعوة التبليغ شىء من ذلك . فإذا احتمل حصول المقصود بأهون الدعوتين لزم اللجوء إليها .

---

(١) المدثر آية ٢ .

(٢) صحيح البخارى جـ ١ ص ٣٧ كتاب العلم باب « ليبلغ الشاهد الغائب » .

(٣) نيل الأوطار جـ ٧ ص ٢٣٩ . (٤) رياض الصالحين ص ١٥ .

(٥) سورة طه آية ١٣٤ .

فرضية التبليغ بين العين والكفاية

اختلف العلماء فى نوع تبليغ الدعوة الى فريقين :

حيث يرى الفريق الأول : أن تبليغ الدعوة فرضت على الجميع إبتداء ولكنه يسقط عنهم إذا أداه البعض منهم . ويستدل هذا الفريق بما يلى :

١ — يقول تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(١)

فى هذه الآية أوجب الله الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الأمة الإسلامية (٢) بهذه الآية .

٢ — يقول تعالى :
﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣)

ومعنى الآية كونوا أمة دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر . والوجوب مستفاد من لام الأمر الداخلة على الفعل المضارع ، ومن فى الآية للبيان لا للتبعيض .

وحتى لو سلمنا أنها للتبعيض فإن الخطاب فى الآية موجه للأمة كلها مما يجعلنا نشعر أن واجب تبليغ الدعوة واجبان ، وهو ما يكون دائماً فى فرض الكفاية . يقول الشافعى : « فرض الكفاية يكون واجباً على العموم . وواجباً على الخصوص . فوجوبه على الخصوص يختص بالقادرين الذين هيئوا لذلك العمل الخاص . ووجوبه على العموم إنما يكون بإعداد هؤلاء القادرين وتربيتهم وإعدادهم » .

(١) آل عمران آية ١١٠ .

(٢) هناك فرق بين أمة الإسلام وأمة الدعوة لأن أمة الإسلام هى التى آمنت. وأما أمة الدعوة فهى العالم كله الذى يجب أن تبلغه الدعوة ، والأمة إذا أطلقت وقعت على الأولى .

(٣) آل عمران آية ١٠٤ .

ويرى الفريق الثانى : أن تبليغ الدعوة فرض عينى على المستطيع فقط كالحج والزكاة . ويستدلون على ذلك بما يلى : —

١ — يقول تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾(١)

والآية تدل على أن التبليغ واجب على طائفة من كل فرقة ابتداء لأن معناها لا ينبغى للمؤمنين أن يخرجوا جميعاً للقتال بل على طائفة منهم البقاء للتفقه فى الدين ، وإنذار القوم بما تفقهوا .

٢ — لو وجبت الدعوة على الجميع للزمت الشيخ الفانى والمريض والمرأة . وهم لا يقدرون عليها . ومن القواعد المقررة فى الشريعة أنه « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » . وهذا يدل على أنها واجبة على العلماء وحدهم .

والرأى الأول هو الراجح ، لاتجاه الخطاب فى سائر الآيات إلى الأمة ، مع تقرير إيجاب خاص على العلماء القادرين . وإيجاب عام على الأمة . وأيضاً فإن الرأى الأول يحتوى فى مفهومه على الرأى الثانى .

ومن هنا اختصت الدعوة بجماعة خاصة تميزت بالعلم والإخلاص ومحبة الدعوة لأنهم يأمرون بأشياء وينهون عن أخرى . وذلك يستلزم سبق العلم بما يدعى إليه بالوسيلة المناسبة للدعوة . لأن الجهل فى هذا المقام ربما يضر أكثر لأن الجاهل لا يفرق بين المعروف والمنكر . وربما يدعو إلى المنكر وهو لا يدرى وربما عرف الحكم فى مذهبه وجهله فى مذهب صاحبه. وأيضاً فإنه لا يعرف الوسيلة المناسبة فيغلظ فى موضوع اللين ويلين فى موضع الشدة . وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً فثبت أن هذا التكليف متوجه إلى العلماء وحدهم . يقول السيوطى : فى هذه الآية دليل على أن الدعوة إلى الله فرض كفاية إذا أداها البعض سقطت عن الباقين (٢) .

---

(١) التوبة آية ١٢٢ . (٢) الإكليل ص ٥٦ .

وعلى هذا ففقه الدين لا يقف عند الفهم فى حد ذاته ، بل لابد من إبلاغه إلى النَّاس بعد تفقهه .

يقول العينى فى الأحكام المستنبطة من باب ليبلغ الشاهد منكم الغائب . ذكر أبو بكر بن العربى أن التبليغ عن النبى صلى الله عليه وسلم فرض كفاية ، إذا قام به واحد سقط عن الباقين وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى والحكم لا يبوح به فى الناس جميعاً لكن يخبر به من حضره ليبلغ عن لسان أولئك إلى من وراءهم قوماً بعد قوم . قال : فالتبليغ فرض كفاية . والإصغاء فرض عين . والوعى والحفظ يترتبان على معنى ما يستمع به ، فإن كان ما يخصه تعين عليه ، وإن كان يتعلق به وبغيره كان العمل فرض عين والتبليغ فرض كفاية . وذلك عند الحاجة إليه ، ولا يلزمه أن يقول ابتداء ولا بعده إلا إذا كلف بذلك . . فقد كان قوم من الصحابة يكثرون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فحبسهم عمر رضى الله عنه (١) .

ويجب أن يراعى الداعية إختيار الوقت والظروف المناسبين للتبليغ ، فليس الأمر فى قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ للوجوب الفورى ، وإنما المختار أنه للوجوب مطلقاً ليؤدى فى الوقت المناسب كما يرى الداعية يقول صاحب كتاب فواتح الرحموت : « والمختار جواز تأخير تبليغ الحكم المنزل إلى المكلف إلى وقت الحاجة وهو وقت تنجيز التكليف حينئذ »(٢) .

إن التبليغ إن أدى فى غير وقته المناسب . وظرفه الملائم لم يحدث الاتباع والتأثير . وهذا ما لا ترجوه الدعوة لنفسها . وقد أمر الله تعالى بمراعاة هذه الملاءمة فى الوقت والظرف المناسبين . فقال تعالى :

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾(٣)

---

(١) عمدة القارىء جـ ٢ ص ١٤٣ . (٢) فواتح الرحموت جـ ٢ ص ٤٩ .

(٣) الأعلى آية ٩ .

وقال ــ : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾(١)

ومن هذا نخلص إلى أن التبليغ فرض كفاية ، وأنه مسئولية العلماء الداعين الذين عاشوا الدعوة وخبروها تعلما وتعلماً . والأمة من ورائهم تعينهم وتمدهم بما يحتاجون إليه حتى تنجو من عقوبة التقصير إن حدث ذلك ، لأن تقصير العلماء يجعل الإثم واقعاً على الجميع . وإن أدى الجميع واجبهم فى تكوين الدعاة فعلموا الدعوة كعلم . وخبروها كفن يراعى أسلوب الأداء وطريقة التأثير والقدرة على الإقناع السهل والبلاغ المبين إن حدث ذلك فالمسئولية على الدعاة وحدهم .

إن الأمة الإسلامية بجميع أفرادها ملزمة اليوم أكثر من أى وقت مضى بأن تقوم بواجبها . لأن الأفكار تتصارع بوعى وقوة . والأمم تبذل الكثير من أجل نشر مبادئها فى الناس . ولا يصح أن يقصر المسلمون إذاً . خاصة وقد تحررت الأوطان . واستيقظت العقول . وتقدم العلم فى كل المجالات .

إن الدعاة ليسوا جنساً معيناً . ولا طبقة مميزة . إنما هم أفراد تثقفوا وأراد الله بهم خيراً ففقههم فى دينه . ومكنهم من المعرفة به . وأصبحوا أمام الواجب وما عليهم إلا أن يحملوا المسئولية وينطلقوا بها . مبلغين دعوة الله إلى الناس منكرين للدواتهم . مؤمنين بأن سعادتهم فى نجاح مهمتهم . إن كل أملهم هو إبلاغ الدعوة من غير بحث عن مصلحة ذاتية لهم . لأنهم دعاة الله يعملون ويتركون النتائج إلى الله يجازى عليها كما يشاء ويريد .

وينبغى هنا أن نرد بعض الشبه التى تثار لإبطال واجب التبليغ . وتثبيط همة رجال الأمة الإسلامية تجاهه . وذلك فيما يلى :

---

(١) الأنعام آية ٦٨ .

(أ) يقولون : واجب تبليغ الدعوة على الدعاة وحدهم ، وعلى سائر الأفراد من بعدهم أن لا يشغلوا أنفسهم بهذا الأمر .

ونرد عليهم : بأن المراد بالدعاة العلماء عموماً . وهذا لا يعنى ضرورة تخرجهم من مدرسة معينة . بل إن العلم يتعلق بتعلم جزئية بسيطة فى الدين . فمن تعلمها صار عالماً بها . ووجب عليه حينئذ تبليغها . . ومن من المسلمين لا يعرف جزئية من الدين ؟ ! . . . على أن التبليغ وإن قام به الدعاة ، فإن على الأمة أن تشاركهم إيجابياً . فتسمع لإرشادهم وتطيع . وتمدهم بالمال والقوة والعدة .

(ب) يقولون : إن أمر الدعوة شاق . وفوق الطاقة . والله تعالى يقول : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وفى هذا مندوحة لترك واجب تبليغ الدعوة

ونرد عليهم : بأن هذه علة واهية . فلقد كان تبليغ الدعوة فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم أشق من كل ما نرى . ومع ذلك تحمله المسلمون وصحابته . ولقوا فى سبيله العنت والأذى والموت . وكان شعارهم جميعاً .

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى

وكيف يكون هذا عذراً للمسلمين عن الدعوة فى الوقت الذين يشاهدون فيه المبشرين رجالا ونساء يتركون بلادهم الغنية المتقدمة إلى أواسط أفريقيا فى الأحراش والأدغال من أجل نشر باطل ؟ !
كيف لا يكافح المسلمون وهم أصحاب حق، وحملة الرسالة الصحيحة ؟ ! .

(جـ) يقولون : إن الدعاة اليوم فى مؤخرة الصف الاجتماعى . .

ونرد عليهم : بأن هذا وهم زينه الضلال والشيطان . فإن الدعاة لن يكونوا أبداً فى المؤخرة لأن المؤمنين ينزلونهم منزلة رائدهم الأول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأيضاً فإن الداعية المخلص ينال منزلة يتمناها كبير لنفسه . ومن هؤلاء كثير فى المجتمع . . وكيف ينتظر الداعية قدره من الناس . وقد أخذه من الله وهو يقول له: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى

﴿ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. فإن كانت تلك منزلة قول الداعية فما بالك بشخصه ؟ ! .

(د) يقولون : إن الباطل انتشر والفساد عم ولا حيلة للدعاة .

ونرد عليهم : بأن انتشار الباطل أدعى للدعوة والواجب على الدعاة أن يبينوا فقط (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة) .

(هـ) يقولون : لا تكليف بتبليغ الدعوة لقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾(١)

ونرد عليهم : بأن معنى الآية أنكم إذا استقمتم كما أمرتم . وقضيتم الواجبات: التى من جملتها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فلا يضركم من اشتد به هواه وتطوح به فى واد سحيق من الغواية . . وقد رأى الصديق أبو بكر رضى الله عنه هذا التأويل المنحرف للآية من بعض المنافقين فقام فى النـــاس خطيباً وقال : إنكم تقرأون هذه الآية ﴿ ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾ وتضعونها فى غير موضعها . وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله بعقاب** »(٢)

ويقول ابن تيمية : « إن الآية تدل على وجوب تبليغ الدعوة لأن الاهتداء يتم بأداء الواجب. فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما قام بغيره من الواجبات لم يضره ضلال الضلال »(٣)

وأخيراً فإننا نقول إن الدعوة واجبة ، وأنه لا عذر للدعاة فى إهمالها ، وعلى الأمة أن تقوم بواجبها . والله يهدى إلى سواء السبيل .

---

(١) المائدة : آية ١٠٥ .

(٢) أحكام القرآن الكريم جـ٢ ص ٣١ .

(٣) الحسبة ص ٢٧٥ .

الفصل الثانى

حكم من تبلغه الدعوة

سبق أن ذكرنا الأدلة الكثيرة على وجوب تبليغ الدعوة الإسلامية . وفصلنا القول فى وجوبها على الأمة الإسلامية . وعلى الدعاة القادرين على حملها إلى الناس وتبليغها فى العالمين .

ومن شروط التبليغ أن تكون الدعوة واضحة فى ذهن المستمع ، لأن خلوها من الوضوح يعطى عكس المقصود من التبليغ ، كما أن وصولها إلى الناس على عكس صورتها الصحيحة لا يعد بلاغاً فى الحقيقة ، ومن هنا كان دور الرسول صلى الله عليه وسلم مع آيات القرآن الكريم المبلغة لتعاليم الدعوة . بياناً للخفى . وتوضيحاً للغامض . وتفصيلا للمجمل . وتقييداً للمطلق . وتخصيصاً للعام وهكذا . مما جعل الدعوة واضحة بينة أمام الجميع وقد ظهرت أهمية الوضوح للدعوة أكثر بعد ما رأينا أعداء الدعوة يعرضونها لأتباعهم بعكس صورتها . ويذكرون لهم أنها أفيون مخدر للعقول . وأنها ملازمة للتخلف . وهذا التصوير يصد الناس عن الدعوة . ويبعدهم عن الإيمان بها . لذلك كان الوضوح والبيان شرطاً أساسياً فى تبليغ الدعوة .

ومن المعلوم أن الدعوة الإسلامية فطرية النزعة . بمعنى أنها تتفق مع حاجات النفس السوية . وتلتقى مع قناعات العقل الرشيد ، ومن هنا كان وضوح الدعوة عاملا من عوامل الاقتناع بها والتحمس لها . وسبب عام لجذب النظر العقلى وتحريكه عندما يسمع وضوحها فيرى ويحلل ويؤمن .

وفرضية التبليغ على هذا النحو أمر مقرر منذ بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغ الرسول دعوة الله بأمانة بالغة . واستمر السلف الصالح على نمطه . وواجبنا أن نكمل المسيرة .

ومع ذلك فإن نظرة موضوعية إلى العالم المعاصر تكشف لنا حقيقة سيئة . يقول الشيخ محمد الغزالى : إن سكان العالم اليوم يزيدون على ألفى مليون إنسان . وعدد المنتسبين إلى الإسلام بينهم يقرب من خمسمائة مليون . أما البقية الضخمة فليست كذلك . . . فيها ألف مليون « وثنى » و « شيوعى » لا صلة لهم بالله . ولا يتبعون أحداً من الأنبياء .

وهناك نحو خمسمائة مليون « نصرانى » منقسمون بين الكنائس النصرانية المتعددة .

وهناك شرذمة من اليهود يتمسكون بالهوى . ويعيشون على الضلال .

وبين المسلمين المنتسبين إلى الإسلام . جماهير ترث الإسلام إسماً فحسب وتتبع فى حياتها ما بثه الغربيون من أنظمة وقوانين أغلبها من إملاء الهوى والشيطان . . .

وحينما ننظر فى الألوف المؤلفة من غير المسلمين . ونفكر فى مصيرها عند الله نلمس الحقائق التالية :

١ — هناك ألوف مؤلفة تعتبر فى حكم من لم تبلغه الدعوة أصلا . فهى إما أن تجهل كل شيء عن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإما أن تعلم عنه وعن دعوته مفتريات روجها أعداء الإسلام .

٢ — هناك « أهل الكتاب » وهؤلاء يتبعون الأحبار والرهبان ولا يعلمون شيئاً عن الإسلام . أو يعلمون عنه صورة مشوهة قدمها رؤساؤهم إليهم (١) ،

ذلك هو الواقع . ومن أجله نشير ونركز على أهمية تبليغ الدعوة بكل وضوحها وبيانها .

ومن أجله نذكر حكم الإسلام فى شأن من لم تبلغهم دعوة الله . ونحاول تحديد مسئولية عدم التبليغ إن حدث فى ذلك تقصير .

---

(١) مع الله ص ٥٧ — ٦٠ بتصرف .

وقد اختلف علماء الإسلام فى السبب الموجب للتكليف إلى فريقين :

فريق يرى أن التكليف بالعقل ، وعلى ذلك فالعاقل مسئول عن إيمانه بالله وإن لم تبلغه دعوة الإسلام . وهذا الفريق هو المعتزلة وجماعة من الأحناف .

وفريق ثان يرى : أن التكليف لا يكون إلا بالشرع ، وعلى ذلك فالإنسان غير مسئول إلا إذا أتاه شرع الله تعالى هادياً له إلى الحق . وموضحاً أمامه الطريق المستقيم . وهذا الفريق هو أهل السنة وجمهور الفقهاء .

وخلاف الفريقين هنا يشمل أهل الفترة الذين وجدوا قبيل الرسالات . وكانوا لا يجدون أمامهم شيئاً من دين الله تعالى ، بل إن الخلاف فى أهل الفترة هو سبب انقسام العلماء إلى الفريقين المذكورين .

يستدل المعتزلة على رأيهم بأن العقل وحده كاف فى إيجاب المعرفة ، بأن العقل مساو للحواس . والخبر المتواتر . فى إثبات حقائق الأشياء . وهو أيضاً متمكن من النظر فى آيات الله فى النفس والكون وسائر جوانب الحياة . وذلك كله يجعله كاف فى إيجاب المعرفة على صاحبه .

وأيضاً فإن الرسول يتجه بأصول الدعوة إلى هذا العقل ، ويقدم له الأدلة كسبيل للإقناع ، والأدلة هى هذه الآيات المبثوثة فى النفس والكون والحياة .

ومن المعلوم أن أصول الدين لا يكفى فيها التسليم بلا اقتناع . ولا تؤخذ من السماع بلا تدبر . بل لابد فيها من اليقين العقلى ، والإطمئنان القلبى ، وذلك يحققه العقل .

ولأجل أن تستقيم أدلة المعتزلة نراهم يفسرون « الرسول » بالعقل فى قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[1]، أى عقلا وفى قوله تعالى ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[2] أى بعد العقول، وأما قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾[3] فيفسرونها

---

(١) الإسراء آية ١٥ . (٢) النساء آية ١٦٥ . (٣) القصص آية ٤٧ .

بقولهم: لولا بعثت إلينا نبياً ينبهنا على النظر فى أدلة العقل . وهذا على لسان القوم لايؤبه به .

وعلى رأى المعتزلة فأهل الفترة مكلفون فى حكم الله تعالى بسبب تمتعهم بالعقل . ومثلهم كل من لم تبلغه الدعوة ، لأن العقل كاف فى معرفة أصول الدين أما فروع الشريعة فهى مسائل توقيفية لا يؤاخذ المرء عليها إلا بالرسالة .

وأما أهل السنة الذين يرون أن الرسالة شرط فى إيجاب التكليف فيستدلون **أولا** — بقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾(١) ومعنى الآية عندهم ما صح . وما استقام . بل استحال فى سنتنا المبنية على الحكم البالغة أن نعذب أحداً من أهل الضلال والأوزار اكتفاء بقضية العقل حتى نبعث إليهم رسولا يهديهم إلى الحق . ويردهم عن الضلال . ويقيم الحجج . ويمهد الشرائع حسبما جاءفى تضاعيف الكتاب المنزل على الرسول (٢) . وهم بذلك لا يصرفون معنى كلمتى « نبعث » و « رسولا » عن معناهما الحقيقى . لأن من المعلوم أن اللفظ يدل على الحقيقة ولا ينصرف إلى المجاز إلا عندتعذر الحقيقة . أو عند وجودقرينة مانعة من إرادتها . . . وفى هذه الآية لا توجد قرينة مانعة ، كما أن الحقيقة غير متعذرة .

ويستدلون — **ثانيا** — : بأن العقل قد يقصر عن إدراك المعرفة وحده . لأنه متأثر بالأمور المادية من حوله . وقد يعجز عن إدراك الأمور الكلية والمسائل المعنوية .

ويستدلون — **ثالثاً** — بأن الله سبحانه وتعالى أرسل رسلا عديدين إلى أقوامهم . ولم يعذب الضالين إلا بعد أن جاءهم الرسل وأنذروهم . فلما تمسكوا بضلالهم أتاهم عذاب الله تعالى . ولو صح التكليف بمجرد العقل لما ترتب عذابهم على الرسالة .

ويستدلون — **رابعاً** — بأن الله سبحانه وتعالى ذكر أن اعتذار العباد حين

---

(١) الاسراء آية ١٥ .

(٢) رسالة التوحيد ص ٧٩ .

يسألون بعدم إرسال رسول إليهم مسلم ، وهو لهم حجة وذلك فى قوله تعالى : ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾[1] ولوكان العقل كافياً فى إيجاب التكليف لما سلم لهم هذا الاعتذار .

ولكن . .

هل يلغى أهل السنة دور العقل إذاً ؟ !

هم لا يقولون بذلك . لأن ورود الشرع يتجه بالخطاب إلى العقل . ويجعله شرطاً فى وجوب الحكم الشرعى .

يقول الشيخ محمد عبده : « العقل الإنسانى محتاج فى قيادة القوى الإدراكية والبدنية إلى ما هو خير له فى الحياتين . إلى معين يستعين به فى تحديد أحكام الأعمال . وتعيين الوجه فى الاعتقاد بصفات الألوهية . ومعرفة ماينبغى أن يعرف من أحوال الآخرة[2] » وهذا المعين لابد أن يكون شيئاً غير العقل . وهو الرسول الذى يتكلم عن الله تعالى . ويبلغ الشرع الإلهى إلى الناس .

ورأى أهل السنة هو الأولى بالاعتبار لأن العقل غالباً ما ترد عليه الخواطر الكثيرة المتناقضة . إذ ما من خاطر يعرض له إلا وفى إمكان خاطر آخر على نقيضه أن ينقضه فتتعارض الخواطر ويقع الإنسان فى اضطراب وتناقض ، وأيضاً فإن أهل السنة لا يهملون العقل بالكلية ، لأنهم يقدرونه قدره . ويكلفونه على قدر استطاعته ، وأيضاً فإن المعتزلة بعد قولهم باستقلال العقل فى الإيجاب يقولون إن العقل لا يدرك الفروع ولابد من الشرع لها .

ومعنى ذلك أنهم يرون ضرورة الرسالة . وهذا يتضمن اعترافاً منهم بضرورة الشرع لتكليف الإنسان بالدعوة الإسلامية .

على أن تبليغ الدعوة لابد أن يكون بيناً واضحاً . يثير النظر . ويدفع العقل إلى التأمل والتدبر ، وقد اشترط الإمام الغزالى لتبليغ الدعوة أن تكون على وجه يثير داعية النظر . ويحرك الفكر والعقل تجاهها .

---

(١) القصص آية ٤٧ .

(٢) رسالة التوحيد ص ٧٩ .

وقد قسم الإمام الغزالى الناس بالنسبة إلى وصول الدعوة الإسلامية إليهم إلى أصناف ثلاثة :

الصنف الأول : من بلغتهم الدعوة الإسلامية واضحة بينه . وعلموا كل شيء عن الإسلام ورسوله بواسطة الدعاة . أو بالمجاورة والمخالطة . أو بغير ذلك .

الصنف الثانى : من لم تبلغهم الدعوة الإسلامية أصلا ولم يعلموا شيئاً عن الإسلام ورسوله .

الصنف الثالث : من علموا بالدعوة الإسلامية . وسمعوا عن رسوله . ولكن بصورة مشوهة منفرة كأن يقال لهم : « إن كذابا مدلسا اسمه محمد ادعى النبوة » وأن الإسلام دين الرجعية والتخلف .

والصنف الأول مكلف ومسئول ومؤاخذ على التقصير . والصنف الثانى غير مكلف وغير مؤاخذ . والصنف الثالث فى معنى الصنف الثانى لأن ما بلغه يعد كعدمه .

الفصل الثالث

تبليغ الدعوة فى إطار العقل والحرية

الإسلام دين الفطرة والعقل ، ودعوته تهدف أساساً إلى مخاطبة العقول واقناعها بالدليل . لتتدبر وتختار ما ترضاه بلا إغراء ينسيها ذاتها . أو إكراه يدفعها إلى اعتناق مالا ترغبه .

وبمشيئة الله تعالى سندرس فى هذا الفصل ما يبين اعتماد الدعوة الإسلامية على العقل اليقظ والحرية الكاملة ونتبع بعض التعاليم المثبتة لهذا .

أولا : تقدير الإسلام للعقل المدرك :

أول ما نلحظه فى الدعوة الإسلامية أنها بعقائدها وتكاليفها معقولة ، وعلى الرغم من أنها ليست من عمل العقل البشرى إلا أنها لم تخاطب سواه ولم تبرز أدلتها إلا إليه ، ومن هنا اهتمت مصادرها بالعقل آملة أن يتدبر ويفهم . لأن إيمانه هو الإيمان . وبغير اقتناعه لا تتم عقيده . ولا يصلح دين .

يقول أبو الحسن البصرى « ينبوع الآداب هو العقل الذى جعله الله تعالى للدين أصلا وللدنيا عماداً » (١) ومن نظر ورأى أن الإيمان عقيدة تستقر فى داخل الإنسان أولا وتجعله يؤمن بالغيب عن يقين كأنه شاهده تماماً ويسلم كل أموره تبعاً لعقيدته فلا يعترض على ما ينزل به ويدع المقادير تمشى وهو راض بها كيفما كانت ، من رأى ذلك علم يقينا أن الدعوة لا يمكن أن تفرض من خارج الذات . ولكنها تنادى الافهام وتعرض مبادئها على العقل فإذا ما اعتنقها مصدقاً بها فقد تحقق للدعوة ما تريد ، وأصبحت تشريعاتها مطبقة فى ملائمة مع الواقع ولهذا كان اهتمام القرآن بالعقل تنبيهاً لشأنه . وتوضيحاً لضرورته .

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٣ .

فى الأساس لم ينزل القرآن مبيناً وعربياً ومفصلا ليعقله من يتصل به كما وضح بقوله تعالى :

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(١)

فالعلة إذاً هى فهم معانيه والإحاطة ببدائعه والاطلاع على أنه خارج عن طوق البشر منزل من عند خلاق القوى والقدر ولذا تعرف النعمة وينقطع العذر (٢) ويتحقق الإيمان .

ولأجل العقل كانت الآيات الكونية كما أشار الله تعالى إلى ذلك كثير من الآيات منها :

قول الله تعالى :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾(٣)

إن الآيات الموجودة فى الآية وغيرها دلائل لمن ينظر ويعتبر بالآثار العلوية الفلكية والسفلية الأرضية والذاتية النفسية ولا يقدر على النظر فى الآيات سوى العقل الذى يدرك ويفهم. أما غيره فإنه لا يهدى صاحبه إلى خير ولا يوصله إلى صواب .

والقرآن الكريم يعيب على من يهمل عقله فيقع فى أخطاء عديدة . كمن يأمر غيره بالبر وينسى نفسه نتيجة ضعف عقله . وهذا يستنكره الله فى قوله تعالى :

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾(٤)

---

(١) يوسف آية ٢ .
(٢) تفسير أبي السعود جـ ٢ ص ٥١ .
(٣) النحل آية ١٢ .
(٤) البقرة آية ٤٤ .

فتراه سبحانه ينكر تعطيل العقل عند من يفعل ذلك وفى الآية توضيح عظيم بينه الزمخشرى فى تفسيره وهو يقول أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه وكأنكم فى ذلك مسلوبو العقول فإنها فى الواقع تأباه وتدفعه (١) .

وتلحظ من القرآن أنه يرجع سبب إهمال العبادة والاستهزاء بها إلى نقص فى العقل ذاته يقول تعالى :

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾(٢)

وذلك لأن لعبهم وهزءهم بالعبادة من أفعال السفهاء والجهلة فكأنه لا عقل لهم .

وأشار القرآن كذلك الى من يفسد خلقه ويضيعه ويعمل الفرقة والعزلة والجفاء والخشونة ويباشر الكذب والضلال ، ويبين أن ذلك يرجع إلى عدم اكتمال العقل وما كان الأمر هكذا إلا لأن العقل هو الذى يرقى بصاحبه ويرفعه إلى مستواه فى الإنسانية فيعرف الله . وحقه . والدين وتعاليمه ، والنفس ومداها ، فلا يقع بعد معرفته فى سوء .

ومن أهمل العقل فقد أسقط كرامته . ويكفى أنه وضع نفسه فى مكان سحيق بينه الله فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾(٣)

فشبه الله من لا يعقل بالدابة لكونه أصم وأبكم . أو سماه دابة من غير تشبيه لنفس السبب (٤) وذلك كله ذم وتقبيح على إهمال العقل والتدبر. بل إن الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾(٥)
يقول ابن كثير ويجعل الرجس أى الخبل والضلال على الذين لايعقلون حجج

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ .
(٢) المائدة آية ٥٨ .
(٣) الأنفال آية ٢٢ .
(٤) مفاتيح الغيب جـ ٤ ص ٥٣٠ .
(٥) يونس آية ١٠٠ .

الله وأدلته(١) وكأن هؤلاء الأقوام قد هيأوا أنفسهم لجهنم ، ووضعوها فى صف البهائم أو أنزل منها بسبب أنهم لايعقلون بفهمهم ولايتدبرون بحواسهم ، يقول تعالى :

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(٢)

وإنما كانوا أَنْزَلَ من الأنعام لأن الإنسان وسائر الحيوان كما يقول الفخر يشتركان فى قوى الطبيعة الغاذية والنامية والمولدة . ويتشاركان أيضاً فى منافع الحواس الخمس الباطنة والظاهرة . وفى أحوال التخيُّل والتفكر والتذكر ،وإنما حصل الامتياز بين الإنسان وسائر الحيوانات فى القوة العقلية والفكرية التى تهديه إلى معرفة الحق لذاته والخير لأجل العمل به . فلمـا أهملوا العقل والفكر كانوا كأنعام بل هم أضل لأن الحيوانات لا قدرة لها على تحمل هذه الفضائل . والإنسان يستطيع . ولم يفعل(٣) .

وواقع الآيات يدعو إلى النظر العقلى عن طريق التأمل فى الآيات الكونية والمعنوية ذلك لأن ترك النظر يعمى عقل الإنسان عن الآيات البينات ، يبين أبو السعود هذا الواقع بقوله : فى هذا حث للناس لأن يسافروا ليروا ويعتبروا بما حدث لمن ظلم نفسه (٤) .

ولعل ورود القرآن على نوعين محكم ومتشابه لكى يدفع العقل إلى الاجتهاد والتدبر لأنه لو كان كله محكماً لسهل فهمه بلا إعمال فكر أو نظر ، ولو كان متشابهاً كله لتعلو اليقين واختلط . لكن القرآن جاء على النوعين ليندفع العقل نحو تأويل المتشابه وفهمه بدليل العقل ورده إلى المحكم . وحينئذ

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٥ صـ١٤١ هامش فتح البيان .
(٢) الأعراف آية ١٧٩ .
(٣) تفسير الغيب جـ ٢ ص ٤٧٢ .
(٤) تفسير أبى السعود جـ ٤ ص ١٦ .

يتخلص من ظلمة التقليد ويصل إلى ضياء الاستدلال والبينة . وهذا الاندفاع يؤدى إلى زيادة العلم وكثرة الثواب وفتح الطريق أمام أصحاب المذاهب لكى يصلوا به إلى الحق المحكم (١) .

وهناك من الأمور ما يذكرها القرآن غير مفصلة . مكتفياً بالإجمال لإمكان أن ينتفع العقل بها بعد النظر والتحصيل ، فالسماء والأرض والليل والنهار آيات مخلوقة على روعة وعجب ودقة . لكن لا يدركها إلا أصحاب العقول التامة القادرة على النظر والإدراك . وقد بين الله ذلك فقال تعالى :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾(٢)

يقول ابن كثير بعد أن عدد بعض ما فى هذه الآيات من عجب إنها لأصحاب العقول التامة التى تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها (٣) . ذلك لأن اللب هو كمال حال العقل (٤) . وأولى الألباب هم الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار ولا ينظرون إليها نظر البهائم . غافلين عما فيها من عجـائب الفطر . وكل خطاب فى القرآن الكريم إلى ذوى الألباب إنما هو خطاب لأناس لهم نصيب من الفهم والوعى أوفر من العقل الذى يكف صاحبه عن السوء ولا يرتقى إلى منزلة الرسوخ فى العلم والتمييز بين الطيب والخبيث وبين الحسن والأحسن وعقل أولى الألباب هو العقل الذى يقابله الجمود والضلال . وليس هو العقل الذى يقابل بالجنون .

وأولو الألباب بعقلهم ممتازون ، فهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم الألبـاب . وهم يعتبرون من الماضى

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٥ ، مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ٥٩٨ ، الإتقان جـ ٢ ص ١٢ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٩٠ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٣٣ .

(٤) مفاتيح الغيب جـ ٣ ص ١٧٢ .

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب . وهم أهل التذكر وما يذكر إلا أولو الألباب .

هذه الثقة التامة فى العقل البادية فى جعله موطن النظر ، وميزة الإنسان وداعى الأخلاق ، وأساس الاجتهاد والتميز ، هذه الثقة ترشحه بالضرورة ليكون المرجع الأوحد للإيمان ، والسلطان الفريد فى العقيدة ، ومن اعتقد ظاناً أو مقلداً فإيمانه غير معتد به .

وقد عاب القرآن على من يبنى عقيدته على الظن فقال تعالى :

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾

فذكر الله بهذه الآيات أن الظن لا يسد مسد الحق أبداً وأن بعضه إثم وضرر . وهو من هوى النفس وشرورها .

وعاب القرآن أيضاً على المقلدين الذين يتبعون ما ألفوا عليه أباءهم وينكرون دعوة الحق . فقال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

والدعوة فى الوقت الذى عابت تقليد السابقين لا ترضى لمتبعيها أن يقلدوا الآخرين فقال تعالى :

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ﴾(١)

وإنما وعظهم الله بالتفكير المستقل بحيث يقوم به كل فرد على حده أو يقوم به اثنان . لأن ذلك أدعى إلى إعمال الفكر . وعدم الخضوع لرأى غريب بلا اقتناع . كما أن الجمهرة تأخذ الفرد فى تيارها وتسوقه معها

---

(١) سبأ آية ٤٦ .

بلا تدبر ونظر . ولذلك وعظ الله الناس أن يقوموا مثنى وفرادى ثم يتفكروا فى أمر العقيدة وحقيقتها ودعوة الرسول وتعاليمه .

وما نظر الإسلام إلى الظن والتقليد هكذا إلا لأنهما بعيدان عن المجال العقلى الواعى . وأنهما يستلزمان الضلال والغى .

وينبغى أن نلاحظ أن الإسلام حين نادى بترك الأتباع من غير دليل . وضرورة الإيمان عن عقل وفهم كان فى زمن يعتبر الأتباع فيه من أقوى العوامل ، وكان الاهتمام الأكبر فيه هو المحافظة على مواريث الآباء . وقد غضبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه يسفه أحلام الآباء ودين الأسلاف وهذه الملاحظة تعطى الوزن الدقيق لاهتمام الإسلام بالعقل على الإطلاق .

ولم يكتف الإسلام بتوجيه العقل نحو ذاته . وإنما أثاره ورغبه ، ووضع له الحجج التى تنصره على التقاليد السائدة حيث أحاط أقوال المقلدين بما يدحضها انظر قوله تعالى :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(١)

ترى قول المقلدين الذين ألغوا عقولهم وأفسدوه . حيث دعوا إلى طريق الله الثابت المدعم بالدليل وسئلوا عن حقيقة أصنامهم . ووضح لهم ضلال سابقيهم ومع ذلك هرعوا إلى الضلال واعتذروا عن ذلك بأنهم على سنن آبائهم وأسلافهم ، وذلك كله ضلال أى ضلال . والحق الأصيل فى فهم العقل وإدراكه ، يقول الرازى : «إنها أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال وترك التعويل على ما يقع فى الخاطر من غير دليل أو على ما يقوله الغير من غير دليل » (٢) . ويقول عن ذلك أيضا : « إن المعنى أنهم يتبعون آباءهم اتباعاً فى سرية كأنهم يفزعون إلى أتباعهم . والمقصود

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٠ .

(٢) مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ١٣٧ .

أنه تعالى علل استحقاقهم للوقوع فى الشدائد بتقليد الآباء فى الدين وترك اتباع الدليل . ولو لم يوجد فى القرآن آية غير هذه الآية فى ذم التقليد لكفى» (١) .
ويقول : « إن من أقوى الأدلة على فساد التقليد ووجوب التمسك بالاستدلال أنا لو قلبنا الأمر فمدحنا التقليد وذممنا الاستدلال لكان ذلك مدحاً لطريقة الكفار التى ذمها الله وذما لطريقة ابراهيم التى مدحها الله تعالى » (٢) .

ولتأكيد الاعتماد على العقل نجد القرآن الكريم يحذر الإنسان من فساد الكهان والأحبار . أيما كانوا . فأسقط سلطانهم . ونفى عنهم القدرة على التحليل والتحريم . وبين ذلك حتى لا يخدع أحد بهم فقال تعالى :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٣)

وذلك لأنهم فوق محافظتهم على المال والجاه فهم بالثقة يصلون فى نظر متبعيهم إلى القداسة كما حدث من اليهود والنصارى حيث :

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٤)

وقد بين الاستعمال والعرف أن الأحبار مختصون باليهود . والرهبان مختصون بالنصارى إلا أن ذكرهم معاً يفيد أيضاً التحذير ممن له صفة دينية أيا كان اتجاهه . كالرهبان أو من يتصل بهم تعليماً وفقها كالأحبار . ذلك لأن الوضع اللغوى يفيد أن الراهب من ظهرت آثار الرهبنة على وجهه ولباسه والحبر هو العالم الذى يحسن البيان ويحبر المعانى (٥) .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ١٣٧ .
(٢) مفاتيح الغيب جـ ٤ ص ٦٢٣ .
(٣) سورة التوبة آية ٣٤ .
(٤) سورة التوبة آية (٣١)
(٥) مفاتيح الغيب جـ ٦ صفحة ٥٢٤

وبعد أن يترك الإنسان اتباع الهياكل الدينية والأسلاف عليه أن يجهد عقله فى البحث عن الدليل والوصول إلى النتائج عن إقناع ويقين . حتى تكون عقيدته كما تريدها الدعوة لمعتنقيها .

ومن أجل المحافظة على القدرة الكاملة للعقل لم تقم الدعوة الإسلامية أساساً على المعجزة الخارقة للعادة . لأن صاحبها لا يثبت بها وحدها أمام المجادلة والشكوك ولذلك لما طلبها المشركون . وقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾(١)

لما طلب المشركون هذه المعجزات الحسية أنكرها النبى صلى الله عليه وسلم عليهم وقال لهم :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

وذلك لأن الإيمان يحتاج إلى اقتناع كامل . ولو تم الإيمان عن طريق المعجزة الحسية لكان تسليماً لا يتساوى مع طلعة العقل المدرك الذى يفحص ويفهم ، وإنما أنكر الله مطالبهم بهذه الشدة . . لأنهم طلبوها بعد ما أتاهم القرآن مفصلا مشتملا على أدلة التوحيد . مشيراً إلى قصص السابقين وموقفهم من الإيمان والكفر . فأكدوا بذلك كفرهم وعنادهم وقالوا ما قالوا فكان المناسب أن ينكر الله طلبهم بشدة وقوة .

وكان من الممكن أن يترك الإنسان ليهتدى بعقله وحده ، لكن اضطراب الفكر فى الدين يوم ظهور الدعوة صنع عائقاً أمام العقل . فكان

---

(١) الإسراء آية ٩٠ — ٩٣ .

الوحى لازماً بعد ذلك لينبهه ويذكره وكانت مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هى توجيه العقل نحو الطريق السوى . ومثله فى الناس كمثل المبصر الذى يأخذ بيد الأعمى ويوصله إلى رأس الطريق ثم يتركه يذهب إلى بقيته . ومن هنا كان القرآن وهو المعجزة مفهوماً ومطابقاً لقوانين الفكر ولذلك لم ينكره عقل . وإن عجزت سائر العقول من مجاراته .

وقد أورد القرآن الكريم كثيراً من التساؤلات المتعلقة بأصول الدين التى جاءت على ألسنة الرسل عليهم السلام . وقد أتى بها لتكون سراجاً منيراً أمام العقل يزيح به كل ما يعترضه فى تحققه واطمئنانه . وليثبت الإيمان بالنظر والدليل .

ومن هذه التساؤلات سؤال ابراهيم عليه السلام رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال : بلى (١) وسبب السؤال يبدو من قول ابراهيم « ولكن ليطمئن قلبي » فهو سؤال يتعلق كما ترى بالبعث وهو من أهم مسائل الاعتقاد .

ومنها سؤال الحواريين لعيسى عليه السلام ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٢) . وسبب السؤال قولهم ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(٣) وهو سؤال يتعلق بالقدرة الإلهية وهى من أهم مسائل العقيدة

ذلكم هو العقل فى الإسلام نجاه من القهر ، والإجبار وخاطبه بالحسنى وأنزل له القرآن . وساق أمامه الدليل . وجعله سيد صاحبه يقوده إلى الخير والإيمان . ويرفع عنه ظلمات التبعية والتقليد . ويربطه بالحقيقة دائماً .

---

(١) البقرة آية ٢٦٠ .

(٢) المائدة آية ١١٢ .

(٣) المائدة آية ١١٣ .

— ٢ —

ثانياً : الحرية أساس تبليغ الدعوة :

لم تقف الدعوة الإسلامية عند ثقتها الكاملة فى العقل . وإنما ضمت إلى هذه الثقة إيمانها بالحرية الحقيقية للإنسان . فى عقيدته . وفى كل حياته . ذلك لأن العقيدة الدينية بلا حرية لا تكون . لأن العقيدة فى حقيقتها حاجة نفسية عند الشخص المعتقد معتمدة على أساس مقدس . وهذه الحاجة النفسية هى التى توجد الإيمان والتدين عند صاحبها .

والحاجة النفسية معنوية بالضرورة . ولذلك لا يتصور معها إكراه أو ضغط . ومن الممكن أن يكره الإنسان إيجاباً أو سلباً على عمل أو قول . لكن المستحيل أن يعتقد رغم أنفه . وأن يتطابق مظهره فى الحقيقة مع عقيدة لا يوافق عليها . لأن النفس لا تؤمن إلا بما تتيقنه . ولا تعتقد إلا فيما تؤمن به . وأقصى ما يصنعه الإكراه أن يبدو المرء وكأنه معتقد . بينما هو عن العقيدة بعيد . وليس هناك ثمرة فى هذه المظهرية التى حاربتها الدعوة الإسلامية بكل وضوح . وقد تحدث القرآن الكريم عن طائفة من الناس تعيش بهذه الصورة حيث يعلنون إيمانهم ظاهرا وقلوبهم هواء . ويبين الحكم فيهم وأمثالهم فقال تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾(١)

فنفى إيمانهم لأنهم آمنوا إعلاناً بالقول . ولم يدخل الإيمان فى قلوبهم .

إن المنافقين هم هذه الطائفة الخطرة التى اشتهرت بهذه المظهرية المناقضة للحقيقة . وهم بالتناقض الظاهر والباطن أصبحوا أخطر على الدعوة من الكافرين . حيث ضموا إلى الكفر قصد التلبيس واستساغة الكذب وطبع التخنث . وليس كذلك الكافر فهو يعلن معارضته القلبية (٢) .

---

(١) سورة البقرة آية ٨ .

(٢) مفاتيح الغيب جـ ١ ص ٢٨١ ، ٢

وقد أشار الله إلى وجوب الحذر من المنافقين فقال تعالى عنهم :

﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾(١)

يقول الزمخشرى أى هم الكاملون فى العداوة — لأن أعدى الأعداء العدو المداجى الذى يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوى فاحذرهم ولا تغتر بظاهرهم (٢) .

وما كان الأمر هكذا مع النفاق إلا لأن العقيدة لا تكون إلا من ينبوع النفس المختارة التى لا تحس بأى حجر على اختيارها وحريتها .

ولضرورة الحرية فى العقيدة أهدر الإسلام إيمان الإلجاء . وكفر الإلجاء كما وضح من آيات الكتاب الحكيم يقول تعالى :

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(٣)

فالإيمان حين الموت كالتوبة تماماً عنده لا يقبلان . ولذلك عدت توبة هذا الوقت كلا توبة . وعطف عليها الذين يموتون وهم كفار . لأن إيمانهم لا اعتبار به حيث جاء فى وقت الإلجاء ،يقول الرازى :«إن الإيمان فى الوقت الذى يعاين المرء فيه نزول ملائكة الرحمة،والعذاب لا ينفع فى ذلك الوقت يصير المرء مكرها على الإيمان. ولذلك لا ينفع إنما الإيمان ينفع وقت ما يملك الإنسان القدرة على خلافه حتى يكون المرء مختاراً »(٤) ولهذا حين قال فرعون .

﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾(٥)

---

(١) المنافقون آية ٤ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٠٩ .

(٣) سورة النساء آية ١٨ .

(٤) مفاتيح الغيب ج ٧ ص ٣٤٥ ص .

(٥) سورة يونس آية ٩٠ .

معلناً إيمانه ثلاث مرات لم يقبل منه لأنه كما يقول النسفى أخطأ وقته وكانت المرة الواحدة تكفى فى حالة الاختيار لكنه قال الثلاث فى وقت الاضطرار حين أدركه الغرق وأيس من نفسه (١) وكفر الإلجاء لا يعتبر هو الآخر . قال تعالى :

﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾

فى هذه الآية بين الله ضخامة جريمة الكفر بعد الإيمان ثم استثنى من أكره على الكفر لأنه ليس بكافر فى الحقيقة حيث ألجىء ظاهره عليه وبقى قلبه مطمئناً بالإيمان .

ولأجل أن تتضح ضرورة الحرية للناس بين الله من أول ظهور الدعوة حقيقة الرسول . . وحدد دوره . فهو بشر من الناس يتصف بالكمال . وقد عصمه الله من الخطأ واختاره للرسالة وليس عليه إلا البلاغ .

ويجب هنا أن نذكر أن المضطهدين فى بداية ظهور الدعوة هم المسلمون لا غيرهم مما يثبت أن الاضطهاد كان من جانب أعداء الدعوة ضد اعتناقها . وكان الداخل فى الإسلام يوقن مقدماً بعذاب الاضطهاد . ومع ذلك يقوم متحملا الأذى من أجل اقتناعه .

وحتى تتضح حرية الدعوة تماماً كان النبى عليه الصلاة والسلام يسمح لغير المؤمنين بالمناقشة فى أصول العقائد . ويطالبهم بالبرهان لأن المسألة تتوقف دائماً على الدليل البين المؤدى إلى الإقناع . وقد علم الله رسوله هـذا الطريق . ألا تراه حينما ذكر أهل الكتاب أحلامهم .

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾

---

(١) تفسير النسفى جـ ٢ ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

ومع ظهور بطلان هذا الرأى طالبهم النبى صلى الله عليه وسلم بالدليل عليه وقال لهم :

﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١)

وحينما حاول المشركون أن يلقوا تبعة شركهم على القدر وقالوا﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾. قال لهم ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾(٢)

وإنما أورد القرآن هذه المناقشات تدريباً للناس على اتباع الدليل والبحث فى حرية واختيار .

وهكذا آمنت الدعوة بالحرية وضرورتها للإيمان الصحيح .

ثالثا : الجهاد ودوره مع الحرية :

قامت السرايا والغزوات بدورها فى الاتصال بالجماهير الغفيرة من العرب وغيرهم . ذلك لأن العرب كانت تتابع أخبار وقائعها وتسجله فى ذاكرة رواتها وشعرائها ، فلما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أشاع كفار قريش بين العرب أن المسلمين هربوا من مكة ، وأن دينهم مقضى عليه لا محالة ، وأن أتباع محمد بحالة من الضعف جعلتهم يفرون تاركين خلفهم أموالهم وديارهم .

وتلك كلها دعاوى باطلة . ولكن أنى للعربى أن يعرفها بفكره المجرد ؟ !
ومن هنا تبدو أهمية السرايا والغزوات كوسيلة للدعوة فى إطار الإيمان بالعقل والحرية فلقد قامت .

أولا — بتفهيم أهل مكة بقوة المسلمين وشجاعتهم ، وقامت بتفهيم العرب جميعاً . قدر محمد ودينه وأتباعه .

ثالثاً — فإن التضحيات الإسلامية أبرزت روح الرجل المسلم ، وحبه

---

(١) سورة البقرة آية ١١١ (٢) سورة الأنعام ١٤٨

للقاء الله . ورجاءه الاستشهاد فى سبيل الله ، وكان ذلك صورة عجيبة دفعت الكثيرين أن يتأملوا فى القوة التى أضفاها الدين على أتباعه .

و— ثالثاً — فلقد كانت الغزوات سبباً فى تشريع كثير من الأحكام كصلاة الخوف وتوزيع الفىء والغنائم . . الخ .

و— رابعاً — وضع الجهاد المسلمين أمام واجب مفروض وهو الدعوة إلى الله وقتال من يصد الدعوة أو يقف فى طريقها . وفى ذلك دعامة مؤثرة . لأن الحق إذا لم تسنده القوة تغلب الباطل عليه ، بل إن الحق القوى يجعل الناس ينظرون إليه بفهم وإعجاب :

و— خامساً — فإن الجهاد يبين إيجابية الإسلام . ويحركه لتحقيق الأهداف النبيلة . وبذلك سبق كثيراً من الاتجاهات الحديثة . حيث تجند الدول سائر قواها لتحقيق أغراضها ، . . ومع ذلك فإن إيجابية الإسلام لا ظلم فيها أبداً لأن الجهاد الإسلامى لم يكن إلا رداً لظلم ، ودفعاً لعدوان ، وحماية للدعاة فى حياتهم وعملهم .

وقد تعرضت الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث بادعاء أن جهادها كان ظالماً قائماً على الاعتداء والغدر : وهذا افتراء واضح لأن الجهاد الإسلامى لم يكن إلا رداً لظلم ، ودفعاً لعدوان ، وحماية للدعاة فى حياتهم وعملهم .

والجهاد الإسلامى فى جملته يخضع للمبدأ العام الذى يتفق مع الفطرة ذلك هو « مبدأ الدفاع » وهو مبدأ ثابت يقول تعالى :

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾(١)

والعقوبة بكافة صورها فى الإسلام نوع من مدافعة الجريمة على قدرها ،

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٤ .

وهو مبدأ حق وعدل ، لأن الظلم لو ترك لعم الفساد . وأصبحت الشئون للطغاة ، والمجتمعات على اختلافها تتفق على مدافعة الاعوجاج ليستقيم لها الأمر وتصلح الحياة .

ولا لوم مطلقاً على من يدفع ظلماً ويرده ، بل إن رد الظلم هو سر البقاء يقول تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾(١)

وقد تمسك المؤمنون منذ البداية بمبدأ الدفاع – يشير الله إلى هذا فى القرآن المكى واصفاً المؤمنين فيقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾(٢)

يقول الرازى : إن الانتصار يجب أن يكون بالمثل . فإن النقصان حيف . والزيادة ظلم . والتساوى هو العدل ، وبه قامت السماوات والأرض . ويقول إنه لا يصح العفو إلا إذا كان سبباً لتسكين الفتنة ورجوع الجانى عن جنايته (٣) .

والجهاد الإسلامى – نوع من مدافعة الباطل . وهو حق وعدل وذلك يتضح من تشريعاته ووقائعه .

أما تشريعه فقد مر بمراحل متعددة تبعت المسلمين فى ضعفهم وقوتهم . ولم تخرج أى مرحلة له عن « مبدأ الدفاع » .

وكانت المرحلة الأولى : قبل الهجرة . حيث كان المسلمون ضعفاء

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥١ .

(٢) سورة الشورى آية ٣٩ – ٤١ وهذه الآيات مكية .

(٣) مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ٤١٥ و ٤١٦ .

لا يمكنهم رد الإيذاء . فى هذه المرحلة كان الدفاع السلبى بالصبر والتحمل مع المحافظة على الدين وعدم التسليم للطغاة . وانتظار القوة الإسلامية ليتحولوا بها إلى دفاع إيجابى نشيط .

والسلبية فى هذه المرحلة ضرورة اقتضتها ظروف المسلمين وضعفهم فهم فى مكة قليلو العدد مستضعفون يخافون أن يتخطفهم الناس . يقول ابن كثير «إن المسلمين لـمَّا كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً منهم. فلو أمر المسلمون بقتالهم وهم أقل من العشر لشق عليهم (١) » .

وتطبيقاً لتنفيذ فكرة الدفاع السلبى كانت الآيات تأمر فى هذه المرحلة بالمصابرة والتحمل وعدم إطاعة الحاقدين .

يقول تعالى :

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾(٢)

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(٣)

وحتى يكون التحمل أمراً مسلماً به وسهلا عرف الله المؤمنين بأنه يدافع عنهم فقال :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾(٤)

ويجب أن يكون واضحاً أن سلبية هذه المرحلة كانت فى ترك المقاتلة وتحمل الإيذاء . وما عدا ذلك فالإيجابية ثابتة موجودة ، ففى مجال إبلاغ الدعوة وتبيينها وشرح أهدافها لم يحدث أبداً توقف . وفى مقابلة شبه القوم كانت الحجج المقنعة . وأمام اتهامات المعاندين للرسول صلى الله عليه وسلم وتشككهم فى الوحى إليه كانت الردود الكثيرة المقنعة .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٤٦ .

(٢) سورة المزمل آية ١٠ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٩٩ .

(٤) سورة الحج آية ٣٨ .

ويجب أن يتضح كذلك أن هذه السلبية فى المقاتلة لم تكون مبدأ وإنما كانت ضرورة عاشها المسلمون . وعليهم أن يتذكروا حقوقهم خلالها . ويترقبوا لأنفسهم عساهم يأخذون حقهم الذى سوف ينتصر حتما .

وكان النبي فى خلال هذه المرحلة يشير لأصحابه إلى الفرج والمخرج قال للمسلمين قبيل الهجرة إلى الحبشة : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد . وهى أرض صدق . حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه »(١)

ولعل ما يشير إلى أن السلبية فى الدفاع خلال المرحلة المكية كانت ضرورة لا مبدأ . ما تره فى بداية المرحلة الثانية بعد الهجرة إلى المدينة مباشرة إذ نزل قول الله تعالى﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(٢) .فالله سبحانه وتعالى حين أذن لهم فى الذى كفهم عنه بين السبب فى الإذن وهو أنهم ظلموا خلال المرحلة المكية التى انتهت بإخراجهم والاستيلاء على أموالهم يقول الزمخشرى « هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤذيهم المشركون أذى شديداً فيأتون الرسول ما بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم : اصبروا فإنى لم أومر بقتال حتى هاجر (٣) » وهكذا أذن الله لهم بالقتال بعد الهجرة، وبدأت مرحلة الدفاع الإيجابى. وهى المرحلة الثانية وفيها نرى المهاجرين يتصرفون خلالها على أساس أنهم أصحاب حق مهان يجب أن يهاب فيقومون ببعض الغارات التأديبية ضد من ظلموهم فى المرحلة الأولى وهذه الغارات تعرف بالسرايا وهى التى تمت قبل « غزوة بدر » .

ولعل ما يؤكد ارتباط سبب هذه السرايا بالمرحلة الأولى أن جميع رجالها من المهاجرين الذين عاشوا هذه المرحلة وحدهم . يعدد ابن اسحاق هذه السرايا ويذكر سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب فى ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين وسرية حمزة بن عبد المطلب بن هاشم إلى سيف البحر فى ثلاثين

---

(١) سيرة النبى جـ ١ ص ٣٤٣ .
(٢) سورة الحج آية ٣٩ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٩٠ .

راكباً من المهاجرين ، وسرية سعد بن أبى وقاص فى ثمانية رهط من المهاجرين . وسرية عبد الله بن جحش فى ثمانية رهط من المهاجرين ويؤكد ابن إسحاق أنهم جميعاً من المهاجرين فيذكر عقب حديثه عن عدد كل سرية قوله « وليس فيهم من الأنصار أحد (١) » وما ذكره ابن إسحق يؤكد أن سلبية المرحلة الأولى كانت ضرورة فلما زال سببها أذن للمسلمين بالقتال لاسترداد حقوقهم فى إطار مبدأ « الدفاع » .

وإنما كان الإذن لازماً فى بداية المرحلة الثانية ليكون المسلمون فى حل من الدفاع القتالى . وحتى لا يتخيلوا أن أوامر المصابرة وحدها هى أوامر هذه المرحلة أيضاً .

إن الإذن بالقتال لم ينسخ العفو والمصابرة حيث لا مناقضة بينهما . لأن الصبر طريق إعانة . والقتال يحتاج إليه .

والإذن بالقتال غير الأمر به . ولذا لم يشعر المؤمنون بفرضية القتال بعد الإذن فكان خروجهم فى بدر اختيارياً . وعلموا أن من خرج للقتال أثيب ومن تخلف لم يحاسبه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما كان الخروج اختيارياً فى « بدر » فقد اهتم النبى صلى الله عليه وسلم بأخذ رأى الأنصار فى ميدان المعركة قبيل الاشتباك . لأنهم عنصر لم يكلف بالقتال حيث لم يفرض بعد ، ولم يظلم كالمهاجرين ، وكان اشتراكهم تبرعاً محضاً رداً لرسول الله ومساعدة للمهاجرين .

وكان القرشيون فى بدر يعلمون أن المهاجرين وحدهم هم غرماؤهم امتداداً للحوادث القديمة ، ولذلك حينما بدأت الحرب بالمبارزة خرج من المسلمين أنصار فأبى الكفار مقاتلتهم . وطلبوا أن يكون المبارزون من بنى عمومتهم المهاجرين يقول ابن إسحاق : **خرج عتبة بن ربيعة من الصف بين أخيه شيبه وابنه الوليد ودعا إلى المبارزة فخرج له فتية من الأنصار ثلاثة هم**

---

(١) سيرة النبى ج ٢ ص ٢٢٤ — ٢٣٩ بتصرف .

عوف ومعوذ ابنا الحارث ورجل ثالث يقال له عبد الرحمن بن رواحه . فقالوا : من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار . قالوا : ما لنا بكم حاجة . ثم نادى مناديهم يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قم يا عبيدة بن الحارث . قم يا حمزة . قم يا علي » (١) فترى أهل مكة يطلبون المهاجرين على الخصوص . وقد قال عتبة للأنصار . **أكفاء كرام إنما نريد قومنا .**

وقد استمرت هذه المرحلة الثانية مدة عاش المسلمون خلالها فترة التمهيد للمرحلة الثالثة . ومن هذا التمهيد أن الله حثهم على الثبات فى الحرب وأخبرهم بذلك ضمنيا فى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾(٢)

فلقد شبه لهم الفرار بصورة مؤلمة وكأن من يفر من القتال يسلم دبره إلى أعدائه الزاحفين ، وأمرهم أمراً صريحاً بالثبات فى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

ومن هذا التمهيد قوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾(٣)

لكى يستعدوا استعداداً مطلقاً للقتال والحرب .

ومن التمهيد كذلك قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ

---

(١) سيرة النبى جـ ٤ ص ٢٦٥ . (٢) سورة الأنفال آية ١٥ .

(٣) سورة الأنفال آية ٦٠ .

صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (١)

وفى هذه الآية أمر الله بالتحريض على القتال والثبات أمام العدو ولو كان أكثر عدداً منهم .

ثم كانت — **المرحلة الثالثة** — وهى الأمر بقتال من قاتلهم من أهل مكة ومن ظاهرهم ، وإنما احتاج المسلمون إلى الأمر بالقتال بعد الإذن به . لأن منهم من أسلم حديثاً ولم يقع إيذاء عليه ومنهم من طبع على ضعف فطرى ومنهم من بينه وبين أهل مكة قرابة وصلة . وهؤلاء لا يكفى معهم الإذن بالقتال وإنما لابد لهم من الأمر به ليشعروا بوجوبه ويقيموه مخافة الإثم من ترك فرض .

وهذه المرحلة لم تخرج هى الأخرى عن مبدإ الدفاع كما يستفاد من آيات تشريعها لأن فيها « لا تعتدوا » « ولا عدوان إلا على الظالمين » وعلى المسلمين أن يرهبوا عدوهم بالاستعداد . عساهم يحققون به السلام .

وقد بدأت هذه المرحلة الثالثة بعد بدر مباشرة حيث بدأت قريش الحرب العامة وأخذت تستعد للانتقام من هزيمتهم فى أحد . جاء فى لباب النقول أنه لما أصيبت قريش يوم بدر ورجعوا إلى مكة مشى عبدالله بن أبى ربيعة وعكرمة ابن أبى جهل وصفوان بن أمية فى رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم فقابلوا أبا سفيان ومن كان له فى ذلك العير من قريش تجارة . فقالوا : يا معشر قريش إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً ففعلوا (٢) .

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) لباب النقول جـ ١ ص ١٢٥ .

وكان الله مع المؤمنين فوجههم بعد بدر مباشرة إلى وجوب الاستعداد للحرب ولزوم الثبات فيها . ثم كانت قمة المعية الإلهية أن وجه المسلمين إلى أن مرحلة الإذن المجرد قد انتهت لتبدأ مرحلة أوسع منها هى مرحلة فرضية القتال فقال تعالى ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾(١)

والآية تؤكد خاصية المرحلة الثالثة . وهى الأمر بقتال من يقاتل المسلمين من أهل مكة ومن ظاهرهم .

وأخيراً كانت المرحلة الرابعة حيث أمر الله المسلمين بالحرب العامة ضد كل المشركين أيا كان نوعهم وجنسهم ومكانهم وزمانهم فقال تعالى﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٢) ومع هذا التعميم فى الحرب لا نسخ فى أوامر المرحلة الثالثة لاندراجها فى سعة هذا العموم .

والحرب فى المرحلة الرابعة لا تعارض مبدأ « الدفاع » لأن الأمر فيه « قاتلوهم كما يقاتلونكم» فقتالهم لكم هو المشبه به وهو السبب لأن الكاف زادت هنا عن مجرد التشبيه فتضمنت معنى المقابلة والعقوبة . وقتالكم يجب أن يشبهه . وذلك يستلزم أن وجه الشبه فى قتالهم أوضح وأسبق .

وأيضاً فإن المشركين هم الذين بدأوا فى العام الخامس الهجرى بالمقاتلة العامة ساعة أن تجمعوا فى عدد هائل . ضم قريشا وأحابيشها . ومن تبعها من بنى كنانة وأهل تهامة . ومعهم غطفان ومن تبعهم من أهل نجد يعاونهم يهود بنو قريظة يقول ابن إسحاق فى حديثه عن هذا التجمع . « فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب . وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن

---

(١) سورة الأنفال آية ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) سورة التوبة آية ٣٦ .

ابن حذيفة من بدر فى بنى فزارة والحرث بن عوف بن أبى حارثة المرى فى مرة وسعد بن رخيلة بن نويرة بن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع»(١)

وقد بلغ تجمع المشركين عشرة آلاف . وكان أملهم القضاء على المسلمين أجمعين كما يوضحه قول حيي بن أخطب لكعب بن أسد القرظى « عاهدنى القوم وعاقدونى على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه (٢) » فكان لزاماً أمام اتجاهات هذا التجمع الشامل أن يأمر الله المسلمين بالمقاتلة العامة لتبدأ المرحلة الرابعة فى غزوة الأحزاب التى وقعت فى الخامس من شوال فى العام الخامس الهجرى (٣) . ومن يومها والمسلمون مكلفون بقتال من قاتلهم من سائر الفئات المشركة ومن ظاهرهم من بقية الناس .

هذا واقع الجهاد فى تشريعه .

أما وقائعه فإنها تؤكد ما شرع له حيث كانت كلها دفاعاً محضاً ولم يحدث أن كانت واقعة واحدة لغير ذلك .

ولعل أكبر ما يدل على أن الوقائع كانت دفاعية أن تسلسلها كان خاضعاً لتشريعها . وما حدث فى الحديبية دليل آخر حيث اقترب المسلمون من مكة وصاروا على بعد عشرة أميال ومع ذلك صالحوا قريشا بشروطها مع أن ظاهر الشروط غبن وظلم . وقد قبلها النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه .

وهكذا شرع الله الجهاد . دفعا للظلم وحماية للدعوة . وتمكيناً للدعاة من مباشرة البلاغ . ولم يحدث قط أن كان للاضطهاد أو للقهر .

وما دام الجهاد الإسلامى دفاعياً فقط . فإنه يعد وسيلة لفتح العقول للحق ، ومنع ظلم الطغاة ، وإلزام الجبابرة باحترام العقل والحرية ، وتحقيق الأمان لمن يريد أن يفكر فى عقيدة أيا كانت .

وعلى هذا فان كل اتهام موجه للجهاد الإسلامى لا أساس له من الحقيقة .

---

(١) سيرة النبى جـ ٣ ص ١٧٠ . (٢) سيرة النبى جـ ٣ ص ١٧٥ .
(٣) سيرة النبى جـ ٣ ص ١٦٨ .

الباب الرابع

وسائل تبليغ الدعوة

ويتكون من ثمانية فصول :

الفصل الأول : الملامح العامة للوسائل

الفصل الثاني : القصة القرآنية

الفصل الثالث : القسم القرآني

الفصل الرابع : الجدل القرآني

الفصل الخامس : المثل القرآني

الفصل السادس : السنة النبوية

الفصل السابع : منهجية الوسائل

الفصل الثامن : الداعية

بين يدى الباب :

قدر الله للدعوة الإسلامية أن تكون عالمية وخاتمة ، وقضى لها بالتمام والظهور ، وسيرها على سنة البشر فأظهرها فى عصر يتطلبها ويتفهم تعاليمها الكاملة وجعلها فى أمة قادرة . بسبب مكانها وخصائص إنسانها . على إبلاغها وحمل أمانتها ، كما أوحى بها على يد رسول كريم ستظل الإنسانية تؤكد أنه خير ما خلق الله .

وحتى يبقى للدعوة كمالها جعلها الله خاتمة للرسالات . على أن لا تتناقض معهم . إذ تتضمن مبادئهم وتكملها بجديد يناسب كمال البشر ، وتضع من التعاليم ما يبقى إلى الأبد ولا تحتاج البشرية معه إلى وحى آخر جديد .

وقد اعتبرت الدعوات السابقة جزءاً من الدعوة الإسلامية وتجارب على نفس الطريق تفيدها . وتؤكدها . وتبين خصائصها التى جعلتها عالمية وخاتمة من دونها .

وحتى تتأكد ضرورة الدعوة للناس جعلها الله هادفة تبغى تحقيق السعادة ونشر السلام . وللوصول بالإنسان إلى هذا الأمل فى الدنيا والآخرة طلبت الدعوة من معتنقها أن يخلص إخلاصاً كاملا فى تطبيقها ليندرج الظاهر والباطن تحتها . وتتحول طاقة الإنسان بها إلى قوة إلهية تزدهى بسمات الله وتنمو بطاعته . وتعيش كل همها أن تنال بالدعوة سعادة الدنيا والآخرة وتأخذ منها الأمن والهدوء والسلام .

وكان من حكمة الله تعالى أن تنتقل الدعوة إلى الناس بأهدافها فوضع الوسائل المحققة لذلك فى كتابه العزيز . وفى السنة النبوية . وفى أعمـــال الصدر الأول .

ومن هنا اشتمل القرآن الكريم على كثير من أنواع الخطابات التى أوردها مرة فى شكل قصة . ومرة أخرى فى هيئة قسم أو جدل وهكذا . مع تضمن كل نوع لخصائص تجعله وسيلة للدعوة وتمكنه من التأثير فى الناس .

وتنوع الوسائل فى القرآن ضرورة اقتضتها المراعاة الحكيمة لتنوع الناس واختلاف العناصر المؤثرة فيهم ، ذلك لأن التنوع على صورته الموجودة فى القرآن يجعل بعض الوسائل متجهاً إلى العقل المجرد . وبعضها الآخر متجهاً إلى العاطفة والوجدان ، والبعض الثالث متجهاً إلى محاورة الجدليين وإقناعهم ، ذلك لأن الناس على ثلاثة أصناف كما يقول ابن رشد **صنف** ليس هو من أهل التأويل وهم الخطابيون الذين هم الجمهور الغالب . وذلك أنه ليس يوجد أحد سليم العقل يعرى من هذا النوع من التصديق ، **وصنف** هو من أهل التأويل الجدلى وهؤلاء هم الجدليون بالطبع . أو بالطبع والعادة . **وصنف** هو من أهل التأويل اليقينى وهؤلاء هم البرهانيون بالطبع والصناعة يعنى صناعة الحكمة (١) ، ولهذا جاء التنوع الخطابى مناسباً لتنوع الناس .

واشتمل القرآن كذلك على توضيح يتعلق بأن الخطابات كلها فى حدود ثقة الدعوة بالعقل المدرك الحر . بعد تحصينه ضد القهر والإكراه ومساعدته على أن ينظر ويدرك .

وإبلاغ الدعوة إلى الناس بوسائلها يقتضى أن تصل هى إليهم على وجه الوجوب وإن لم يتحركوا هم إليها فلا شىء عليهم ، ومن هنا احتاجت الوسائل إلى من يحملها وينقلها إلى الناس أينما كانوا، وليس ذلك فى غير الداعية الذى يعتبر بحق وسيلة الوسائل وأساسها العملى الذى يحولها إلى تطبيق وتنفيذ .

وقد اشتمل القرآن الكريم على بيان كامل لتكوين الداعية الذى يبلغ إلى الناس دعوة الله بوسائل القرآن الكريم ، وأيضاً فإن تتبع الجانب الفنى فى الحديث النبوى يشير إلى دقة فى تبليغ الدعوة مما يجعلنا نعتبر السنة النبوية بأنواعها إحدى الوسائل الهامة فى تبليغ الإسلام . وكذلك أدى الجهاد دوره فى إيصال الإسلام للناس فى حرية وأمان ، ونظراً لتعرضه للهجوم المعادى فى العصر الحديث درسته فى إطار منهجه ودوره فى نشر الدعوة . ورأيت

(١) فصل المقال ص ٣٠ .

ضرورة الاستمرار فى مشروعيته . وضرورة المحافظة عليه . وقد جاء هـذا الباب شاملا لكل هذا ، مع دراسة تبين مدى إمكانية الاستفادة بهذه الوسائل وفنيتها فى العصر الحديث . ولهذا سأبحث الوسائل البيانية للدعوة فى القرآن أولا مبيناً مدى اعتمادها على خطة واحدة لا تتخلف مع أية وسيلة ثم أدرس السنة كوسيلة للدعوة وبعـد ذلك أستنتج فى النهاية المنهج العام لهذه الوسائل لتكون أساساً لكل جديد مستحدث . ولذلك سيتكون هذا الباب من ثمانية فصول هى :

١ — بيان الملامح الواحدة فى الوسائل البيانية للدعوة .

٢ — دراسة القصة القرآنية كوسيلة للدعوة .

٣ — دراسة أسلوب القسم كوسيلة للدعوة .

٤ — دراسة الأمثال القرآنية كوسيلة للدعوة .

٥ — دراسة الجدل القرآنى كوسيلة للدعوة .

٦ — السنة النبوية كوسيلة للدعوة .

٧ — المنهج العام لتبليغ الدعوة كما تبين الوسائل .

٨ — الداعية باعتباره أساس الوسائل .

وستأتى هذه الفصول مرتبة على هذا النمط بتوفيق الله تعالى :

الفصل الأول

الملامح الواحدة فى وسائل الدعوة

سطر القرآن الكريم فى ثناياه وسائل دعوته إجلالا لدورها . وإثراء لفائدتها . ولكى تبقى طريق الدعاة إلى الله على طول الزمن فى دعوتهم وعملهم ، ذلك أن الدعوة انتشرت بها وحدها أولا . ولابد أن يقتصر انتشارها عليها كذلك إلى الأبد . لأن ما حدث أولا هو القاعدة لكل ما سيكون بعده ، كما أن الوسائل تملك الحيوية الدائمة ، وعناصر التأثير المستمر . إذ تناقش العقل وتخاطب الوجدان . وتجادل بالتى هى أحسن . مراعية تنوع الناس حيث كانوا بدوا أو حضرا . فى الشرق أم فى الغرب فى القديم أم فى الحديث . لكن الوسائل القرآنية مع تنوعها ومراعاتها لاختلاف الناس تلتزم بملامح واحدة توجد فى كل وسيلة على حدة . والتى بها كانت الوسيلة وسيلة .

ذلك أنها جميعاً تملك الخصائص التالية .

أولا : تلتزم جميع الوسائل بالوضوح الدقيق والبيان الشامل . حيث يتسع وضوحها لمبادىء الدعوة وهى تعرضها وتدلل عليها مستعينة بإحاطتها بمن توجه إليهم الدعوة ، متفهمة للداعية وقدره ، ولدقة فهم الوسائل وإحاطتها بالدعوة والداعية والمدعوين نراها تأتى موجزة وطويلة . حقيقة ومجازا ، مثلا أو جدلا أو قصة . وهكذا تبعاً لمقتضى الحال .

وقد وضع الله فى وسائل القرآن الوضوح والبيان لكى تقوم بدورها وتعرض الدعوة قوية تثير داعية النظر عند المدعوين كما هو شرط إبلاغها (١).

والدعوة من غير بيان وسائلها ما كانت ولن تكون ولذلك يقول تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾(٢)

---

(١) فيصل التفرقة ص ٧٥ .　　(٢) إبراهيم آية ٤ .

وتلك قاعدة ضرورية لأن اتحاد اللغة بين الداعية والناس يجعل الفهم سريعاً وميسراً وبلا عناء . ولذلك ضمن الله لوسائل القرآن هذا البيان فقال تعالى :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾(١)

وكان عليه السلام يقول كما علمه الله تعالى :

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٢)

ومعنى البصيرة التى عليها دعوة النبي صلى الله عليه وسلم هو الحجة الواضحة والبيان الدقيق والبرهان الساطع والفهم العميق للدعوة والمدعوين . وكون الدعوة على بصيرة شرط فيها ، يقول الرازى عند تفسيره لهـذه الآية : وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط . هو أن يكون على بصيرة مما يقول .. وعلى هدى ويقين، فإن لم يكن كذلك فهو محض الغرور (٣) وهذه البصيرة أسلوب بيانى وكونها شرطاً دليل على أن حرفة الكلام وعلم الأصول حرفة الأنبياء عليهم السلام وأن الله ما بعثهم إلى الخلق إلا لأجلها (٤) ، وما كانت حرفة الأنبياء هكذا إلا لأنهم يملكون هذه البصيرة ويدعون وهم فاهمون للدعوة والمدعوين .

وقد احتوت كل وسائل الدعوة على هذا الوضوح . وتلك البصيرة ، وعلى الداعية أن يستمد تكوينه من هذا الوضوح لأنه بدوره عنوان الدعوة ورمز وسائلها، فإذا لم يكن هكذا فقدت الدعوة هذه البصيرة التى هى أهم شروط إبلاغها .

ثانياً : هذه الوسائل المتنوعة الكثيرة لا تخرج فى توضيحها وبيانها عن

---

(١) القيامة آية ١٧ ، ١٨ ، ١٩ . (٢) يوسف آية ١٠٨ .

(٣) مفاتيح الغيب جـ ٥ ص ٢٥٥ . (٤) مفاتيح الغيب جـ ٥ ص ٢٥٥ .

واحد من الأوصاف الثلاثة التى يجب أن يملكها الداعية لتبليغ دعوته ، وهى الأوصاف التى أمر الله بها فى قوله تعالى ﴿ **أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾(١) فالوسائل إما أن تكون حكمة . أو موعظة حسنة . أو مجادلة بالتى هى أحسن . وقد تحوى الوسيلة الواحدة أكثر من وصف من هذه الأوصاف الثلاثة لكنها لا تخلو أبداً عن واحدة منها .

لكن ما معنى كل واحدة منها . ؟

يذكر ابن كثير فى تفسيره أقوالا كثيرة فى معنى الحكمة ويسندها إلى أصحابها فهى تفسير القرآن عند أبى عباس . وهى الإصابة فى القول والعلم والفقة والقرآن عند مجاهد . وهى الفهم عند النخعى وهى العقل عند زيد ابن أسلم . وقال مالك أنه ليقع فى قلبى أن الحكمة هى الفقه فى دين الله وأمر الله فى القلوب من رحمته وفضله (٢) .

ويذكر الرازى أن الحكمة فى القرآن تأتى على أربعة أوجه **أحدها** . مواعظ القرآن الكريم كقوله تعالى﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾، **وثانيها** الفهم والعلم ومنه ، وأتينا لقمان الحكمة ، **وثالثها** : النبوة . يقول تعالى: فقد أتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة أى النبوة ، **ورابعها** : القرآن بما فيه من عجائب الأسرار يقول تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة (٣) ، وكل هذه معان متقاربة لأن الحكمة مشتقة من الإحكام وهو الإتفاق ومرجعها إلى العلم الدقيق يقول عليه السلام فيما رواه عنه ابن سعود : « **لا حسد إلا فى اثنتين رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها** » (٤) .

ويقول العينى : الحكمة تدل على علم دقيق محكم وتعليمها كمال علمى

---

(١) سورة النحل آية ١٢٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٦٧ هامش فتح البيان .

(٣) مفاتيح الغيب جـ ٥ ص ٥١٥ .

(٤) صحيح البخارى كتاب العلم باب الاغتباط فى العلم والحكمة جـ ١ ص ٢٨ .

والقضاء بها كمال عملي (١) ، فإذا ما حدث بعد ذلك أن عرفت الحكمة بالإضافة أو بالعقل أو بالفهم أو بالفقه . أو بالنبوة أو بالقرآن فهي كلها أوصاف متقاربة تشتمل الحكمة عليها وتحتويها بكمالها العلمي والعملي .

ومن سائر الأقوال يمكننا أن نقول : أن الحكمة كوصف لوسيلة الدعوة هي التعليم المتقن الدقيق الواضح الدلالة وإن اختلفت صورها ودارت بين التفسير والفقه والفهم وغيرها . وهي تفيد اليقين ، وحينما يقول الله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة » فإن معناها إذاً كما يقول أبو السعود المقالة المحكمة الصحيحة وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة المتجه إلى الفكر مباشرة من غير إثارة الوجدان وتهييج الأنفعال (٢) .

والموعظة الحسنة هي توجيهات تفيد القرب النفسي بين الداعي والمدعو بما تشمله من آثار الانفعال وإيقاظ الشعور مع وضوح أن الداعي يقصد النصح للمدعو ، ويخاف عليه .

جاء في مختار الصحاح أن الوعظ هو النصح والتذكير بالعواقب يقال السعيد من اتعظ بغيره . والشقي من اتعظ به غيره (٣) .

وفي المصباح أن الوعظ هو الوصية والأمر والموعظة اسم منها (٤) .

وكل اشتقاق مادة الوعظ في القرآن تدور حول النصح والأمر والتذكير والزجر جاء في تفسير النسفي عند قوله تعالى .

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾(٥)

المعنى فاعرض عن قبول الأعذار . وعظ بالزجر والإنكار ، وبالغ في وعظهم بالتخويف والإنذار (٦) وهذا يشير إلى أن الموعظة الحسنة هي مجموعة العبر النافعة والخطابات المقنعة والإرشادات المخوفة على وجه لايخفى على

---

(١) عمدة القاري جـ ٢ ص ٥٨ بتصرف .
(٢) تفسير أبي السعود جـ ٢ ص ٢٠٠ .
(٣) مختار الصحاح مادة « وعظ » .
(٤) المصباح المنير مادة « وعظ » .
(٥) النساء آية ٦٣ .
(٦) تفسير النسفي جـ ١ ص ٢٣٣ .

لمدعوين أن الداعى يناصحهم بها ويقصد ما ينفعهم(١) وهى فى كل أشكالها أمارات ظنية ودلائل إقناعية بخلاف الحكمة فانها محكمة قطعية فى مقدماتها ونتائجها .

والمجادلة بالحسنى :

أدلة كلامية يوردها الداعى ليلزم الخصم ويفحمه ويجعله يؤمن بالمدعى ، واتصفت المجادلة بالحسنى إبعاداً لها عن مفهوم المجادلة الاصطلاحية الذى يعرف المجادلة بأنها ليست لإظهار الصواب بل لإلزام الخصم ، ذلك أن حملة الدعوة يقصدون إظهار الصواب دائماً والوقوف على الحق باستمرار وإقناع الخصم بالحسنى .

يقول صاحب مختار الصحاح « جادل مجادلة جدالا إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب . هذا أصله ثم استعمل على لسان حملة الشرع فى مقابلة الأدلة لظهور أرجحها . وهو محمود حسن إن كان للوقوف على الحق والا فمذموم (٢) » .

ويقول الرازى الجدل المذموم محمول على الجدل فى تقرير الباطل وطلب المال والجاه والجدل الممدوح محمول على الجدل فى تقرير الحق ودعوة الخلق إلى سبيل الله والذب عن دين الله تعالى (٣) .

وهكذا قيد الله الجدل بالذى هو أحسن حتى يكون هادفا ومقنعا ومناقشا لشبه المدعوين .

والفرق بين الجدل والموعظة أن المجادلة منازعة بين طرفين متعارضين . والخصم فيها ليس صامتا وإنما يناقش ويرد بما رسخ فى نفسه من أوهام وشبه . بخلاف الموعظة فإن المدعو بها يستمع إليها . ويستثار بها . وينفعل معها . بلا ضرورة المنازعة الكلامية . . .

---

(١) تفسير الألوسى جـ ١٤ ص ٢٥٤ . (٢) مختار الصحاح مادة « جادل » .

(٣) مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ٢٥٢ .

وقد أمر الله رسوله أن يدعو الناس بالحكمة والموعظة والمجادلة بالحسنى لتعم الفائدة سائر الخلائق المختلفين. مكانا . وزمانا . وفكرا . وطبيعة . ذلك أنهم مع اختلافهم يمكن حصرهم فى طوائف ثلاث متباينة .

فطائفة منهم أصحاب نفوس مشرقة قوية الاستعداد لإدراك المعانى قوية الانجذاب . نحو المبادئ العالية مائلة إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه وهؤلاء يدعون بالحكمة .

والطائفة الثانية عوام نفوسهم كدرة ضعيفة الاستعداد شديدة الإلف بالمحسوسات قوية التعلق بالرسوم والعادات قاصرة عن درجة البرهان لكن لا عناد عندهم وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة .

والطائفة الثالثة معاندة مجادلة الباطل تقصد دحض الحق لما غلب عليها من تقليد الأسلاف ورسخ فيها من العقائد الباطلة وهؤلاء يدعون بالمجادلة الحسنى (١)

وتقسيم الناس إلى طوائف ثلاثة بحسب طبائعهم على النحو السابق تقسيم لطيف بين ، لأن من الناس من يريد التعمق ويكره السطحية ولا يهدأ له بال إلا باليقين الحقيقى القائم على الفكر والتدبر ، ومنهم من يستهويه موضوع مثير وفطرة طيبة فيقف أمام اللفظة الجميلة والمثل النادر . والقصة الشيقة . والتكرار المؤكد . ويسهر لمنظر بائس ورؤية مسكين ومنهم من يهوى اللجج ويعشقه وينازع ويجادل .

لكن ليس معنى هذا التقسيم أن كل طائفة تغاير الأخرى تماماً إذ من الناس من يجمع فى طبعه أكثر هذه الصفات .

يقول ابن رشد : والناس على ثلاثة أصناف صنف ليس هو من أهل التأويل وهم الخطابيون الذين هم الجمهور الغالب . وذلك أنه ليس يوجد أحد سليم العقل يعرى من هذا النوع من التصديق . وصنف هو من أهل التأويل اليقينى وهؤلاء هم البرهانيون بالطبع والصناعة (٢) .

---

(١) تفسير الألوسى جـ ١٤ ص ٢٥٤ . (٢) فصل المقال ص ٣٠ .

هذا وقد ارتضى الرازى فى تفسيره هذا التقسيم وذكر أن البشر بالنسبة لكمال الطبع طرفان وواسطة ، فالطائفة الأولى التى تتجه إليها الحكمة هى طرف الكمال . والطائفة الثالثة المجادلة هى طرف النقصان والطائفة الثانية . صاحبة الموعظة هى الواسطة وهم الذين مابلغوا فى الكمال إلى حد الحكماء المحققين كما لم يبلغوا فى النقصان والرذالة إلى حد المشاغبين المخاصمين بل هم أقوام بقوا على الفطرة الأصلية والسلامة الخلقية ويقول إن معنى قوله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن» أى ادع الأقوياء الكاملين إلى الدين بالحكمة وهى البراهين القطعية اليقينية ، وعوام الخلق بالموعظة الحسنة وهى الدلائل اليقينية الإقناعية ، والتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل (١) .

وينبغى أن يكون معلوماً أن الوسائل سواء كانت من الحكمة أو من الموعظة أو من المجادلة فهى معصومة من الهوى وقطعية الدلالة لورودها فى القرآن المتواتر المحكم المحفوظ فى الصدور والصحف . حيث لا يشتمل القرآن إلا على الحق والصواب . وجميع قضاياه ومسائله صادقة . ومقطوع بصحتها . يقول تعالى مبيناً هذه الخصائص عن كتابه الكريم .

﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾(٢)

ويقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾(٣)

فترى هذه الآيات تخبر عن بعض خصائص القرآن جملة وهى فى الوقت نفسه خصائص وسائله فتذكر أن القرآن أحكم لفظه حتى لا يختلط بغيره ثم فصل ليستمر واضحاً بيناً ، ثم هو كذلك مصان لا يعتريه تغيير وتبديل ومن دلائل حفظه تواتره الثابت ومنع الشياطين من استراق السمع بعد نزوله لأنهم كانوا يزيدون على الكلمة التى يسترقونها مائة كذبة وأكثر (٤).

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٥ ص ٥٣٦، ٥٣٧. (٢) هود آية ١ (٣) الحجر آية ٩.

(٤) انظر صحيح البخارى جـ ٩ ص ١٩٨ كتاب التوحيد . باب قراءة الفاجر .

وقد ثبت أن الدليل المنقول المتواتر الذى لا يحتمل التأويل قطعى الدلالة فى موضعه ، والوسائل القرآنية متعاونة جميعاً فى إثبات هدف واحد ودعوة واحدة . وكلها ثابتة فى القرآن منقولة إلينا بالتواتر . وبعضها قطعى الدلالة عقلا مما يؤكد أن جميع الوسائل معصومة وقطعية بتعاضدها .

ثالثاً : تدور جميع الوسائل مع الطاقة البشرية ولا تتخطاها . فرغم أنها منزلة بالوحى إلا أنها تعايش النفس الإنسانية وتلمس الفكر البشرى وكأنها خرجت من الناس . وهذا أمر يتفق مع طبيعة الدعوة لأن الذى أوجدها للناس هو الله سبحانه وتعالى العليم بكل جزئيات من خلقه سواء كانت واضحة أو خفية يقول تعالى :

﴿ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾(١)

ويقول : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾(٢)

فكان من قدره سبحانه أن بلغ الناس على قدر طاقتهم وناقشهم بمستوى فكرهم . ولمس بوسائل قرآنه معاشهم . وغرائزهم . وعواطفهم . ولذلك ملكت الوسائل تأثيرها فى المدعوين فحققت الغرض . وبلغت دعوة الله للنـــاس .

رابعاً : تضع الوسائل لنفسها أوليات من حيث الأهمية والقيمة ، فتقدم الأهم على المهم . والأصل على الفرع . ولا تنتقل إلى فرع إلا بعد التأكد من إثبات أصله . ولذلك نراها تنادى بادىء ذى بدء بالدعوة إلى الإيمان بالله والتصديق بالرسول صلى الله عليه وسلم وتدل على ذلك بأدلة مباشرة سهلة فى ثنايا الحكمة والموعظة والمجادلة ، وتأتى سهولتها من دورانها حول الإنسان نفسه حيث تبين العناية به والاختراع الحسن من حوله .

يقول ابن رشد : « إذا استقرىء الكتاب العزيز وجدت أدلته تنحصر

---

(١) طه آية ٧ .

(٢) سورة الملك آية ١٤ .

فى جنسين **أحدهما** طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله وهو دليل العناية . **والثانى** ما يظهر من اختراع جواهر الموجودات مثل اختراع الحياة فى الجماد . والإدراكات الحسية والعقل فى الإنسان . وهو دليل العناية (١) .

وما تركيز الوسائل على الإيمان بالله والتصديق بالرسول صلى الله عليه وسلم إلا لأنهما أساس العقيدة كلها ، وكل ما بعدهما تبع لهما ، فهما كالأصل والباقى كالفرع لأن الإيمان بالله يقتضى التصديق بكل تعاليمه ، والتصديق بالرسول يستلزم الإيمان بحامل الوحى الواسطة بين الله والرسول وهو ملك ينزل بكتاب الله تعالى المتضمن لكل التعاليم والأوامر والنواهى . بما فيها من عقيدة وشريعة وأخلاق .

على أنه يجب أن يلاحظ أن الوسيلة وهى تراعى نوعية المخاطبين قد تطنب فى جزئية ما دون أخرى على خلاف وسيلة أخرى . وهكذا إلا أنها لا تغفل أبداً عن ما اشتركت جميع الوسائل فيه .

خامساً : راعت الوسائل خاصية هامة وهى أن تجزىء أهدافها حتّى يسهل على المدعو قبولها . تكرر الموضوع الواحد حتّى تصنع التأثير المطلوب .

سادساً : تتميز الوسائل القرآنية بالإعجاز ميزة القرآن كله ، ويظهر إعجازها فى ألفاظها ومعانيها ومدى تفهمها لأعماق النفس الإنسانية .

ويجب أن نلاحظ أن هذه الوسائل لإبلاغ الدعوة ، ولتحقيق هدفها إذ لا فرق بين الدعوة ومقاصدها . فهما معاً دعوة تظهر بحقيقتها وتنتشر بفوائدها ، وما جاءت الدعوة إلا مقرونة بهذه المقاصد .

---

(١) مناهج الأدلة ص ١٥٠ .

وأيضاً يجب أن يلاحظ أن الله سجل هذه الوسائل فى القرآن الكريم لتبقى بفاعليتها إلى الأبد .

ويلاحظ كذلك أن هذه الوسائل مع تسجيلها بلغة العرب إلا أن معناها ومدلولاتها عامة لغير العرب . والدعاة القادرون فى مكنتهم أن يصنعوا فى غير اللغة العربية مثل هذه الوسائل وما نزلت بلغة العرب وفيهم إلا لكى تصل إلى كل الناس وقد سبق أن بينا السر فى اختيار الأمة العربية للدعوة .

والله أعلم حيث يجعل رسالته .

الفصل الثانى

القصة القرآنية

لازمت القصة الإنسان منذ وجوده ، وارتبطت بحياته ، يصنعها . ويتحدث عنها ثم يستمع لها . استثارة بوقائعها . وتجديداً لأحداثها .

وقد عاشت البيئة العربية شدة قاسية من أجل لقمة العيش فعملت ورحلت وشاهدت طغياناً واستغلالا فجاهدت وكافحت . وسجلت حياتها قصصاً باقياً للرواة ، يحفظونه ويتناقلونه على الزمن . وفى سائر البقاع ، يذكر ابن اسحاق أنه لما وقعت حادثة الفيل وكانت القصة العجيبة من إهلاك أبرهة وجيشه بالأبابيل ، ونجاة الكعبة والعرب ، لما حدث ذلك سجله العرب فى أشعارهم يقول أبو قيس بن الأصلت .

فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا	بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكم منه بلاء مصدق	غداة أبى يكسوم هادى الكتائب
كتيبته بالسهل تمشى ورجله	على القاذفات فى رؤوس المناقب
فلما أتاكم نصر ذى العرش ردهم.	جنود المليك بين ساف وحاصب
فولوا سراعاً هاربين ولم يؤب	إلى أهله ملجيش غير عصائب (١)

وعلى هذا النمط اهتم العرب بقصصهم فذكروها كواقعها . ولم يرتضوا لأنفسهم حشو أخبارهم بالوهم والخيال والتزيد .

وكانت القصة تثير العربى . وتؤثر فيه . وتجذب انتباهه ليعيش مع أحداثها وعناصرها ، وإن قريشا كانت تستملحها . . كما حدث من النضر

---

(١) سيرة النبى ج ١ ص ٦١ ، ٦٢ . ومن معانى الألفاظ : الأخاشب جمع أخشب ، جبل بمكة ، أبو يكسوم كنية أبرهة ، القاذفات ـ أعالى الجبال، المناقب هى الطرق فى رأس الجبل ، ساف يقال : سفت الريح التراب ، الحاصب : الذى أصابته الحجارة ، عصائب : جماعات .

ابن الحارث الذى كان يشترى كتب الأعاجم ويحدث بها قريشاً ويقول : إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة (١) .

ونظراً لهذا الدور الخطير للقصة جعلها القرآن الكريم أحد وسائله فى نشر الدعوة الإسلامية يبين بها الدعوة . ويشرح أسسها وأهدافها . ويضع فى ثنايا عناصرها ما يجعلها هادفة ومؤثرة . ومن هنا وجدنا القصة تظهر مبكرة وتبدأ فى الظهور مع بداية الدعوة فى مكة لتقوم بدورها فى نشر الدين وإبلاغه .

مفهوم القصة القرآنية :

حوى القرآن الكريم كثيراً عن الأمم السابقة فذكر معاشهم . ووصف حياتهم ونشاطهم وبين عقائدهم ومذاهبهم . ووضح مواقفهم من رسل الله إليهم . وبذلك حفظ لنا مادة طيبة للقصة القرآنية المشتملة على الأحداث والأشخاص والزمان والمكان .

وقد تكلم العلماء المسلمون فى مفهوم لفظة القصص وأحاطوا بمعناها . فذكر صاحب المختار : أن أصل المادة « قصص » مشتق من قص أثره أى تتبعه والقصة واحدة القصص هى الأمر والحديث يقال اقتص الحديث رواه على وجهه . وقص عليه الخبر ، والاسم القصص بالفتح وضع موضع المصدر والقصة التى تكتب (٢) .

وجاء فى المصباح قصصت الخبر حدثت به على وجهه والاسم القصص بفتحتين وقصصت الأثر تتبعته (٣) ، فترى أن مفهومها اللغوى يدور حول المتابعة لأمر . والحديث عنه وروايته على وجه وورود كتابته على هذا النمط .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٢٩ .

(٢) مختار الصحاح مادة « قص » ص ١٨٧ .

(٣) المصباح المنير مادة « قص » جـ ٢ ص ٧٢ .

وهذا المفهوم اللغوى موجود فى القصة القرآنية لأن الذى يقرأ القرآن يلحظ أن قصصه يتتبع أحداثاً وقعت ويسجلها مكتوبة على وجه ورودها بصورة حسنة .

يقول الرازى عن قوله تعالى :﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ والقصص يحتمل أن يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص . ويجوز أن يكون من باب تسمية المفعول بالمصدر فإن أريد الأول كان الحسن راجعاً إلى الاقتصاص من كون ألفاظها فصيحة بالغة فى الفصاحة حد الإعجاز . وإن أريد الثانى كان الحسن فى القصص لما فيها من العبر والنكت والحكم والعجائب التى ليست فى غيرها (١) . فنرى الرازى يدور بالحسن فى قصص القرآن بين ألفاظه ومعانيه إلا أنه فى موضوع آخر يعرف القصة ، فيقول « والقصص » هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدى إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة (٢) . فيزيد على الحسن الذى تضمنه القصص شيئاً آخر . إذ يثبت للقصة القرآنية قوة التأثير والهداية والإرشاد والإنجاء .

وعلى ضوء ما ذكر يمكننا أن نفهم القصة القرآنية على أساس **أنها كلام حسن فى لفظه ومعناه مشتمل على أحداث حقيقية سابقة ومتضمن على ما يهدى إلى الدين ويرشد إلى الخير .**

ولا يصح أن نطلق اسم الحكاية على القصة القرآنية . لأن الحكاية يلاحظ فيها المحاكاة والوقوف على ما جرى بغض النظر عن العبر التى فيها أو الاستفادة منها كما أن الحاكى لا يهدف التأثير والتوجيه من حكايته . أما القصة فهى تكشف عن آثار الماضى وتنقب عن حوادثه . وتعرضها فى أسلوب معجز مشتمل على العبرة والعظة . أخذا بالعقل والوجدان إلى زمن القصة وأدوارها وأشخاصها مهما كانت كثيرة وبعيدة .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٥ ص ١٥٠ .

(٢) مفاتيح الغيب جـ ٣ ص ٧٠٢ .

والقصة القرآنية تملك جميع عناصر القصة الفنية . فالمكان والزمان والأشخاص والحوادث موضوع الحوار كل ذلك واضح فيها ، إلا أنها لكونها هادفة تركز مرة على أحد هذه العناصر . ومرة أخرى على غيرها وهكذا تراعى الهدف الذى تدعو إليه .

فمثلا يبرز المكان فى بعض القصص بالذات توضيحاً لغرض مقصود من القصة فى قصة يوسف عليه السلام نعلم أن الأحداث تدور فى مصر . إذ ينتقل يوسف من الجب إلى بيت العزيز الملك . ويخرج من البيت ليدخل السجن . وبعد مدة يترك السجن ليستقر أخيراً فى حظيرة الملك . وقد أفاد إبراز المكان فى هذه القصة مدى عفة يوسف وعصمته فرغم أنه نشأ وتربى فى بيت الملك والجاه إلا أن ذلك لم يغير من طهارته ، وهذا يجعله يستحق فى النهاية أن يكون على خزائن ملك مصر بغناها وشهرتها . وأن يكون رسولا مطاعاً من الناس .

وأيضاً فإن الهدهد ساعة أن غاب عن سليمان بين له أنه ذهب إلى مكان بعيد ، ورأى ملكاً وعرشاً لامرأة كافرة . فقال له :

﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾(١)

فذكر المكان توضيحاً لبعده وتهدئة لثائرة سليمان عليه وتوعده له .

وفى قصة الإسراء يذكر المكان إظهاراً لشرف الحدث وسموه يقول تعالى :

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(٢)

وعن الزمان كعنصر من عناصر القصة ، نرى القرآن يركز عليه فى

(١) سورة النمل آيات ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) سورة الإسراء آية ١ .

مواضع تفيد العبرة منه ، فني قصة سيدنا نوح عليه السلام يبين ذكر الزمن إخلاص الرسول فى الدعوة ومدى تحمله وصبره . يقول تعالى :

﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾(١)

فنراه عليه السلام بهذه الإشارة إلى الزمن يوضح أنه دعا قومه طوال الوقت فى الليل وفى النهار . وأنه مكث فيهم زمناً طويلا بلا توان أو كسل .

وفى قصة أصحاب الكهف أيد الله الفتية بقوته ورحمته وأحاطهم بالعناية وهم فى الكهف الذين آووا إليه ، وحتى يتضح هذا التأييد وتلك الإحاطة جاء ذكر الزمن الطويل الذى مكثوه فيه يقول تعالى ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾

وعن الأشخاص كعنصر من عناصر القصة فهو موجود فى جميعها سواء كان الشخص من الأنبياء أو من غيرهم . بل إن شخصيات القصة أحياناً تكون هدهداً أو نملة ، كما أن شخصية المرأة ظهرت فى القصص القرآنى ، كامرأة عمران ومريم وامرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون ، إلا أن الاهتمام حول المرأة ليس هو لبيان الجمال أو إثارة الجنس إنما هو لتقرير مبدإ أو لتحقيق عظة وعبرة .

ويلاحظ أن الحوار الدائر بين الأشخاص فى القصة القرآنية لا يقف عند الظاهر بل يتعداه إلى حركات الذهن وفكر النفس وما يجول فى الخاطر ، فمثلا قصة ولدى آدم عليه السلام وكان الغرض منها الدعوة إلى الإيمان بالله والتسليم له والخوف منه ومحاربة الأنانية البشرية . نجدها تركز فى حوارها ما يؤدى إلى هذه الأغراض . وتصور خواطر الآخرين وأحاسيسهم الباطنة .

---

(١) العنكبوت آية ١٤ .

والقصة تبدأ بأن قدم كل واحد من الآخرين قرباناً لله فتقبل الله من أحدهما قربانه ولم يتقبل من الآخر . وهنا يبدأ الحوار .

يقول الذى لم يتقبل منه لأخيه : ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾

فيرد عليه أخوه بقوله ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

إلا أن الذى لم يتقبل منه تصر نفسه على أحقادها ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

وهكذا نرى الحوار يظهر النفس الحاقدة الكافرة للذى لم يتقبل منه . ومدى استعدادها للجريمة وسهولة القيام بها فبرغم أن هذا الذى لم يتقبل منه سمع من أخيه تسامحه وتسليم الأمر لله وخوفه من مغبة الاثم فى الآخرة ، رغم ذلك سولت له نفسه الطاغية قتل أخيه فقتله وبعدها عاش نادماً ، وهذه النفسية تخالف نفسية من تقبل منه . حيث يشير الله إلى حقيقتها فيقول صاحبها الذى قال « إنما يتقبل الله من المتقين » « إنى أخاف الله رب العالمين أنى أريد أن تبوء باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين»(١) .

وهكذا تبين القصة القرآنية حقيقة النفس وحركات الخاطر ولا تقف عند الظاهر فقط .

وكما وجد الأشخاص فى جميع القصص القرآنى وجد الحدث باعتباره عنصراً ضرورياً للقصة لا تقوم إلا به . ولا تتكون إلا على وجوده ، إلا أن القرآن يتخير من الحوادث الماضية المناسبة للدعوة الإسلامية ويركب منها قصة هادفة ، فمثلا حينما يكون الهدف هو فضح الكافرين فى تكذيبهم للنبى صلى الله عليه وسلم وإنذارهم وتخويفهم من مواقفهم المعاندة . نرى

---

(١) انظر القصة فى الآيات ٢٧ — ٣٠ من سورة المائدة .

القصة تركز على التكذيب كحدث . وما ترتب عليه من أحداث مخوفة .

يقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾(١)

فنلحظ فى هذه الآيات أن الهدف هو التأثير فى أهل مكة وتخويفهم من تكذيبهم للدعوة وإنذارهم بمثل العذاب الذى وقع على قوم نوح حيث أن المكيين يكذبون كقوم نوح . ولبيان هذا الهدف قال تعالى « كذبت قبلهم قوم نوح » .

ونلحظ كذلك أن الآيات لم تذكر شيئاً عن معيشة قوم نوح ولا عن مكانهم ولا عن دعوة نوح لهم . وطول مدة بعثته فيهم لكنها اهتمت بتكذيب القوم لرسول الله نوح حيث قالوا له « مجنون وازدجر » أى هو مجنون قد ازدجرته الجن وتخبطته (٢) .

ونلحظ أيضاً أن الآيات وضحت أنواع العذاب الذى لحق قوم نوح بسبب تكذيبهم حيث انهمر الماء من السماء . وتفجرت العيون فى الأرض . ولم يعد ممكناً بعد ثورة الماء أن يعيش على الأرض إلا من يؤمن مع نوح ويركب سفينته .

ونلحظ أخيراً أن الآيات تبين أن المكذبين أينما كانوا سينالون جزاءهم وعلى الناس أن يتدربوا ويتذكروا حيث تأتى آيات النهاية على وجه الاستفهام لتوقظ أسماع المخاطبين لأحداث هذه القصة وما فيها من عذاب ونذير .

---

(١) سورة القمر آيات ٩ — ١٧ .

(٢) تفسير أبى السعود جـ ٥ ص ١١٨ .

وعلى نمط التركيز على الأحداث المعينة فى هذه القصة صورت سورة القمر بقية قصصها ، فقصة عاد وهود وقوم لوط ذكرت مختصرة وجاءت مبتدئة بالإنذار والعذاب ، ومختتمة بقوله تعالى « فكيف كان عذابى ونذر » لتضع المستمع أمام مقتله إن هو لم يؤمن ويصدق بالدعوة الإلهية .

إلا أننا نشير هنا إلى أن الحدث والأشخاص عنصران لازمان لتركيب القصة ، أما المكان والزمان فإيرادهما يأتى ثانوياً تبعاً للمقصد والهدف .

وعلى ضوء ما تقدم نقول أنه ليس بلازم أن تأتى عناصر القصة جميعاً ، ولا أن تروى فى القرآن على ترتيبها التاريخى ، وإنما تأتى عناصرها وترتب أحداثها تبعاً للغرض المقصود من إيراد القصة .

يقول الشيخ محمد عبده : « إن قصص الأنبياء والأمم الواردة فى القرآن الكريم لم يقصد بها سرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنتها وإنما المراد بها الاعتبار والعظة ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها وبيان النعم بعللها لتتقى من وجهتها . ومتى كان هذا هو الغرض من السياق فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع فى الذكر على الوجه الذى يكون أبلغ فى التذكير وأدعى إلى التأثير »(١)

وهكذا فالقصة بعناصرها وحقيقتها موجودة فى القرآن الكريم لتكون وسيلة هادفة وطريقاً للتأثير والإرشاد .

القصة وسيلة للدعوة :

اشتملت القصة على الملامح التى تجعلها وسيلة من وسائل الدعوة وقامت بدورها على وجه متقن دقيق فهى :

أولا : تلازم الداعية وتملأه انفعالا بدعوته . وتصيره متحمساً لها . وتجعله مجاهداً ضد أعدائها . واثقاً من النصر والنجاح للدعوة فى نهاية الأمر . وذلك كله يتضح بما أفاضه القصص القرآنى من طمأنينة على نفسه النبى صلى

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٣٢٧ .

الله عليه وسلم مكنته من مواصلة دعوته بعد أن كان اليأس يجد سبيله إلى نفسه . وقد دارت القصة معه موضحة أخبار السابقين مبينة ما كان من الأمم ، حيث كذبوا الرسل واتهموهم فى عقولهم وألحقوا الأذى بهم . لكن الرسل عليهم السلام صبروا وثبتوا حتى انتصروا . وبذلك تطمئن قصتهم نفس الداعية وتثبت فؤاده .

يقول تعالى :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١)

ويقول الرازى عند تفسيره لقصة سيدنا نوح عليه السلام فى سورة يونس : إنما قص الله تعالى قصص الأنبياء لأسباب منها أن يكون للرسول صلى الله عليه وسلم ولأصحابه أسوة بمن سلف من الأنبياء فإن الرسول إذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كانت إلا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه كما يقال : المصيبة إذا عمت خفت (٢) .

وقد استفاد النبى صلى الله عليه وسلم والدعاة معه من القصص وعلموا أن عليهم أن يتحملوا الأذى وإن كان من أقرب الناس إليهم ولا يتأثروا به . فان قصة سيدنا ابراهيم عليه السلام تفيد أنه حين دعا أباه إلى الإيمان رد عليه بقسوة وشدة .

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾(٣)

فما تأثر من موقف أبيه بل رد عليه :

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾(٤)

---

(١) سورة هود آية ١٢٠ .
(٢) مفاتيح الغيب جـ ٥ ص ٢١
(٣) سورة مريم آية ٤٦ .
(٤) سورة مريم آية ٤٧ .

وعلى الدعاة أن ينتظروا النصر بعد الصبر لأن سائر القصص تشير إلى انتصار الدعاة بمبادئهم كما وعد الله فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾(١)

إن القصة تمد الداعية بمجموعة من المعانى والقيم فهو من قصة آدم يحب التزام طريق الله وطاعته ويكره إبليس ويحذر من غوايته ، ومن قصة نوح يحب الهدى والنفع والطاعة ويكره الجدل والمراء والغرور ، ومن قصة مدين يتمنى العدل ولا يريد التطفيف ، ومن قصة لوط ويوسف يتمسك بالطهر والعفة ويبعد عن غيرها، ومن قصة ابراهيم يطلع على أدلة التوحيد وبطلان الشرك والشركاء ، ومن قصة فرعون يكره الظلم والجبروت ويتمنى الاستقامة والأمان .

وإنما يستفيد الداعية من القصة القرآنية كل هذا لأنها دائماً تظهر هـذه المعانى وتصورها داعية إليها ومرغبة فيها .

وتبين القصة علاقة الداعية بمن يدعوهم فتذكر أنها لابد أن تكون علاقة مودة وإخاء فالداعية حريص على الناس يتمنى لو أنهم اتبعوه ليسعدوا فى الدنيا والآخرة .

وقد اختير الرسل من أقوامهم تحقيقاً للفائدة فعاد أخوهم هود ، وثمود أخوهم صالح، ومدين أخوهم شعيب ، يقول شعيب لقومه ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ ، وصالح يقول لقومه ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ وموسى وهارون يقولان لفرعون : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ ومحمد عليه السلام شبيه بالرسل تماماً حريص على أمته بالمؤمنين رءوف رحيم .

والدعاة هم ورثة الأنبياء وعليهم أمانة التبليغ من بعدهم يوحدون الأمة

---

(١) سورة الصافات ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ .

على كلمة الله ومبادئ الحق . ويجدون فيها الأمل والنصر ، وهم فى ذلك يستفيدون من القصة القرآنية ضرورة الصبر حتى النصر . ومودة الناس وحبهم .

والقصة – ثانياً – تعرف بمبادىء الدعوة . وتوضح دعائمها الأساسية . مع ذكر أدلة الصدق لهذه المبادىء ، وهذه المعرفة ضرورية لكى يعمل الداعية على أسس محددة ، ويشعر المدعوون أنهم أمام وضع بين معروف .

والناظر فى القصة القرآنية يرى هذه المبادىء واضحة والتدليل عليها أوضح ، ذلك أن العقيدة الإسلامية مكونة من الإيمان بالله والرسل والملائكة والكتب المنزلة واليوم الآخر . وأهم هذه الأركان شيئان:هما الإيمان بالله ، والتصديق بالرسول صلى الله عليه وسلم . لأن الإيمان بهما يستلزم الإيمان الضمنى بالملائكة الذين ينزلون بالوحى من الله ويوصلونه إلى الرسول . وبالكتاب الذى ينزل إلى الرسول من الله وباليوم الآخر الذى عرف به الرسول .

يقول الشيخ محمد عبده : « للإسلام فى الحقيقة دعوتان : دعوة إلى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ودعوة إلى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . على أن الاعتقاد بالله المتقدم والاعتقاد بالنبوات وأنه لا يمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان بالله تعالى وأول واجب يلزم المكلف أن يأتى به النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله وتحصيل الإيمان بالرسل وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة (١) .

والقصص القرآنى يوضح ذلك .

فمن الإيمان بالله أول الأسس نلمح اهتمام القصص به، فى قصة نوح عليه السلام نقرأ قوله تعالى قاصاً قول نوح .

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾(٢)

---

(١) الاسلام دين العلم والمدنية ص ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ .

(٢) سورة نوح آية ٣ .

وإنما أمر قومه بالعبادة لأن العبادة أقوى مظاهر التوحيد وكانوا يفهمون أن الاتجاه بالعبادة إلى غير الله لا ينافى التوحيد فعبدوا الأصنام لتقربهم إلى الله الخالق الأكبر ، وكانوا يتصورون أن عبادة الأصنام تقربهم إلى الله الواحد ومن هنا طلب نوح من قومه أن يعبدوا الله وحده ويهجروا عبادة غيره لأنها تضييع للتوحيد ولا فائدة فيها . فإن أطاعوه فهم موحدون بحق ومقدرون لله قدره . وقد أشار قول نوح إلى ملمح لطيف حيث طالب بتخصيص العبادة والتقوى لله . أما عن الطاعة فطالبهم بطاعته وكل ما يطلبه منهم فى الواقع هو التوحيد والتقوى .

ولا يقف القصص عند حد طلب توحيد الله وعبادته . بل نراه يذكر الأسباب التى من أجلها يجب أن يوحد الإنسان ربه ويعبده . فالله هو صاحب النعم . هو المالك للدنيا والآخرة ،يذكر مقطع من قصة سيدنا ابراهيم عليه السلام هذه الأسباب يقول تعالى :﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾(١)

وهكذا فالله هو الخالق . الهادى . الرزاق . صاحب المغفرة والرحمة . وهى كلها نعم أعطاها الله للإنسان .

إن الله صاحب النعم وهو الخالق للأرض وللسماء ويجب أن يعبد وحده يقول الشيخ محمد أبو زهرة : والألوهية هى استحقاقه العبادة وحده ولكن العبودية لا تكون إلا إذا كان هو المتفضل بالنعم وحده فهو الذى أنعم بالوجود . وذكر النعم واجب بحكم العقل والمنطق وبحكم كل نظام يستمد من الحق قوته ولا ينفرد بالعبادة إلا إذا كان منفرداً بذات وصفات لا يشاركه فيها أحد (٢) .

---

(١) الشعراء آيات ٧٨ - ٨٢ . (٢) العقيدة الإسلامية ص ٨ .

هذا عن الله أما عن التصديق بالرسول صلى الله عليه وسلم . فإن القصة تناقشه على أساس أنها انتهت من مسألة الألوهية وعرفت الناس بضرورة تخصيص العبادة لله وحده وهى فى موقفها مع المكذبين للرسول تناقشهم فى سبب تكذيبهم . فلئن كان السبب بشرية الرسول كقول قوم نوح ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾(١) وكقول صالح ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾(٢) وكقول كفار مكة حين تعجبوا وقالوا ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾(٣) ، إن كان السبب هو ذاك فان الرد سهل وموجز حيث أتى الله بالمعجزة على يد الرسول البشر ليظهر صدقه عملياً أمام المكذبين نظرياً بدعواه ، ولقد كانت المعجزة تأتى من جنس ما تفوق الناس فيه حتى يتمكنوا من إدراك صدقها ، وكونها خارقة للعادة ، ليست من فعل بشر . وكان لسان حالها ينطق بصدق الرسول فيما يبلغ الناس به عن الله ، هذا هو سيدنا موسى عليه السلام يبعث إلى قوم استشهروا بالسحر فيأتيهم بمعجزة من نوع تفوقهم إذ يأمره الله بإظهارها ويقول له :

﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾(٤)

وسيدنا عيسى يقول لقومه الذين اشتهروا بالطب .

﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾(٥)

إن دور المعجزة أن تثبت الرسالة أمام من ينكرها .

يقول العقاد « لا يمتنع عقلا أن تقع المعجزة وإنما الذى يمتنع عقلا أن تقع عبثاً لغير ضرورة مع إمكان الاستغناء عنها إذا تبين أن إقناع المكابرين

---

(١) هود آية ٢٧ . (٢) القمر آية ٢٤ . (٣) الإسراء آيات ٩٤ .
(٤) طه آية ٦٩ . (٥) آل عمران آية ٤٩ .

كان ممكناً بغيرها (١) » فكان إتيان المعجزة لضرورة واضحة وهى إقناع المكابرين .

وإن كان المكذبون بالرسول البشر يصدقون برسول آخر قبله فإن الرد سهل . علمه الله لرسوله حين كلفه بسؤال اليهود الذين آمنوا بموسى وقالوا ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾(٢)

بل إن القصة القرآنية وهى تتحدث عن الأمم تشير إلى أن الله بعث فيهم رسلا منهم وهو دليل على إثبات النبوة للبشر .

وبالطبع يطوى القصص فى ثناياه أدلته إنزال الوحى والكتب ، لأن أول الدعوة دائماً هى دعوة إلى التصديق برسول موحى إليه بواسطة الملك . ومتى آمنوا وصدقوا به لزمهم التصديق بكل ما يأمر به من أصول وفروع .

والقصة وهى تصحيح أسس العقيدة تعيش مع اختلاف الناس وتنوعهم عملا وعقيدة وتناقش عبدة الكواكب والأصنام والأشخاص والدهرية سواء كانوا فى بيئة زراعية أو صناعية أو تجارية وهكذا تصنع منهج التعامل مع جميع الناس .

والقصة – ثالثاً – تبصر بالمدعوين وتبين حقائق طبائعهم وغرائزهم واتجاهاتهم مستقلة على ذلك بما سبق من البشر ، ذلك لأن تكرار الظاهرة الواحدة فى الأمم كلها . على نمط واحد . دليل على أن هذه الظاهرة سنة إلهية مسلمة . وتركيز القرآن الكريم عليها فى قصصه يفيد أنها من الأحكام العامة والنواميس الطبيعية التى لا تختلف فى أى زمان أو فى أى مكان ، ويجب أن تفهم على أنها إنباء عن ملامح الأمة التى جاءتها الدعوة الإسلامية ، وعلى الرسول والدعاة من بعده أن يلحظوا هذه الوضعية ليكيفوا أسلوب الدعوة على وفقها .

ومن هذه الطبيعة الاجتماعية الثابتة فى خلق الناس ما يلى :

---

(١) الفلسفة القرآنية ص ١٨ . (٢) سورة الأنعام آية ٩١ .

(ا) اختلاف النـــاس أمام الحق :

جرت طبيعة الناس على أنهم ليسوا سواء أمام الحق ودعوة الله ، فهم لا يعادونها كلية . ولا يؤمنون بها كذلك . والعادة فيهم أنهم يختلفون دائماً كما يقول تعالى :

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(١)

يقول النسفى أى خلقهم للذى علم أنهم سيصيرون إليه من اختلاف واتفاق (٢) .

والقصة تبين هذه الحقيقة . يقول تعالى فى حديثه عن قصة قوم صالح .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾(٣)

فتراهم يختلفون أمام دعوة صالح عليه السلام وينقسمون إلى فريقين: فريق مؤمن وفريق كافر . ويأخذون فى الجدل والخصام والمعاندة على نحو رسمه القرآن الكريم حيث ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وهذا سؤال يوجهه المستكبرون الكافرون فيرد عليهم المستضعفون حيث ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ لكن المستكبرين يعاندون ويقولون ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾(٤) ومن هذه المناقشة يتضح الخلاف والجدل والتخاصم بين الفريقين يقول أبو السعود : إن سؤال المستكبرين «أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه» استهزاء بالأشخاص المؤمنين وبعلمهم ، ورد المستكبرين القائل إنا بالذى أنتم به كافرون اظهار للخلاف الشخصى ورد لمقالتهم بذاتها ، وأيضاً فإن إجابة المستضعفين فيها إهمال واضح للمستكبرين لعدولها عن

---

(١) سورة هود آية ١١٩. (٢) تفسير النسفى جـ ٢ ص ٢٠٩ .

(٣) سورة النمل آية ٤٥ .

(٤) المناقشة من آيات ٧٥ ، ٧٦ فى سورة الأعراف .

الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا : نعم . أو نعلم أنه مرسل من الله تعالى ، ومنها كذلك تقريع للمستكبرين ونص على قصور فهمهم لأنهم سألوا عن أمر ظاهر لا ينبغي أن يسأل عنه وإنما الحقيق بالسؤال هو الإيمان بما أرسل به لأنه الحق الثابت المستمر كما ينبيء عنه التأكيد والجملة الإسمية وتقدم الجار والمجرور ، ولذلك أجابوا بقولهم إنا بما أرسل به مؤمنون (١) وهكذا وجد الخلاف وتشعب فى قوم صالح .

وفى قصة قوم موسى يقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾(٢)

ومظهر الاختلاف يتضح من إيمان فريق بموسى ودعوته وكفر آخرين . ولأن سبب الخلاف عداء شخصي وكراهية بلا سبب محدد تلقاه يصل إلى حد الاستهزاء والطعن فى الفكر والتهديد الشديد . إذ يقول فرعون رأس الكافرين للمؤمنين .

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾(٣)

ومن الآيات يبدو استهزاء فرعون وتهديده حيث أنه سيقطع الأيدى والأرجل وسيعذب ويقتل . وقد بنى فرعون موقفه على شبهتين :

الأولى : أن المؤمنين فى نظره اعتمدوا فى إيمانهم على الخاطر الأول ، ولم يتدبروا وينظروا فكان إيمانهم بهذا بعيداً عن الحق والصواب .

الثانية : أنهم فى نظره أيضا آمنوا بعد مؤامرة متقنة مع أستاذهم الكبير موسى فهم تلامذته فى السحر وقد أظهروا العجز من أنفسهم أمامه ترويجاً لأمره وتفخيما لشأنه .

---

(١) تفسير أبي السعود جـ ٢ ص بتصريف .

(٢) سورة هود آية ١١٠ . (٣) سورة طه آية ٧١ .

إن المؤمنين بسبب هاتين الشبهتين عند فرعون لا اعتبار لهم فى عقل أو علم وكان عليهم أن يبذلوا العقل فى التفحص والنظر ، ولا يؤمنوا بالخاطر الأول ، وكان عليهم كذلك أن يظهروا علمهم ولا يتهاونوا مع موسى كما يتصور ، ومن هنا هددهم بالقتل والصلب وتقطيع الأيدى وسخر منهم ومن موسى فقال « اينا أشد عذابا وأبقى » وأراد بأينا نفسه وموسى عليه السلام وفى موقف فرعون مافيه من نطق باقتداره وما ألفه من تعذيب الناس بأنواع العذاب واستضعاف موسى مع الهزء به . لأن موسى لم يكن من التعذيب فى شيء ، وكان الدافع لفرعون على هذا الموقف هو عناده ومحافظته على ملكه ومنزلته مع الناس ، هذا هو موقفه .

أما رد المؤمنين عليه فكان دفاعاً عن عقلهم وعلمهم ، واستهانة بفرعون وفكره وقوته إذ جابهوه بالرد وقالوا « **لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى** (١) » وبهذا القول دافع المؤمنون عن أنفسهم وردوا شبه فرعون . فهم لم يؤمنوا بالخاطر الأول . ولكنهم آمنوا بعد الآيات والأدلة الواضحة التى برزت لهم ووضحت فأوجدت اليقين التام . والبصيرة الكاملة ، وهم كذلك لم يخضعوا لمؤامرة مع موسى وإنما كان خضوعهم فى الحقيقة لفرعون الذى أكرههم على السحر والخطايا من قبل ، قد استهزءوا بفرعون خلال ردهم لأن الذى يذكره لهم هو محض الدنيا ، ومن المعلوم أن كل منافع الدنيا ومضارها لا تعارض منافع الآخرة ومضارها ولكن فرعون بقوته وسلطانه لا يعد شيئاً بجانب الله الفاطر المربى الذى يغفر خطيئة التائب ، وإن كان فرعون قد سأل . أينا أشد عذابا وأبقى على وجه الاستهزاء بموسى فإنهم يردون عليه سؤاله فى حقيقة واضحة ويقولون « والله خير وأبقى » وبهذا الرد بينوا حقيقتهم وتمسكهم بالخير وعرفوا فرعون بمقامه أمام الله الغافر الرحيم (٢) .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ٧٩ — ٨٢ بتصريف .

(٢) مفاتيح الغيب جـ ٦ ص ٧٩ — ٨٢ بتصرف .

وهكذا الشأن فى كل الأمم إذ يختلفون أمام دعوة الله ويعادون الرسل ويحاولون التصدى لهم عناداً وتكبراً يقول تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾(١)

فلا عجب أن تبين القصة هذه الحقيقة لمحمد صلى الله عليه وسلم وللدعاة من بعده لئلا يفاجأوا حين يرون من الناس الاستهزاء والإيذاء والاختلاف. ويعلموا من البداية أن من طبيعة الجماعة أن تختلف وتتفرق، ولقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم هذا الأمر فى الأمة التى بعث فيها .

ويجب أن يعلم الدعاة أن الإيذاء الذى يوقعه المجرمون بالمؤمنين تتعدد صوره إذ يصل إلى الإخراج من الارض والطرد منه . كما حدث لإبراهيم عليه السلام يقول تعالى :

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ ﴾(٢)

كما حدث لشعيب إذ ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا ﴾(٣) وكما حدث لموسى يقول تعالى :

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾(٤)

وقد يصل الإيذاء إلى الاحراق بالنار. كما حدث لإبراهيم عليه السلام إذ ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾(٥) وكما حدث لأصحاب الأخدود ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ ﴾(٦)

وكل هذه الصور حدثت مع النبى محمد ﷺ إذ رأى الاستهزاء بالقول

---

(١) الفرقان آية ٣١ .
(٢) العنكبوت آية ٢٦ .
(٣) الأعراف آية ٨٨ .
(٤) الدخان آية ٢٣ .
(٥) الأنبياء آية ٦٨ .
(٦) البروج آيات ٤ - ٧ .

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ ﴾(١)

وكذلك علم ﷺ أن أهله سيخرجونه من بلده يوم أن جاء إلى ورقة بن نوفل فى يوم بداية الوحى يسأله عن حقيقة مارأى فى هذا اليوم . قال ورقة له : « **والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتكذبنه ولتؤذينه ولتقاتلنه ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه** »(٢) . ويروى البخارى بسنده أن النبى ﷺ لما سمع أمر إخراجه من ورقة قال له : **أو مخرجى هم . قال ورقة : نعم . لم يأت رجل بمثل ماجئت به إلا عودى**(٣) وقد بقى ﷺ بمكة حتى خرج منها مهاجراً فى ليلة تجمع الفتيان حول داره من أجل قتله .

وهكذا فالإختلاف سنة لا تنقطع فى الناس ، وعلى الدعاة والمهتمين بالدعوة مراعاة هذا الواقع ليتحركوا على أساسه متمسكين بالصبر واللين بعيدين عن اليأس وفقدان الأمل .

(ب) الغنى والفقير أمام الدعوة :

جرت السنة بين الناس أن الأغنياء هم الظاهرون فى المجتمع والأمر بيدهم دائما والفقراء تابعون لهؤلاء الأغنياء . وكان المظنون أن يكون هؤلاء الأغنياء أسرع إيمانا بدعوة الله إليهم. شكرا للنعمة التى يعيشون فيها — وتقديرا للمسئولية التى تحملوها عن أنفسهم وعن الفقراء من حولهم — لكن الواقع كان على خلاف هذا المظنون بعد ما رأينا الأغنياء يعادون الدعوات السماوية ويكفرون بها بشكل يكاد يكون تاما وشاملا لكل الأمم مما يجعلنا نستنبط منه حقيقة من حياة الناس .

يبين القرآن حقيقة الأغنياء مع سائر الرسل فيقول تعالى :

---

(١) المطففين آيات ٢٩ ، ٣٢ .

(٢) سيرة النبى جـ ١ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٣) صحيح البخارى جـ ١ ص ٤ . باب بدور الوحى .

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾(١) يبين أبو السعود فى تفسيره لهذه الآية أن هـذا الكفر شامل للمترفين فى سائر القرى فيقول : لم يرسل قط إلى أهـل قرية من نذير إلا قال مترفوهم مثـل ماقال مترفو أهل مكة . إنا بما أرسلتم به كافرون(٢)

وفى أحداث القصص نرى هذه الحقيقة فالمعارضون لنوح عليه السلام هم الملأ يقول تعالى ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٣) والمعارضون لهـود هم « الملأ » يقول تعالى :﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(٤) والملأ من قوم صالح وشعيب وفرعون هم المعارضون يقول تعالى : « ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾(٥) ويقول : «﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾(٦) ويقول ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾(٧) ،

والملأ كما يقول صاحب المصباح هم أشراف الناس سموا بذلك لملاءتهم بما يلتمس عندهم من المعروف وجودة الرأى أو لأنهم يملأون العيون أبهة والصدور هيبة (٨)

ويقول الزمخشرى : الملأ هم الأشراف من قولهم : فلان ملئ بكذا إذا كان مطبقاً له وقد ملئوا بالأمر لأنهم ملئوا بكفايات الأمـور واضطلعوا بها وبتدبيرها أو لأنهم يتمالأون أى يتظاهرون ويتساندون أو لأنهم يملأون القلوب هيبة والمجالس أبهة أو لأنهم ملأى بالأحـلام والآراء الصائبة (٩)

وليس هناك ما يمنع اتصافهم بكل ماذكره الزمخشرى بل أن اجتماعها هو الأولى وما سموا بهذا الاسم من بين سائر القوم إلا لمزايا وضحت فيهم ،

(١) سبأ آية ٣٤ .
(٢) تفسير أبي السعود جـ ٤ ص ٣٢ .
(٣) الأعراف آية ٦٠ .
(٤) الأعراف آية ٦٦ .
(٥) الأعراف آية ١٢٧ .
(٦) الأعراف آية ٧٥ .
(٧) الأعراف آية ٨٨ .
(٨) المصباح المنير مادة « مال » جـ ٢ .
(٩) الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٥ .

يقول الرازى : الملأ الـكبراء والسادة الذين جعلوا أنفسهم أضداد الأنبياء والدليل عليه أن قوله « من قومه » جاء بعد ذكر الملأ . يقتضى أن ذلك الملأ بعض قومه . وذلك البعض لابد وأن يكونوا موصوفين بصفة لأجلها استحقوا هـذا الوصف . وذلك بأن يكونوا هم الذين يملأون صدور المجالس . وتمتلئ القلوب من هيبتهم وتمتلئ الأبصار من رؤيتهم . وتتوجه العيون فى المحافل إليهم ، وهذه الصفات لا تحصل إلا فى الرؤساء . وذلك يدل على أن المراد من الملأ الرؤساء والأكابر (١) .

والملأ بمكانتهم المذكورة عادوا الأنبياء والدعوات . وكانوا يفخرون علانية بأن الرسل لا يتبعهم إلا الفقراء وطالبوا بطردهم ومن هؤلاء قوم نوح الذين قالوا له ﴿ **ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى** ﴾(٢) يقول الزمخشرى إنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم فى الأسباب الدنيوية لأنهم كانوا جهالا ماكانوا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا فكان الأشراف عندهم من له جاه ومال(٣) . وأما طلب نوح من الملأ أن يعبدوا الله وحـده تعجبوا من هذا الطلب وقالوا مندهشين ﴿**أنؤمن لك واتبعك الأرذلون**﴾(٤) مشيرين بهذا القول إلى أنهم لايلتقون فى خط واحد مـع الأراذل المستضعفين وطلبوا من نوح أن يطرد الفقراء من حوله لـكن نوحا يرد عليهم ويقول ﴿ **وما أنا بطارد المؤمنين** ﴾(٥)﴿ **وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون** ﴾(٦) ومثل ماحدث من أغنياء قوم نوح حدث مع سائر الرسل فلقد وصف فرعون أتباع موسى وقال عنهم ﴿**إن هؤلاء لشرذمة قليلون**﴾(٧) وهكذا.

إن الأغنياء مـع خطأ نظرتهم قـد تمكنوا من خديعة كثير من الفقراء وضموهم إلى معسكر المعارضين لدعوة الرسل . كما وضحته قصة موسى وإبراهيم ونوح وهـود وصالح ولوط وشعيب فإن سورة الشعراء بينت

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٤ ص ٤٣٦٢ . (٢) هود من آية ٢٧ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٥ . (٤) الشعراء آية ١١١ .
(٥) الشعراء ١١٤ . (٦) هود آية ٣٠ . (٧) الشعراء آية ٥٤ .

ذلك وختمت كل قصة فيها بقوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين** ﴾(١) .

هذا وإن كانت القصة تبين معارضة الأغنياء للدعوة فهى تبين أن الفقراء كانوا على عكسهم فهم الأراذل أتباع نوح . وهم المستضعفون أتباع صالح. وهم الشرذمة أتباع موسى ، وهكذا فهم أتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم . ولا يصح طردهم وإن طلبه الأغنياء المعارضون يقول تعالى : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ماعليك من حسابهم من شىء ومامن حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين** ﴾(٢) . روى أحمد والطبرانى وأبى حاتم عن أبى مسعود قال : مر **الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب بن الأرت وصهيب وبلال وعمار فقالوا : يامحمد أرضيت بهؤلاء . أهؤلاء من الله عليهم من بيننا لو طردت هؤلاء لأتيناك فأنزل الله فيهم هذه الآية**(٣) ويبدوا أن سبب كفر الأغنياء عيشتهم فى يسر دائم . بين ملذات الدنيا وطيبات الحياة مما جعلهم لايفكرون فى أى تغيير ولاينجذبون لأى دعوة . يقول تعالى : ﴿ **بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون** ﴾(٤) . ويقول ﴿ **ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا** ﴾(٥) .

والغنى بسبب غناه يتكبر ويطغى يقول تعالى : ﴿ **إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى** ﴾(٦) ﴿ **وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً ومانحن بمعذبين** ﴾(٧) .

والغنى يتخيل أنه إن بدل عقيدته وغير طبيعته فقد خان الآباء والأجداد ولذلك يتمسك بموروثات السابقين يقول تعالى : ﴿ **وكذلك**

---

(١) الشعراء مكررة فى آيات ٦٧ و ١٠٣ و ١٢١ و ١٣٩ و ١٥٨ و ١٧٤ و ١٩٠ .

(٢) الأنعام آية ٥٢ .

(٣) لباب النقول جـ ١ ص ١١١ و ١١٢ .

(٤) الزخرف آيات ٢٩ ، ٣٠ .

(٥) الفرقان من آية ١٨ .

(٦) اقرأ آيات ٦ ، ٧ من العلق .

(٧) سبأ آية ٣٥ .

ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾(١)

والغنى لايرضى لنفسه أن يكون مـــع الفقراء فى منهج واحد وطريق واحـــد ولذلك يعارض الدعوة السماوية لأنها تدعو لذلك .

أما الفقراء . فهم على عكس الأغنياء . يحسون بالحاجة إلى التغيير ويتمنون وضعا أحسن من وضعهم . ولذلك يستجيبون للدعوة . طمعا فى السعادة تأتيهم بعد طول ترقب وأمل ، وعساهم بالاستجابة للدعوة يتخلصون من جبروت الأغنيـــاء ومظالمهم وخلالهم وأفسادهم . ولسوف يذكر الفقراء ذلك لله يوم القيامة معتذرين وهم يقولون **﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾**(٢) ويذكرونه للأغنياء أيضاً مبينين أنهم سبب الـــكفر ويقولون لهم**﴿لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾**(٣)

والقصة وهى تعرف بهذه الحقيقة تقدم فهما واضحا للناس أمام الداعية الذى عليه بعد هـــذا الفهم أن يبدأ بمن يرى استجابتهم ويترك الأغنياء قليلا . ويدعوهم مراعيا فيهم هـــذه الخصائص .

(ج) موروثات الآباء أمام الدعوة :

تبين القصة القرآنية أن موروثات الآباء والأجداد عائق رئيسى يقف ضد الدعوة واتجاهاتها . لأن الأبناء فى كل عصر يعتبرون أنفسهم الأمناء على هذه المورثات ويأخذون منها كيانهم كله وأى تغيير لهـــا يعـــد هدماً لوجودهم ، ولذلك فهم يعارضون الدعوات ويقفون ضدها لأنها تبغى تبديل هذا القديم وتغييره .

والقصص القرآنى يبين ذلك بوضوح فسيدنا نوح عليه السلام بعد ما بذل للدعوة فكره وجهده وعمره يسمع نداء المعارضين فى أقوامهم حيث يقولون

---

(١) الزخرف آية ٢٣ . (٢) الأحزاب آية ٦٧ .

(٣) ســـبأ من آية ٣١ .

لهم ﴿ **لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا** ﴾(١) وسيدنا هود عليه السلام يسمع من قومه قولهم حيث ﴿ **قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾(٢) وسيدنا صالح يسمع من قومه ﴿ **قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب** ﴾(٣) وسيدنا شعيب يسمع من قومه ﴿ **قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾(٤) وسيدنا ابراهيم يسمع من قومه ﴿ **قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون** ﴾(٥) وسيدنا موسى يسمع ﴿ **قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا** ﴾(٦) وهكذا قال سائر الأقوام لرسلهم وبينوا تمسكهم بما وجدوا عليه آباءهم ودهشتهم من محاولة الرسل تغيير موروثات الآباء .

ومن هنا لم يكن غريبا على الأمة العربية أن تعلن هذه الخاصية لتؤكد هى الأخرى مع السابقين أن موروثات الآباء لها دورها الخطير فى معارضة الدعوة واتجاهاتها .

كان النبى ﷺ إذا قال لهم : ﴿ **تعالوا إلى ماأنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا** ﴾(٧) ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها أباءنا** ﴾(٨) وإذا قيل لهم ﴿ **أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه أباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾(٩) .

ولعل هـذا التقليد للقرابة يفسر لنا بعض السر فى اختيار الرسل من أممهم ليملكوا هذه العاطفة الاجتماعية . ويبين لنـا كذلك بعض السر فى ارتباط كل دعوة بسابقها وتركيز كل رسول على أن دعوته ليست بدعـاً ولـكنها معقبة لدعوة سابقة عنها متفقة معها كما قال هود لقومه ﴿ **واذكروا**

---

(١) نوح آية ٢٣ . (٢) الأعراف ٧٠ . (٣) هود آية ٦٢ .
(٤) هود آية ٨٧ . (٥) الشعراء آية ٧٤ . (٦) يونس آية ٧٨ .
(٧) المائدة ١٠٤ . (٨) الأعراف آية ٢٨ . (٩) الزخرف آية ٢٤ .

إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾(١) وكما قال صالح لقومه ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾**(٢) وكما قال الله تعالى لرسوله ﴿ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾**(٣) .

والواقع التطبيقي للدعوة الإسلامية يوضح هـــذه الحقيقة لأن الدعوة للأمور الجديدة لاقت عناء وشدة كالدعوة إلى إفراد الله بالعبادة — فإنها لجدتها لاقت معارضات شديدة أما الدعوة إلى المألوف الذى يحتاج إلى تعديل فقط فإنها سهلة التنفيذ بلاعناء .

ومن هنا كان على الدعاة وهم يتدرجون فى دعوتهم أن يبدءوا بتعديل المألوف ومنه ينتقلون بالناس إلى الجديد الذى لم يؤلف من قبل وليس فى ذلك غرابة فإن النبى صلى الله عليه وسلم دعا الأعراب إلى أن يشاركوه فى رحلته إلى العمرة يوم الحديبية لأن حج البيت وتعظيمه شئ مألوف والدعوة إلى الاشتراك فيه مدخل لطيف لكى يؤمن الأعراب بما ألفوه وبما لم يألفوه بعد ذلك يقول ابن إسحاق « **واستنفر النبى صلى الله عليه وسلم العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ليخرجوا معه فأبطأ عليه كثير من الأعراب وخرج رسول الله بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه ويعلموا أنه خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له** (٤) . وهكذا نعتبر دعوة النبى للأعراب دعوة إلى الدين لا إقرارا بعقيدتهم وبهذا التعليل قبلنا رواية ابن إسحاق وأوردناها مستشهدين بها .

(د) وحدة الكافرين أمام الدعوة :

الـــكفر ملة واحدة . وإن تنوعت صوره وتعددت عقائده . والكافرون دائما يعارضون دعوة الله بأسلوب واحد . واعتماداً على فكرة واحدة . مهما

---

(١) الأعراف آية ٦٩ .   (٢) الأعراف آية ٧٤ .
(٣) النساء آية ١٦٣ .   (٤) ســيرة النبى جـ ٣ ص ٢٦٥ .

باعد بينهم المكان والزمان . ومن الحقائق التى تكررت فى قصص القرآن موقف المعارضين المتحد فى الاتجاه وسبب الكفر . ذلك لأن المعارضين جميعاً كفروا بالدعوة وحصروا كفرهم فى صورتين .

الأولى : معارضتهم لفكرة عبادة الإله الواحد فقط وتمسكهم بعبادة مااتخذوا من آلهة .

الثانية : تكذيبهم للرسل فى دعوى الرسالة بحجة أن للرسالة شروطها التى لا تتوفر فى بشر يبعث فيهم وحده ؟

وقد ورد على ألسنة جميع الأمم مايفيد أن كفرهم دار حول هاتين الصورتين . ويبدو أنالسبب فى هذا الاتحاد هو أن الكفار جميعاً قدحاولوا المحافظة على وجودهمبأخطائه كلها. فلما رأوا الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده — وفى دعوتهم هذه هدم لآلهتهم — رفضوا دعوة الرسل وأنكروا رسالتهم حتى تسقط دعوتهم بالضرورة ولتبقى عبادتهم لآلهتهم العديدة كما هم يفعلون .

والقصص القرآنى يذكر هذه الحقيقة عن الكافرين .

فعن الصورة الأولى للكفر رأينا قوم نوح وهود وصالح وشعيب وابراهيم وموسى وعيسى يعبدون آلهة عدة ولذا بدأ الرسل فى تعديل عقائد أقوامهم ونودوا جميعاً بعبادة الله وحده . وقالوا لأقوامهم فى وضوح وصراحة ﴿**اعبدوا الله ما لكم من الله غيره**﴾(١)ذلك أن هذا النداء هو الأساس فى كل الدعوات يقول تعالى :﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لاإله إلاأنا فاعبدون**﴾(٢) . وكان الرسل يبينون للناس أن تعدد الآلهة ضلال ومخالفة صريحة للفكر السليم لأنهم بعبادتهم غير الله يعبدون مايصنعون . وهى آلهة لا تنفع ولا تضر . ولكن الأقوام بتعصبهم أنفوا أن يعبدوا إلهاً واحد وقالوا لرسلهم مايفيد رفضهم لدعوة التوحيد الموجهة إليهم . حيث قالوا لهود

---

(١) هود من آية ٦١ ، ٨٤ .
(٢) الأنبياء آية ٢٥ .

﴿ ومانحن بتاركى آباؤناعن قولك ومانحن لك بمؤمنين ﴾(١) وقالوا لشعيب ﴿ اصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد أباؤنا ﴾(٢) وابراهيم حاجه قومه ، وموسى سمع من فرعون ﴿ ماعلمت لكم من إله غيرى ﴾ ، وكان هذا الشأن مع أمة النبى محمد ﷺ فإنهم قالوا له حين دعاهم إلى التوحيد ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾(٣) .

وعن الصورة الثانية للــكفر : وهو تكذيب الرسل فى إرسالهم فهى أيضاًمكررة فى الأمم كلها كما أن شبهتهم فى التكذيب واحدة كذلك .وملخصها أن الرسول لا يصح أن يكون بشرا وواحدا وقالوا يجب أن يكون ملــكا . أو مجموعة من البشر والملائكة معاً . فلما جاءهم واحد من البشر كذبوه وقالوا لنوح ﴿ مانراك إلا بشراً مثلنا ﴾(٤) وقالوا لصالح ﴿ أبشرا منا واحداً نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر ﴾(٥) ولما أرسل محمد ﷺ كذبوه واستبعدوا أن يكون هو الرسول ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب ﴾(٦) وماكان تكذيبهم بحجة إلا جرياً على سنة الأمم من قبلهم حيث ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾(٧) .

لــكن تكذيبهم جميعاً لاحق معه . وهو مردود عليهم لا يستقيم . ومنشأه عدم تقديرهم للآلهــة .

ذلك لأنهم لو قدروا الله وعلموا إحاطته وعلمه وقدرته لأيقنوا أن الضرورة البشرية التى يحيط الله بجزئياتها لا تمانع فى أن يكون الرسول بشراً بل وتحتمه حتى يستطيع أن يتصل بالناس بواسطة هــذه البشرية ويتصــل بالوحى بواسطة الاصطفاء والنقاء الذى يضعه الله فيه .

---

(١) هود آية ٥٣ . (٢) هود آية ٨٧ . (٣) ص آية ٥ .
(٤) هود من آية ٢٧ . (٥) القمر آية ٢٤ . (٦) سورة ق آية ٢ .
(٧) سورة ق آيات ١٢ و ١٣ و ١٤ .

ولو قدروا الله لعلموا أنه ﴿ **لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا** ﴾(١) ﴿ **ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلاً** ﴾(٢) ذلك لأن المجانسة بين الداعى والمدعو تحقق الألفة والمودة بينهما . وتوجد نوعا من النجاح للدعوة ولذا أرسل الله للبشر رسولا منهم .

وحينما يعجز القوم عن محاجة الرسل فى تمسكهم بالكفر يلجأون إلى اتهامهم بالجنون وبالسحر كما فعل العرب إذ قالوا عن القرآن بعد تلاوة النبى صلى الله عليه وسلم له عليهم « **إن هذا إلا سحر يؤثر** » (٣) وليس العرب بدعا فى هذا الاتهام فان من سبقوهم كانوا يقولون مثل هذا الاتهام يقول تعالى ﴿ **كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون** ﴾(٤)

هذه الحقائق التى عرفتنا بها القصة القرآنية لا تختلف فى الناس وقد وضعها الله فى قرآنه لتكون مصباحا منيرا أمام الدعاة وعلى ذلك تكون القصة قد صنعت البصيرة المطلوبة من الوسيلة . إذ عرفت بالمدعوين وبالدعوة وأكسبت الداعية ثقة وطمأنينة .

ولست أعنى أن القصة قد متكل مايبصر الداعية بدعوته وبمدعويه. لكن الذى أعنيه أنها قدمت فى هذا الإطار نماذج لها قيمتها وتركت الباقى لبقية الوسائل ولجهد الداعية وأفقه .

والقصة — رابعاً — تعتبر موعظة حسنة . لأنها بعناصرها وتأثيراتها تلفت نظر المدعوين برفق وتعطيه من عبر الماضى مايجعله يقتنع ويشعر أن الداعى ينصحه ويقصد نفعه . وفى القصة الأوامر والمواعظ والتذكير والعظة وسنبين ذلك قريبا حين نذكر كيف تؤدى القصة دورها فى إبلاغ الدعوة .

والقصة — خامساً — تناسب طاقة البشر لأنها رواية عن أخبار البشر وقد اختارها الله بدقة وقص منها على الخصوص ماهو هادف ومؤثر . وجعله

---

(١) سورة الإسراء آية ٩٥ .
(٢) سورة الأنعام آية ٩ .
(٣) المدثر آية ٢٤ .
(٤) الذاريات آية ٥٢ .

وحيا باقيا يلائم البشر دائماً . وأيضاً فهو إذ يفيد الدعوة يفيد مقاصدها كذلك لأنه يعرف بها ويحث عليها . وسبحان الله جعلها هكذا وهو الحكيم الخبير .

فنية القصة القرآنية فى إبلاغ الدعوة :

تملك القصص دائما الإثارة والجاذبية . إلا أن بعضه هو الذى يستحق البقاء لأنه يبغى هدفا ويقصد خيرا للفرد والجماعة .

والقصة القرآنية من هذا النوع الهادف القائم على الحق المساق لغرض محدد . وكل مافيها من فنية مؤثرة هو أصل هدفها المطلوب . فهو الذى يحدد مسافتها . ويبرز بعض جوانبها . ويخرجها للناس لفظا وموضوعا .

يقول الشيخ محمد عبده « جاءت آيات القصص على أسلوب القرآن الكريم الخاص الذى لم يسبق إليه ولم يلحق به . فهو فى القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب فى تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع التى فى القصة الواحدة وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ويحرك الفكر إلى النظر تحريكا ويهز النفس للاعتبار هزا (١) ، ذلك لأن القرآن هو كتاب الدعوة . ولابد أن يفى لها بالتأثير والهداية عن طريق بيانه المتعدد . ومنه القصة» .

وقد بينا بعض ماجعل القصة وسيلة للدعوة ، وهنا سنبين بمشيئة الله تعالى الكيفية التى بلغت بها الدعوة وأثرت فى نفوس الناس وعقولهم .

إن القصة تملك قوة التأثير بواسطة أسلوبها والأحداث التى يحتويها هذا الأسلوب وذلك بسبب الخصائص الموجودة فى الأسلوب والأحداث .

أما خصائص الأسلوب (٢) : فهى كثيرة نلمحها فى كل لفظة على حدة وفى الجملة مركبة من عدد من الألفاظ ، وسنذكر بعضها على النحو التالى :

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٣٤٦ .

(٢) يلاحظ أن أسلوب القصة هو أسلوب القرآن الكريم كله ونحن نأخذ منه هنا ما فى القصة وحدها لنتبين فنيتها المؤثرة على نحو ما وردت فى القرآن بأسلوبها .

فالـكلمة القرآنية أولا : تمثل فى موقعها من القصة دقة مشتملة على أعلى درجات الفصاحة والبلاغة فحروفها متلائمة فى رقة خالصة بلا غرابة أو تنافر وتماسك الـكلمة فى انسجام تام وتكامل واضح ، وكل من له حس فنى يرى هـذا الترابط التـام بين الحروف فى الـكلمة الواحدة . وكأن كل حرف وجد ليوضع فى هذا الموضع وحده لما يصنعه من موسيقى فى النفس والحس .

يقول الرافعى (وليس يخفى أن مادة الصوت هى مظهر الانفعال النفسى وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب فى تنويع الصوت بما يخرجه فيه . مدا . أو غنة . أولينا . أو شدة . وبما يهئ له من الحركات المختلفة فى اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب مافى النفس من أصولها . ثم هو يجعـل الصوت إلى الايجاز والاجتماع والإطناب والبسط بمقدار مايكسبه من الارتفاع والاهتزاز وبعـد المد ونحوها مما هـو بلاغة الصوت فى لغة الموسيقى »(١) .

ولقد دلت الوقائع على آثار الكلمات القرآنية فى نفوس مستمعيها ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن هشام فى بيانه سبب إسلام عمر رضى الله عنه فقـد ذكر أن السبب هو قراءته لبعض كلم القرآن الكريم . وقد وصفها بقوله « **ما أحسن هذا الكلام وأكرمه** » (٢) ، ومن أمثلته ما قاله عقبة بن ربيعة يصف القرآن لأهله « **سمعت قولا ما سمعت مثله قط** » **(٣)** .

والكلمة — **ثانياً** — قد تكون فى حد ذاتها ثقيلة فاذا ما جاءت فى القصة القرآنية برزت فى صورة جميلة . وأدت دورها بوفاء . وتعاونت مع الكلم حولها وصنعت الموسيقى الصوتية والمعنوية التى تزيل الثقل وتستبدله بالحسن والجمال ، ومن أمثلة هذه الكلمات لفظة النذر جمع نذير وهى كلمة وردت كثيراً فى قصص سورة القمر . يقول الرافعى : « الضمة ثقيلة فى لفظة النذر لتواليها على النون والذال فضلا عن جسأة هذا الحرف ونبوه

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٤٥ . (٢) سيرة النبى جـ ١ ص ٣٦٧ .

(٣) إعجاز النبى جـ ١ ص ٣١٤ .

فى اللسان وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام . ولكنه جاء فى القرآن على العكس وانتفى من طبيعته ، انظر قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ وتأمل هــذا التركيب وانعم ثم انعم على تأمله وتذوق مواقع الحروف ومواضع القلقلة فى « دال » لقد « وفى طاء » بطشتنا ، وهذه الفتحات المتتالية فى « تماروا » مع الفصل بالمد كأنها تثقيل لخفة التتابع فى الفتحات إذ هى جرت على اللسان ليكون ثقل الضمة مستحقاً بعد . ولتصيب هذه الضمة موقعها . ثم ردد النظر فى « تماروا » فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء « النذر » . حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها . فلا تجف ولا تغلظ . ولا تنبو فيه ، ثم أعجب لهذه الفتحة التى سبقت الطاء فى نون « أنذرهم » وفى ميمها . وللفتحة التى سبقت الذال فى « النذر » (١) .

والكلمة — ثانياً — لا تكون إلا لهدف وغرض ومعنى . وما قاله البعض من أن بعض الألفاظ جاءت زائدة ويضربون لذلك أمثلة بعضها فى كلم القصص ومنها « لا » الأولى فى قوله تعالى :

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾(٢)

و« إن » فى قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾(٣) .

و « الواو » فى قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾(٤)

ومن المعلوم أن وصف الكلمة بكونها زائدة يعنى أنه لا فائدة منها وأن وجودها كعدمه . تماماً . وما المحافظة عليها مع زيادتها إلا لأنها نزلت

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٥٨ .
(٢) النساء آية ٦٥ .
(٣) يوسف آية ٩٦ .
(٤) الصافات آية ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .

بالوحى المحفوظ الثابت الذى لا يغير ولا يبدل ويجب أن يبقى محفوظاً كما نزل .

إن ما قاله هذا البعض مردود بأحد طريقين :

أولا : إن هذه الحروف لها فوائدها حيث تشارك فى معنى ما حوالها . ومعنى كونها زائدة حينئذ أى إنها زائدة فى الإعراب فقط أما فى المعنى فليست بزائدة لأن «لا» فى الآية الأولى تؤكد معنى القسم بتوكيدين حول المقسم عليه لأهميته ، و « ان » فى الآية الثانية لتصوير الفصل الذى كان بين قيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه ولصنع غنة ترمز على الطرب الذى جاء به البشير (١) و « الواو » فى الآية الثالثة ليكثر المبنى دلالة على كثرة المعنى ليطول نفس القارىء أمام هذا الموقف العجيب والمثير .

الثانى : أن هذه الحروف ليست زائدة لا فى الإعراب ولا فى النظم فإن نظمها يفيد المعانى السابقة ، وإعرابها موجود حيث تعرب « لا » نافية لقول المنافقين المقدر . والمعنى ليس الأمر كما يقولون ثم استؤنف القسم بعدها (٢) ، وتعرف « أن » مصدرية لتصنع مع الفعل بعدها فاعلا لفعل مضمر تقديره « فلما ظهر أن جاء البشير» (٣) وتعرب « الواو » عاطفة فى « وناديناه » ويجعل جواب الشرط مقدراً . أى سعد سعادة عظيمة . يقول الرازى وحذف الجواب ليس بغريب فى القرآن الكريم والفائدة فيه أنه إذا كان محذوفاً كان أعظم وأفخم (٤) .

هذا عن الكلمة الواحدة . فلو تركناها إلى الجملة مركبة من كلمات لوجدنا :

الجملة — **أولا** — تهتم بالبيان الراقى النابع من لفظ قليل . ولرأينا كيف تؤدى الكلمات القليلة المعانى الكثيرة مع المحافظة على جمالها الرنان وجرسها الحسن . وهذه الخاصية للتراكيب القرآنية مكنت للقصة فوصحت بالقليل

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٦٣ . (٢) الإتقان جـ ١ ص ١٧١ .

(٣) مفاتيح الغيب جـ ٥ ص ٢٤٣ . (٤) مفاتيح الغيب جـ ٧ ص ١٥٩ .

من الألفاظ ، ورآها المستمع حية متحركة أمامه . إذا قرئت قراءة حسنة .

اقرأ قوله تعالى قاصاً إجابة موسى لفرعون « حين سأله عن ربه » .

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(١)

فذكر أدلة وجود الرب المعتمدة على قدرته وعنايته بالإنسان . حيث هداه إلى الخير . وذلك كله فى هذه الجملة القصيرة التى يحتاج تفصيلها إلى كتب كثيرة ، يقول الرازى « إن الشروع فى بيان عجائب حكمة الله فى الخلق والهداية شروع فى بحر لا ساحل له»(٢) .

واقرأ قوله تعالى قاصاً إجابة الهدهد لسليمان ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾(٣) فقد بين بهذه الكلمات الأربع أن غيبة الهدهد كانت لغاية كبرى تفيد سليمان وتهمه . وقد أتى الهدهد بها من مكان بعيد ناء . وأن هذه الغاية تحمل أخبارا لم تعرف من قبل ولم تكن محتملة وهى أخبار صادقة لا تحتمل الكذب أبداً . قد وضعت فى جمال وحسن يبدوان من الإدغام والغن وتنوع شكل الحروف وهكذا سائر التراكيب .

يقول الباقلانى ما رأيك فى قوله تعالى :

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾(٤)

فإن هذه الآيات تشتمل على ست كلمات (جمل) سناؤها وضياؤها على ما ترى وسلاستها وماؤها على ما تشاهد ، إنها تشتمل على جملة وتفصيل وتفسير حيث ذكر العلو فى الأرض وفسر باستضعاف الخلق بذبح الولدان

---

(١) سورة طه آية ٥٠ .
(٢) مفاتيح الغيب جـ ٦ ص ٢٠ .
(٣) النمل آية ٢٢ .
(٤) القصص آية ٤ .

وسبى النساء . وإذا تحكم فى هذين الأمرين فما ظنك بما دونهما . . ثم ذكر الفاصلة التى ردت آخر الكلام إلى أوله بقوله « إنه كان من المفسدين » (١).

ولعل إجابة موسى على فرعون ، وإجابة الهدهد ، ووصف فرعون ، لو حاول بشر أن يصوغها ابتداء ، لاستوفاها بأضعاف أضعاف كلماتها .

والجملة — ثانياً — تتكون من كلمات متفقة ومؤتلفة ومتعاونة فى أداء المعنى وكأن كل كلمة لفق (٢) لجاراتها لفظاً ومعنى .

اقرأ قوله تعالى فى قصة نوح عليه السلام .

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣)

فان كلماتها مرتبطة ومؤدية لكثير من المعانى ، يقول عبد القاهر معلقاً على هذه الآية : إنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية . والثانية بالثالثة . وهكذا إلى أن تستقر بها كلها . ثم يقول : إن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهى فى مكانها من الآية . قل « إبلعى » واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها . وكذلك فاعتبر سائر ما يليها . وكيف بالشك فى ذلك ، ومعلوم أن مبدأ العظمة فى أن نوديت الأرض ثم أمرت . ثم إن كان النداء بيا دون أى . ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال « ابلعى الماء » ثم أن نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها اتبع نداء السماء . وأمرها كذلك بما يخصها ثم إلى بناء الفعل « غاض » للمجهول للدلالة على

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ج ٢ ص ٦٤ .

(٢) اللفق شق الملاءة أى أن كل كلمة جزء من الكلمة المجاورة .

(٣) هود آية ٤٤ .

انه لم يغض إلا بأمر آمر ، وقدرة قادر ، ثم إلى تأكيد ذلك وتقريره بقوله وقضى الأمر ، ثم إلى ذكر ما هو نتيجة لهذه الأمور جميعاً وهو الاستواء على الجودى ، ثم إلى إضمار السفينة قبل الذكر للتعظيم والتفخيم ، ثم إلى مقابلة « قيل » فى الخاتمة بـ « قيل » فى الفاتحة (١) .

وهكذا نرى أن الأسلوب القصصى فى القرآن صور الحقائق فى براعة نادرة . أخذت بلب البلغاء ودهشتهم . وجعلت العرب وهم أرباب البلاغة — معنى وبياناً وبديعاً — يقفون أمامها وليس لهم إلا التأثر والتسليم .

والجملة — ثالثاً — تراعى عملية التأثير فى نفسية المستمعين على حسب وضعهم .

فنى القصص المكى يوم أن كان المسلمون غير آمنين فى حياتهم ومعاشهم والمشركون منصرفين عن القرآن إلى سمع المثير لوجدانهم ومشاعرهم . فى هذا الوقت كان على القصة أن تستولى على القلوب بأسلوب مناسب للنفوس القلقة من حيث قصره وإيجازه وتصويره لموقف . أو حادثة تطمئن المضطربين . وتخوف ظالميهم .

وهذا الأسلوب لابد أن يكون على صورة الاسجاع العربية . لأن ذلك يثير العربى ويوقظ مشاعره . اقرأ قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾(٢)

هذه الكلمات القليلة معبرة عن المعانى الكثيرة حيث نعرف من « ألم تر » أن العلم بهذه الأخبار يقين كالمشاهدة الحسية تماماً ، ومن جملة الآيات

---

(١) الإيجاز فى شرح دلائل الإعجاز ص ٣٢ .

(٢) سورة الفجر آيات ٦ — ١٤ .

تعرف عادا وموطنها . وضخامة أشخاصها بصورة لا نظير لها . وتعرف ثمود الذين قطعوا الصخر ليصنعوا بيوتهم بالوادى منه ، وتعرف فرعون بكثرة جنوده ، وتعرف أن هؤلاء جميعاً عادا وثمود وفرعون كانوا طغاة ظالمين مكثرين فى إفسادهم بالكفر والقتل والظلم ، وكانت عاقبتهم أليمة واستحقوا ما فعل الله بهم حيث رصد الله أعمالهم كلها . وهكذا اشتملت هذه الآيات القصيرة على مجموعة من الأقاصيص غايتها واحدة هو بيان شدة العذاب ودوامه إذ السب يشعر بالدوام ، والسوط يشعر بزيادة الآلام (١) .

واقرأ الآيات ثانية وتأمل فواصلها لترى كيف تقاربت كل الآيات فى عدد مفرداتها . وكيف انتهت كل فاصلة بالدال لتصنع جرساً يشبه سجع العرب . ليكون له أثره فى نفوس الجاحدين جاء فى الفن القصصى معلقاً على فواصل هذه الآيات .«ومن هذه الآيات نلحظ أن الرنين الصوتى كان له أثره القوى فى تصوير هذه الأحداث وكان من يذكره فى القصة ليس هو أسماء الرسل . وإنما أسماء الأقوام الذين نزلت بهم الكوارث وألمت بهم الآلام » (٢) .

ولعل هذه الموسيقى المؤثرةالواضحةمن مقاطع الآيات القصيرة هو السر فى نزول القصص المكى غالباً على هذا النمط .

وانظر سورة القمر حيث ركزت على أحداث كثيرة من الأمم ولزمت فى جميع آياتها مقطعاً واحداً هو حرف الراء . مع قصر فى الآيات وعمق فى المعانى .

وفى السور المكية : يتحد رنين المقاطع . وتتقارب مخارجها إن اختلفت كسوره « ق » التى تدور مقاطعها حول الباء . والجيم . والدال . والراء والصاد . والطاء.والظاء . . وكلها متقاربة المخرج . ومن سور هذا النمطص ، والصافات ، والشعراء ، والأنبياء ، والمؤمنون ، والحجر ، وكلها ركزت على

---

(١) تفسير النسفى ج ٤ ص ٣٥٤ — ٣٥٥ بتصرف .

(٢) الفن القصصى فى القرآن الكريم ص ٣٠٧ .

التأثير الصوتى بالأسلوب ، والتأثير المعنوى بالحدث المقصود فى كل سورة ، على أنه يجب أن يبقى معلوماً أن من القصص المكى ما ورد على غير هـذا الأسلوب . كقصص سورة الأعراف وهود والأنعام . فإن أسلوب هـذه السور بعيد عن الرنين الموسيقى . والتركيز على الحدث الواحد . وأنه يجرى على شكل محاورة فيها كثير من الجوانب التى جاءت لأغراضها المقصودة ، إلا أن هذا النمط قليل الورود فى السور المكية .

فإذا ما تركنا الأسلوب بكلمة وجملة إلى المعانى المستفادة من الأسلوب المتضمنة لأحداث القصة لوجدناها تصنع التأثير الفنى على النحو التالى :

فهى — أولا — لا تعطى أحداثها دفعة واحدة . بل تتخير حدثاً مفيداً للغرض وتهتم به . وبذلك تحقق شيئين تجزئة القصة الواحدة ، وتكرار الحدث الواحد ؛ وبهذا تتحقق أغراضها فى سهولة ويسر ، لأن التجزئة لا تثقل على السامع ، والتكرار فى حد ذاته له تأثير عجيب .

وحتى نتبين هذين الشيئين فى قصص القرآن نقرأ قصة نوح عليه السلام كما جاء بها القرآن الكريم .

فهى فى سورة الأعراف تحتل الآيات من ٥٩ إلى ٦٤ وتركز على ضلال القوم بشكل عام وتبين استغراقهم فيه وتشير إلى عاقبة الكفر والاستكبار وجزاء الإيمان والطاعة .

وهى فى سورة هود من آية ٢٥ إلى آية ٤٨ تركز على بيان الأدلة الواقعة على الإيمان بالله إذ هو مصدر الرحمة « وأتانى رحمة من عنده » ، والأجر والحق عنده « إن أجرى إلا على الله » والنصر منه وحده « من ينصرنى من الله ان طردتهم » وهو العليم بالخفى والظاهر « الله أعلم بما فى أنفسهم » ومشيئته مطلقة فى إنزال العقوبة « إنما يأتيكم به الله إن شاء » وإليه المرجع والمآب « وهو ربكم وإليه ترجعون » ونرى من مناقشات القصة فى سورة هود أن نوحاً عليه السلام كان يديرها نحو الأدلة ولم يسترسل معهم فى المجادلة الباطلة .

وهى فى سورة الأنبياء تحتل آيتى ٧٦ ، ٧٧ وتركز على النعم التى جعلها الله لنوح بشكل مجمل وموجز .

وفى سورة المؤمنون تأتى القصة فى الآيات من ٢٣ إلى ٢٨ وتركز على نعمة الإنجاء بواسطة السفينة ، وهى نعمة تستحق الحمد .

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

وفى سورة العنكبوت تركز على بيان المدة التى مكثها نوح فى قومه لأنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .

وفى سورة القمر نجد الآيات من ٩ إلى ١٧ تحكى قصة نوح وتركز على تهويل صورة العذاب وكيف يبدو من قوله تعالى :

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾

وفى سورة نوح نرى التركيز على أعمال نوح عليه السلام يقدمها إلى ربه موجزاً عمله خلال مدة بعثته طالباً من الله أن ينزل العقاب على الضالين الكافرين ويذكر له نتيجة خبرته الطويلة معهم .

فهذه سبع مرات لقصة نوح ولكل مرة أحداثها البارزة الواضحة لتكون مفيدة فى هذه النقطة وليأخذ من نزل القرآن لهم من تجزئة القصة درساً لهم ، فالعلم بعاقبة المؤمنين والكافرين درس من القصة فى الأعراف ، والأدلة الإيمانية درس من هود ، وضرورة الحمد على النعم درس سورة المؤمنون . كما أن منزلة النبى عند الله درس سورة الأنبياء ، والإحاطة بقدرة الله فى تعريف قوى الطبيعة درس سورة القمر ، وهكذا جزأ القرآن أحداث قصصه ليوسع الفائدة بها ويوجد الدافع إلى التأثير والهدف .

إن القصص القرآنى فى تكراره على النمط السابق يصنع فائدة جليلة للدعوة لأنه بذكره الأحداث مجزءة يراعى حال المدعوين ويتدرج معهم من الأسهل إلى السهل وهكذا ، وفوق ذلك فهو يراعى طبائع الناس المختلفة لأن منهم من يتأثر بحادث . ومنهم من يتأثر بأكثر . ومنهم من لابد له من القصة كلها .

ولذلك حينما يكون التركيز على حدث فى القصة فانه يأتى مصحوباً بموجز سريع عن بقية أحداث القصة لكى تتلاءم مع المدعوين المختلفين بالضرورة الذين يتنوعون فى درجة الاستفادة من الدعوة والإفادة بها يقول عليه السلام فيما رواه عنه أبو موسى الأشعرى « **مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم . ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به** » (١) فناسب اختلافهم أن تختلف الأساليب معهم وتتكرر .

واختلاف الأساليب لا يستدعى كذباً فى أحداث القصة . أو خيالا . لأننا لو جمعنا سائر أجزاء القصة من القرآن كله وجعلناها كلا واحداً ، فإن الأحداث تكون صادقة متآلفة بلا تناقص أو خلل . وما جزء القرآن أحداثها إلا ليحقق السهولة والتكرار . فان السهولة تفيد التدرج فى إصابة الغرض ، والتكرار فى حد ذاته مؤثر بشكل واضح .

يقول جوستاف لوبون فى كتابه روح الاجتماع : « للتكرار تأثير كبير فى عقول المستنيرين وتأثير أكبر فى عقول الجماعات من باب أولى والسبب فى ذلك كون المكرر يتطبع فى تجاويف الملكات اللاشعورية التى تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان فاذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحد منا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرر » (٢) .

وكان هتلر يقول : « إن الدعاية تستطيع فقط أن تؤثر فى النفوس عن طريق التتابع والاستمرار والتنظيم ويجب علينا أن نعيد ونكرر نفس الشىء من زوايا مختلفة » (٣) .

---

(١) صحيح البخارى جـ ١ ص ٣٠ كتاب العلم — باب من علم وعلم .
(٢) الخطابة ص ٨٨ . (٣) التوعية الاجتماعية صـ ٤٠ .

ولئن كان هذا هو رأى المحدثين فى تكرار الحدث فإن القرآن سبقهم وجعل التكرار فى أحداث قصصه واضحاً. والفرق بين التكرار القرآنى وتكرار المحدثين أن القرآن يلتزم الحق والصواب بخلاف المحدثين ، كما أن اختياره للأحداث مقصود بدقة مدهشة . دالة على قدرة الله وعلمه المحيط .

ومعانى القصة — ثانياً — مجال خصيب للترغيب والترهيب الذى هو فن جميل الأثر فى الدعوة بل أنه من أهم مؤثراتها ، وذلك لأن الإنسان إذا استثير شوقه إلى شىء ما زاد اهتمامه به وسرعان ما يتحول هذا الشوق إلى نشاط يملأ حياة الفرد عملا وتحمساً وتعلقاً بما تشوق له . رغبة فى الحصول عليه . وأيضاً فإن الخوف من شىء ما يجعل الإنسان يهابه ولا يرغبه ويبتعد عنه حذراً من الوقوع فيه ، وهذا شىء طبيعى لأن الرغبة هى التى تحسن الأشياء والرهبة هى التى تصورها بصورة سيئة ، يقول « أسبينوزا » : إننا نرى الأشياء مليحة برغبتنا لا ببصيرتنا (١) كما أن التأثير بالترغيب والترهيب يتفق مع فطرة الإنسان وطبيعته المحبة للثواب والنعيم الكارهة للعقاب والبؤس.

إن القص القرآنى من خلال قصه يذكر هذا الفن للناس فهو يرغب فى الإيمان بالله واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ويبين أن ذلك هو منهاج النجاة من كل شدة وعذاب ويذكر أن الناجين دائماً هم المتبعون للرسل فلقد نجى الله أتباع نوح عليه السلام يقول تعالى ﴿ **فأنجيناه والذين معه فى الفلك** ﴾ (٢) . ونجى أتباع هود يقول تعالى : ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ** ﴾ (٣) .

وعلى هذه الوتيرة فى الإنجاء جرى الأمر مع أتباع الرسل كلهم . لأن إنجاءهم يخضع لقاعدة يجب أن تبقى واضحة وقد عرفها لنا الله بقوله ﴿ **ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين** (٤) ﴾ يقول أبو السعود

(١) الخطابة ص ٨٠ .
(٢) الأعراف آية ٦٤ .
(٣) هود آية ٥٨ .
(٤) يونس آية ١٠٣ .

فى هذه الآية تنبيه على أن مدار النجاة هو الإيمان (١) ويشير الرازى إلى أن قوله تعالى « حقاً » يفيد وجوب الإنجاء بسبب الوعد لأن تخليص الرسول والمؤمنين معه من العقاب إلى الثواب واجب ولولاه لما حسن من الله تعالى أن يلزمهم الأفعال الشاقة (٢) .

وكما أن الاتباع يستلزم النجاة فهو أيضاً طريق التمكن فى الأرض والتمتع بخيرها والأمن والهدوء فيها . كوعد الله تعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ ﴾

وما أعطى الله الذين سبقوا هذه النعم الغالية إلا لأنهم يعبدون الله وحده ولم يشركوا به وقد وضح تنفيذ هذا الوعد جلياً مع بنى إسرائيل أتباع موسى عليه السلام فلقد ورثوا أرض الشام (٣) بما فيها من خير وبركة يقول تعالى :

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ ﴾(٤)

---

(١) تفسير أبى السعود ج ٢ ص ٣٥١ .

(٢) مفاتيح الغيب ج ٥ ص ٤٦ .

(٣) يلاحظ أن المفسرين ذكروا أن مشارق الأرض ومغاربها هى مصر والشام وأن الإسرائيلين ورثوهما عن فرعون مع أن التاريخ لم يذكر للإسرائيليين ملكا فى مصر ومن هنا فان القول الذى ذكر فيه الرازى أن المراد بالأرض هى أرض الشام صحيح وأولى بالاعتبار ج ٤ ص ٤١٤

(٤) الأعراف آية ١٣٧ .

وكما أن الاتباع سبيل إلى الإنجاء والتمكين فهو أيضاً سبيل النصر .

ولا يقتصر الترغيب على الإيمان بالله وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم بل أنه يتعدى ذلك إلى الترغيب على سائر الطاعات والأخلاق الفاضلة إذ يجعلها من أوامر الرسل فى أقوامهم حين يأمرون بالعبادة الحقة والأخلاق الفاضلة من أمثال الوفاء بالوعد . وإيفاء الكيل . والعدل — والاستقامة — والعفة وما دام مطيعوا الرسل فى نجوة وتمكين وانتصار بسبب طاعتهم فإن المستمعين للقصص يحبون الخير . ويريدونه ويطيعون الرسول صلى الله عليه وسلم فيه .

وكما يرغب القصص فى الخير . يخوف من غيره حين يبين عاقبة المكذبين للرسل . الكافرين بالدعوة الموجهة إليهم ، وهو عذاب رهيب يحق يدفع العقلاء إلى الابتعاد عنه بتجنب كل ما يؤدى إليه ، فيصدقون الرسول ويؤمنون بالدعوة . لأنهم لو كذبوا فسيأتيهم ما أتى ثمود وعاداً .

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝﴾(١)

يفسر الزمخشرى طاغية ثمود بالواقعة المجاوزة للحد من الشدة والريح الصرصر بأنها الشديدة الصوت . والعصف والعتو . والنحس والاستمرار حتى صرعتهم وقطعت رقابهم (٢) .

ولو أجال العاقل فكره فى سائر الأمم المكذبة لعلم يقينا أن العذاب الذى وقع عليهم عجزوا عن مقاومته رغم شدة قوتهم وتمكنهم من آثار الأرض .

---

(١) سورة الحاقة آيات ٥ — ٧ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

إن الواجب على العقلاء أن يجيلوا فكرهم فى قصص السابقين ويتدبروا فيه فما ذكره الله إلا لأجل إفادتنا .

إن القصة التى جمعت عناصر الوسيلة فى إبلاغ الدعوة وملكت قوة التأثير بأسلوبها ومعناها لجديرة أن تكون مع الدعاة دائماً . فهى كما يقول الرازى : تهدى إلى الدين وترشد إلى الحق وتأمر بالنجاة (١) .

الدعاة والقصة :

على الدعاة فى العصر الحديث وهم يواصلون تبليغ الدعوة أن يستعينوا بكل ما فى القرآن الكريم من دروس وعبر . وفى القصص القرآنى العـــديد من هذه الدروس .

إذ تصلح القصة بذاتها درساً إلهيا يتجه به الداعية مباشرة إلى الناس .

وتصلح القصة بأجزائها للاستشهاد على المعنى الذى يريده الداعية من المدعوين .

على أن أبلغ الفائدة تكون فى معرفة حقيقة الإنسان وصفاته الإنسانية من خلال القصص . لأن هذه المعرفة تمكن الدعاة من وضع مخططهم وفق حال الناس ، والدعوة بالمنهج الحسن الجميل ، وعدم التصادم المباشر مع المعاندين الجاحدين . ولعل ما فى القصص من دروس تربوية يجعل الدعاة يهتمون بالرونق الجميل . والمظهر الطيب . مع تخير الموضوع القصير . وتكراره بأوجه مختلفة . وإبراز العواقب الوخيمة . والنتائج الطيبة ترغيباً وترهيباً للمدعوين .

إن القرآن الكريم كتاب الدعوة ودستورها ويجب أن يستمر مدداً وزاداً للدعوة والدعاة على طول الزمن .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ٧٠٢ .

الفصل الثالث

القسم وسيلة للدعوة

نزل القرآن بلغة العرب على وفق أساليبهم ليعجزهم بلفظه ومعناه . ويحدث تأثيره فيهم على نحو يجعلهم يؤمنون به وبدعوته . ومن هذه الأساليب التى أوردها العرب أسلوب القسم الذى عرفه الناس قديماً واستعملوه تأكيداً لخبر . أو تعظيماً لشىء . أو جمع الانتباه حول غاية . وقد أحس العرب الجاهليون بأهدافه ومراميه فاستعملوه فى كلامهم وجعلوه دليلا على إثبات الحق . يقول زهير :

فإن الحق مقطعــه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء (١)

ويقول عبدالله بن الذئبة بعد هزيمة ذى نواس وحمير وخروجهم من اليمن .

لعمــرك ما للفتى من مقر مع الموت يلحقــه والكبر
لعمرك ما للفتى صحوة لعمرك ما أن له من وزر (٢)

ويقول أوس بن حجر :

وباللات والعزى ومن دان دونها وبالله إن الله منهن أكبر (٣)

ويقول عبيدة بن الأبرص :

حلفت بالله إن الله ذو نعــم لمن يشاء وذو عفو وتصفاح (٤)

فزهير يبين أن اليمين وهو القسم أحد أسباب ثبوت الحق ، وعبدالله

---

(١) النفار هو . المحاكمة إلى الحاكم ، الجلاء وضوح البينة .

(٢) سيرة النبى ج ١ ص ٣٩ ، ٤٠ صحوة أى نجاة بالصراء . وزر أى ملجأ .

(٣) الأصنام ص ١٧ .

(٤) الشعراء الصعاليك ص ٢٩٨ .

ابن الذئبة يقسم بعمر محدثه على بعض الأمور التى لمسها من الحياة بعد انتهاء حكم حمير وطردهم من اليمن ، وأوس بن حجر وعبيدة بن الأبرص يقسمان على أن الله أكبر من سائر الأصنام وأن الله ذو نعم كثيرة وعظيمة وأنه صاحب العفو والصفح والرحمة .

والقسم العربى بإيجازه وقصره يلائم الطبع العربى الفصيح الذى تكفيه الإشارة وتقنعه اللمحة ويستنتج بالهمسة . كما أن اشتمال القسم مع إيجازه الواضح على أركان عدة هى القسم به . والمقسم عليه . وحرف القسم . مع اشتراك كل ركن فى دلالة التركيب واستفادته منها إثباتاً أو نفياً ، تعظيما أو تحقيراً تعليما وإرشاداً . يجعله موافقاً للمزاج العربى الذى يرغب فى المعانى الكثيرة المتتابعة ويتعشق الإفادة من الكلم القليل ولذلك خاطبهم الله على وفق مزاجهم. يقول الجاحظ « رأينا الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والحذف (١) » ومن هنا كان ضرورياً أن تتضمن الوسائل . القرآنية فى البلاغ على القسم لما فيه من فائدة . ولم يكن عجباً أن وجد القسم بكثرة مع أول ظهور الدعوة فى العصر المكى .

مفهوم القسم القــرآنى :

القسم هو الحلف واليمين . وفعله أقسم . جاء فى لسان العرب أقسم بالله واستقسم به وقاسم حلف له . تقاسم القوم تحالفوا . قال تعالى « **قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله** » أى تحالفوا . وأقسمت أى حلفت ، وأصله من القسامة. قال ابن عرفة عند قوله تعالى « **كما أنزلنا على المقتسمين** » هم الذين تقاسموا وتحالفوا على كيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « والقسم اليمين والقسامة الجماعة يقسمون على الشىء أو يشهدون يمين القسامة » (٢) وجاء فى المختار . وأقسم حلف وأصله من القسامة وهى الإيمان تقسم على الأولياء فى الدم والقسم بفتحتين اليمين وقاسمه حلف له (٣) .

---

(١) القرآن وعلم النفس ص ٦ .

(٢) لسان العرب جـ ٢ ص ٣٨١ مادة « اقسم » .

(٣) مختار الصحاح مادة « قسم » .

وجاء فى المصباح المنير قاسمته حلفت له والقسم بفتحتين اسم من أقسم بالله إقساماً إذا حلف والقسامة بالفتح الأيمان تقسم على أولياء القتيل إذا ادعوا الدم (١) .

ومن كتب اللغة نرى أن القسم والحلف بمعنى واحد فهما مترادفان إذاً . لكن الاستعمال القرآنى فرق بينهما من ناحية خفية ودقيقة ، فلم يسند حلف إلى ذات الله تعالى بينما أسند القسم إليه . فقال ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾(٢)

وقال ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ ﴾(٣)

كما أن سائر الاستعمال القرآنى للحلف يفيد الحنث والمخالفة ومنها قوله تعالى:

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾(٤)

جاء فى تفسيرها قد يكون المراد من « حلاف » كذاب . وأنه فى الكذب فى أقبح حالاته فهو يكذب ويدعم كذبه بالحلف بالله . وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يضربون أولادهم إذا سمعوهم يحلفون تعويداً لهم وتقويماً لأخلاقهم .

وهذا الملحظ الخفى يوحى لنا أن الترادف بين القسم والحلف ليس تاماً لأن مع القسم قوة أوضح وثقة أكثر مما يجعلنا نذكر أن بينهما عموم وخصوص مطلق .

والقسم كأسلوب قرآنى يتجه بأغراضه إلى المقسم به وإلى المقسم عليه . ومن الأغراض المتجهة إلى المقسم به ما يلى :

---

(١) المصباح المنير مادة « قسم » .
(٢) سورة البلد آية ١ .
(٣) سورة القيامة آية ١ .
(٤) سورة القلم آية ١٠

١ — تعظيم المقسم به وتقديسه : يتجه الغرض فى أسلوب القسم أحياناً إلى المقسم به . من أجل تعظيمه وتقديسه كقوله تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾(١)

فأقسم بالرب مضافاً إلى ضمير النبى صلى الله عليه وسلم. تعظيماً للمقسم به وتقديساً للرب سبحانه وتعالى . فهو المربى . . والمعين . والمستحق لكل تعظيم . وهذا الغرض لا يجوز إلا إذا كان المقسم به هو الله تعالى :

٢ — بيان أهمية المقسم به : وقد يكون الغرض من أسلوب القسم هو الاهتمام بالمقسم به كقوله تعالى :

﴿ يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ ﴾(٢)

ذلك لأن القرآن بوصفه الكتاب المنزل المعجز المتحدى به المشتمل على ما اشتمل عليه من تربية وتعلية وإسعاد يستحق أن يهتم به وبشأنه . فكان القسم به لبيان أهميته . وحتى يزيد الاهتمام به أكثر وصفه بالحكمة .

٣ — بيان دور المقسم به : وقد يكون الغرض من أسلوب القسم هو بيان دور المقسم به فى دلالته على الهدف المقصود منه تعالى :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾(٣)

وهكذا سائر الصور التى يكون المقسم به فيها أمراً كونياً فإنها تدل على هدفها برمز بين واضح . فظهور الشمس رمز على وضوح الهدى . وغشيان الليل رمز على ظلمة الكفر والضلال، ولعل هذه الرمزية تتضح أكثر من جمع القرآن بين الشيئين المتقابلين حين يقسم بهما معاً كقوله « والليل إذا أدبر والصبح إذا اسفر ». وقوله « والضحى والليل إذا سجى » فإن هذا الجمع يدل على أن السنة جارية على أن الظلام مهما طال فلابد أن يعقبه نور وضياء .

---

(١) سورة النساء آية ٦٥ . (٢) يسن آية ١ ، ٢ ، ٣ .
(٣) الليل آية ١ ، ٢ .

٤ — بيان آثار المقسم به : وقد يكون الغرض من أسلوب القسم هو لفت الأنظار إلى ما فى المقسم به من أثر كقوله تعالى :

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ ﴾

فإن المقسم به المتعدد فى هذه الآيات يشير إلى مواطن النبوات وأماكن ظهورها يقول الشيخ محمد عبده : وبالجملة فإن التين والزيتون كنايتان عن مواضع ليتناسب جمعها مع طور سينين وهذا البلد الأمين . فأقسم الله تعالى بالتين للتذكير بأمر نوح وما أهلك الله به أهل الفجور والفساد . وأنجى الله المؤمنين الصالحين . وأقسم بالزيتون تعبيراً عن زمن تعمير الأرض بعد نوح . وطور سينا إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية . وظهور نور التوحيد فى العالم بعد ما تدنست جوانب الأرض بالوثنية وأقسم بالبلد الأمين تنويها بقدر مكة خاصة بعد ظهور النور المحمدى (١) وهكذا أقسم بهذه الأشياء إيضاحاً لآثارها الهامة وإشارة إليها .

ومع الأغراض العائدة على المقسم به توجد أغراض تعود على المقسم عليه . ومن أهمها ما يلى :

١ — تعظيم المقسم عليه : قد يكون الغرض من أسلوب القسم تعظيم المقسم عليه . كقوله تعالى :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢)

فإن هذا القسم يفيد تعظيم المقسم عليه وهو القرآن الكريم .

يقول الرازى عند تفسير كلمة « لا أقسم » فى سورة القيامة : أن « لا » لنفى القسم فكأن الله تعالى يقول لا أقسم بهذه الأشياء مع عظمها على إثبات

---

(١) تفسير جزء عم ص ٩٠ ، ٩١ بتصرف .

(٢) الواقعة آيات ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ .

المطلوب، فإن المطلوب أعظم وأجل من أن يقسم عليه ويكون الغرض هو تعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه وإثبات أنه أحرى وأقوى من أن يمثل هذا القسم.

وقد يدل النفى فى « لا أقسم » على توكيد القسم لا نفيه كما تقول لصاحبك موصياً إياه مؤكدا عليه الوصية تقول « لا أوصيك بفلان». وأنت تريد توكيد الوصية به .

وسواء أفادت الصيغة النفى أو التوكيد فإنها تعظم القرآن الكريم وتقدره .

٢ — ثبوت المقسم عليه : وقد يكون الغرض من أسلوب القسم بيان ثبوت المقسم عليه كقوله تعالى :

﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾

فإن البعث من الحقائق التى تعرضت كثيراً للإنكار والشك فأكد الله ثبوته بالقسم عليه وأقسم بالرب مضافاً إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم على أن البعث حقيقة ثابتة مؤكدة .

٣ — إبراز المقسم عليه فى عالم الحس : وقد يكون الغرض من أسلوب القسم هو بيان تحقق المقسم عليه وإبرازه فى عالم الحس كقوله تعالى :

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾(١)

فإن نتائج السعى وعاقبته لا يعلمها إلا الله تعالى فأقسم عليها بالليل والنهار لتتضح وضوحها ويعلقها الإنسان كرؤيته الليل والنهار .

أما أداة القسم فإنها تأتى ملاصقة للمقسم به للإشارة إلى أن المقصود منها هو ايصال الأقسام بالمقسم به إلى المخاطب لتحقق الفائدة المرجوة مباشرة .

ويجب أن يعرف أن كلا من المقسم به والمقسم عليه لا يستقل به الغرض منفردا لأنهما جزءان فى جملة واحدة وهما اللذان صبغاها بأسلوب القسم وأعطياها سمات هذا الأسلوب وتعاوناً معاً فى تحقيق الأغراض والنتائج .

ويجب أن يعرف كذلك أن صيغة القسم الواحدة قد تجمع أكثر من غرض واحد تظهر بالتدبر والنظر .

---

(١) الليل آيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

القسم وسيلة للدعوة

يعتبر أسلوب القسم وسيلة هامة من وسائل إبلاغ الدعوة بسبب خصائصها ومميزاتها التى نوضحها فيما يلى : — فهو :

أولا : يبصر القسم الداعية بنفسه . ويعرفه مقامه الكبير . ويطلعه على ضرورة الصبر وعدم اليأس ذلك لأن الداعية مع عظم دوره وأهميته للناس يتعرض للإيذاء الكثير ، وتلك حقيقة يجب أن لا تغيب أبداً فقد حدثت مع النبى صلى الله عليه وسلم الداعية الأول . ومن هنا قال الله له .

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾(١)

فخاطبه فى هذه الآية مقسما بحياته مؤكدا له أن الكفار فى الضلال تائهون. وهذا شرف ما بعده شرف وتعظيم لمقام النبى ﷺ أتى فى حينه لكى يرد به أكاذيب القوم ويبعد عن نفسه اليأس الذى اقترب من نفسه بسبب مضايقات المكذبين وموضع الآية فى القرآن يؤكد ما وردت له لأنها ذكرت فى ثنايا قصة قوم لوط عليه السلام تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتهديداً لكفار مكة كى يعتبروا بما أصاب قوم لوط وتعظيما كاملا لمقامه ﷺ لأنه لم يقدره الخلق حق قدره فالخالق سبحانه يقسم بحياته ويعظمه .

وفى مواضع أخرى كثيرة من القرآن نجد الله يقسم على أن محمداً هو الرسول بحق ومن أمثالها قوله تعالى: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ ﴾(٢)

ثم إن أسلوب القسم يبين أن على الداعية أن يثق فى النصر النهائى والنفع المحتم فيقول تعالى ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾(٣) فيقسم سبحانه وتعالى بالعصر وهو الوقت الذى تجب فيه الصلاة . أو الزمان الذى تقع فيه حركات الناس وأعمالهم .

إن الانسان خاسر حتماً ما لم يتصف بصفات أربع هى :

---

(١) الحجر آية ٧٢ .
(٢) يسن آيات ١ ، ٢ ، ٣ .
(٣) سورة العصر .

الإيمان . والمداومة على العمل الصالح . والتواصى بالحق . والتواصى بالصبر (١) فمن اتصف بهذه الصفات نجا وفاز ومن بعد عنها فهو من الخاسرين ، وهذه السورة المؤكدة بالقسم يأخذ منها الداعية لنفسه ولأتباعه ولأعدائه . فلنفسه يداوم على الإيمان والعمل الصالح ويوصى بالحق والصبر ويعلم أن نصر الله وفوزه فى ذلك فقط . ولأتباعه يدلهم على طريق النصر والتمسك به . ولأعدائه يعلم أنهم من الضالين الهالكين ويحذرهم مما هم فيه .

وهكذا يعرف الداعية بواسطة القسم دوره . ووعد الله فى نصره هو وأتباعه ، أما أعداؤه فلسوف تدوم سكرتهم حتى يأتيهم الهلاك والتدمير .

وأسلوب القسم – ثانياً – يبصر بالدعوة ويبين دعائمها الأساسية . بشكل مفصل ثابت أمام الدعاة والمدعوين . لكى تكون حركة الجميع على بيان ووضوح .

ودعائم الدعوة الأساسية أمران هما الإيمان بالله والتصديق بالرسول وقد أحاط القسم بهما فى وضوح .

فعن الأساس الأول : وهو الإيمان بالله . يعرفنا القسم به عن طريق القسم بذاته سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ (٢)

فنجد هذه الصيغة تقسم باسم من أسماء الله تعالى يشير إلى نعمه فى الناس . إذ هو المربى الذى يسوس الإنسان ويربيه ويدبره (٣) .

ولا يقف القسم عند حد الأقسام بالذات وصفاتها بل جاء القسم بآثار الله مبرهناً على ضرورة الإيمان به بأدلة سهلة . وذلك مثل قوله تعالى ﴿ **والنجم إذا هوى** ﴾ ، ﴿ **والسماء وما بنـاها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها** ﴾ ﴿ **والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى** ﴾ فإن

---

(١) تفسير النسفى ج ٤ ص ٣٧٥ بتصرف .

(٢) يونس آية ٥٣ . (٣) تفسير الفاتحة ص ٢٧ .

القسم بهذه الأمور يبين أدلة الألوهية كلها لأن من نظر فى بنيان السماء المنسق وبسط الأرض المنظم وخلق الإنسان المكرم لعاش مع أدلة القدرة والغاية والكمال (١) واندفع بواسطة إحاطته بهذه الآيات المشاهدة إلى الإيمان بالله الخالق لكل هذا ، وبذلك يعطى القسم دليلا بيناً واضحاً على أن الله واحد لا شريك له .

وأيضاً فإن المشركين والكافرين يأخذون من هذه الأقسام ردعا لهم واستهانة بآلهتهم . فلئن كانوا عبدة كواكب فإن القسم يبين سقوطها وأفولها وليس ذلك من صفات الإله . يقول الرازى : « كان من المشركين من يعبد النجم فقرن الله بتعظيمه — عند القسم به — وصفاً يدل على أنه لم يبلغ درجة العبادة لأنه هاو آفل (٢) » .

ولئن كانوا من عبدة النور والظلمة فالآيات تبين عجزها . لأن الظلام يغشاه النور ويزيله ، والنور يتجلى بزوال الظلام وكلاهما محدود متجدد متغير . وليس ذلك أيضاً من صفات الإله .

ولئن كانوا من عبدة البشر فالآيات تبين أن الله خلق الذكر والأنثى فكيف يكون المخلوق معبوداً ؟ .

ولئن كانوا من عبدة الأصنام فعليهم أن يلحظوا أدلة الألوهية الصادقة البادية فى هذه الأقسام ، ويعلموا أن أصنامهم جزء من الأرض التى طحاها الإله الواحد الخالق لكل شىء .

وكما أقسم بذات الله وأفعاله تدليلا على وجوب الإيمان بالله الواحد — نرى أن الصيغة أقسمت أيضاً — على أن الله واحد لا شريك له يقول تعالى :

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾ (٣)

---

(١) الفلسفة القرآنية ص ٩٩ . (٢) مفاتيح الغيب جـ ٧ ص ٧٢٧ .

(٣) الصافات آيات ١ — ٥ .

فترى فى هذه الآيات أن القسم أتى بطوائف الملائكة التى صفت أنفسها للعبادة أو لانتظار الأمر . والتى تزجر الشياطين عن استراق السمع والتى تتلو آيات الله ، وأقسم بذلك على أن الله واحد لا شريك له وقد اتصف بما يجعله خليقاً بالعبودية وحده . فهو رب كل شىء من سماء منسقة وأرض منظمة وما بينهما فى السماء أو على سطح الأرض أو فى ثناياهما . . . وهكذا يثبت القسم قضية التوحيد ويدلل عليها بما هو مشاهد محسوس .

وينبغى أن يعرف أن القسم فى أدلته المذكورة راعى التنوع العقائدى الذى كان عليه الناس يوم ظهور الدعوة ووجه أدلته إلى جميع الخلق . وأنه فى هذه المراعاة كالقصة تماماً .

وعن الأمر الثانى وهو — تصديق الرسول — نلحظ أن القسم يناقشه على أساس موضوعى نابع من مواقف الناس ، ذلك أن المعاندين وقفوا من النبى موقفاً عجباً . فهم لم يكتفوا بتكذيبه والصد عنه . وإنما أخذوا يتهمونه بضلال العقل . وسفه الرأى لأنه خرج عن مألوفهم وموازينهم فكان لابد للقسم من أن يرد على هؤلاء المعاندين من مواقفهم ويثبت للنبى ﷺ أنه الرسول بحق . يقول تعالى :

﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ ﴾(١)

فيقسم على أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول من رسل الله وفى ذلك رد لقول المعاندين بالدليل الواقعى لأنه ليس بدعا فى الرسل وهو منهم فكيف ينكر . ويقول تعالى :

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾(٢)

ليرد بهذه الصيغة اتهامات المعاندين حيث جمعت الآيات تأكيدات كثيرة لتنفى الجنون عن النبى صلى الله عليه وسلم وتذكر أن العقل الذى تحلى به نعمة

---

(١) يس آيات ١ ، ٢ ، ٣ . (٢) ن آيات ١ — ٤ .

إلهية عالية . فإن إضافة لفظ الرب إليها مع إضافة ضمير النبي إلى الرب أكبر دليل على أن الله تعالى قد أتم نعمة العقل لرسوله وسوف يرقيه إلى غاية لا غاية وراءها (١) .

وهكذا نزه القسم القرآني رسول الله مما نسبوه إليه حسداً وعداوة ومكابرة وأكد له كمال العقل وكمال الخلق وكثيراً ما أكد القسم ضرورة الإيمان بالكتب المنزلة وبالملائكة وباليوم الآخر .

وهكذا يعرف القسم بأسس الإيمان داعياً إلى تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم رادا كل اتهامات المعارضين المعاندين عنه مؤكداً أن النصر ثابت له فى الدنيا والآخرة .

وأسلوب القسم – **ثالثاً** – يبصر بالناس ويضع بعض الحقائق عنهم لكى يكون الداعية على معرفة بعادات المدعوين وغرائزهم ، وبذلك يتلاءم معهم فى دعوته فيوجه إليهم الأسلوب المناسب ويغير فيهم بمرونة وهدوء . ومن حقائق الناس ما يلى :

(أ) حسب الإنسان للمادة :

جبل الإنسان على التعلق بالماديات وحبها والسعى فى تحصيلها والماديات هى متاع الحياة الدنيا كما أخبر تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾(٢)

والآدمى دائماً يحب المال حباً جما لأنه من زينة الدنيا وهذه حقيقة يجب أن لا تغيب وقد أقسم الله عليها ليؤكدها حيث قال تعالى :

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ﴿١﴾ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ﴿٢﴾ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٥ ص ١٨٣ .

(٢) آل عمران آية ١٤ .

صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾(١)

فأقسم بالخيل العادية التى يسمع صوت زفيرها والتى تخرج الشرر بحوافرها أثناء العدو والتى تغير على العدو صباحاً فتتوسط جمعه وتهيج الغبار عنده من شدتها فى مشيتها . أقسم بالخيل الموصوفة بهذه الصفات على مجموعة خصائص للإنسان ومنها « إنه لحب الخير لشديد » أى يحب المال بقوة تجعله يتأثر أحياناً فى عقيدته بسببه . ومن هنا ألف المال قلوب أقوام فى الدين وبغضهم فيه . ذلك لأن المال محبوب بالطبع والعادة . وسبب الحب فيه « أنه ثمن لجميع الأشياء . ومالكه كالمالك لجميع الأشياء وصفة المالكية هى القدرة . والقدرة صفة كمال . والكمال محبوب فلا جرم أن كان المال محبوباً »(٢)

(ب) تنوع الناس فى الخير :

يختلف البشر فى صفاتهم اختلافاً بيناً تبعاً لاختلاف البيئة والوراثة والثقافة وغيرها . وهم لطبيعتهم هذه يختلفون أمام نظرتهم إلى الخير فى الدنيا . ومن ينتظر اتحاداً بشرياً مطلقاً فى موقف واحد فهو يرغب فى المحال : فمع الرسل اختلف الناس ومع الطاعات كذلك يختلفون .

والقسم يبين هذا الاختلاف ويشير إلى أنه حقيقة فى الناس يقول تعالى **﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى﴾**(٣) ولعل هذا التقابل فى المقسم به فى كلمات الليل والنهار . ويغشى وتجلى . والذكر والأنثى . مما يؤذن بوجود هذا التقابل فى المقسم عليه إذ ينقسم الناس فى سعيهم إلى فريقين متقابلين فريق « أعطى واتقى وصدق بالحسنى » يقول الشيخ محمد عبده صدق بالحسنى أى بالخصلة التى هى أحسن من غيرها أى صدق بثبوت الفضيلة والعمل الطيب وبالفرق بين الفضيلة والرذيلة وبين العمل

---

(١) العاديات ١ — ٨ . (٢) مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ٦١٩ .
(٣) الليل ١ — ٤ .

الطيب والعمل الخبيث . وأعتقد بأن هناك خيراً وشراً . وأن من مزايا الإنسان أن يفعل الخير ويتجنب الشر ، فإن التصديق بذلك هو مصدر الصالحات بلا ريب وهو مقدم فى الترتيب الوجودى على بذل المال فى سبيل الحق والرحمة وعلى اتقاء المفاسد والخطايا لكنه قدم هاتين فى الذكر عليه للاهتمام بهما . ولأنهما الدليلان على تحقق حقيقة ولأنهما ثمرته الذاتية (١)

والفريق الثانى «بخل واستغنى وكذب بالحسنى» أى كذب بثبوت الفضيلة وبأنها أصل من أصول الإنسانية وركن من أركان وجودها فلا يعرف إلا ما يلذ له ويمتعه فى حاضره ولا يبالى بما عدا ذلك ضر غيره أو نفعه (٢) .

وهكذا يفترق الناس مع الخير أياً كان إلى فريقين متباعدين متقابلين فريق معه . وفريق يناقضه ، وعلى الداعية أن يبحث عن الاختلاف الموجود فى المدعوين ويعرفه ليلاحظه حين يدعو الناس إلى الإسلام .

(ج) إحساس الإنسان بنعم الله :

نعم الله على الناس عديدة وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها وهذه النعم يلمسها الإنسان فى نفسه فيعرف حين يبصرها أن قدرة الله حانية خافية هى التى تعطى وهى القادرة دون غيرها على الإعطاء ، والإنسان دائماً كان يستشعر هذه القوة فى نفسه ويتجه إليها فى إبهام غير دقيق . ولذلك عبد القوى الطبيعية على أنها رمز على هذا المجهول الذى يخافه ويلمسه . وما منشأ الأديان الوثنية إلا من هذه النقطة . فلما جاء الرسل عرفوا حقيقة هذا المجهول وأحاطوه تفصيلا وبياناً ونادوا فى الناس أن يعبدوا الله معطى النعم . وواهب الحياة . ومع ذلك ظلم الإنسان نفسه وجحد هذه النعم عن علم بها فلم يشكر معطيها وقد عرفنا القسم هذه الحقيقة من الإنسان فقال تعالى ﴿ **والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا إن الإنسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد** ﴾(٣) فأقسم بالخيل الموصوفة

---

(١) تفسير جزء عم ص ٧٧ .
(٢) نفس المصدر ص ٧٨ .
(٣) العاديات آيات ١ — ٧ .

بالصفات المذكورة على أن الإنسان كافر بالنعمة لا يؤدى لها حقها وهو فى الوقت ذاته يشهد على نفسه بأنها كفرت بالنعم ولم تشكرها . يقول الشيخ محمد عبده : « غير أن الآية عامة والمراد منها ذكر حالة من حالات الإنسان الذى تلازمه فى أغلب أفراده إلا الذين يروضون أنفسهم على الفضائل وهى حقيقة لا ريب فيها . لأن طبع الإنسان أن يستغرق فيما حضره . وينسى ماضيه ولا يذكر مستقبله . ونتيجة النعم لدى هذا الإنسان ضرب آخر من القسوة . والجفوة . . والإنسان شهيد على جحوده هذا . لأنه يفخر به على من دونه بقوة حيلته . وكثرة ماله . وقلما يفتخر بالمرحمة والبذل وفى ذلك كله شهادة على نفسه بالكنود لأن ما يفتخر به ليس من حق شكر نعمة بل من آيات كفرها (١) .

والواجب حين يدعى هذا الإنسان أن يذكر بهذه النعم مع مقارنته بمن حرم منها وبعد ذلك يطلب منه الواجب تجاه هذه النعم .

وأسلوب القسم — رابعاً — موعظة حسنة لأن القرآن دائماً يقصد به الإقناع والإثارة بواسطة المقسم به بما فيه من مزية فى نظر المستمع تجعله لهذه المزية يسلم بالمقسم عليه وهو الدعوة المرجوة . إذ نرى التركيز فيه لا على الشيء الموجه إلى المدعوين مباشرة وإنما على المقسم به ليكون هو التكأة للوصول . والمؤكد على صدق ما بعده . ولذلك فهو إقناعى لا حقيقى .

يقول الرازى : من الناس من لا ينتفع بالبرهان الحقيقى بل ينتفع بالأشياء الإقناعية مثل القسم . وذلك كالعربى الذى جاء للرسول صلى الله عليه وسلم وسأله عن نبوته ورسالته واكتفى فى تحقيق تلك الدعوى بالقسم (٢) .

وأيضاً فإن القسم القرآنى مناصحة من الداعى . حيث يختار للمدعو ماله مزية ضرورية .

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٠٩ .
(٢) مفاتيح الغيب جـ ٥ ص ٢ .

والموجودات المقسم بها فى القرآن الكريم تعتبر فى حد ذاتها دلائل إقناعية — أخرجها الله فى صورة الإيمان وأقسم بها لكى يؤمن الناس بالمقسم عليه لينالوا الخير الذى يرجوه الداعى لهم . وفى أسلوب القسم كذلك تذكير بالعاقبة لمن أطاع أو عصى .

وأسلوب القسم — **خامساً** — يناسب طبيعة البشر وينطلق من بين فكرهم فالمقسم به دائماً هو أحد الأشياء التى يراها الإنسان دائماً من ليل أو نهار أو خيل أو نجم أو ضحى أو عصر . . . الخ والمقسم عليه دائماً يتعلق بأشياء يعيشها البشر مناقشة أو إيماناً أو كفراً . . وهكذا فهو أسلوب يثير الانتباه من حول هذه الأشياء لينطلق من هذه الإثارة إلى الإيمان .

كما أن القسم ككل الوسائل يأتى مكرراً ومعجزاً ومشتملا على الترغيب والترهيب من أجل تحقيق أثره .

فنية القسم فى إبلاغ الدعوة

يؤدى القسم دوره كوسيلة للدعوة صانعاً التأثير النفسى والعاطفى بواسطة المقسم به والمقسم عليه وبهما معاً . الأمر الذى يجعل المدعو يتعلق بالدعوة ويؤمن بها . وهذا التأثير فى أسلوب القسم يأتى من عدة طرق نذكر أهمها فيما يلى :

١ — التهيئة النفسية :

تعود العقل العربى أن يؤثر الحلف فيه لإدراكه أن الكلام العظيم المستحق للاهتمام هو الذى يبدأ باليمين . فاذا ما حلف إنسان على شىء ما لكان بذلك دالا على أهمية الشىء واهتمامه به . وعن بعض الأعراب أنه لما نزل قول الله تعالى :

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾(١)

---

(١) الذاريات آية ٢٣ .

قال : « **من ذا الذى أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين** » (١) فكان لابد من استعمال هذا الأسلوب فى الدعوة ليثير النفس تجاه المقسم عليه الذى هو فى القرآن الكريم أحد عناصر الدعوة وأساسياتها ، ومع أن القسم فى ذاته يثير النفس ، ويؤدى إلى التصديق . إلا أنه فى القرآن الكريم أدق بسبب اختياره لما يقسم به . وأكثر تهيئة للنفس فى ترتيبه لما يقسم به .

أما دقته فانه يأتى بما يصلح دليلا حكيماً ويجعله مقسما به فى التركيب فالحروف المقطعة فى أوائل السور القرآنية مثلا نزلت لتأييد قضية التحـــدى ليعلم المعارضون من العرب أن القرآن الذى يتحداهم بأقصر سورة مركب من حروف الهجاء التى هى أساس كلامهم ، وما دام الأمر كذلك فليس لهم إلا التصديق بالرسول والإيمان بالله . هذه الحروف التى هى دليل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم يقسم الله بها . ولكى يشير إلى هدفه من اختيار هذه الحروف أعقبها بالقرآن مقسماً به أيضاً . فأقسم بالمتحدى به رغم أن حروفه من حروف الهجاء التى يكونون منها كلامهم . وذلك من أمثال قوله تعالى :

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾(٢)

فإنه أقسم بالحرف وأقسم بالقرآن المتكون من هذا الحرف إظهاراً للتحدى . وقد أقسم الله فى كتابه بالقرآن ست مرات فى ثلاث منها سبق بحرفين مقسماً بهما معاً . مع يس مرة . ومع «حم» مرتين . وفى اثنتين سبق بحرف واحد هما ص و ق . وكأن الله تعالى يقول أقسم بما عجزتم أمامه وبالحرف الذى يشترك كلامكم والقرآن فى التركب منه .

وتأتى التهيئة النفسية فى مثل هذا القسم بجعل المقسم به دليلا واضحاً أمام المعاندين ليأتى المقسم عليه بعد هذه التهيئة مقبولا بيسر .

وليس الشأن مع الحروف فقط بل أن كل ما أقسم الله به هو من الآيات

---

(١) الإتقـــان ج ٢ ص ١٣٣ .

(٢) ص آيات ١ •

التى تؤدى بالعقلاء إلى التوحيد والإيمان . وقد ذكر الله ثمان من الآيات البينات الواضحة الدلالة فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾(١)

وهذه الآيات مسلمة عند سائر العقلاء تدور مع خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والسفن الجارية فى البحر ، والمطر النازل والأرض التى عاشت بالمطر ، والحياة على الأرض ، والرياح السائرة والسحب المسخرة . وهى آيات يراها سائر الناس ويسلموا بأهميتها وضرورتها فى كل مكان وزمان . هذه الآيات تأتى فى أسلوب القسم مقسماً بها لتكون أدلة قوية موجزة مؤثرة ، والعربى يفهم معنى الألفاظ فور النطق بها كعادته الفصيحة ويدرك مراميها فى سهولة وعمق .

وهذه الآيات دلائل كونية . والدليل الكونى عظيم فإذا ما كان القسم بالعظيم من عظيم دل فى وضوح على أن المقسم عليه عظيم فتتهيأ النفس له وتستعد للقبول .

ويهيىء القسم القرآنى النفوس أكثر حينما يتخير حالات يهتم النـــاس بها ويرتبها ترتيباً يبرزها فى صورة مثيرة ثم يقسم بها . من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ ﴾(٢)

وموطن الإثارة فى هذا القسم أن العربى عاش فى بيئة جافة نادرة المطر مما جعله يتطلع إلى السماء دوماً راجياً أن يرى سحابة يطمع فى ماءها . هذا

---

(١) البقرة آية ١٦٤ .　　(٢) الذاريات آيات ١- ٤ .

التطلع جعل ذكر الرياح مثيراً فأقسم الله بها تعظيماً لما عظموا وتدليلا بها على ما بعدها . ومع هذا التخير للمثير فقد رتبه ترتيباً يجعله أكثر إثارة فهو رياح تحمل الأبخرة حتى تصير سحباً . وتحملها إلى طبقات الجو العالية . وتجرى بها فى سهولة ويسر . وتنزلها مطراً مقسما بين البلاد والعباد . فنرى المقسم به هنا موضع اهتمام سابق وقد ساقه القسم بأوصافه المتعاقبة المبينة لرحلة المطر من الرياح من أول صعوده بخاراً حتى عودته مطراً موزعاً . وحينما يسمع العربى هذا القسم تأخذه صورته البارعة التى مثلت حقيقة يعيشها العرب فى بلادهم وما دام يدرك أن هذه الصورة مقسم بها فلسوف يسمع ويتأمل فى الذى جاء القسم لتأكيده والدعوة إليه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ ﴾(١) وموطن الإثارة فى هذا القسم أن الخيل كانت درع العربى فى حربه وسفره ومعاشه فأحاط بقيمتها وقدرها فأقسم الله بها وهى فى أعظم حالاتها وأشرف أعمالها لأنها خيل نشيطة مندفعة عادية يسمع صوتها . وتخرج النار من حوافرها وتغير مبكرة لتفاجىء أعداءها فتثير الغبار . وتتوسط الجموع .

هذه الأوصاف بترتيبها المذكور تأخذ بلب المدعو وكأنه فى معركة كالتى خاضها أو رآها أو سمع بها . وتجعله يضيف لتقديره الخيل تقديراً أكثر . فإذا ما علم أن هذه الأوصاف سيقت للقسم فإنه لا شك سيسمع المقسم عليه مستعداً لقبوله والإيمان به .

ومن هذه الأوصاف المتسلسلة فى المقسم به نرجح فيما ذكرنا وفى غيرها أنها أوصاف لمقسم به واحد . مراعاة لهذا الانسجام الذى بيناه . وتأكيداً على وحدة الموضوع وحفاظاً على التأثير الذى يكون أتم مع تمام الصورة وتسلسل أوصافها .

٢ — التكـــرار :

من الحقائق المسلمة أن التكرار ضرورة ملحة حين يراد إقناع النـــاس

---

(١) العاديات آيات ١ — ٥ .

بفكرة أو حملهم على سلوك معين لأن هذا التكرار يساعد على التأثير المطلوب وتعميقه ويمنع الاستجابة للتأثيرات المعاكسة .

وقد راعى أسلوب القسم هذه الحقيقة فكرر حين أنكر الناس وأكثر فى تكراره حين كذب الناس وأقسم مرة واحدة إذا سلم الناس . وهذا ملحوظ بالنظر فى القرآن الكريم إذ نرى القسم بطرفيه المقسم به والمقسم عليه فى قضية التوحيد مثلا يلحظ أن العرب لم ينكروها كلية فهم يعتقدون أن سائر الآلهة أقل شأناً من الإله الأكبر . ومن هنا لم يكرر القسم على الوحدانية واكتفى بمرة واحدة هو قوله تعالى « **والصافات صفاً فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا إن إلهكم لواحد** » (١) فيقسم عنى أن الله واحد ويكتفى بذلك مرة واحدة بسبب أن العرب لا يبتعدون عن ذلك كثيراً . وأما فى حالة إثبات قدرة ما للآلهة التى يتقربون إليها،فى هذه الحالة لا يكتفى بمرة بل يبين فى عددمن المرات أن الله وحده هو المربى .وهو المعين .وهو المصرف كافة الشئون . ومن هذه المرات قوله تعالى : « **فوربك لنسألنهم أجمعين** » (٢) . وقوله « **قل إى وربى إنه لحق** » (٣) وقوله : « **فورب السماء والأرض إنه لحق** » (٤) . ففى هذه الحالات يكرر القسم بلفظ « الرب » مضافاً إلى آثاره الدالة على حسن التربية وكرم العناية الواضحتين فى الإنسان والسماء والأرض والمشارق والمغارب . لكنه تكرار قليل .

وفى حالة إكثار الناس من التكذيب وإصرارهم على الكفر . كتكذيبهم لرسول الله ﷺ واتهامه بالكذب والجنون والسحر والكهانة . فى هذه الحالة يضاعف القسم من كثرته ويكرر حتى يتمكن من مجابهة هذا السيل المكذب الكافر . فيقول تعالى ﴿ **يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين** ﴾(٥) . ويقول تعالى : ﴿ **والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وماغوى وماينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى** ﴾(٦) ، ويقول تعالى ﴿ **ن والقلم وما**

---

(١) الصافات آيات ١ — ٤ .
(٢) الحجر آية ٩٢ .
(٣) يونس آية ٥٣ .
(٤) الذاريات آية ٢٣ .
(٥) يس آية ١ — ٣ .
(٦) النجم آية ١ — ٤ .

يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم ﴾(١) . ويقول تعالى﴿ **فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ﴾**(٢) ويقول تعالى﴿**والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ﴾**(٣) .

فهذه خمسة أقسام كلها تدور حول رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لتدفع معارضيها بشدة فنى الأولى تأكيد بأن الرسول واحد من المرسلين وليس بدعا فى رسالته .

وفى الثانية تأكيد بأنه فى غاية الرشاد عقيدة وسلوكاً فما اعتقد باطلا قط وما حاد عن الصواب أبداً . وفى الثلاث الأخيرة يرد الاتهامات الزائفة التى يلصقونها به عليه السلام . والحقيقة أن قوله لا كذب فيه ولا شعر ولا كهانة ولا جنون ، وخلقه عظيم وسوف لا يترك الله قط كما أنه لم يتركه .

وبتجميع هذه الإثباتات الكثيرة حول النبي ﷺ ورسالته نجدها ردوداً كثيرة على ما أثاره المعارضون تناسب موقفهم المعاند الشديد .

ومن حالات العناية الشديدة كذلك موقف الكافرين من القيامة والبعث حيث أنكروا ذلك .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾(٤)

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾(٥)

وهكذا أكدوا إنكارهم بالقسم ودللوا على شدة عنادهم وتمسكهم بكفرهم ، ولذلك يرد الله عنادهم ويثبت بالقسم البعث . والحشر .والسؤال

---

(١) القلم آيات ١ — ٦ .
(٢) الحاقة آيات ٤٠ — ٤٢ .
(٣) الضحى آيات ١ — ٣ .
(٤) النحل آية ٣٨ .
(٥) ق آية ٣ .

وبعض مشاهد القيامة لكى تتجمع هذه الإثباتات وتصنع دليلا قوياً يرد العناد والضلال . ولهذا جاء القسم على إثبات القيامة والبعث فى إثنى عشر موضعاً من القرآن الكريم .

ولعل نزول غالب أقسام القرآن فى مكة لأكبر مشير على دور القسم فى رد الكفار المعاندين، وتأثيره فى نفوسهم وعقولهم .

٣ — الترغيب والترهيب :

راعى القسم هذا النوع من الخطاب ليتمكن من أداء دوره فى الدعوة والبلاغ ، ولذلك نراه يذكر الإنسان بما ينتظره بعد الموت ويعرفه بحتمية يوم القيامة وبضرورة البعث والحساب والجزاء لينتظر مقره فى الآخرة إما فى الجنة وإما فى النار . وبذلك يؤثر القسم فى الناس لأنهم حين يسمعونه يخافون من ترهيبه . ويطمعون فى ترغيبه . ويتمسكون بالحسنى ليصلوا إلى الفوز والسعادة . ولأهمية هذا النوع فى الخطاب نراه فى المقسم به والمقسم عليه . حيث أقسم الله تعالى بيوم القيامة فى قوله تعالى ﴿ **لا أقسم بيوم القيامة** ﴾(١) وفى قوله تعالى ﴿**والسماء ذات البروج واليوم الموعود**﴾(٢) وأقسم عليه فى قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم**﴾(٣) . وفى قوله تعالى : ﴿ **والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع** ﴾(٤) .

وكما أقسم الله على القيامة أقسم على الحشر فقال ﴿ **فوربك لنحشرنهم**﴾(٥)

وأقسم على البعث : ﴿ **بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير** ﴾ (٦) .

وأقسم على السؤال والحساب فقال تعالى ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون** ﴾ (٧) .

---

(١) القيامة آية ١ .
(٢) البروج آيات ١ و ٢ .
(٣) سبأ آية ٣ .
(٤) الذاريات آيات ١ — ٦ .
(٥) مريم آية ٦٨ .
(٦) التغابن آية ٧ .
(٧) الحجر آية ٩٢ .

وأقسم على العذاب فقال ﴿ **والطور وكتاب مسطور فى رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع** ﴾(١)

وأقسم على أهوال يوم القيامة فقال تعالى ﴿ **فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر إذا اتسق لتركبن طبقاً عن طبق** ﴾(٢)

أما العقل العربى الذى يهزه القسم يخرج من هذه الأيمان متذكراً القيامة بأهوالها . وما أجدره حينئذ أن يتذكر ذلك ويعلم أن يوم القيامة يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . فإنه إن تذكر ذلك وعلمه فهو بلا شك سيتبع الصراط السوى المؤدى إلى الخير والجنة وسيترك ما عداه بعدا عن النار والشر .

٤ — الموافقة الحسنة بين طرفى القسم :

يقوم القسم القرآنى بتأثيراته فى مخاطبيه بدقة رائعة ذلك أن الله سبحانه لا يقسم إلا بما هو معروف للمخاطب لأنه كالدليل لما يقسم عليه . فناسب أن يقسم بالظاهر على الخفى . ولهذا كان المقسم به دائماً مما يلامسه البشر ويعرفه . وحتى عندما يكون المقسم به مما ينكره المدعو نرى القسم يأتى بجانب مسلم فيما هو موضع الإنكار .

ومن ذلك ما نراه حين أنكر العرب رسالة محمد صلى الله عليه وسلم مع تسليمهم بكمال صفاته الشخصية حتى قبل البعثة . فى هذا الوضع يأتى القسم بعمر النبى الزمنى وحياته فى الدنيا ولا يقسم برسالته أو نبوته فيقول تعالى :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾(٣)

فنرى القسم يأتى بالجانب المسلم فى حياته ﷺ ويترك ما عداه .

---

(١) الطور آيات ١ — ٨ .　　(٢) الانشقاق آيات ١٦ — ١٩ .
(٣) الحجر آية ٧٢ .

ومن ذلك ما نراه حين يكون المقسم به هو القرآن الكريم ، فمع ان العرب ينكرون إنزاله إلا أن أسلوب القسم يعرف القرآن بوصف له مسلم عند العرب لا يستطيعون إنكاره ، فيقول تعالى ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ (١) فإن العرب بسماعهم للقرآن يعلمون أنه متضمن للحكمة التى اتصف بها وإن كفروا بإنزاله . ويقول تعالى ﴿ص والقرآن ذى الذكر﴾ (٢) والذكر فى القرآن حيث أنه شرف للعرب خلد لغتهم ومجد صفاتهم . ويقول تعالى ﴿ق والقرآن المجيد﴾ (٣) فإن المتأمل فى القرآن يرى المجد واضحاً فى تعاليمه . ويقول تعالى ﴿حم والكتاب المبين﴾ (٤) والبيان القرآنى واضح حيث أن دلالة لفظه على معناه بينة ظاهرة .

وهكذا لا يقسم الله إلا بما هو واضح ومعروف . يقول ابن قيم الجوزية « أما الأمور الظاهرة المشهورة كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض فهذه يقسم الله بها ولا يقسم عليها » (٥) .

ومع أن الوضوح باد فى المقسم به إلا أن الدقة القرآنية تأتى بمقسم عليه مناسب للمقسم به . وبينهما علاقة قوية ورابطة سليمة تجعل المدعو ينتقل تلقائياً . مما هو معروف له إلى ماهو غير معروف لأن سوق المقسم به يجعل المقسم عليه يشبهه تماماً فلا بد من فهمهما معاً والتصديق بهما على مستوى واحد .

ونذكر توضيحاً لذلك بعض الأمثلة :

يقول تعالى :

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ ﴾ (٦)

---

(١) يس آيات ١ و ٢ .
(٢) ص آية ١ .
(٣) ق آية ١ .
(٤) الزخرف آيات ١ و ٢ .
(٥) التبيان فى أقسام القرآن ص ٢ .
(٦) الواقعة آيات ٧٥ — ٧٧ .

فالمقسم به هو مساقط النجوم الكثيرة المنافع حيث نعرف بها السير السليم فى ظلمات البر والبحر والمساقط هى المغارب . وفائدة القسم بها معرفة أن لها مؤثراً جعلها تغرب . وهو الله تعالى والمقسم عليه هو القرآن الكريم المقروء على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . الجم المنافع . المنزل من اللوح المحفوظ .المعجز لفظاً ومعنى . ليعلم الجميع أن منزله هو الله تعالى . والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه هى أن كليهما أثر من آثار الله تعالى ومنافعهما كثيرة للبشر . وأن كلا منهما مصدر هداية فالكواكب مصدر هداية حسية والقرآن مصدر هداية معنوية . وطريقة التأثير هنا أن يصدق المدعو بالقرآن وصفاته لأنها ليست غريبة عنده فقد تقدمها ما يشبهها وقد سلم بها حيث يشاهد الكواكب بأوصافها كثيراً .

ومن هذه الأمثلة قوله تعالى :

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾(١)

والمقسم به هنا نور وضاح متلألئ يعقبه الليل المظلم فهما حالتان متقابلتان للزمان .والمقسم عليه بيان بأن الله تعالى لم يترك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يبغضه .وإنما انقطع الوحى فترة لحكمة أرادها الله تعالى . والمناسبة بينهما أن انقطاع الوحى فترة لا يعد ضرراً قط لأن مجيء الوحى وانقطاعه حالتان صغيرتان كمجئ النور والظلمة . وطريقة التأثير هنا أن يقف المعارضون عند حد ولا يتمادون فى أكاذيبهم فما انقطاع الوحى إلا لتهدئة فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن ارتجف حين ضمه جبريل إليه لأول مرة . وبعد التهدئة يأتيه الوحى من جديد . تماماً كما هو معروف من أن انقطاع ضوء الضحى ليأتى ظلام الليل أو بالعكس له فائدة جليلة . فالليل للهدوء والسكن والنهار للنشاط والحركة ولو كان الزمان كله نهاراً أو ليلا لما سارت الأمور ولتوقفت الحياة فأقسم الله تعالى بحالتين من حالات الزمن فائدتهما واضحة لتأكيد أن تغير الوحى مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى حالتين كان لما لهما من فائدة ، والتصديق

---

(١) الضحى آيات ١ — ٣ .

حينئذ سهل ، لأن التصديق بالمقسم به معروف حساً والمقسم عليه يشبهه فى التغير والفائدة معنى . فحق الإيمان والتصديق بمحتواه .

يقول ابن قيم الجوزية « تأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذى يوافى بعد ظلام الليل للقسم عليه وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنه ، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد احتباسه واحتجابه ، وأيضاً فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذى فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحى والنبوة فهذان للحس وهذان للعقل »(١) .

ويقول الرازى « كأن الله تعالى يقول الزمان ساعة فساعة ، ساعة ليل وساعة نهار ثم يزداد فمرة تزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار ومرة بالعكس ، فلا تكون الزيادة لهوى ولاالنقصان لقلى بل للحكمة . كذا الرسالة ، وإنزال الوحى بحسب المصالح فمرة إنزال ومرة حبس فلا كان الإنزال عن هوى ولاكان الحبس عن قلى »(٢) .

ومن هذه الأقسام قوله تعالى : ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾(٣)

والمقسم به تعالى هو رياح عذاب أرسلهن الله فيعصفن . وبرياح رحمة نشرت السحاب فى الجو ففرقن بينه ذكرا للمعتذرين بالتوبة وللعاصين بالكفران . والمقسم عليه هو أحقية مجىء يوم القيامة . والمناسبة بينهما أن الرياح تغير صورة الطبيعة وتحولها إلى شىء مناقض لصورتها الأولى تماماً كيوم القيامة حيث تتبدل الأرض غير الأرض والسماوات . وطريقة التأثير أن يصدق المخاطبون بيوم القيامة فليس الحديث عنه شاذا فإنهم يرون أمام أعينهم السماء صافية . والشمس ساطعة . وبعد لحظة وجيزة تأتى الرياح عاصفة

---

(١) التبيان فى أقسام القرآن ص ٧٢ .

(٢) مفاتيح الغيب ج ٨ ص ٤٤٧ .

(٣) المرسلات آيات ١ — ٧ .

ويبدو الجو داكناً فتنمحى النجوم ، وتنسف الجبال ؛ وهذا يقرب من يوم القيامة بمافيه من فناء الخلق وطمس النجوم ونسف الجبال .

إن القسم وهو يراعي المناسبة بين طرفيه يهدف إلى البيان المؤثر .والتدليل السهل .ووضع المستمع أمام نفسه فليس له أن يصدق بشيء ويكذب بنظيره تماماً . وليس له كذلك أن يكذب بهما معاً لأن المقسم به دائماً يكون من المسلمات الحسية التى تواتر صدقها ومن هنا لا يجد المخاطب إلا التصديق بالمقسم عليه .

وهكذا يقوم القسم بدوره فى البلاغ بعد تمتعه بخصائص الوسيلة واشتماله على الطرق المؤثرة على النحو الذى وضحناه .

الدعاة والقسم القرآنى :

على الدعاة فى العصر الحديث أن يستفيدوا من فنية القسم القرآنى ومنهجيته . فيركزوا على الموضوعات الرئيسية والهامة التى يحتاج إليها المدعوون ، ويخططوا فى وضع المقالة المناسبة والأسلوب المؤثر ، وعليهم أن يبحثوا فى الكيفية المثلى فى التأثير ، مستفيدين بدروس القرآن الكريم فى الدعوة والتأثير ومراعاة نفسية المستمعين ويمكنهم أن يأخذوا مقالتهم من القرآن الكريم مباشرة مع التعليق عليها بالشرح والتوضيح .

الفصل الرابع

المثل وسيلة للدعوة

استعمل العرب المثل فى كلامهم وأرادوا به الشىء العجيب المدهش فى صفته وحقيقته وكثيراً ما أتوا به على صورة التشبيه بأركانه . وفى أحيان أخرى أتوا به مشبهاً مسبوقاً بلفظ « مثل » وفى حالة ثالثة يقصدون به المثل السائر المضروب لحالة سبقت حيث يشبهون مضربه بمورده إظهاراً للمضرب .

والمثل فى كل أحواله يقرب المعانى ويضع صورتها مثيرة لدى المستمع ويجعلها مع القرب والإثارة فى وضع ثابت بالدليل . وسواء أرادوا بالمثل فى لغتهم الحقيقة أو المجاز فهو أحد أقسام علم البيان الاصطلاحى الهادف إلى تأدية المعنى بصورة أوضح وأتم فى تراكيب مختلفة .

والعرب لم تصنع أمثالها عبثاً بل لابد من أسباب أوجبتها، وحوادث اقتضتها فصار المثل المضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة التى يعرف بها الشىء . وليس فى كلامهم أوجز من المثل ولا أشد اختصاراً منه .

ومن الأمثلة العربية قول لبيد .

وما المال والأهلول إلا ودائع ولابد يوماً أن ترد الودائع

فترى وضوح الدلالة فى قول لبيد حيث شبه المال والأهل بالودائع التى يلزم ردها لصاحبها ذات يوم .

ومنها قول العرب . مثلك لا يبخل . أى أنت بصفتك العجيبة وأوصافك العظيمة لا تكون بخيلا ، ومنها ما ذكره الإمام الرازى فى تفسيره . أخفى من الذرة وأطيش من الذباب وأضعف من فراشة (١) .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ١ ص ٣٥١ .

ومن الأمثلة العربية قولهم « إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر » وهو مثل يضرب للأمر الظاهر المشهور الذى لايغيب والأصل فيه أن بنى ثعلبة بن سعد بن صنبه فى الجاهلية تراهنوا على الشمس والقمر ليلة أربع عشرة من الشهرفقالت طائفة: تطلع الشمس والقمر بين؛ وقالت طائفة يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس فتراضوا برجل جعلوه حكماً فقال واحد منهم إن قومى يبغون على، فقال الحكم هذا القول فذهب مثلا يضرب (١)» .

ومنها قول الشــاعر :

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها إن كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا

ويضربونه للحث على اجتذاذ الشر من جذوره حتى لا تقوم له قائمة بعد ذلك .

وقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من الأمثال المختلفة جرياً على لغة العرب .

والأمثال القرآنية هادفة ولها أثرها فى تبليغ الدعوة ولذا جاءت كثيراً فى كتاب الله العزيز .

مفهوم المثــل القرآنى :

أَلْمَثَلُ وأَلْمِثْلُ . الشَّبَهُ والشِّبهُ والشَبيه وزنا ومعنى فى الجملة (١) وقيل المثل بفتحتين معناه الوصف ومنه قوله تعالى :

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾(٣)

أى وصفها هكذا وبالكسر معناه الشبه (٤) .

---

(١) المثل السائر ص ١٠ . (٢) المنار جـ ١ ص ١٦٧ .

(٣) الرعد آية ٣٥ .

(٤) المصباح المنير جـ ٢ ص ٩٩ مادة « مثل » .

والمثل القرآنى يكون حقيقة فيطلق على نفس الشىء وذاته . كقوله تعالى:
﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾(١)
أى كمن هو فى الظلمات . وكقوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾(٢) أى حكايتهم كواقعها . وكقوله تعالى :
﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾(٣)
أى طريقة خلقه كطريقة خلق آدم فى الغرابة والبشرية .

وإنما أطلق على الحقيقة اسم المثل لكونها مشتملة على وقائع مثيرة بشكل واضح مؤثر يقول صاحب المثل السائر «والوقائع التى وردت فى حوادث خاصة بأقوام فإنها كالأمثال فى الاستشهاد بها »(٤)

ويكون فرضياً غير حقيقى فيأتى على صورة التشبيه كقوله تعالى :
﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾
فشبه اليهود الذين كلفوا علم التوراة والعمل بما فيها ثم لم يعملوا فكأنهم لم يحملوها بالحمار يحمل الكتب الكبيرة النافعة ولايستفيد بها وقد عقب القرآن على هذا التشبيه بقوله :
﴿ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٥)

ومن هذه الصورة التشبيهية للمثل جاء تعريف صاحبى لباب التأويل وفتح البيان للمثل حيث عرفوه بأنه عبارة عن قول يشبه قولا آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره (٦) ويقول الشيخ محمد عبده مشيراً إلى هذا النوع من المثل:وأبلغه تمثيل المعانى المعقولة بالصور الحسية وعكسه (٧) .

---

(١) الأنعام آية ١٢٢ . (٢) محمد آية ٣ . (٣) آل عمران آية ٥٩ .
(٤) المثل السائر ص ١٠ . (٥) الجمعة آية ٥ . (٦) فتح البيان جـ ١ ص ٦٢ .
(٧) المنار جـ ١ ص ١٦٧ .

والمماثلة بين شيئين تفيد عموم المشاركة بينهما . فلئن كان التشبيه يشارك فى الكيفية ، والمساوى يشارك فى الكمية ، والشكل يساوى فى القدر والمساحة ، فان المماثلة تعم كل هذه المشاركة . ولذلك حسن تسمية التشبيه القرآنى بالمثل لأن تشبيه القرآن فيه دقة وشمول .

والفرق بين المثل والتشبيه حينئذ أن المثل لابد أن يكون الأمر الجامع بين طرفيه متحصلا بالتأويل أما التشبيه فقد يكون بيناً بلا تأويل أو محتاجاً إلى تأويل بسيط فكل تشبيه تمثيل ، ولا عكس (١) كما أن الوجه فى التمثيل يؤخذ من جملة أو جملتين أو أكثر تضامت كلماتها حتى صارت خيطاً ممتداً ممتزجاً . . تصور باختلاطها صورة خاصة غير الصورة التى توجد من وحدة كلمة على حده . أو من الكلمات مراعى فيها لانفراد والتعدد (٢) وذلك كقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾(٣)

انظر كيف كثرت الجمل فبلغت عشرا لكنها تداخلت فى بعضها . حتى كأنها جملة واحدة والشبه أخذ بمجموعها .

والمثل الذى تضمنته الآية يعلق عليه عبد القاهر فيقول « من الأمثال ما لابد من وروده جملة يتقلمها مذكور يكون وروده مشبهاً به مع عدم إمكان حذف المشبه إلا أنه مشبه بمن صفته وحكمه مضمون تلك الجملة (٤) .

ويأتى المثل وهو غير حقيقى كذلك على صورة الاستعارة وحينئذ فهو

---

(١) أسرار البلاغة ص ٧١ .
(٢) نفس المصدر ص ٨١ .
(٣) يونس آية ٢٤ .
(٤) أسرار البلاغة ص ٩١ .

عبارة عن « **القول السائر الممثل مضربه بمورده** » ويتفق هذا مع تعريف البلاغين للمثل لأنه فى اصطلاحهم اللفظ المركب المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين مضربه ومورده مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى (١) . انظر قوله تعالى :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾(٢)فقد ذكر الله أمر هذه القرية فى حالتى إيمانها وكفرها وضربه مثلا أورده للكافرين . ولأهل مكة لما بينهما من شبه ؛ يقول الزمخشرى : إن الله جعل القرية التى هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله إليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نعمته . أو يجوز أن تكون قرية من قرى الأولين كانت هذه حالها فضربها مثلا لمكة أنذرهم من مثل عاقبتها (٣)

والمثل المضروب يأتى ذكراً لحال من الأحوال مشتملا على ما يناسبها ويشابهها مبيناً من حسنها أو قبحها ما كان خفياً ،وهو لذلك لا يكون إلا قولا بديعاً فيه غرابة تجعله خليقاً بالقبول ؛ وجديراً بالتيسير فى البلاد، ومن هنا يقول أبو السعود : أستعير لفظ المثل لكل حال أو صفة أو قصة لها شأن عجيب ،وخطر غريب ؛من غير أن يلاحظ بينها وبين شىء آخر تشبيه . ومنها قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾(٤)

أى الوصف الذى له شأن عظيم وخطر جليل ومثل الجنة أى قصتها العجيبة الشأن (٥) .

---

(١) المقصد فى علم البيان ص ٢٠٤ .
(٢) النحل آية ١١٢ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٠ .
(٤) النحل آية ٦٠ .
(٥) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ٤٠ .

وأمثال القرآن تنقسم باعتبار آخر إلى قسمين :

أحدهما ظاهر مصرح به .

والثانى كامن لاذكر للمثل فيه .

فمن أمثلة الأول قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾(١)

أخرج ابن أبى حاتم وغيره من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال هذا مثل ضربه الله للمنافقين كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفىء فلما ماتوا سلبهم الله العز كما سلب صاحب النار ضوءه وتركهم فى عذاب (٢) .

ومن أمثلة الثانى قوله تعالى :

﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾(٣)

فإنه يشير إلى مثل كامن فيه تعرفه العرب وهو قولهم « خير الأمور أوساطها » وكقوله تعالى :

﴿ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾(٤)

فإنه يتضمن مثلا كامناً هو قول العرب « الحية لا تلد إلا حية » وكقوله تعالى ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾(٥) يتضمن مثلا هو قول العرب « من جهل شيئاً عاداه » (٦) .

هذا وفى القرآن ألفاظ جرت مجرى المثل وهو ما يعرف بالمثـــل السائر ومنها قوله تعالى :

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ (٧)

---

(١) البقرة آية ١٧ . (٢) الإتقان جـ ٢ ص ١٣٢ .

(٣) البقرة آية ٦٨ . (٤) نوح آية ٢٧ . (٥) يونس آية ٣٩ .

(٦) الإتقان جـ ٢ ص ١٣٢ ، ١٣٣ بتصريف . (٧) يوسف آية ٥١ .

يضرب وقت ظهور الشيء واتضاحه وقوله تعالى :

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾(١)

يضرب للمتعارضين ، ورغم اختلافهم فالكل فرح بوجهته. وقوله تعالى :

﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾(٢)

يضرب حين انتهاء أمر متنازع فيه بأى وجه كان ، وأشباه هذا كثير فى القرآن الكريم .

وقد جاء ذكر المثل فى القرآن كثيراً لما له من فائدة وأثر ، يقول أبو السعود : «التمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل . واستنزاله من مقام الاستعصاء ، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبى . وقمع سورة الجامح الأبى . كيف لا . وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية وإبرازها فى معرض المحسوسات الجلية وإبداء المنكر فى صورة المعروف ، وإظهار الوحشى فى هيئة المألوف » وجاء فى أسرار البلاغة « وأعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى أو برزت هى باختصار فى معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة . وكسبها منقبة . ورفع من أقدارها . وشب من نارها . وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها . ودعا القلوب إليها . واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا . وقسر الطباع. على أن تعطيها محبة وشغفاً . فإن كانت مدحاً كان أبهى وأفخم وأنبل فى النفوس .وأعظم وأهز للعطف وأسرع للألف، وإن كان ذما كان مسه أوجع وحده أحد . وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور وبيانه أبهر وكان شأوه أبعد وشرفه أجد . وإن كان اعتذاراً كان إلى القلوب أقرب وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر وأدعى إلى الفكر وأبلغ فى التنبيه والزجر وأجدر بأن يجلى الغياية . ويبصر بالغاية . ويبرىء العليل ويشفى الغليل » (٣) .

---

(١) الروم آية ٣٢ .

(٢) يوسف آية ٤١ .

(٣) أسرار البلاغة ص ٩٢ ، ٩٣ .

وقد اختير لفظ الضرب مع المثل لأنه يأتى عند إرادة التأثير وهيج الانفعال كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ أثره إلى قلبه وينتهى إلى أعماق نفسه (١) .

وقد يحتوى المثل على قصة وهنا يمكن أن نطلق عليها اسم « **القصة التمثيلية** » وهى تحمل فى الغالب صورة فرضية سيقت لمجرد التصوير وإبراز المعقول فى صورة المحسوس .

وسوف نبين أن القرآن أتى بأمثاله لتكون أحد وسائل الدعوة فى دقة بالغة . وفنية مؤثرة عجيبة . ولسوف نبحثها بعون الله تعالى من ناحيتها العامة الشاملة لكل ما يطلق عليه اسم « مثل » حقيقياً كان أو غير حقيقى .

الأمثال وسيلة للدعوة

ساق القرآن الكريم أمثاله لتكون وسيلة من وسائل إبلاغ الدعوة ولذلك نراها تشتمل على الخصائص التالية :

فهى — **أولا** — لا تترك الداعية وحده أمام معارضيه المعاندين بل تمده بسلاح الصبر والتحمل . وتعرفه أن الابتلاء ليس مقصورا عليهم وحده . فإن المؤمنين السابقين أوذوا فى سبيل عقيدتهم وأخرجوا من ديارهم وأموالهم ونزل بساحتهم كثير من العناء والتعب والجهد والمشقة فما زادهم ذلك إلا إيماناً فوق إيمانهم وتسليماً بسلامة جهادهم وعملهم قال تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾(٢)

---

(١) المنار جـ ١ ص ٢٣٦ .

(٢) سورة البقرة آية ٢١٤ .

فهذه الآية تذكر مثلا من شأنه أن يقوى الإرادة ويجعل المؤمن يتحمل المعاناة من أجل مبادئه . فما البلاء إلا ابتلاء نهايته فوز محقق ، يقول أبو السعود : « خوطب بهذه الآية رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه حثاً لهم على الثبات والمصابرة على مخالفة الكافرين وتحمل المشاق من جهتهم أثر بيان اختلاف الأمم على الأنبياء عليهم السلام وقد بين فيه مآل اختلافهم وما لقي الأنبياء ومن معهم من مكايدة الشدائد ومقاساة الهموم . وإن عاقبة أمرهم النصر (١) .

وحتى يملك الداعية ثقة بنفسه أمام المظاهر المادية التي يمليها المعارضون وفيها الجاه والمال والمظهر ، ضرب الله مثلا للمؤمن ومثلا للكافر يبين به ميزة المؤمن وأفضليته على الكافر فقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾(٢)

فهذا مثل ضربه الله للمشرك حيث شبهه بالعبد يتولى أمره شركاء متنازعون متغالبون لكل منهم رغبة واتجاه مما يجعل العبد فى حيرة وضلال ، وضربه كذلك للمؤمن الموحد بالرجل الذى يلى أمره شخص واحد فقط فلا منازعة ولا مغالبة مما يحقق للعبد المؤمن الاستقرار والهدوء يقول الرازى « وهو مثل ضرب فى غاية الحسن فى تقبيح الشرك وتحسين التوحيد (٣) » وهكذا يحمى المؤمن بوضعيته فى هذا الوجود فلا يتألم إن تعالى أمامه كافر معاند ويثق فى النصر الإلهى له . والداعية من المؤمنين يكتسب منهم الصبر والتحمل واليقين .

وهى — ثانياً — تبصر بالدعوة وتوضح أساسياتها وتعطى الداعية مبادئها لكى يعمل على هدى بها . وأول هذه الأساسيات معرفة الله تعالى والإيمان به

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ١٦٤ .
(٢) الزمر آية ٢٩ .
(٣) مفاتيح الغيب جـ ٧ ص ٢٦١ .

عن اقتناع كامل ويقين دقيق . وفى هذه النقطة يضرب القرآن الأمثال هادما ادعاء تعدد الآلهة موضحاً الأدلة السليمة لوجود الإله الحق سبحانه .

وهذا مثل يبين أن الآلهة المدعاة لا تستحق أن تكون آلهة لأنها ضعيفة لا تخلق شيئاً ما . حتى ولو كان ضعيفاً . ولا تستطيع أن ترد عن نفسها إيذاء ولو من ضعيف هذا المثل يذكره الله فى قوله :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾(١)

ولقد بين هذا المثل ضعف الشركاء ومهانة سائر الآلهة المدعاة وعجزها . بين ذلك بصورة حية شاخصة أمام البصر والبصيرة ، ذلك بأن صدر المثل بالنداء فقال « يا أيها الناس » فإذا ما تجمع الناس بالنداء أخبرهم أنهم أمام مثل يضرب ليضع قاعدة ويقرر حقيقة يجب أن يستمع لها . ويتدبر فيها . وهى أن الآلهة الكاذبة رغم تعددها وتنوعها . من صنم ووثن وأشخاص وكواكب وغيرها . هذه الآلهة جميعاً لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإيجاد الذباب كإيجاد غيره من المخلوقات الكبيرة الحجم لأنها جميعاً تحتوى على الروح سر الحياة . ولكن القرآن الكريم اختار الذباب حين ضرب هذا المثل لأن العجز عن خلقه يلقى فى الحس صورة الضعف بينة أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل مثلا . ثم يعطينا المثل واقعاً بيناً عن الضعف المزرى لهذه الآلهة حين يذكر أن الآلهة المدعاة لا تملك استنفاذ شىء من الذباب حين يسلبها منها .

وفى مثل آخر يبين حقيقة الإله الذى يستحق التعظيم والعبادة ويضربه حين ذكره لمثل الرجلين فى سورة الكهف من آية ٣٢ إلى آية ٤٤ حيث جعل الله لأحد الرجلين جنتين من أعناب محفوفتين بالنخيل . وبينهما زروع

---

(١) الحج آية ٧٣ .

ونبات وأنهار . ولكن هذا الرجل يغتر ويكفر بأنعم الله ويقول﴿**ما أظن أن تبيد هذه أبدا**﴾ وأعلن كفره صراحة بقوله ﴿**وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً**﴾ هذا الوضع الغريب دفع صاحبه أن يخطئه فى اتجاهه . ويشرح له أدلة الألوهية فى خلقه . ويستنكر كفره وبعده عن الإيمان فيقول له ﴿**أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله**﴾ وهكذا يستمر المثل فى روايته حوار الرجلين وفى النهاية يبين النتيجة الحتمية التى رآها الكافر وكانت كما يقول تعالى ﴿**وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها**﴾ وهكذا هلك ماله وضاعت كل ثروته فأخذ فى الندم ولات ساعة مندم . وهذا المثل يبين دليل القدرة فيما خلق الله من إنسان وحياة وكذلك فى إهلاك من يريد إهلاكه ويبين أيضاً دليل الكمال حيث أن المخلوقات كلها يوجدها الله كاملة فالجنتان كانتا مثلين رائعين فى الكمال والجمال حيث الزرع والنخيل والأنهار والثمار . . وتبين كذلك دليل الغاية لأن كل مخلوق له غاية فالجنتان آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً والرجل ﴿ **خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا**﴾ وهكذا يبين المثل كافة الأدلة القرآنية (١) الدافعة إلى ضرورة الإيمان بالله أول أسس الدعوة .

ومع وضوح الأدلة نجد أقواماً يعيشون النعم ويسمونها ثم يهملون الإيمان بالله وهنا نجد المثل يكشف حقيقة هؤلاء الناس وماهم فيقول :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾(٢)

---

(١) يلاحظ أن القرآن يشير فى أدلته إلى الكمال والقدرة والغاية ولم يستعمل أدلة الفلاسفة المعتمدة على الحدوث والإمكان .

(٢) الأعراف آية ١٧٩ .

فالكافرون بسبب تعطيلهم للحواس مثلهم كمثل الأنعام بل الأنعام أفضل بسبب أن الأنعام كما يقول أبو السعود: تدرك ما من شأنها أن تدركه من المنافع والمضار . فتجتهد فى جلبها وسلبها غاية جهدها مع كونها بمعزل عن الخلود ، وهؤلاء ليسوا كذلك حيث لا يميزون بين المنافع والمضار . بل يعكسون الأمر فيتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد(١) ولذلك لا يستفيدون من الأدلة مهما تعددت أمامهم . مغالاة فى اعتقادهم ، وإلغاء لكل ما يسمعون وذلك كـالنصارى الذين ادعوا أن عيسى عليه السلام لا يناظره شخص آخر لكونه وجد من غير أب وبالغوا فى هذا الإنكار حتى أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وتمسكوا بنبوة عيسى ووصلوا به إلى الألوهية فرد الله عليهم بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(٢)

ويصور المثل رداً مفحماً عليهم يقول ابن كثير يقول جل وعلا إن مثل عيسى فى قدرة الله حيث خلقه من غير أب كمثل آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم بل خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون فالذى خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى ومعلوم بالاتفاق أن دعواهم فى عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً (٣) .

إن إفحام النصارى فى قولهم بألوهية المسيح يثبت الرسالة المحمدية لأن القوم لو اعترفوا ببشرية عيسى عليه السلام وهو رسول لسلموا بإثبات الرسالة للبشر وتوقعوها من شخص معه المعجزة الدالة على صدق رسالته . وكانت المعجزة مع النبى محمد صلى الله عليه وسلم . كان العلمـاء

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٤١٣ .

(٢) آل عمران آية ٥٩ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٣١ هامش فتح البيان .

يثبتون رسالة محمد مع النصارى بالتدليل أولا على أن المسيح بشر وليس إلهاً قط .

يقول الرازى : اتفق لى حيث كنت بخوارزم أن أخبرت أنه جاء نصرانى يدعى التحقيق والتعمق فى مذهبهم فذهبت إليه وشرعنا فى الحديث فقال لى : ما الدليل على نبوة محمد فقلت له : أظهر الخوارق على يده كظهورها على يد موسى وعيسى عليهما السلام لأن الاستواء فى الدليل يقتضى الاستواء فى المدلول فقال النصرانى : إن عيسى ما كان نبياً إنه كان إلهاً فقلت له الكلام فى النبوة لابد وأن يكون مسبوقاً بمعرفة الإله (١) وأخذ يبين الرازى له بطلان قوله فى ألوهية عيسى ويثبت بشريته لأن إثبات بشرية عيسى عليه السلام مقدمة لإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ويبين المثل أسباب تكذيب الناس للرسل ويرد عليهم حيث يقول تعالى :

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾(٢) فيبين المثل سبب الكفر ويذكر أنه منحصر فى كون الرسل بشرا ، لكن الرسل يردون بأن الكافرين مع إيمانهم بالرحمن إلا أنهم يكذبون بما أرسل . ولو نظروا فى البلاغ البين الواضح لعلموا أنه لا يكون إلا من الرحمن سبحانه وتعالى وليس على الرسل إلا هذا البلاغ فلم يكفرون إذاً .

وأيضاً يثبت قضية البعث فيقول تعالى :

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ٦٩٧ ، ٦٩٨ .

(٢) يس آيات ١٣ — ١٧ .

بَعْضَ يَوْمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾(١)

وهذا المثل ساقه الله تعالى لمن ينكر البعث كذلك الرجل الذى استبعده وقال عن القرية الخاوية مستنكراً كيف يحيي هذه الله بعد موتها . وكان المثل الشاهد فى نفسه حيث أماته الله مائة عام وحماره معه ، ثم بعثهما من جديد بعد المائة ، فوجد الرجل طعامه كحاله يوم شرائه . فلما رأى ذلك آمن بالبعث وقال : أعلم أن الله على كل شيء قدير . يعلق الحكيم الترمذى على هذا المثل فيقول أمر الله هذا الذى تحيرت نفسه أن ينظر إلى حماره كيف أحياه فأراه بما حضره ما غلب عنه (٢) .

والأمثال — **ثالثاً** — تبصر بالمدعوين وتعرف بهم وبالدنيا التى يعيشونها وذلك لكى تساهم مع بقية الوسائل فى تبصير الداعية بالجو العام الذى يدعو فيه فيتصرف فى وسائله على ضوء ما يرى وبذلك يساهم المثل فى البيان والبصيرة . ومن هذه المساهمة توضيحه لما يلى :

١ — الجدل طبيعة إنسانية :

الإنسان جدلى بطبعه . ودائماً يثير المحاورة والمناقشة حول كل ما يعرض له . ولقد جادل الأقوام رسلهم وما آمنوا إلا بعد حوار طويل وجدل كثير . والجدل فى الإنسان حقيقة بينها الله فى قوله: **﴿ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا ﴾** وهكذا جادل الإنسان رغم كثرة الآيات . وشمولها . ووضوحها . وملاءمتها للطبيعة البشرية لأنها جاءت مناسبة لسائر الناس . ولو ترك الإنسان بحريته لآمن وصدق .

---

(١) البقرة آية ٢٥٩ .

(٢) رسائل الترمذى المجلد الثانى ص ٩٢٧ .

هذه الحقيقة عن الإنسان يبينها المثل فى قوله تعالى ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾(١) يذكر أبو السعود فى هذا المقام مثل ابن مريم ضربه ابن الزبعرى على ماورد فى بعض الروايات حين جادل رسول الله ﷺ فى قوله‌تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وقال :أهذا لنا ولآلهتنا أو لجميع الأمم فقال ﷺ **هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم** ، فقال اللعين خصمتك ورب الكعبة أليس النصارى يعبدون المسيح واليهود عزيرا وبنو مليح الملائكة فإن كان هؤلاء فى النار قد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرح به قومه وضحكوا وثبتوا على ما كانوا عليه من الإعراض وقالوا إن عيسى خير من آلهتنا فإن كان هو فى النار وحاشاه ، فلا بأس بكوننا مع آلهتنا فيها(٢) . . ولكن هذا القول كله جدل ومخاصمة لا يهدف الحق فى شىء لأنهم قوم أشداء فى الخصومة مجبولون على اللجاج كشأن الإنسان فى كل حياته يقول تعالى ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾(٣)

فرغم أن الله خلقه من نطفة إلا أنه سرعان ما ينسى الفضل ويخاصم ربه بجدل باطل كعادته المستمرة . المستقرة فى طبيعته وغريزته .

٢ — ضآلة الدنيا :

الدنيا فترة امتحان للبشر والآخرة بعدها دار قرار . ونتيجة أعمال الدنيا تظهر فى الآخرة . ومن هنا كان على الإنسان أن يقدر هذا الواقع ويقصر سعيه كله على أن يحافظ على سعادة الآخرة وأمنها . لكنه كثيراً ما يفتن بمباهج الدنيا ويغتر بسيطرته عليها ويكفر بالله ونعمه وينسى أن تملك الدنيا آية إلهية تدفع إلى الإيمان بدل الكفر وتحس على الواقعية بدل الضرر ،

---

(١) سورة الزخرف آية ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) تفسير أبى السعود جـ ٥ ص ٤٧ .

(٣) النحل آية ٤ .

إن على الإنسان أن يعمل للآخرة . ويأخذ نصيبه من الدنيا وبهذا فقط يكون على الطريق المستقيم ، لأن الدنيا قصيرة العمر ، قليلة النفع ، والآخرة خير وأبقى . ولو أحس الناس يقينا حقيقة الدنيا لآمنوا بالله وبسائر تعاليم الله ولذلك يبين الرسل للناس حقيقة الدنيا . وقد وضحتها الدعوة للناس أيما وضوح بكافة الوسائل .

جاءت أمثلة كثيرة توضح شأن الدنيا . يقول تعالى :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾(١)

فقد ضرب الله للدنيا مثلا بالمطر ينزل فيختلط بالنبات فتتزين الأرض بألوان بهجة كالعروس. وهنا يغتر الإنسان صاحب هذه الأرض بجمالها وزخرفها ولا يذكر سواها إلا أنه فجأة تأتى نقمة عظيمة دفعة واحدة . فى ليل أو نهار تهلك الزرع والثمار . وهنا يتحسر المالك ويشتد حزنه . يقول الرازى : فكذلك من وضع قلبه على لذات الدنيا وطيباتها فاذا فاتته تلك الأشياء يعظم حزنه وتلهفه عليها (٢) وهذا المثل ضربه الله ليبين سرعة زوال الدنيا حتى لا يطمئن أحد إليها كما هو الواجب ويبقى عاملا للآخرة التى هى دار القرار الحقيقى . ومن هنا كانت معرفة هذه الحقيقة عن الدنيا من أساسيات النجاح للداعى والمدعوين .

والأمثال — **رابعاً** — موعظة حسنة لأنها تثير الانفعال وتخاطب الوجدان وتنقل المعقول والمحسوس. وتغرى على الخير. وتبعد عن الشر يقول

---

(١) يونس آية ٢٤ .

(٢) مفاتيح الغيب ج ٤ ص ٨٢٩ .

الشيخ محمد عبده : « وإنما اختير للمثل لفظ الضرب لأنه يأتى عند إرادة التأثير وقصد الانفعال (١) » ويلجأ هذا الأسلوب إلى الممثل به الواضح المعروف سلفا ليجعله دليلا للمثل . وبذلك فهو إقناعى تلمح فيه المناصحة والإرشاد . والدليل يقول الإمام السيوطى نقلا عن الشيخ عزالدين بن عبد السلام : « إنما ضرب الله الأمثال فى القرآن تذكيراً ووعظاً فما اشتمل منها على تفاوت فى ثواب أو على إحباط عمل أو على مدح أو نحوه فإنه يدل على الاحكام (٢) وهكذا يشتمل المثل على التذكير والوعظ ونتيجة العمل والمدح والذم مما جعله موعظة حسنة . وأخيراً يأتى المثل على قدر الطاقة البشرية من أجل أن يستنزل المعانى الصعبة ويجعلها فى متناول العقل الإنسانى وذلك فى بيان معجز وترتيب عجيب .

فنية المثل فى إبلاغ الدعوة

جاء المثل فى القرآن الكريم ليقوم بدوره كما أراد الله له كأحد وسائل الدعوة ولذلك اشتمل على عدد من الخصائص ومنها ما يلى :

١ ـ الدقة والواقعيـــة :

الناظر فى المثل القرآنى يلحظ دقته الفريدة المؤثرة فهو دائماً لا يمثل بالغريب، وإنما يتخير من المحسوسات الموجودة. ويجليها بأوصافها . ويضعها فى المثال شاهدة واضحة على ما يريد ذكره وبيانه، وفى الممثل به لا يضع وصفاً زائداً أو خيالياً لتكون صورته صادقة ملموسة . . ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾(٣)

حيث يضرب الله هذا المثل ليبين أن قدرة الله هى القدرة وما عداها من قوة فهو هزيل . ولا اعتبار له . والذى يتعلق بقوة غير قدرة الله

---

(١) المنـــار ﺟ ١ ص ٢٣٦ . (٢) الإتقان ﺟ ٢ ص ١٣١ .

(٣) العنكبوت آية ٤١ .

تعالى فهو كالعنكبوت التى تتعلق بالواهى والضعيف حيث تتخذ لنفسها بيتاً ضعيفاً واهياً ، بل هو أضعف البيوت على الإطلاق والكل يعرف ذلك أنى كان . لأن العنكبوت توجد فى كل مكان وتنسج بيتها فيه . ولذلك ضرب الله هذا المثل وكله دقة وواقعية ،لأن ضعف العنكبوت وبيته لا ينكر كما أن وجوده معروف للجميع .

ومن علامة الدقة فى الأمثلة القرآنية أنه حينما يضرب المثل بصورة غير موجودة بالفعل تجده يأتى بها صورة يمكن أن توجد حقيقة وذلك كقوله تعالى :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾(١)

فقد ضرب الله لليهود الذين كلفوا العمل بما فى التوراة فأهملوها مثلا بالحمار يحمل الكتب الضخمة النفيسة الملأى بالعلم ولا يستفيد بها . هـــذا المثل موجود . وإن لم توجد صورته فى الواقع فهى ممكنة الوجود .

ومن هذه الدقة قوله تعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾(٢)

إذ أنه لا يوجد من يمنع وجود هذه السنابل بحباتها الكثيرة الناتجة من الحبة الواحدة على النحو المذكور . ولكى تكون هذه الواقعية أكبر فى الدقة نجد المثل يذكر من الأوصاف والقيود ما يجعله مستساغاً سهلا . فيبين كيف تتحول الحبة الواحدة إلى مئات من الحب وذلك لأنها تزرع فتنبت سبع سنابل وفى السنبلة الواحدة مائة حبة . وهذا ممكن مشاهد .

ومع واقعية المثل نرى دقة وجه الشبه فيما ضرب المثل له . ووضوحه

---

(١) الجمعة آية ٥ .

(٢) البقــرة آية ٢٦١ .

فيه أكثر من اتضاحه فى الممثل به . وذلك لأن القصد من التمثيل القرآنى هو الممثل « وحده » كقوله تعالى ﴿ **ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾(١) فهذا العبد المملوك لعدد من الرجال المتنازعين هو مثل الكافر المشرك الذى يعبد آلهة عددا ، وهو بشركائه واقع فى حيرة فى عقيدته وعبادته . ومناسكه واضطرابه أشد من اضطراب العبد المملوك المضروب به المثل لأن العبد يطيع من يأمره أياً كان ، أما المشرك فإنه خاضع لباطل معطل للإرادة مضيع للعقل بلا معنى معين أو مفهوم محدد ، وهكذا الشأن فى المثل المضروب للمؤمن لأن إيمانه بالله الواحد يعطيه ثقة وأماناً ورضى كالعبد المملوك لرجل واحد فإنه لا يأخذ أوامره إلا منه وحده ، والوضوح هنا بين فى الممثل أكثر من وضوح الممثل لأن الثقة فى المؤمن أعمق وأشمل حيث تدور مع الظاهر والباطن وسائر عمله .

وهكذا يتضح وجه الشبه فيما ضرب المثل له . وهى ميزة مع الدقة تجعل المدعو يرى الصورة توا وفى بيان .

والمثل القرآنى يترك مخاطبه بعد الدقة والوضوح يستنتج وجه الشبه شحذا لعقله ، ومشاركة فى العمل ، وهذا من شأنه أن يدفع إلى الإيمان بحماس واقتناع .

كما أنه يضرب المثل أحياناً ويترك بعض جوانبه عمداً لكى يفكر المستمع فيها . وذلك كقوله تعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾(٢)

---

(١) الزمر آية ٢٩ .

(٢) ابراهيم آية ١٨ .

حيث شبه أعمال الكافرين برماد طيرته رياح شديدة وفى يوم القيامة لا يجد الكافر أثراً لعمله . والمثل يذكر أنه لا أثر لعمل الكافر بينما الواقع أن له عقوبات كثيرة تركها المثل لكى يجتهد المستمع فى تفحصها واستنتاجها وقد جاء الاستفهام عقب بعض الأمثال لهذا الهدف يقول تعالى :

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾(١)

والمثل مضروب للمؤمنين والكافرين فالمؤمن بصير سميع ، والكافر أعمى وأصم ، وبعد ضرب المثل أتى الاستفهام بـ هل يستويان مثلا ؟

وهو استفهام إنكارى ينفى ما استفهم عنه ويثبت أن الفريقين لا يستويان أبداً . وهذا المنهج فى النفى والإثبات أفضل من النفى ابتداء .

وهكذا تتضح بعض دقة المثل فى صدق جوانبه ووضوح وجه الشبه فى مضربه واشتراكه مع عقل المخاطب فى استنتاج بعض أهدافه . وهذا يؤثر فى الإنسان حيث يجذب الانتباه إليه . ويجعله يربط بين الممثل به وله ويستنتج من خفايا المثل الكثير وكلها مفيدة للدعوة ولأهدافها .

٢ — التأثير النفسى :

تستمد الأمثال القرآنية عناصرها من الطبيعة لتظل قريبة من الإنسان أياً كان تعيش معه . وتؤثر فيه . ومن هنا فان روعة التصوير التى بدت فيها ضرورية لها . وحتى يؤدى المثل دوره التأثيرى تماماً رأيناه يتخذ من الطبيعة ميداناً يقتبس منها صورة فمن نباتها نرى الحبة تنبت سبع سنابل، ونرى الشجرة الطيبة والخبيثة . والزرع الذى أخرج شطأه . ومن حيواناتها نرى الحمار والكلب، ومن حشراتها نرى البعوض والعنكبوت،ومن طيورها نرى الهدهد . ومن أحجارها نرى الرماد الصلد والجبل . وإنما كان الأمر كذلك

(١) هود آية ٢٤ .

لأن القرآن لا يقصد الاهتمام بالممثل به بقدر ما يهتم باقتراب الصورة فى نفس المدعو مع شدة وضوحها وتأثيرها .

هذا وإن بدا فى بعض الأمثال أنها غير مستمدة من الكون كقوله تعالى :

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾(١)

فإنها لا تبعد عن الطبيعة كثيراً لأن هذا المصباح ملازم لكل النـاس حيث لا يستغنى عنه أحد .

ولأن الهدف هو التأثير النفسى نرى المثل القرآنى حينما يقصد تحقير الشيء يضرب له المثل الذى يثير فى النفس اشمئزازاً ونفرة كقوله تعالى :

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢)

يقول صاحب المنار : « واللهث التنفس الشديد مع إخراج اللسان ويكون لغير الكلب من شدة التعب والإعياء أو العطش ، أما الكلب فيلهث فى كل حال . وهذا الرجل صفته كصفة الكلب فى حالته هذه . وهى أخس أحواله وأقبحها . والمراد أنه كان من إخلاده إلى الأرض واتباع هواه فى أسوأ حال تراه كلاهث من الإعياء والتعب وإن كان ما يعنون به ويحملون همه حقيراً لا يتعب ولا يغنى ولا تراه راضيا بما أصابه بل يزداد طمعا وتعباً (٣) . وهكذا يحقر المثل هذا الرجل بأن يمثله بالكلب فى أسوأ حالاته .

---

(١) النور آية ٣٥ . (٢) الأعراف آيات ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٣) المنـار جـ ٩ ص ٤٠٩ .

وهذا يؤثر فى نفس المستمع تأثيراً يجعله يبعد عن صورة هذا الكافر ويفتح دهنه للآيات والأدلة . . وحينما يكون الهدف هو تعظيم ما ضرب المثل له نجد القرآن يحيط المثل بما يحقق هذه العظمة فيه كقوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(١)

فيمثل الكلمة الطيبة عمت أو خصصت بشجرة رائعة عظيمة لأنها عالية مثمرة . منتظمة الثمرة مطيعة لربها لا يصيبها ضرر الرياح . ولا يهدمها معاول الطغاة وما دام هذا شأن الكلمة فإن على الإنسان أن يتمسك بها .

٣ — الترغيب والترهيب :

يهدف المثل إلى التأثير فى المدعوين عن طريق ترغيبهم فى الخير والثواب وترهيبهم من الشر والعقاب . لأنهم بذلك ينفعلون وجدانياً . ويندفعون إلى الإيمان بالدعوة وتطبيق تعاليمها .

ويلجأ المثل إلى الترغيب والترهيب عن طريق استعراضه لطوائف الناس تجاه الدعوة وبيان مال كل طائفة ، وهذا منهج عملى يجعل المستمع يتمنى أن يكون مع الطائفة الناجية ويبتعد عن الطائفة الخاسرة .

إن طوائف الناس تجاه الدعوة ثلاث : فنهم المؤمن . ومنهم الكافر . ومنهم المنافق ، هذه الطوائف يضع المثل لها ما يجليها ويبين قيمتها . وقيمة عملها .

يقول تعالى **﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لايعقلون﴾**(٢) . وهكذا مثل القرآن هؤلاء الكافرين المقلدين بالبهائم التى تسمع صيحات راعيها ولا تفهم منها شيئاً ولا تعقل أمراً ولا نهياً ، وهذا الكافر لا أثر لكل نشاطه الدنيوى . ونفقته هباء يقول

---

(١) ابراهيم آية ٢٤ ، ٢٥ .　　(٢) البقــرة آية ١٧١ .

تعالى ﴿ **مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته** ﴾(١) . وهذا المثل يشبه ما أنفقوا فى ضياعه وذهابه بالكلية من غير أن يعود عليهم منه نفع ما ،بحرث كفار ضربته ريح استأصله ولم يبق لهم فيها منفعة ما . بوجه من الوجوه . وسائر عملهم ضياع يقول تعالى : ﴿ **مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لايقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد** ﴾(٢) .

والمراد من المثل تشبيه أعمال الكفار فى ضياعه بالرماد الدقيق الذى لا يقوى على البقاء أمام الرياح الشديدة العاصفة، ومشهد الرماد يشتد به هذا الريح فى يوم شديد العصف يجسم فى السياق معنى ضياع الأعمال بحيث لا يقدر أحد من أصحابها على الاستمساك بشيء منها ولا الانتفاع بها . هذا المشهد ينطوى على حقيقة ذاتية فى أعمال الكفار لأنها لا تقوم على قاعدة إيمانية ولذلك فهى مفككة كالرماد لا قوام لها ولا نظام ولا أثر .

وعن المنافقين يقول تعالى ﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون** ﴾(٣) وهو مثل يوضح حقيقة المنافق وأنه يعيش بين الإيمان ظاهراً إلا أنه صنع بنفاقه حجاباً بينه وبين نور الهدى . وعملهم ضائع كالكافرين لأنهم فى رأى الإسلام أسوأ وضعاً منهم .

وعن المؤمنين قال تعالى ﴿ **وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين** ﴾(٤) وهو مثل يبين حقيقة المؤمن وأنه لا تغره مظاهر الحياة الدنيا ، يذكر الله فكراً وقولا وعملا انتظاراً للفوز فى الآخرة ويعتمد على الله فى حاجاته ومطالبه . فامرأة فرعون المؤمنة فى بيت ملك وغنى وقوة . ومع ذلك أهملت هذه المظاهر الدنيوية واتجهت إلى الله داعية

---

(١) آل عمران آية ١١٧ .
(٢) ابراهيم آية ١٨ .
(٣) البقرة آية ١٧ .
(٤) التحريم آية ١١ .

أن يكون لها بيت فى الجنة وأن ينجيها من فرعون وطغيانه وحاشيته . وعمل المؤمن لأن عيشه شريف وغايته دينية يبارك الله فيه . ويزيده فائدة وأثراً . فنفقته مضاعفة كحبة تصل إلى سبعمائة حبة .

ومن الترغيب والترهيب بالمثل أن أخذ القرآن فى وصف الجنة وصفاً شيقاً يبرز محاسنها فيقول تعالى **﴿مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى وهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم﴾**(١) ويقول **﴿مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾**(٢) . وهكذا يبرز المثل الجنة فى صورة حسنة جميلة نافعة حيث الأنهار والظلال والثمرة والماء واللبن والخمر والعسل . وكله كثير . لا يتغير له طعم أو مذاق وكله معد للمتقين الذين يطيعون الله ويخافونه . تلك عقبى الذين اتقوا أما الكافرون فلا يتمتعون بشىء من هذا وعاقبتهم وخيمة مؤلمة جزاء عصيانهم يقول تعالى **﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾**(٣) وترسم هذه الآية مشهداً مثيراً ومؤثراً ذلك لأن أعمال الكافرين كسراب يلمع فى أرض واسعة خيالية فيتبعه صاحبه الظامىء وهو يتوقع الرى. وفجأة نرى صورة عجيبة فهذا السائر الظمآن يصل إلى ما ظنه ماء فلا يجده ماء وإنما يجد آثار قدرة الله الذى كفربه ينتظره هناك كانتظاره له يوم القيامة ليحاسبه على كفره وجحوده والله سريع الحساب ، وعقبى الكافرين النار .

وهكذا يحقق المثل دوره بواقعيته وتأثير .

---

(١) محمد آية ١٥ .

(٢) الرعد آية ٣٥ .

(٣) النور آية ٣٩ .

الفصل الخامس

الجدل وسيلة للدعوة

عرفنا فيما سبق كيف جعل الله الجزيرة العربية صورة مصغرة للعالم كله مع اختلافه فى عقائده وسياسته و نظمه، ومن طبيعة الاختلاف دائماً ظهور الجدل والمناظرة حول الأمور المتنازع عليها ، ولعل من أوضح المجادلات وأشهرها فى البيئة العربية ماكان متعلقاً بالعقيدة والدين .

يروى المستشرق دوزى أن النصارى ناقشوا العرب . ومن ذلك أن المنذر الثالث ملك الحيرة أراد الأساقفة أن ينصروه فكلمه أحدهم وهو صامت حتى دخل عليه أحد قواده وأسر له بشئ فظهرت على المنذر أمارات الحزن العميق . فسأله الأسقف عما أصابه ؟ فأجابه المنذر . واحسرتاه لقد علمت أن رئيس الملائكة قد مات . فقال القسيس هذا محال وقد غشك من أخبرك فإن الملائكة خالدون يستحيل عليهم الفناء فأجابه الملك على الفور أحق ما تقول وتريد أن تقنعنى بأن الله ذاته يموت (١) .

وكان زيد بن عمرو بن نفيل بعد مفارقته لدين قومه يسند ظهره إلى الكعبة وينادى قائلا : يامعشر قريش والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى . ثم يقول اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به . ولكنى لا أعلم ثم يسجد على راحته (٢) .

وقد حكى القرآن الكريم بعض هذه المجادلات وأشار إلى بعض ما حدث بين اليهود والنصارى فقال تعالى :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾(٣)

---

(١) تاريخ الجدل ص ٣٣ . (٢) سيرة النبى ج ١ ص ٢٤٤ .

(٣) البقرة آية ١١٣ .

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾(١)

فتلك أقوال بين اليهود والنصارى تبين دور المجادلة بينهم . وأنها كانت تقوم على مجرد المخاصمة والمعاندة . لأن كلا منهم يدافع عن باطل وفساد وهكذا وجد الجدل فى الجزيرة العربية .

وكان لنزول القرآن على سنة لغة العرب أن ضم ألواناً متعددة من الأساليب ، ومنها الجدل ، إلا أن الجدل القرآنى هادف فقد قام بدوره كوسيلة للدعوة لها خصائصها وآثارها .

مفهوم الجدل القرآنى :

ظهر فى التعبير اللسانى كلمات المناظرة والمجادلة والمكابرة ، وثلاثتها نقاش بين طرفين متخاصمين إلا أنها تختلف فى الاصطلاح . لأن المناظرة هى توجه المتخاصمين فى النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب ، المجادلة هى المنازعة لا لإظهار الصواب بل لإلزام الخصم . والمكابرة هى المنازعة لا لإلزام الخصم ولكن لمجرد الرد .

فالمناظرة هى الأولى بالاعتبار إلا أنا لاحظنا أن القرآن يأمر بالجدل فى قوله تعالى :

﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(٢)

ويقول : ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(٣)

ومحال أن يأمر الله بغير طريق الصواب . أو يجعل رسله يسلكون غيره . ومن هنا ترى صاحب المصباح يذكر صواباً . ويخرج كلمة جادل عن أصلها الأول إلى توسع فى استعمالها فيقول « جادل مجادلة وجدالا إذا خاصم بما يشغل

(١) التوبة آية ٣٠ .　　(٢) النحل آية ١٢٥ .

(٣) العنكبوت آية ٤٦ .

عن ظهور الحق ووضوح الصواب . هذا أصله ثم استعمل على لسان حملة الشرع فى مقابلة الأدلة لظهور أرجحها وهو محمود إن كان للوقوف على الحق وإلا فمذموم (١) » ويقول الرازى « الجدل المذموم فى القرآن محمول على الجدل فى تقرير الباطل وطلب المال والجاه والجدل الممدوح محمول على الجدل فى تقرير الحق ودعوة الخلق إلى سبيل الله والذب عن دين الله تعالى » (٢) .

ومادة الجدل فى القرآن تدور حول المدافعة بالقول من أجل الدفاع عن العقيدة والشريعة والأخلاق إن كانت من قبل الله، أو من أجل الباطل إن كانت من المكابرين وكل آية تحدد اتجاه جدلها .

إن الجدل المتجه للصواب يراد منه المناظرة الاصطلاحية كما يجوز أن تطلق المناظرة على المكابرة أو المجادلة حين تخرج عن قصدها ، يقول الغزالى فى رسالة أيها الولد : « أيها الولد إننى أنصحك بثمانية أشياء إقبلها منى لئلا يكون علمك خصماً عليك يوم القيامة تعمل منها أربعة وتدع منها أربعة أما اللواتى تدع . فإحداها أن لاتناظر أحداً ما استطعت لأن فيها آفات كثيرة (٣) ومعلوم أن آفة الحوار لاتكون إلا من المكابرة والمجادلة الاصطلاحيتين كما أن الغزالى فى كتابه الإحياء ذكر فى الباب الرابع آفات المناظرة وضررها على الأخلاق وعدم تشبيهها بمناقشات الصحابة » (٤).

ومن البدهى إذاً أن يطلق الجدل القرآنى على ما يشمله الاصطلاح الخاص بالجدل والمناظرة معاً ، ولعله فى الموضع الواحد يوجد الجدل والمناظرة ، كمناقشة سيدنا إبراهيم عليه السلام للنمرود فى سورة البقرة فسيدنا إبراهيم يناظر والنمرود يجادل . . . . . ومن أمثال هذا كثير .

وقد يشمل الموضع الواحد على مجادلة ومناظرة ومكابرة تبعاً لقصد المتخاصمين أو إحداهما ، والقصد قابل للتبديل فى كل وقت من المناقشة .

---

(١) المصباح المنير ج ١ ص ٤٤ مادة « جدل » .

(٢) مفاتيح الغيب ج ٢ ص ٢٥٢ .

(٣) أيها الولد ص ١٣٦ ضمن مجموعة للغزالى سماها « بالقصور العوالى » .

(٤) إحياء علوم ج ١ ص ٣٧ — ٤٢ .

ولا يجرى الجدل القرآنى على النظام المنطقى الذى يأتى بمقدماته قبل نتيجته إلا أنه مع ذلك يصنع النفس ويملأها باليقين ويرضى العامة والخاصة .

وقد يقع الجدل فى شكل قصة قرآنية ، إلا أنا هنا نضع فرقاً رقيقاً بين الجدل والقصة، هو أن الجدل مدافعة قولية ومخاصمة بين طرفين متقابلين . كل يقصد إثبات مدعاة وإبطال مقابله . وأما القصة فهى تعبير عن أحداث متآلفة ، والحوار فيها لايقف على مجرد رد القول الآخر . وإنما يتعداه إلى ظاهر الأشخاص وحركات الذهن والنفس والخاطر . وحوار القصة بين الأشخاص والأحداث فى مجموعة من المواقف المتعاقبة المتغايرة فمثلا موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام من النمرود يعد جدلا . بخلاف موقفه من أبيه . ومن عبدة الكواكب وعبدة الأصنام فهى إلى القصة أقرب . هذا مع أن القصة فيها عموم وسعة يجعل الجدل بعض أجزائها .

الجدل وسيلة للدعوة :

يعتبر الجدل صناعة الرسل والدعاة . لأن تغيير العقائد ليس أمراً سهلا . ولذلك أعطى الله رسله البيان . وأرسلهم بلغة أقوامهم ومنحهم القدرة على المخاصمة لكى يردوا جدل المعارض ويقنعوا السائل . ويأخذوا بيد الجميع عن طريق المناقشة الحرة العاقلة .

فهو — **أولا** — يبين للداعية بعض ما سوف يصادفه من أعداء دعوته . ويبصره بمشاق الطريق الذى سوف يسلكه . وذلك برواية الجدل الذى دار بين النبى صلى الله عليه وسلم ومدعويه . ذلك لأن المعارضين دائماً يقفون ضد دعوة التغيير ، فإذا لاحظنا أن الدعوة الإسلامية تطالب المعاندين بتغيير جذرى يشمل الحياة كلها . لظهر لنا سر قوة المخاصمة وشدة العناد ، وإذا ما علم الداعية أنه أمام موقف صلب من الناس لزمه أن يستعد له بقوة عقلية ونفسية . وخاض طريقه الصعب صابراً محتملا . والنبى صلى الله عليه وسلم كان هو القدوة فى هذا المجال فلقد كان القوم يحاولون هدم رأيه ويصفونه بمختلف الأكاذيب ومع ذلك يذكر الجدل أنه كان يقف يرد رأيهم ويثبت ضلالهم يقول تعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ۚ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾(١)

فهؤلاء الكفار حينما سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم الآيات البينات ويذكرهم بالأدلة الواضحة قالوا : إن محمدا رجل كاذب وساحر يهدف إلى إبعاد الناس عن دين آبائهم ، وقرآنه كلام مختلق ودينه سحر مبين . فتراهم اتهموا الرسول وكتابه ورسالته . خصومة وجدلا .

إن الله سبحانه وتعالى مع من يدعو إلى دينه يدافع عنه وينصره . ولذلك أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرد بالطريقة الجدلية على اتهامات معارضيه

فلئن تباهوا بما لهم من مال وولد وظنوا أن ذلك يدفع العذاب عنهم .

﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾(٢)

فإن الله يعلم رسوله الرد ويأمره به فيقول تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾(٣)

وهكذا يرد الله مباهاتهم بمالهم ، لأن هذا المال رزق أعطاه الله لهم وهو قادر على إزالته من ملكيتهم . وليس الملك أياً كان بمقرب من الله والجنة ومانع من العذاب والنار . ولكن الإيمان والعمل الصالح هما أساس الحساب خيراً كان أوشراً .

---

(١) سبأ آية ٤٣ . (٢) سبأ آية ٣٥ .

(٣) سبأ آية ٣٦ ، ٣٧ .

ولئن وجهوا اتهاماتهم إلى القرآن الكريم .

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾(١)

فإن الله يعلم رسوله الرد ويأمره به فى قوله تعالى :

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾(٢)

ولئن كانوا يستبعدون القيامة .

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾(٣)

فإن الله يأمر الرسول بالرد فيقول :

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾(٤)

ومن هذه الآيات نرى أن مجادلة النبى صلى الله عليه وسلم هادفة فهو يأخذ مكابرتهم ويرد عليها رداً مقنعاً قاصراً على المعترض عليه .

والداعية يأخذ من هذه المواقف صورة التأييد الإلهى لرسوله صلى الله عليه وسلم الداعية الأول ، ويسير على الدرب فى الدعوة . متوقعاً المعارضة البشرية متأكداً من التأييد الإلهى . ويجب عليه أن يصبر على كل ما يلقاه فلقد أمر الله الرسول من قبل بقوله تعالى: **﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا﴾**(٥) أى إذا دعوتهم وعارضوك وتقولوا عليك الأقاويل فاصبر عليهم وتجلد لقولهم واعرض عنهم إعراضاً لايشوبه أذى ولا شتم ولا مقاومة (٦) وعليك أن تكل الأمر إلى الله تعالى فى النهاية .

والجدل — ثانياً — يبصر بالدعوة ويبين أساسياتها ويعرض القرآن فى

---

(١) الفرقان آية ٥ . (٢) الفرقان آية ٦ .

(٣) يونس آية ٤٨ . (٤) سبأ آية ٣٠ .

(٥) المزمل آية ١٠ . (٦) تفسير جزء تبارك ص ٨١ .

هذا الموضع جدل سيدنا إبراهيم عليه السلام مع النمرود إثباتاً للألوهية يقول تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾(١) .

فهذا جدل حول إثبات الألوهية بأدلتها ، تراها أدلة مفحمة ملزمة من أقرب الطرق ، وقد ترك سيدنا إبراهيم دليل الإحياء والإماتة حينما أوجد النمرود شبهة شكلية عليه . وانتقل إلى دليل لا شبهة فيه عند النمرود وهو مطلع الشمس ومغربها . وهنا بهت النمرود ولم يحرجواباً ،وهو نوع من الجدل يعرف بـ « الانتقال » وهو أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذى كان أخذ فيه لعدم فهم الخصم وجه الدلالة من الاستدلال الأول (٢) .

وهذا الدليل يبطل عبادة الأشخاص ولايثبتها للإله الواحد القادر على كل شئ المتصرف فى سائر الأمور عند الحياة والأحياء .

ولقد جادل المكيون رسول الله فى شأن دعوة التوحيد ، وقال أنصار الشرك والتعدد ﴿ **أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشيء عجاب** ﴾(٣) وقال الدهريون المنكرون للإله بالكلية ﴿ **وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر** ﴾(٤) وقال المقلدون ﴿ **قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا** ﴾(٥)

هذه المكابرات من القرشيين توضح موقفهم من دعوة التوحيد . وهنايبين الرسول لهم القول الفصل فى هذا الأساس الوطيد ويقول كما أمره الله تعالى :

---

(١) البقرة آية ٢٥٨ .
(٢) الإتقان جـ ٢ ص ١٣٧ .
(٣) ص آية ٥ .
(٤) الجاثية آية ٢٤ .
(٥) البقرة آية ١٧٠ .

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾(١)

فى هذه الآية وغيرها رد على المكابرة الكاذبة التى أعلنها المعاندون فالله هو الذى ينفع ويضر . أما آلهتهم فإنها لا تملك شيئاً ولا تقدر على فعل أى شئ وقد تحداهم النبى (ص) فى الآية متسائلا وهل تستطيع الآلهة المدعاة أن تدفع عنى ضرراً قدره الله أو تمنع رحمة أرادها ، وبعد التساؤل الإنكارى يوضح الحقيقة فى أن الله وحده هو الكفيل بكل شئ . وهو المعين . وعليه يتوكل المتوكلون. وفى الآية الثانية يبين الله للمجادلين أن الله وحده يكفى فى الشهادة على باطلهم . وهو يعلم بكل شئ . وعلمه ممتد شامل لكل ما فى السموات والأرض فمن آمن به نجا وفاز « والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون » وفى سورة المؤمنين من آية ٨٤ إلى آية ٨٩ يسجل الله اعترافهم بأن الله مالك الأرض ومن فيها ،وهو رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، وأنه يغيث من يشاء ولا يغيث أحد منه أحداً . إذا كانوا يعترفون بذلك فما لهم يشركون ولا يتذكرون ولا يخافون إنهم مخدوعون فى موقفهم ولا يصح إلا الإيمان والطاعة لله الواحد المتصرف فى ملكه وفق علمه وإرادته (٢) .

وهكذا يجادلهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالأمور المسلمة لديهم لأن تسليمهم بها يجعل النتائج مسلمة كذلك ، بل إنه يجادلهم بالأمور البدهية لتكون الحجة قطعية فيقول كما قال الله تعالى :

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(٣)

---

(١) الزمر آية ٣٨ .
(٢) مفاتيح الغيب جـ ٦ ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
(٣) الأنبياء آية ٢٢ .

فترى الآية تتضمن جدلا يسلم بمظنوناتهم . ثم يناقشهم فيها . وبالمناقشة يظهر بطلان رأيهم . فكأنه قال ليس مع الله إله آخر . ولو سلمنا بوجود آلهة أخرى معه كادعائهم الكاذب فإننا لابد وأن نرى على ما هى العادة فساد السماء والأرض، واستقلال كل إله بما خلق، وكون لنفسه ملكاً خاصاً به ولحدث الشجار والتعالى بين الآلهة . ولو كانت الآلهة أصغر من الإله الأكبر صاحب العرش لطلب الآلهة سبيلا إلى الله معاندة ومبالغة .

وكل ما كان منتظراً كنتيجة للفرض المظنون لم يحدث . إذ لم تفسد السماء والأرض، ولم تستقل آلهة بملكها . ولم يتعال إله على إله . ولم تطلب الآلهة طريقاً إلى الله الأكبر ، والنتيجة المحتمة هو أن التسليم باطل، والفرض المظنون كاذب لا صحة فيه . والثابت المؤكد هو أنه لا إله إلا الله .

يقول الشيخ محمد عبده « فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا لكن الفساد ممتنع بالبداهة فهو جل شأنه واحد فى ذاته وصفاته لا شريك له فى وجوده ولا فى أفعاله » (١) .

هذا والآيات مشتملة على نوع من الجدل يعرف بـ « التسليم » (٢) حيث تسلم بالمستحيل وتناقش على أساسه ليظهر بطلانه . ولذلك يصدر هذا النوع بـ « لو » كآيتى الأنبياء والإسراء ، أو يصدر بأداة النفى كآية المؤمنون دلالة على أنه يسلم بالممتنع المنفى ، وهكذا ساهم الجدل مع سائر الأدلة فى إثبات الأساس الأول للدعوة وهو الإيمان بالله وحده ورد افتراءات المعارضين .

وأما عن **الأساس الثانى وهو إثبات الرسالة لسيدنا محمد صلى الله عليه** وسلم فقد كثر الجدل حوله إذ جحد المعارضون الرسالة واستبعدوا أن يكون الرسول بشراً من الناس وكذبوا .

﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾(٣)

---

(١) رسالة التوحيد ص ٤٩ .   (٢) الإتقان جـ ٢ ص ١٣٧ .

(٣) القمر آية ٢٤ .

ولم يستبعدوا إرسال البشر فقط ، بل أخذوا فى توجيه الاتهامات الباطلة يقول تعالى :

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾(١)

ودارت مكابراتهم حول هذه الاتهامات فهو شاعر . وكاذب . وساحر وناقل ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم جادلهم فى دعاويهم . فلما قال الكافرون : « **لست مرسلا** » أمره الله أن يرد عليهم بقوله : ﴿ **قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب** ﴾(٢) ذلك لأنهم جاهلون بالحقيقة ويكفى أن يعلمها الله . ويعرفها من عنده علم الكتاب .

ويؤكد الله لسيدنا محمد ﷺ أن المعاندين مغالطون فى دعاويهم فيقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾(٣)

وذلك لأنهم اتهموا النبى ﷺ بأنه يأخذ الكتاب من رجل أعجمى لكنه تلى عليهم بلسان عربى فكيف التوفيق . خاصة وأن النبى أمى ولم ينزل كتاب من قبل هذا ، وأيضاً فهم يطلبون بأن يكون الرسول ملكاً وهذا خطأ لأنه لابد من حصول الفهم المشترك والقدرة على الخطاب . ولا يقدر على ذلك مع البشر إلا بشر منهم .

ولقد وصل بهم حد التحدى إلى أن طلبوا من الرسول ﷺ أن يظهر لهم بعض الآيات الحسية العجيبة لكن الله سبحانه وتعالى يعلم جدلهم ومكابرتهم فيأمر رسوله بأن يجيبهم ويقول له :

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾(٤)

---

(١) الأنبياء آية ٥ .
(٢) الرعد آية ٤٣ .
(٣) النحل آية ١٠٣ .
(٤) الإسراء آية ٩٣ .

إن المتتبع للجدل فى مسألة إثبات النبوة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ينتهى إلى وضوح بين بالرسالة وإمكانها وإثباتها .

هذا والجدل القرآنى فيه سائر فروع العقيدة حيث جرى نقاش حولها بين النبي والناس ولكنا نكتفى هنا بما ذكرنا فى إثبات أساس الدعوة .

والجدل — **ثالثاً** — يعرف بالناس ويبين طبائعهم . واتجاهاتهم ، فإليهم توجه الدعوة ، والعلم بأحوالهم ضرورة للداعية ، ليتمكن من الأخذ بيد مدعويه على وجه لائق ومناسب .

ومن هذه الأمور التى عرفها الجدل ما يلى :

(ا) خصائص اليهود :

اليهود هم أبناء يعقوب عليه السلام ، وهم المنتسبون إلى دين موسى عليه السلام ، وقد انطووا على أنفسهم دائماً ، وعاشوا بمعزل عن أى مجتمع عاشوا فيه ، وجاء الإسلام إليهم فوقفوا منه موقف عداء تام ، حيث حاجوا النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً واعترضوا على كل ناحية دعاهم إليها ، وبتتبعنا لبعض آيات الجدل فى القرآن نلمح خصائصهم الطبيعية التى استمرت معهم . وانتقلت من جيل إلى جيل . وأهم هذه الخصائص ما يلى :

١ — العنصرية فى الجنس :

يؤمن اليهود أنهم من سلالة جنس فاضل عظيم يفوق بعظمته سائر البشر وأنهم رزقوا عبقرية لا نظير لها . جاء فى البروتوكول الخامس : « إننا نقرأ فى الناموس أن الله قد اختارنا لحكم الأرض وقد وهبنا الله العبقرية لنقوم بهذا العمل . وإذا ما وجد عبقرى فى صفوف الأعداء فقد يكون فى وسعه مقاتلتنا . ولكن أنى لعبقرية جديدة أن تقف فى وجه المخضرمين من أمثالنا . وسوف يتخذ القتال صورة من اليأس لم يشهد لها العالم مثيلا . . لقد انقضى الوقت الذى تقوم فيه لغير اليهود عبقرية » (١) ولقد اطلقوا على أنفسهم

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون ص ٤٧ و ٤٨ .

« شعب الله المختار » وهى فى الحقيقة عنصرية زائفة لاتستند على شئ من الحقائق لأن الحقائق فى وضوحها كما يقول تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١)

«واليهود كغيرهم من الأمم جاءهم رسول . ونزل لهم كتاب ولكنهم مع الأيام اكتسبوا بعض الأوهام وألبسوها ثوب الدين ونسبوها إلى الله وزعموا أنه جاء فى سفر يشوع أن يشوع أخذ كل الأرض على حسب ما وعد الرب موسى وأعطاها يشوع ميراثاً لبنى إسرائيل على حسب أقسامهم وأسباطهم واستراحت الأرض من الحرب » (٢) .

والقرآن الكريم فى جدله يوضح هذه الحقيقة ويدفعها بموضوعية . يقول تعالى :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾(٣)

يذكر ابن عباس أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم عثمان بن آصار وبحرى بن عمروشاس بن عدى فكلموه وكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته فقالوا : « ما تخوفنا يامحمد ونحن أبناء الله وأحباؤه » (٤) فنزلت الآية . وادعاؤهم هذا باطل ولذلك أمر الله رسوله أن يرد عليهم فقال له:﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾(٥) «أى إن صح ما زعمتم فلأى شئ يعذبكم فى الدنيا بالقتل والأسر والمسخ وقد اعترفتم بأنه تعالى سيعذبكم فى الآخرة بالنار أياماً بعدد أيام عبادتكم العجل

---

(١) الحجرات آية ١٣ .

(٢) سفر يشوع : انظر الإصحاحات ١٣ — ٢١ وفيها بيان تقسيم الأرض على عشائر بنى إسرائيل .

(٣) سورة المائدة آية ١٨ .

(٤) لباب التأويل ج ١ ص ٤٩٣ .

(٥) سورة المائدة آية ١٨ .

وإن كان الأمر كما زعمتم لما صدر عنكم ما صدر ولما وقع عليكم ما وقع » (١) والحقيقة المؤكدة أن اليهود بشر كسائر البشر يغفر الله لهم أو يعذبهم إن شاء .

ومن هذه العنصرية كذبوا ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾(٢) وكانت أحلامهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم وأن يردوهم كفاراً وأن لا يدخل الجنة غيرهم وكانت تلك أمانيهم لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لهم : ﴿ **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾(٣) أى هلموا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة .

وكان اليهود يعتقدون أنهم لن يعذبوا فى النار إلا أربعين يوماً بعدد أيام عبادتهم العجل ﴿ **وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة** ﴾(٤) وكان الجواب على هذا الافتراء من الله حيث قال لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ **قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون** ﴾(٥) وبالطبع ليس لهم برهان على ادعاء دخول الجنة وليس معهم عهد من الله بعدم العذاب إلا أياماً ولذلك كان الرد عليهم إفحاماً لهم ،ويبقى الواقع المجرد وهو الاعتماد على الإيمان والعمل ولا شئ سوى ذلك . وما ادعوه من عنصرية فهو من أكاذيبهم التى درجوا عليها تزكية لأنفسهم وفخراً بجنسهم . واليهود حديثاً هم اليهود فى غرورهم وعنصريتهم وتعاليهم خاصة مع العرب .

ولأمر ما ذكر الله رأيهم فى العرب وبينه من واقع حديثهم حيث أنهم قالوا ﴿ **ليس علينا فى الأميين سبيل** ﴾ (٦) . «والأميون المذكورون هم العرب يسمون بهذا الاسم فى مقابلة أهل الكتاب » (٧) . ويتصور اليهود أن العرب ليس لهم قدرة على المطالبة بحقوقهم لأنهم عبيد لليهود وخدم . هكذا يتصورون العرب الأميين ولا يؤمنون بسواه .

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ١٦ .
(٢) البقرة آية ١١١ . (٣) البقرة آية ١١١ .
(٤) البقرة آية ٨٠ . (٥) البقرة آية ٨٠ .
(٦) سورة آل عمران آية ٧٥ . (٧) الملل والنحل جـ ١ ص ١٨٩ .

ومع هذا الغرور العنصرى أشار القرآن إلى ملمح خطير قد يكون مفتاح هذا التعالى . وهو إحساس اليهود باحتقار الناس لهم وشكهم فى هذا الأمر دائماً ، وهذه القضية تأتى فى وضعها الطبيعى . لأن الشعور بالنقص يدفع صاحبه إلى إبراز ما ليس فيه،وتقمص صور خارجة عنه . يشير إلى ذلك قوله تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾(١)

فموسى عليه السلام يبلغهم أمراً من تعاليم الله لكنهم يردون عليه من عقدة النقص فيهم . ومن إحساسهم بأن الناس يسخرون منهم فيسألون موسى اتتخذنا هزءا وسخرية بما تأمرنا به ، لكنه عليه السلام يرد عليهم بأن إحساسهم هذا يجب أن ينتفى — لأن الهزء فى تبليغ أمر الله جهل وسفه لايليق برسول .

إن العنصرية اليهودية ثابتة فى نفوسهم ومستكنة فى غرائزهم . وقد اشتهروا بها حتى صارت خاصة من خواصهم .

٢ — اعتقاداتهم مادية :

يميل اليهود دائماً إلى التجسيد فى عقائدهم . ويربطون إيمانهم بالمادة طبيعتهم . وينظرون إلى الله نظرتهم إلى الملموس ، ويصفونه بأوصاف لا تليق إلا بالحوادث ، تقول توراتهم « وسمعا — أى آدم وحواء — صوت الرب الإله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة» (٢) هكذا تقول التوراة إن الله يمشى ويظهر بوجهه ويختبىء آدم ومعه حواء من وجه الله ومقابلته ، وتقول أيضاً : « دخل بنو الله على بنات الناس وولدت لهم أولاداً . هؤلاء هم الجبابرة . ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض وأن كل تصور أفكاره

---

(١) سورة البقرة آية ٦٧ .

(٢) سفر التكوين . الإصحاح الثالث فقرة ٨ .

هو شرير كل يوم . فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف فى قلبه » (١) فتشير بذلك إلى لحوق الحزن والندم والأسف بالرب . وما نشأ ذلك إلا من إيمانهم المادى ، وعقيدتهم التجسيدية .

ونظرة اليهود إلى الرسل هى الأخرى امتداد لماديتهم ، حيث يلحقون بهم النقص والسوء .

تقول التوراة عن لوط عليه السلام : « وصعد لوط من صوغر وسكن فى الجبل وابنتاه معه . لأنه خاف أن يسكن فى صوغر . فسكن فى المغارة هو وابنتاه . وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض . هلم نسقى أبانا خمراً ونضطجع معه . فنجيء من أبينا نسلا . فسقتا أباهما خمراً فى تلك الليلة . ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها . ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغيرة إنى اضطجعت البارحة مع أبى . نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلى أنت معه فنجيء من أبينا نسلا فسقتا أباهما خمراً فى تلك الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واضطجعت معه . ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها فحبلت أبنتا لوط من أبيهما . . . » (٢) .

وتذكر التوراة أن داود عليه السلام كان لا يأنس فى شيخوخته إلا إلى فتاة جميلة فتقول « وشاخ داود . تقدم فى الأيام . وكانوا يدثرونه بالثياب فلم يدفأ . فقال له عبيده ليفتشوا لسيدنا الملك على فتاة عذراء فتشوا على فتاة جميلة جداً . وجاءوا بها إلى داود » (٣) وتقول التوراة عن سليمان أنه « أحب نساء غريبة كثيرة . وكانت له سبعمائة من السيدات وثلاثمائة من السرارى . فأمال النساء قلبه وراء آلهة أخرى . ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه » (٤) ، وهكذا أنزل اليهود بالرسل صفات النقص والخسة وجردوهم من روحانية الوحى وعصمة الرسالة .

(١) سفر التكوين الإصحاح السادس فقرات ٤ و ٥ و ٦ .
(٢) سفر التكوين الإصحاح التاسع عشر فقرات ٣٠ — ٣٦ .
(٣) سفر الملوك الأول . الإصحاح الأول فقرات ١ — ٤ .
(٤) سفر الملوك الأول . الإصحاح الحادى عشر فقرات ١ — ٢ .

والجدل القرآنى يبين طبيعة اليهود هذه . ويعقب على فسادها ومن ذلك قوله .

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنْبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾(١)

روى أنه عليه السلام كتب مع أبى بكر رضى الله عنه إلى يهود بنى قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً . فقال فنحاص اليهودى : إن الله فقير حتى سألنا القرض (٢) . وذلك أنهم لا يجدون مانعاً من تشبيه الإلٓه بالمجسمات .

وقد رد الله على قولهم وذكر أنه جريمة تضاف إلى جرائمهم الأخرى وسوف يعذبون عليها .

ومن هذا الجدل قول الله تعالى :

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾

فهم لغلوهم فى التشبيه والتجسيد لا يستبعدون أن يكون لله ولداً هو عزير ، ويرد عليهم هذا الزعم فيقول تعالى ﴿ **ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم اللّه أنى يؤفكون**﴾(٣) لأنهم بقولهم كاذبون ويشبهون الكفرة تماماً .

وكان لتأصل العقيدة المادية فى اليهود أن قالوا لموسى عليه السلام حينما رأوا قوماً يعبدون أصناماً . « **اجعل لنا إلها كمالهم آلهة** » . فهم جادلوا موسى فى شأن الأصنام وأرادوا العودة إليها . فبين لهم جهلهم وبطلان

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨١ . (٢) مفاتيح الغيب جـ ٣ ص ١٥٩ .

(٣) سورة التوبة آية ٣٠ .

ما عليه المشركون ، ولا تفسير لهذا الجهل من اليهود إلا بسبب ماديتهم وبعدهم عن الروح ، وما خديعتهم السريعة بعجل السامرى إلا من هذا الطريق.

ويبين الجدل القرآنى كذلك نظرة اليهود إلى الرسل حيث استهزءوا بموسى وقالوا له ﴿ **لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** ﴾(١) وقالوا ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾(٢) ، ولما طلب منهم هارون أن يتركوا عبادة العجل ﴿ **قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى** ﴾(٣) . وهكذا قامت مجادلتهم على الهزء والسخرية وعدم المبالاة كشأنهم مع الرسل

واليهود حديثاً هم كما صورتهم الكتب المقدسة فى القديم . كلهم أعداء للعقائد الصحيحة وخطر على الأديان ، وسوء على الجنس البشرى كله ، يريدون أن يفرضوا آراءهم الضالة على الناس فهم يحرفون التوراة على هواهم وينكرون أن يأتى عليها النسخ محافظة على ماديتهم التى بثوها فيها . يقول الشهرستانى : واليهود تدعى أن الشريعة لا تكون إلا واحدة . وهى ابتدأت بموسى عليه السلام وتمت به فلم تكن قبله شريعة إلا حدود عقلية وأحكام مصلحية ولم يجروا النسخ أصلا . قالوا : فلا يكون بعد شريعة أصلا (٤) .

واليهود ينظرون إلى محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن نظرة سيئة تنبىء عن طبيعتهم يقول السموءل المغربى من أعاظم أحبار اليهود الذين أسلموا : « **وأما الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فله فيما بينهم اسمان فقط . أحدهما « فاسور » وتفسيره الساقط . والثانى « موشكاع » وتأويله المجنون ، وأما القرآن العظيم فانه يسمى فيما بينهم « قالون » وهو اسم للسوأة بلسانهم يعنون** بذلك أنه عورة المسلمين وسوأتهم » (٥) ، وجاء فى البروتوكول الرابع عشر

---

(١) سورة البقرة آية ٥٥ .

(٢) سورة المائدة آية ٢٤ .

(٣) سورة طه آية ٩١ .

(٤) الملل والنحل جـ ١ ص ١٩٢ و ١٩٣ .

(٥) بذل المجهود فى إفحام اليهود ص ٧ .

« عندما نصبح أسياد الأرض لا تسمح بقيام دين غير ديننا ، ومن أجل ذلك يجب علينا إزالة العقائد (١) كل العقائد .

وهكذا عقيدة اليهود دائماً ترتبط بالمادة فى كافة جوانبها .

٣ — أخلاق اليهــود :

يعتبر الاتجاه المادى الأساس الرئيسى فى أخلاق اليهود . وهو اتجاه يقوم على الأنانية مصدر كل داء. فهى مصدر الخصومات والأحقاد. وهى أصل الاستغلال والاحتكار . وهى أساس العبث والانهماك فى الرفاهية والترف . وهى الدافعة إلى القتل وإشاعة الفحشاء والمنكر واستحلال الربا .

الجدل القرآنى يبين هذه الحقيقة فى أخلاق اليهود « لأنهم»

﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(٢)

وهم جبناء فقد قالوا لموسى حينما دعاهم للحرب :

﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾(٣)

وقالوا لطالوت :

﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾(٤)

وعلى هذا النمط تمتد سائر أخلاق اليهود .

ويبدو أن السبب فى مادية اليهود السائدة فيهم هو أنهم لا يقرون بالروح أساساً حيث يرون أن الإنسان جسد فقط . يقول رينان : « ولو كان الشعب الإسرائيلى يعرف التعاليم اليونانية التى كان من مقتضاها اعتبار الإنسان عنصرين مستقلين . أحدهما الروح ، والآخر الجسد . وأنه إذا تعذبت الروح فى هذه الدنيا فإنها تستريح فى الحياة الثانية ، لو كان يعرف ذلك

---

(١) بروتوكول حكماء صهيون ص ٧٨ .

(٢) آل عمران آية ٧٨ .   (٣) سورة المائدة آية ٢٤ .

(٤) سورة البقرة من آية ٢٤٩ .

لسرى عنه شىء كثير من عذاب النفس واضطراب الفكر بسبب ذله وخضوعه مع ما كان يراه فى نفسه من الامتياز الأدبى والدينى عند الشعوب التى كانت تذله » (١) .

إن قصور اليهود عن فهم الإنسان هو الذى دفعهم إلى الإيغال فى المادية . ولعل ذلك بعض السبب فى خلق عيسى عليه السلام بنفخة من روح الله تذكيراً لليهود بالروح التى أنكروها ، ودعوة لهم كى يصححوا خطأهم . ويفهموا الإنسان على حقيقته .

إن إحاطة الداعية بخصائص اليهود تجعله يوجه الدعوة لهم بما يناسبهم ويسوق لهم أقوالا تلائمهم ، وقد ضرب القرآن الكريم وهو يحكى أسلوب دعوتهم نوعاً من هذه الملائمة . فنراه يذكرهم بالمزايا الراقية التى وضعها الله لهم حيث أعطاهم الكتاب والحكم والنبوة ورزقهم طيبات كثيرة وجعلهم أفضل الخلق فى عصرهم يقول تعالى حاكياً أسلوب دعوة اليهود .

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ (٢)

وهذه الآيات تخاطب اليهود بيا بنى إسرائيل أحب الأسماء إليهم وتبين لهم نعم الله عليهم ، وتطالبهم بأن يوفوا عهودهم ويؤمنوا بالقرآن المصدق للتوراة وأن يتركوا المادية ويخافوا الله وحده .

ومن المعلوم أن كون القرآن مصدقاً للتوراة يرفع الإحساس بالنقص من فكر اليهودى وهو يسمع القرآن الذى يقدس التوراة ويبين أنها تحوى هدى ونوراً كهدفه تماماً ، ولذلك جاءت الإشارة إلى الوحدة بين القرآن والتوراة مبكرة فى العهد المكى .

---

(١) محاضرات فى النصرانية ص ١٦ . (٢) البقرة آية ٤٠ و ٤١ .

ومن مراعاة القرآن لخصائص اليهود نجده يقدر علماءهم الذين هم قادة القوم وسادتهم . يقول تعالى ﴿ **فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين** ﴾ والخطاب فى الآية وإن كان موجهاً للنبى صلى الله عليه وسلم فهو من الحقيقة موجه للسامعين كعادة الأسلوب القرآنى فى كثير من مواضعه ، وبذلك يخاطب الله المؤمنين ويطالبهم أن يقدروا علماء اليهود ويسألوهم عن حقيقة القرآن المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن هذه المراعاة تنويه القرآن بموسى عليه السلام وببنى إسرائيل جميعاً وبتوراتهم فيقول : ﴿ **ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب هدى وذكرى لأولى الألباب** ﴾(١) .

ومع كل هذه المراعاة لغرور اليهود وعنصريتهم يحاول القرآن أن يغير أخطاءهم ويصحح عقائدهم على صورة التساؤل فيقول تعالى ﴿ **يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون** ﴾(٢) . ثم يأخذهم إلى الحق من منطق التساؤل فيقول لهم ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾(٣) . يقول الرازى إن هذه الآية تتضمن منهاجاً يشهد كل عقل سليم وطبع مستقيم إنه كلام مبنى على الإنصاف وترك الجدال » (٤) .

والقرآن يعلم المسلمين أن يعلنوا أنهم مع تمسكهم بالإسلام يؤمنون باليهودية لكى تتولد عند اليهود رغبة فى أن يؤمنوا بالإسلام . يقول تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ

---

(١) غافر آيات ٥٣ و ٥٤ .

(٢) آل عمران آية ٧٠

(٣) آل عمران آية ٦٤ .

(٤) مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ٧٠٤ .

ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾(١) .

ويتمشى القرآن مع فكر اليهود ويسلم لهم بظنهم فى أنفسهم تمهيداً لأخذهم إلى الإيمان . يقول تعالى: **﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾**(٢) . ذلك أن قضية المودة مع الله وكونهم أبناءه . وهو وليهم وحدهم تقتضى حب الإسراع إليه . والموت من أجل لقائه . فطالبهم القرآن أن يتمنوا الموت دليلا على صدق زعمهم . لكنهم لا يحبون لقاء الله ويكرهون الموت . يقول تعالى:
﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ ﴾(٣)

ونجمل مراعاة القرآن لليهود فى دعوته لهم فيما يلى :

١ — احترام جنسهم وبيان النعم التى أعطاها الله لهم .

٢ — بيان وحدة الكتب المقدسة ووحدة الدين .

٣ — تقدير علماء بنى إسرائيل وكتابهم وجنسهم .

٤ — إشعارهم بالمساواة التامة بسائر الناس ومخاطبتهم من أساس فكرهم عن أنفسهم :

ويلاحظ أنها مراعاة تتعادل مع عنصريتهم وماديتهم وأخلاقهم ليسهل بعد ذلك تصحيح عقيدتهم ودخولهم فى دين الله تعالى .

(ب) خصائص النفـــاق :

النفاق ليس خاصية جنس بشرى معين . وإنما هو صفة أخلاقية تتجمع حولها النفوس الضعيفة والعقول الشاذة من سائر الأجناس ، وبتجمعهم على هذه الصفة توجد طائفة المنافقين متميزة بخصائصها ، وأهم صفاتهم النفعية القاصرة على الكسب السريع من غير تفرقة بين حق وباطل .

---

(١) العنكبوت آية ٤٦ . (٢) الجمعة آية ٦ . (٣) الجمعة آية ٧ .

إن النفاق خطر على الدعوة لأنه ليس كفراً صريحاً يلازمه النصح والحذر أو إيماناً خالصاً يعايشه الثقة والأمل . وأيضاً فإن المنافقين مذبذبون متلونون مخادعون فى قولهم ومظهرهم ، وهم أعداء الإسلام لأن العدو الخفى أقسى وأخطر من العدو الجلى الظاهر .

وقد بين الجدل القرآنى بعض خصائص المنافقين فذكر أنهم :

(١) مع كفرهم يدعون الإيمان . فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾(١)

وهذه الآيات تتضمن جدلا قرآنياً يشير إلى مجموعة من الحقائق عن المنافقين فهم يظنون أنفسهم قادرين على الخداع والتضليل ، وهم يعتدون على الناس حيث يستهزئون بالرسل والمؤمنين ويسمونهم السفهاء لأنهم يقولون : ﴿ **أنؤمن كما آمن السفهاء** ﴾ ﴿ **وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون** ﴾ وهم أصحاب علة فى فطرتهم . وداء فى قلوبهم . لأنه ﴿ **فى قلوبهم مرض** ﴾ والمرض يزداد بعصيانهم ﴿ **فزادهم الله مرضاً** ﴾ وهم لايشعرون بالواقع الحقيقى ولايعلمون نتائج الأمور .

(١) سورة البقرة آية ٨ — ١٤ .

(ب) وذكر الجدل كذلك أن المنافقين يسخرون فيما بينهم بالإسلام ورسوله ويتربصون بهم الدوائر . ، يبين الله ذلك فيقول : ﴿ **ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم**﴾(١) . والآية قد احتوت حكاية قول ساخر لهم إزاء النبي صلى الله عليه وسلم فى نقدهم له . وقولهم عنه أنه سماع لكل ما ينقل له مصدق لكل ما يسمع ، كما أن فيها تنبيهاً إلى أن هذا القول منهم كان يؤذى النبي ﷺ ولشدة إيمان المنافقين بهذا القول كانوا إذا حذر بعضهم من وصول الخبر إلى الرسول . ردوا عليهم بأن محمداً إذن سهل الاقتناع نحلف له فيصدق (٢) . لكن الله سبحانه وتعالى علم رسوله أن يرد عليهم وقال له ﴿ **قل أذن خير لكم**﴾ أى هو إذن فى الحق والخير وفيما يجب سماعه وقبوله . وليس بإذن فى غير ذلك » (٣) .

ويقول تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾(٤) والآية تمثل صورة استخفاف منهم بالقرآن وكلام الرسول . فهم يستمعون للرسول صلى الله عليه وسلم ويدعون أن كلامه لا يعنى شيئاً فيسألون بعد خروجهم من مجلس النبي ﷺ قائلين « ماذا قال آنفاً » ؟ ولا عجب من موقفهم فهم الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم .

(جـ) وذكر الجدل القرآنى أن المنافقين يعيشون بأخلاق فاسدة . فهم كاذبون يقول تعالى :

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾(٥)

فرغم شهادتهم المطابقة للحقيقة فهم كاذبون . إلا أن أهليتهم للصدق فى حد ذاته منعدمة . ولذلك رد الله قولهم وشهد عليهم أنهم كاذبون لا يتفق ظاهرهم مع باطنهم .

---

(١) سورة التوبة آية ٦١ . (٢) سيرة الرسول لدروزه جـ ٢ ص ٢٠ و ٢١.

(٣) تفسير النسفى جـ٢ ص ١٣٢ . (٤) محمد آية ١٦ .

(٥) المنافقون آية ١ .

ولم يقتصر كذبهم على المؤمنين . وإنما هم كاذبون على غير المؤمنين . يقول تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾(١) ذلك أن قولهم هذا للكافرين تغرير وإفساد . وحقيقتهم هى كما بينها الله تعالى :

«والمنافقون جبناء ضعفاء . وإن بدوا بثوب يغاير ذلك فهم بظاهرهم محل عجب واستحسان جبناء يتصورون أى صيحة . مهما كانت واقعة عليهم ضارة بهم لجبنهم واستقرار الرعب بهم » (٢) .

وهكذا بين الجدل حقيقة النفاق وأصحابه . ليكون الداعية على حذر من مسلكهم مراعياً حقيقتهم حين دعوتهم .

وعلى نمط ما سبق عرف الجدل القرآنى بعض حقائق البشر .

والجدل — رابعاً — أسلوب حكيم يناسب كافة الطوائف الإنسانية . لأنه يسوق حججه اقناعية فى بعض الأحيان لتكون موعظة حسنة تثير الانفعال وتهيج النفس وتدفع إلى الإيمان بما تدعو إليه ، وفى هذه الحالة يتلاءم الجدل مع العامة والجمهور الغالب من الناس حيث يسلم بأفكارهم . وينتقل من فكرة معارضة إلى سواها حتى يصل إلى التصديق .

وفى أحيان أخرى تكون حجة الجدل قطعية يقينية . كقوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(٣) . وفى هذه الآية جدل يعرف « بالتسليم » حيث أن فكرتها تقوم على تسليم دعوى الخصم . وبعد ذلك تبرز التناقض الحتمى لتحقق هذه الدعوى ، والآية قطعية فى دلالتها . يقول التفتازانى : « الظاهر من الآية نفى تعدد الصانع المؤثر فى السموات والأرض . فالملازمة قطعية » (٤) ويقول الخيال : « والتحقيق فى أن الآية حجة قطعية

---

(١) الحشر آية ١١ .
(٢) تفسير أبى السعود جـ ٥ ص ١٦٥ .
(٣) الأنبياء آية ٢٢ .
(٤) شرح التفتازانى ص ٢٢٦ .

أو إقناعية أنه إن حملت الآية على تعدد الصانع مطلقاً سواء كان مؤثراً بالفعل أو لا فهى حجة إقناعية لا تفيد القطع . لكن الظاهر من منطوق الآية نفى تعدد الصانع المؤثر فى السماء والأرض فإنه ليس المراد بالظرفية المعنى الحقيقى . أعنى التمكن . لأن الله منزه عن التمكن فى مكان فيكون المراد التأثير والتصرف فيهما . والمعنى أنه لو كان المؤثر فيهما آلهة لفسدتا أى لم تتكونا ، فالحق حينئذ أن الملازمة قطعية والآية حجة قطعية » (١) .

وعلى الجملة فإن الجدل فى نقاشه يعتمد على أقيسة كثيرة . فإن كانت الأقيسة من أقسام البرهان المسلم به كانت الحجة قطعية إلزامية . وإن لم تكن كذلك كانت الحجة إقناعية خطابية .

وهكذا فإن الجدل مع كونه جدلا حسناً يتضمن الحكمة والموعظة الحسنة

والجدل القرآنى — **خامساً** — يساير الواقع البشرى شأن القرآن كله .

وهو فى جملته خطاب بين الرسول والبشر . ورواية عن مناقشات سابقة ، والإنسان هو الإنسان فى كل عصر وزمان . ولذلك جعل الله جدل القرآن فطرياً ومنتزعاً من قضايا الواقع . حتى يكون فى مقدور الخاصة والعامة من الناس .

وقد رأينا كيف زامل الجدل الداعية والدعوة والناس هادفاً إلى الحق . قاصداً الرسول إلى السعادة والسلام .

وأخيراً فإن الجدل القرآنى يؤدى دوره بتأثير رائع معجز . وفنية عجيبة على ما سوف نذكره إن شاء الله تعالى :

---

(١) حاشية الخيالى ص ٢٢٦ .

فنية الجدل فى إبلاغ الدعوة :

الجدل القرآنى كوسيلة من وسائل الدعوة قام ويقوم بدوره على وجه كامل وذلك على النحو التالى :

١ — الإقنـــاع العقلى المجرد :

خاطب الجدل العقل ، وناقش الخصوم مناقشة تعتمد على كثير من المسلمات حتى يقطعوا بصحة المدعى أمامهم . وكأن الجدل فى هذا المعنى يستنتج النتائج الصحيحة بعد ذكره للمقدمات الصادقة . ذكر السيوطى أن الإسلاميين من علماء الكلام استنتجوا من أول سورة الحج إلى قوله تعالى :« وأن الله يبعث من فى القبور » خمس نتائج وعشر مقدمات لهـــا ، أما النتائج فقد احتواها قوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧ ﴾(١)

«وأما المقدمات العشر فهى سهلة الإيراد . وذلك أن الله أخبر عن يوم القيامة وزلزلة الساعة . وذلك حق منقول إلينا بالتواتر . ولا يخبر بالحق عما سيكون إلا الحق فالله هو الحق ، وأخبر سبحانه وتعالى عن أهوال الساعة وعن قدرته الشاملة . ولابد للساعة من إحياء الموتى فالله القادر يحيي الموتى ، وأخبر سبحانه أنه سيعاقب المعاندين وسيثيب الطائعين ، ولا يستطيع ذلك إلا القادر على كل شىء . فالله على كل شىء قدير ، وأخبر عن الساعة وخلق الإنسان من تراب . وأماته بعد ذلك . وخلق الأرض وصدق خبره فى كل ذلك بدلالة الواقع المشاهد . ومن صدق خبره فى ذلك صدق فى أخباره عن مجىء الساعة . فصدق أن الساعة آتية لا ريب فيها . ولا تأتى الساعة إلا ببعث من فى القبور فثبت أن الله يبعث من فى القبور » (٢) .

---

(١) سورة الحج آية ٦ ، ٧ .

(٢) الإتقان جـ ٢ ص ١٣٥ ، ١٣٦ بتصرف .

وهكذا نجد النتائج أمام العقل ثابتة صادقة ، وهى نتائج ذات تأثير نفسى بالغ فهى لا تقف عند شكلية القياس ، بل تجعل المجادل كلما وصل إلى نتيجة ازداد إيماناً وتصديقاً . حيث تشتمل النتائج على إبراز حقيقة الألوهية . وقدرة الله . وتخبر عن إحياء الموتى وبعثهم فى يوم الساعة الآتية بلا ريب . وتتحدث عن ضرورة الحساب على الأعمال .

إن الجدل القرآنى ليس من الجدل المضيع للوقت بلا فائدة لكنه جدل يثمر إيماناً وطاعة .

ومن أجل الوصول بالعقل إلى اقتناع كامل بالشىء الذى هو محل الجدل رأينا الجدل يأتى بالأمر المتناقش فيه . ويحلله إلى منتهى أقسامه . ويرد كل قسم على حدة . لينتهى أخيراً إلى الرأى الحق وذلك كقوله تعالى :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾(١)

فترى هذه الآية تقسم الرأى فى موسى عقلياً لأنه إما أن يكون كاذباً وإما أن يكون صادقاً . فإن كان كاذباً فكذبه عليه ولا يتعداه . وإن كان صادقاً فاتباعه نفع وفوز ونجاة ، والتقسيم يؤدى فى النهاية إلى عدم التعرض لموسى عليـــه السلام وعدم محاولة قتله .

ومن هذا النوع قوله تعالى : ﴿ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ

(١) غافر آية ٢٨ .

وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾(١)

وقد رد الله فى هذه الآيات على اليهود تحريمهم لذكور الأزواج المذكورة تارة . وتحريمهم لإناثها تارة ثانية . وتحريمهم لما فى أرحام الإناث حسبما اتفق تارة ثالثة . فجادلهم الله فى رده بطريق « السبر والتقسيم » فبين أنه خلق من كل زوج مما ذكر ذكراً وأنثى . وسألهم عن سبب التحريم وعلته . لأن العلة إما أن تكون بسبب الذكورة أو بسبب الأنوثة أو بسبب الذكورة والأنوثة معاً . أو بسبب خارج عن حدود مصدر الشىء المحرم كأن ينزل به وحى من الله . وتلك هى أسباب التحريم كلها . ولا يعقل سبب سواها . ويترتب على هذه الأسباب أن يحرم الذكورة جميعاً إن كانت العلة هى الذكورة ، أو يحرم الإناث جميعاً إن كانت العلة هى الأنوثة ، أو يحرم الذكور والإناث إن كانت العلة هى الذكور والأنوثة معاً . أو يحرم ما فصله الوحى إن كان هو السبب لكن السيب المشاهد أن اليهود يحرمون على هواهم فيحرمون هذا تارة.وذاك تارة أخرى،ويحللون الشىء بعد تحريمه، وقد حصر الله علة التحريم الممكنة وسألهم عن تحديدها إن وجدت وبذلك أبطل فعلهم وأثبت أن ما قالوه ضلال وكذب .

وهكذا بـ« السبر والتقسيم » ينزاح الشك . وتستريح النفس . ويتبقى العقل المجرد والفكر السليم » (٢) .

٢ — مراعاة الطبائع النفسية :

يعتز الإنسان برأيه وبفكرته . وإن كانت خاطئة . والمعاندون أكثر الناس تشدداً فى هذا المجال . والجدل يراعى هذه الناحية فى مناقشاته . حيث

---

(١) الأنعام آيات ١٤٣ ، ١٤٤ . (٢) الإتقان جـ ٢ ص ١٣٦ بتصرف .

نرى فى طرق الجدل ما عرف بطريقة « مجاراة الخصم » ومحمل هذه الطريقة أن يسلم المجادل ببعض مقدمات الخصم للإشارة إلى أن هذه المقدمات لا تنتج ما يريد أن يستنتجه . وإنما هى بعيدة عنه . ومن أمثلة هذه الطريقة قوله تعالى :

﴿ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾(١)

فدعوى الخصم أن الرسل بشر والبشر لا يستطيعون أن يتلقوا وحى الله . وهم بدعوى الرسالة يريدون صد أقوامهم عن عبادة الآباء والأسلاف . وبملاحظة رد الرسل عليهم نرى التسليم للخصوم بأنهم بشر ويذكرون أن البشرية لا تتنافى أن يمن الله بالرسالة على من يشاء من البشر .

وفى هذا النوع من الجدل استدراج للخصم واستجلاب لإصغائه . وربما كان من الممكن بهذه الطريقة ثنيه عن الإنكار بعد بيان فساد العلاقة بين القضية المسلمة والنتيجة التى رتبت خطأ عليها . يقول الشهرستانى : « وأعلم أن الموافقة فى العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح المناهج » (٢) .

وفى « مجاراة الخصم » تقدير للفكر وللعقل السليم عن طريق تقدير قوله الصادق وعقله المكين .

ومن طرق الجدل التى تساير الطبائع الإنسانية وترضى الغرائز البشرية ما عرف بـ « قياس الخلف » وهو جدل يثبت الأمر بإبطال نقيضه . ومثاله قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ۝ ﴾(٣)

فقد أثبت قول الله هذا أن القرآن من عند الله تعالى بإبطال أنه

---

(١) ابراهيم آية ١٠ ، ١١ .

(٢) الملل والنحل جـ ٢ ص ٥٦ .

(٣) سورة النساء آية ٨٢ .

من عند غير الله . لأنه خلا من الاختلاف اللازم له لو كان من عند غير الله .

ومن الطرق التى تراعى هذه الطبائع . ما نلمسه من بعض صور الجدل التى تتجه إلى مناصحة المدعو . وإرشاده . والأخذ بيده إلى الصواب . وتوجيه نظره إلى ما حوله ليأخذ منه الفائدة . وهذه الصور تراعى الجدل فى ثناياها وترد عليها فى إجمال وتدليل ومن أمثاله قوله تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ① عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ② خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ③ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ④ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ⑤ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑥ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ⑦ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ⑧ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ⑨ ﴾

فقد لاحظت هذه الآيات قول الخصوم من غير أن توردها وردت عليها فى إيجاز ودليل ملموس . وبذلك تأخذ بيد المستمع إلى الحق عن طريق وضع الأدلة السهلة الواضحة .

ومن الطرق التى راعت طبائع الناس مجاملة الخصوم وعدم الرد المباشر على دعاويهم مع عدم التسليم بها . كقوله تعالى :﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(١) ، وكقوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾(٢) وذلك لأن المجاملة أدعى إلى الطاعة وأقوى فى التأثير .

٣ — ملاحظة التنوع البشرى :

يختلف الناس فى مجادلاتهم فمنهم المجادل العنيد ومنهم المناقش السهل ، ولقد راعى الجدل هذه الاختلافات . فمع العناد يلجأ إلى إفحام الخصم وإلزامه . ثم يأخذ بيده إلى الحقيقة . ويبينها له فى وضوح ، فلقد كان المعاندون يطلبون فى إصرار أن يكون الرسول ملكاً لإزالة اللبس من إرسال البشر فرد الله إصرارهم فى وضوح وإيجاز وعرفهم أنه لو أرسل ملكاً على صورته الملكية لهلك الناس من رؤيته . ولو جعله على صورة البشرية

---

(١) سبأ آية ٢٤ .

(٢) الزخرف آية ٨١ .

يعايشهم ويدعوهم فى بشريته هذه لبقى اللبس وطلبوا ملكاً آخر . وهكذا فى تسلسل لا ينتهى وهو محال نشأ من طلبهم المحال . وعليهم بعد ذلك أن يسلموا بالرسول البشر .

ومن أمثلة هذه المراعاة قوله تعالى :

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾(١)

وفى هذه الآية بيان لإنكار اليهود إنزال الوحى على بشر هو محمد بينما هم يؤمنون برسالة موسى عليه السلام . وقد رد الله عنادهم وأفحمهم بأخصر طريق بسؤالهم عن المسلمات عندهم هى من نوع ما ينكرون . ولذلك سألهم عن الكتاب الذى جاء به موسى عن من أنزله عليه ؟

وحينما يبدأ المعاند فى إنكار المسلمات بإلقاء شبهه عليها . نجد القرآن الكريم لأن قصده الحق يأتى بطريقة تعرف « الانتقال » حيث يترك ما ألقيت عليه شبهة الخصم وينتقل إلى مالا شبهة فيه . وذلك كقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(٢)

فإن النمرود قد جادل فى الأمور المسلمة وادعى قدرته على الإحياء والإماتة ، وبرغم بطلان ادعائه ، فإن ابراهيم عليه السلام لا يناقشه فيه ، بل ينتقل إلى استدلال آخر لا يجد الملك فيه وجهاً يتخلص به منه فقال عليه السلام «إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب» . وفى هذا إفحام وإلزام للملك المعاند المكابر لأنه لا يظنه أن يقول:«أنا الآتى بالشمس من المشرق لأن من أسن منه يكذبه » (٣) .

(١) الأنعام آية ٩١ . (٢) البقرة آية ٢٥٨ . (٣) من بلاغة القرآن ص ٣٧٥ .

ومن هذا الانتقال قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾(١)

وفى هذه الآية إفحام للمنافق ورد لقوله الذى يزعم عزة المنافقين وذلة المؤمنين . إذ تثبت عزاً وذلا ولا تنكرهما لكنها تجعل العزة للمؤمنين والذلة للمنافقين ، وبعد ما تصحح المفهوم السليم يصدق قولهم ليخرجن الأعز منها الأذل .

أما إن كان الخصم سهلا ليناً فإن الجدل يلين معه فى المناقشة . ويرده إلى أمور مسلمة ابتداء . وذلك كقوله تعالى :

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾

فقد استدل سبحانه على بطلان أن يكون له ولد بأمر معروف مألوف لا يمارى فيه أحد. وهو أنه لو كان له ولد لكانت له صاحبة . ولم يدع أحد أنه له صاحبة فيجب أن لا يكون له ولد » (٢)

وأما إن كان الخصم من المكابرين . الذين لا يستفيدون مطلقاً . فإن الجدل يضع معهم حداً . حتى لا يخرج الجدل عن الحسنى التى أمر الله أن يتحلى بها جدل الدعوة وذلك كقوله تعالى للكافرين ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾(٣) فقد وضع هذا الجدل حداً للنقاش مع هؤلاء الكافرين المكابرين . يقول الإمام الخازن : « والمخاطبون بهذه السورة كفرة مخصوصون قد سبق فى علم الله أنهم لا يؤمنون » (٤) ولذلك أمر الله رسوله أن يترك الجدل معهم ويعرفهم أن له دينه ولهم دينهم والأمر لله بعد أن أوضح الحجة وألزمهم المحجة .

---

(١) المنافقون آية ٨ . (٢) تاريخ الجدل ص ٦٩ .

(٣) سورة الكافرون ٦. (٤) لباب التأويل ج ٤ ص ٤٦١ .

٤ — الترغيب والترهيب :

يراعى الجدل القرآنى هذا النوع فى الخطاب لأن الإنسان يحب الخير ويسعى إليه ويكره الألم وينفر منه ، ولهذا الغرض يسوق القرآن حواراً يجرى بين أهل الجنة وأهل النار. فيقول تعالى ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١) والوعد المسئول عنه أشياء جاءت على ألسنة الرسل تظهر فى الآخرة كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ، ومجرد اعتراف الكفار بوقوع الوعود به يثير وجدان الكافرين ويجعلهم يرهبون مصيرهم بسبب الكفر .. ويحاولون النجاة .

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٢) وهذه الآية تبين أن الجنة فوق النار . وأن ماءها العذب ورزقها اللذيذ كثير. فيه فيض وسعة . إلا أنه مع كثرته محرم على الكافرين الذين أهملوا الرسالات واتبعوا الهوى وجهلوا أن لهم هذا اليوم الموعود .

وهكذا يقدم الجدل القرآنى صوراً متعددة من مناقشة الخصوم مما جعله وسيلة ناجحة للدعوة تملك التأثير فى الناس وهدايتهم إلى الصواب .

---

(١) سورة الأعراف آية ٤٤ .

(٢) سورة الأعراف آية ٥٠ .

وبعـــد . . .

فإننا بعد دراسة القصة والقسم والأمثال والجدل فى القرآن الكريم نشير إلى أن هناك أساليب أخرى فى القرآن قامت بدورها كوسيلة للدعوة ، إلا أننا اكتفينا بدراسة هذه الأساليب الأربعة من القرآن الكريم لوضوح هدف الدراسة فيها . ولأنها تشمل الجزء الأكبر من القرآن الكريم .

وأخيراً نريد أن نعلق على الوسائل القرآنية مبرزين منها فى إيجاز بعض ما درسناه وذلك فى نقط ثلاث هى :

النقطة الأولى : شمول الوسائل لسائر الناس .

النقطة الثانية : مناسبتها لحقائق الناس .

النقطة الثالثة : سهولة تطبيقها فى العصر الحديث .

أما عن النقطة الأولى :

فإننا لاحظنا أن الوسائل شملت الناس أجمعين مهما تباعدوا واختلفوا ، فهى توجه حديثها إلى كافة البيئات زراعية أو تجارية أو غيرها . وتخاطب البدو والحضر . وساكن السهل وراكب البحر . وذلك لكل فريق بما يشاهده فى بيئته . من أرض وسماء وزرع وإبل وسفينة وصناعة . وهكذا تعيش الوسائل مع الناس وتخاطبهم بالطريقة المفهمة المقنعة . وتوجه نظرهم إلى الآيات المبثوثة من حولهم وفى بيئتهم .

وأيضاً فإن الوسائل وجهت حديثها لتصحيح كافة العقائد . فهى تخاطب الكافرين والمشركين وعبدة الكواكب والأصنام والأشخاص وتثبت لكل فريق فساد ما هم عليه وتدلهم على الحق الذى يجب أن يكون وهو الإيمان بالدعوة الإسلامية .

وعن النقطة الثانيـــة :

فإننا لاحظنا أن الوسائل تحيط بحقائق الناس . فهى تعلم روح الداعية وصلابته ، ومن أجل ذلك تمده بالصبر والتحمل وانتظار النصر وتحقيق الأمل

وهى تعرف غريزة التقليد والتمسك بالموروث وطبيعة الأغنياء والفقراء وحب الإنسان للمال واختلاف الناس وجحدهم لنعم الله . وتحيط بخصائص اليهود والمنافقين وهكذا .

والوسائل وهى تحيط الناس تأتى مناسبة لهم فتنوع خطاباتها من أجلهم ولذلك جاءت على شكل قصة أو جدل . ومن هنا قدمت الوسائل بحق تطبيقاً واقعياً صادقاً لقوله تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾(١) حيث كانت الحكمة للخاصة من الناس . والموعظة للجمهور والعامة . والمجادلة للمعاندين .

وقد رأينا النواحى الفنية فى الوسائل . ومدى تأثيرها المعجز . وتناسبها الكامل مع المدعوين .

والقرآن الكريم لأنه كتاب الدعوة ودستورها وطريقها راعى دائماً هذه المناسبة فكانت وسائله وفق ما أراد الله له ، بل إن هذه الوسائل قد غاير المكى منها المدنى مثيله حتى تكون دقة التناسب وافية . فى القرآن المكى نرى الاختلاف واضحاً بين أهداف سوره وأهداف السور المدنية . وذلك لأن أهل مكة كانوا على ضلال فى العقيدة . وكانوا أهل سيادة ورياسة ديدنهم العناد . وخلقهم الجفاء . وغريزتهم الجدل والجمود والكبرياء . ومن هنا لم تخرج موضوعات السور المكية عن بيان الفساد فى الشرك والكفر ورد المفتريات الباطلة التى يعتقدها أهل مكة . وبيان أصول الإسلام من عقيدة تؤمن بإله واحد . وتصدق بالرسول المبشر . وتسلم بالبعث والجزاء فى يوم القيامة ، ومحاولة نشر أخلاقيات جديدة تناسب العقيدة السليمة . ومن هنا انتشر فى الأسلوب المكى الإنذار والتخويف فى قصة أو قسم أو جدل أو مثل . . وأيضاً كثر فى السور المكية حديث التسلية للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه ، ودعوتهم إلى الصبر والتحمل .

أما أهل المدينة فكانوا طوائف من المسلمين واليهود والمنافقين . ومن

---

(١) النحل آية ١٢٥ .

هنا جاء القرآن المدنى يخاطب جميع هذه الطوائف ويجادلهم . ويشرع للمسلمين فى كافة الأحوال ويوجه المشركين إلى الخير ، ولذلك من أراد أن يعرف اليهود فعليه بسورة البقرة والنساء والمائدة وكلها مدنية ، ومن أراد دراسة النصارى ففى سورآل عمران والنساء والمائدة ومن أراد دراسة المنافقين فعليه بسور النساء والمنافقين والأحزاب .

والأسلوب المكى يغاير هو الآخر الأسلوب المدنى لأن المكى قصير الجمل . كثير التكرار والتأكيد ملىء بالقصص والأقسام . فيه مناسبة الفواصل ورنين السجع الكثير ،أما المدنى فقل أن تجد فيه شيئاً من هذا . يقول صاحب كتاب القرآن وعلم النفس « والعامل النفسى فى ذلك أن القوم فى مكة كانوا غير مستقرين . بل كانوا مطاردين قلقة نفوسهم . غير مستعدين لتشريع أو تفصيل والمشركون أيضاً كانوا منصرفين عن سماع القرآن متأثرة نفوسهم بأدبهم قريباً عهدهم بخطبهم المثيرة لوجدانهم . والتشريع يحتاج إلى هدوء ورزانة فى العقل وترو فى المنطق وتقبل للإرشاد ورغبة فى التطور والإصلاح وطاعة للأمر واستجابة للداعى . وكل هذه الحالات النفسية غير متوفرة فى الحياة المكية » ويقول : « إن الطول وعدم السجع فى القرآن المدنى أغلبى فقد يوجد فى بعض الآيات المكية طول أو قصر وأكثر ذلك فى السور الطويلة كسورة النحل . فطول الآيات وقصرها منوط بموضوعها حسبما تقتضيه البلاغة . فالسور والآيات التى يراد بها الوعظ والزجر يحسن فيها أن تكون أقصر من آيات الأحكام وهى تكثر فى القرآن المكى لأنه هو المناسب لحال المخاطبين من المشركين لجمودهم وعنادهم وطول باعهم فى البلاغة »(١) .

إن مراعاة المناسبة مع سائر المدعوين هى التى مكنت الوسائل من هدفها . وقد رأينا كيف أدت الوسائل دورها فى فنية مؤثرة وشمول دقيق .

---

(١) القرآن وعلم النفس ص ٢٩ .

وعن النقطة الثـــالثة :

فإننا بالنظر فى وسائل القرآن نلحظ سهولة تطبيقها فى العصر الحديث ذلك أن الداعية الكفء سواء كان محاضراً أو خطيباً أو مدرساً أو مشرفاً على ندوة أو مناظراً . يمكنه أن يستفيد بالوسائل فيفهم منها كيف يعامل أجناس الناس . وبعد فهمه للمدعوين يمكنه أن يحدد منهج دعوتهم فيذكر قصة أو قسما أو مثلا . وهكذا . ويورد فى منهجه مع المدعوين ما يلمس شغاف قلوبهم ويحرك داعية النظر لديهم .

ومن المعلوم أن القرآن الكريم محفوظ كما أنزله الله . وما زال يملك حيويته ومرونته وتأثيره كيوم نزل إلى الأرض . وما زالت وسائله تملك خصائصها وفنيتها فى التبليغ . والداعية الناجح يدرك أن نجاحه موقوف على مدى تفهمه وإحاطته بوسائل القرآن الكريم .

الفصل السادس

السنة النبوية وسيلة للدعوة

يراد بالسنة النبوية كل ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من أقواله وأفعاله . وتقويراته . وهيئته . وصفاته الخلقية والخلقية وشمائله . وكل ما نسب إلى الرسول قبل الرسالة أو بعدها سواء أثبتت حكماً شرعياً أو لم تثبت .

وقد قامت السنة بدورها كوسيلة للدعوة على النحو التالى :

أولا – تضمنها لعديد من أنواع البيان للقرآن :

القرآن كتاب الدعوة المشتمل على حقيقتها وأصولها . المتضمن لأهدافها ومقاصدها . الناطق بها اتجاهاً للناس وحثاً لهم على اتباع الحق ولذلك كانت سنة النبي تبياناً للقرآن الكريم على عدد من الأوجه .

فهى إما موافقة لنص الكتاب ، أو موضحة لمجمل النص ، أو أتت بزيادة عليه أو نسخته ، وهى بذلك تؤكد ضرورتها وأنه لا يمكن الاستغناء عنها فى دستور الدعوة . .

والسنة بدورها هذا مع القرآن تبين الدعوة وتفصلها . وهو دور خطير قام به عليه السلام ليبين للناس ما نزل إليهم وقد أشار عليه السلام إلى ضرورة السنة التى أتى بها فى قوله الذى رواه ابن عبد البر عن محمد بن المنكدر عن جابر « **يوشك رجل منكم متكئاً على أريكته يحدث بحديث عنى فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه إلا إن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذى حرم الله** » **(١)** فهى ضرورية إذاً مع القرآن الكريم نظراً لدورها .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله جـ ٢ ص ٢٣١ .

ثانياً — سمو بلاغتها وإحكامها :

تعتبر أقوال النبي فى قمة البلاغة العربية فقد خلت من كل شذوذ واضطراب، فألفاظه متناسبة وجمله متآلفة . والمعانى محكمة واضحة لا تنبو عن لفظها وإنما اللفظ والمعنى فى انسجام كامل فليست اللفظة مستكرهة على معناها وليس المعنى بواجد لفظة أتم له مما أتت . وهى أقوال من أنواع البيان الرائع الذى يأتى بلا تكلف أو صنعة . وإنما يخرج من فطرة طبعت على البيان ومن رسول أعطاه ربه الكلمات الجامعة ميزة له . فقد قال صلى الله عليه وسلم : « **بعثت بجوامع الكلم (١)** » .

والسنة النبوية دائماً هادفة تشير إلى قصدها وتصل إليه ، وليس منها شيء للتلهى والتسلية . فهى مع إيجازها دقيقة مقنعة . جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم بعد ما سمع حديث : **لا عدوى ولا صفر ولا هامة (وإنما الأمر أساساً يتبع القدر)** وقال لرسول الله : **فما بال الإبل تكون فى الرمل كأنها الظباء فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلها** فقال عليه السلام . **فمن أعدى الأول** (٢) فسكت الرجل ولم يحر جواباً لأنه سؤال فيه كل الإجابة المقنعة .

ثالثاً — اتساعها لكافة اللهجات العربية :

وبرغم أن النبي صلى الله عليه وسلم قرشي ونشأ فى قبيلة بنى سعد إلا أن الله أعطاه من قوة البيان ما جعله يقول كلاماً سهلا معلوماً لجميع العرب . وأحياناً كان يقول كلاماً ألفاظه خاصة بقبيلة لم يعاشرها النبى صلى الله عليه وسلم قط. وقد ذكر شارح الشفاء بعض نماذج من كلام النبي للقبائل العربية الساكنة بعيداً عن وسط الجزيرة العربية ومنها ما كتبه إلى قبيلة « نهد اليمنية » وأرسله مع « طهية بن أبى زهير » ونص هذا الخطاب : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى نهد بن زيد ، السلام

---

(١) البخارى جـ ٩ ص ١١٣ .

(٢) صحيح مسلم . باب لاعدوى ولا طيرة جـ ٨ ص ٣٠ .

على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله . عليكم بالوظيفة ، الفريضة . لكم الفارض . والقريش . وذو العنان . الركوب . والضبيش . لا يقطع سرحكم . ولا يحبس دركم . ولا يعضد طلحكم . ما لم تضمروا الرقاق وتأكلوا الرباق (١) » فانظر كيف أنه صلى الله عليه وسلم لاحظ لهجة القبيلة وأسلوبها مما لا إلف لغيرهم به : ومن ملامح هذه السعة أنه خاطب القوم فى دينهم بما يتناسب مع بيئتهم لأنهم فى اليمن أهل خيل وإبل ورعى وترحال . ولذلك حدثهم عن زكاة الإبل وهذا مثل من أمثلة عديدة أورد كثيراً منها القاضى عياض فى الشفا .

رابعاً — بعدها عن مظنة الكذب أو الخيال :

وحتى لا تبرز السنة النبوية فى بيانها إلا الحق والصدق رفع الله عنها كل ما يتناقض مع حقيقتها فأحاط شخصيـــة النبى بهذه الصفة فهو الصادق صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة عند الجميع لا يتهمه أحد بأنه كذب قط ، وبعد الرسالة فهو الصادق فى جده ومزحه . فكان يمزح ولا يقول إلا حقاً . **جاءته مرة امرأة عجوز فقالت : يا رسول الله ادع الله أن يدخلنى الجنة . فقال لها : إن الجنة لا تدخلها عجوز فظلت تبكى فقال لها يقول الله تعالى :**

﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً (٣٥) فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ (٣٨) ﴾ .

وقد شاع الشعر أحد الأساليب البيانية عند العرب بين القوم بشكل كبير حتى أنهم أخذوا يعقدون له الأسواق ويجعلون له الحفظة.والرواة.ويتناقله

---

(١) نسيم الرياض جـ ١ ص ٣٨٨ .

طهية بن أبى زهير :

هو خطيب قبيلة نهد ووافدها إلى النبى صلى الله عليه وسلم سنة تسع.ونهد قبيلة باليمن ؛ ومعنى هذا : أن النبى صلى الله عليه وسلم يحدد لهم نظام الزكاة المعهودة والمفروضة عليهم فى الخيل وليس على الفرس الفارض (المريض) والقريش (الحديث عهد بولادة والمخصص للركوب ؛ والضبيش (الصعب ركوبه)زكاة . ولا يخرج أيضا للزكاة ، ولهم أن لا يمنعون من الرواح . ولا يحبس اللبن ولا ينقطع شجر الطلع عندهم ما لم يكونوا منافقين ويأكلوا العهد غيلة .

أفراد القبائل . مفخرة لهم وهجوا لمعارضيهم؛ ورغم هذا الشيوع فقد تنزه لسانه صلى الله عليه وسلم منه. ولم يقرضه. ولم يروه منذ صغره. بل نشأ يكره قريضه ككراهيته للأوثان يقول عليه السلام : « **ولما نشأت بغضت إلى الأوثان وبغض إلى الشعر** » .

ومع البيان القولى فى السنة كان البيان العملى من رسول الله لأن العمل له تأثير أكثر من القول . وكان الصحابة يأخذون عمله سنة متبعة كقول البراء ابن عازب : **: رمقت الصلاة مع محمد صلى الله عليه وسلم ، فوجدت قيامه فركعته فاعتداله بعد ركوعه فسجدته فجلسته بين السجدتين فسجدته فجلسته ما بين التسليم والانصراف قريباً من السواء (١)**» فيأخذ الصحابة هذا الوصف لعمل رسول الله ويقارنونه بصلاتهم . وقد ذكر مسلم فى نفس الباب كثيراً من هذه الصور .

ولعل مما ساعد على وصول البيان إلى غايته أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أحيط علماً بكل ما يلامس أمر الدعوة من بعيد أو قريب ،فخاطب الناس كرغبتهم . ودعى البشر بأحسن أسلوب يجذب قلوبهم ويستهوى عقولهم وأوجد فى بيانه المرغبات والمثيرات التى تدعو إلى الإيمان بالله والنهوض فى ركب الدعوة وهديها . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وقد بينا ذلك عند الحديث عن الوسائل القرآنية للدعوة وكيف طبقها النبى صلى الله عليه وسلم مع الناس .

ومن السنة الخطبة النبوية :

فلقد استعمل النبى صلى الله عليه وسلم هذا النوع من الوسائل فى نشر دعوته لكثرة فائدته . وعظيم جدواه . ذلك أن الخطابة (٢) علم من العلوم الهامة التى تساعد على الاتصال الجماعى .

---

(١) صحيح مسلم باب اعتدال أركان الصلاة جـ ٢ ص ٤٤ .

(٢) من أراد مزيدا من الإحاطة فى هذا الموضوع فعليه بكتابنا « قواعد الخطابة وفقه الجمعة والعيدين » .

ولقد دارت خطابة النبي صلى الله عليه وسلم فى مجال العقيدة والشريعة والأخلاق ، وكان إذا خطب احمرت عيناه . وعلاصوته . واشتد غضبه . حتى كأنه منذر جيش ، وكان فى خطبته يتشهد بعد الحمد والثناء . ويذكر فيها نفسه باسمه العلم .

وكان يقول بعد الثناء والتشهد : أما بعد .

وكان يعلم أصحابه فى خطبته قواعد الإسلام . وشرائعه . ويأمرهم وينهاهم فى خطبته إذا عرض له أمر أو نهى .

وكان يقطع خطبته للحاجة تعرض . والسؤال لأحد من أصحابه فيجيبه . ثم يعود إلى خطبته فيتمها .

وكان صلى الله عليه وسلم يأمر بمقتضى الحال فى خطبته . فإذا رأى منهم ذا فاقة وحاجة أمرهم بالصدقة وحضهم عليها .

ولم يكن يأخذ بيده سيفاً أو خلافه . وإنما كان يعتمد على عصا أو قوس قبل أن يتخذ المنبر ، وكان يخطب للنساء على حدة فى العيدين . ويحرضهن على الصدقة .

ولعل أكبر ما يدلنا على اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالخطابة أنها أول وسيلة أبرزها بعد الجهر بالدعوة مباشرة حين صعد على الصفا . وفى حجة الوداع ألقى خطبة جامعة فى الجموع المحتشدة .

وقد تميزت الخطابة النبوية بما يلى :

١ — لم يلق صلى الله عليه وسلم قولا بلا تدبر فيه . بل كان دائم الفكر ، واسع التدبير ، ولذلك لامس بخطبه عقول الناس وعواطفهم . وكثيراً ما روى صحابته صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا إذا استمعوا خطبة من رسولهم ذرفت الدموع . وخشعت القلوب ،ولانت الجوارح . وما كان ذلك إلا لما فيها من دقة شاملة لألفاظها ومعانيها وموضوعها ، وبالجملة فلقد كان صلى الله عليه وسلم يعد خطبه ويهيئها ، ولذلك جاء قدرها الممتاز .

٢ — كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخير المناسبات ويتكلم فيها . وبذلك

كانت خطبه صلى الله عليه وسلم تأتى وقت الحاجة إليها . كما حدث حينما حضر ثلاثة نفر إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته السرية فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها . فنووا شيئاً وقالوا : ما أفاد أنهم سينقطعون عن الدنيا ، ويتفرغون للعبادة . وهنا جمع النبي صلى الله عليه وسلم الناس وخطبهم فى هذا الموضوع . فكانت الخطبة لمناسبتها . ولم تزد عن هذه المناسبة .

٣ — كان صلى الله عليه وسلم لا يكثر من الخطب للدرجة تزيد عن تحمل أصحابه ، ولذلك ورد أنه كان صلى الله عليه وسلم يتخول أصحابه بالموعظة مخافة السآمة عليهم . ونصح بتقصير الخطبة لأن التطويل يؤدى إلى النسيان والانصراف .

٤ — كان صلى الله عليه وسلم صادق الإخلاص لخطبته ولذلك كانت تحمر عيناه ويعلو صوته حتى كأنه منذر جيش .

٥ — كان صلى الله عليه وسلم يقسم خطبته ويراعى هذا التقسيم فيبتدىء ويبين ويختم ، وكان يقسم خطبته إلى أفكار أساسية . وكان يقف عن الكلام قبل وبعد كل فكرة مساعدة للسامع فى استيعاب ما فات . والاستعداد لما هو آت . وفى بعض الأحيان كان يطيل سكوته إذا اقتضى الأمر ذلك . ومعنى ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم يهتم بالمؤثرات البيانية فى التوضيح .

٦ — كان صلى الله عليه وسلم يفخم لفظه . ويملأ به فمه . ويخرج كل حرف من مخرجه وبذلك ساعده النطق الصحيح على الإرشاد السليم .

٧ — كان صلى الله عليه وسلم يستعين فى خطبته بالإشارة والحركة . فإذا أشار أشار بيده . وإذا تعجب قلبها . وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى . وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه .

٨ — كان صلى الله عليه وسلم يتمسك بأخلاقه العظيمة فى أثناء خطبته .

لا يعيب ولا يشتم . ولا يجابه فرداً بأمر خاص . وإذا أراد مخاطبة فرد بأمر خاص . يقول: ما بال أقوام يفعلون كذا . . وكان جل ضحكه التبسم .

وهكذا جمع النبي صلى الله عليه وسلم مزايا الخطيب الممتاز . مما جعل خطبته ذات أثر واضح فى تبليغ الدعوة .

والخطابة النبوية سنة نبوية تتميز عن الحديث بأنها تأخذ طابعاً معيناً ، قائماً على أسس معينة ، وتتجه إلى جمهور معين .

ومن السنة النبوية الكتب والرسائل :

بعد صلح الحديبية . وانتشار الأمن فى الجزيرة العربية . بدأ النبي صلى الله عليه وسلم يدعو البعيدين عنه من سائر الأمم ، الذين لا يرونه ، ولايسمعون قوله .

وقد دعاهم النبي عليه السلام بأن أرسل لهم كتباً يحملها بعض أصحابه .

فأرسل إلى هرقل ملك الروم كتاباً مع الصحابى دحية الكلبى ، وأرسل إلى النجاشى ملك الحبشة مع الصحابى عمرو بن أمية الضمرى ، وأرسل إلى المقوقس ملك مصر الصحابى حاطب بن أبى بلتعة .

وأرسل إلى ملك الفرس وأمير البحرين ، واليمامة ، وعمان ، ودمشق :

وبقراءة هذه الكتب (١) نلحظ فيها ما يلى :

---

(١) من أمثلة هذه الكتب ما أرسله النبى ﷺ للنجاشى إذ قال له : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة . أسلم أنت فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن . وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى . خلقه الله من روحه ونفسه كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، فقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى » ..

ومن أمثلة كتبه كتابه إلى ملك الفرس قال : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ﷺ

(ا) وحدة موضوع سائر الكتب لأنها كلها تتضمن الدعوة إلى الإسلام ابتداء من الإيمان بالله إلى الإيمان باليوم الآخر .

(ب) مراعاة حال المرسل إليه فإن كان من أهل الكتاب بين رسول الله له فى خطابه أن الإسلام يتضمن الإيمان بعيسى عليه السلام ورسالته ، وأن محمداً هو بشرى موسى وعيسى عليهم جميعاً الصلاة والتسليم .

(ج) تضمن الكتب للترغيب والترهيب عن طريق إبراز الحساب الأخروى وتحديد مسئولية من بلغته الدعوة .

(د) التشديد على العرب لأنهم علموا بالإسلام قبل مجيء الكتب إليهم . ولذلك تضمنت الكتب إليهم التهديد بالجزية وبالحرب وبزوال الملك .

(ه) إرسال الكتب بهذا الشمول أدى إلى تعميم التبليغ فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم . وعرفنا أن السلام والأمن هما أعظم عاملين مساعدين فى نشر الإسلام وتبليغه .

(و) حمل هذه الكتب صحابة أكفاء لأنهم جميعاً دافعوا عن دينهم حين سئلوا عنه ووضحوه حينما عورضوا وقاموا بدورهم كدعاة إلى الله لا كرسل مجردين .

ويجب أن يلاحظ أن وسيلة إرسال الكتب أفادت كثيراً فى تبليغ الدعوة ، وهى وسيلة صالحة للعصر الحديث . فلو استغلت الكتب للتعريف بالإسلام وحملها قادرون على البلاغ لأفدنا الإسلام كما يجب أن يكون .

= إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وبأن محمداً عبده ورسوله . أدعوك بدعاية الإسلام . فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . أسلم تسلم . فإن أبيت فعليك إثم المجوس » .

ومن أمثلة كتبه كتابه إلى ملك عمان قال له : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى جعفر وعبد ابنى الجلندى . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام. أسلما تسلما . فإنى رسول إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما . وإن أبيتما أن تقرا بالاسلام فإن ملككما زائل عنكما . وخيل تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما . والسلام » .

الفصل السابع

منهجية الوسائل فى تبليغ الإسلام والاستفاده بها حديثا

أولا : منهج الوسائل فى التبليغ :

من دراستنا السابقة لاحظنا التزام الوسائل لمنهج واحد ذلك أنها قد تختلف فى التركيب اللفظى والتوضيح البيانى إلا أنها فى الحقيقة لا تتخطى هذا المنهج ولا تتعداه .

وهو منهج مرن قابل للتطبيق فى كل آن ومكان . ذلك أن تجربته فى العصر الأول تعتبر تجربة ناجحة تؤكد فائدته وتبين صلاحيته لإبلاغ الدعوة دائماً .

ومن دراسة الوسائل يمكننا أن نستخلص أسس هذا المنهج التى سارت عليها وأعطتنا خطة واقعية تعتمد على الأسس التالية :

١ — تفهم طبائع الناس :

تختلف طبائع الناس وتتنوع عقائدهم وتعدد ميولهم . وتبعاً لذلك فقد انقسمت الإنسانية إلى اتجاهات وجماعات ، والطريقة المثلى لتحقيق اتصال مع هؤلاء الناس هو إتيانهم من حيث اهتمامهم ومشاركتهم فى خصائص حياتهم ومعايشهم .

والدعوة الإسلامية عامة ودائمة ، وعليها أن تستوعب الناس علماً بطبائعهم وتفهماً لاهتماماتهم ،لكى تتمكن من تحريك داعية النظر عند كل جماعة على حدة ، لكى تستطيع إبلاغ الدعوة إلى الجميع . ومن هنا ملكت الدعوة أمثل الطرق فى تحقيق الاتصال بالناس عن طريق الوسائل التى تميزت بتضمنها الفهم الدقيق لحقائق الناس ، وقد سبق أن بينا كيف أنها أشارت إلى اختلاف البشر أمام الحق حيث يقترب منه الضعفاء . ويعارضه المستكبرون استعلاء وعناداً ، وتفهمت كذلك طبيعة الترف ودور المترفين

أمام الدعوة حيث يقفون منها موقفاً معارضاً كي يحافظوا على أوضاعهم المكتسبة من الترف والتي يخافون ضياعها ، وأحاطت كذلك بثقل الموروثات على المدعوين .

وبينت أن الكفار المعاندين مع اختلاف اتجاهاتهم يتوحدون أمام الدعوة من أجل محاربتها وهدمها ، ثم إن الوسائل كذلك تبين تعلق الإنسان بالمادة وأنه من أجلها ينسى نفسه وعقيدته لا عن جهل بنعم الله وخيراته بلى على معرفة تامة بها . ولكنها معرفة غير مفيدة إذ يجدها الإنسان وينكر الواجب عليه فى مقابلة شكر هذه النعم . ثم تعرف أن طبيعة الإنسان تهوى الجدل والمعارضة والمخاصمة خاصة حينما يترك الإنسان مسئوليته ويتعلق بالدنيا مع ضآلتها وحقارتها . ثم تبين الدعوة أن العقيدة الدينية الخاطئة تعطى لأتباعها نوعاً من الأخلاق الفاسدة كاليهود حيث غمرتهم بالمادية وحب القتل والاضطهاد لغيرهم . والنفاق يعطى الكذب والخداع والتضليل .

ومن دقة الوسائل فى الإحاطة بطبائع الناس أنها تبين الخصائص العامة التى تدور مع كل الأمم سواء اختلفت عملا أو مكاناً أو زماناً . وخاصة ماله علاقة بالدعوة السماوية . وهى فى الوقت نفسه خصائص شاملة لكل النوع الإنسانى من الرجال والنساء والكبار والصغار . وهى واعية كذلك إذ تراعى وضعية الناس وطبقاتهم .

ولعل الوسائل وهى تعرفنا بطبائع الناس من خلال مناقشتها لهم تمدنا فى الوقت نفسه بالنموذج الأمثل فى دعوة كل فريق حسب طبقته وطبعه وعن طريق الاستعلاء بغرائزه ، ومن دقتها كذلك إحاطتها بعقائد البشر مع تنوعها ، فتجدها تعرف باليهود واليهودية والمسيحيين والمسيح . وتشير إلى المجوس والصابئة وعبدة الكواكب . والأشخاص . والأصنام والأوثان ، وإلى الدهريين الذين لا يؤمنون بإله ما . وهى لا تعرف أصحاب العقائد وفقط وإنما تناقشهم بعد ما سهل الله ذلك بأن جعل فى الجزيرة العربية نموذجاً لكل العقائد حتى تكون مجابهة الوسائل شاملة وعامة من أول ظهورها .

٢ — تفهم الدعــوة :

وكما تحيط الوسائل بالناس وعقائدهم تفهم الدعوة بأصولها وفروعها . وتعلم أن الإيمان بالأصول مقدم على غيره بل إن من الأصول ما يستتبع غيره بالضرورة كالإيمان بالله والتصديق بالرسول فإنهما يستتبعان باقى الأصول والفروع .

والوسائل بفهمها للدعوة تتمكن من تحديد الهدف الذى تدعو إليه. وتتجه إلى غاية معروفة محددة، وهو فهم دقيق يميز الدعوة عن غيرها من الدعوات ويجليها بخصائصها التى انفردت بها من بين سائر العقائد . ذلك أن الدعوة تتكون من ثلاثة أشياء :

الأول : العقيدة المشتملة على أصول الدعوة وهى عبارة عن الإيمان بالله وبالرسول وبالملائكة وبالكتب المنزلة وباليوم الآخر .

الثانى : الشريعة المتكونة من فروع الدعوة وهى العبادة المحددة بأوقات ومقادير على وجه الضرورة أو غير المحددة وتسرى فى سائر الأعمال والأقوال .

الثالث : الأخلاق وهى النتاج الضرورى للعقيدة والشريعة وهى مجموعة من المحاسن النفسية وتظهر بآثارها فى الأقوال والأعمال .

والأشياء الثلاثة لا انفصال بينها لأنها تكون الدعوة فلابد من اتحادها على أن تكون العقيدة أصلا يدفع إلى الشريعة وتكون الشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة وبعد استقامة العقيدة والشريعة تكون الأخلاق رمزاً لهما وعنواناً على صدقهما عند صاحبهما .

ونلمح من الوسائل أنها تفهم الدعوة بشمول و تعرف العقيدة والشريعة والأخلاق وتقدرها تماماً وتعلم كـيف تبدأ بأى جزء من الدعوة حين تبلغها للناس .

وقد لاحظنا هذا الفهم عند دراستنا للأساليب القرآنية من قصة وقسم وغيرها كما علمنا مدى إحاطة الوسائل بالدعوة .

٣ ـ حسن عوض الدعوة للناس :

بعد تفهم طبائع الناس وحقيقة الدعوة كان على الوسائل أن تقوم بدورها فى الإبلاغ على وجه يضمن نجاحها فى الغالب . وهذا الضمان ضرورة عرفها الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وهو يأمره بقوله ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ وبقوله ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ وهكذا عرف الله رسوله أن يتخذ المناسبة الحسنة فيذكر حين يغلب على ظنه أن الذكرى ستنفع ، ويترك القوم حينما يلقاهم يعبثون بآيات الله لأنهم لايسمعون ساعتئذ وسيعرضون عن الدعوة إذا عرضت عليهم .

ومن الوسائل ذاتها تعرف كيف نعرض الدعوة فى حسن وجمال .

وعرضها الحسن يتطلب شقين شق يتعلق بالدعوة وشق يتعلق بالناس .

أما الشق الذى يتعلق بالناس فهو يتكون من نقاط تلاحظها الوسائل .

فهى :

أولا : تلاحظ تقدير الإنسان :

حيث أعطى الله للإنسان كثيرا من النعم وسخر له الكون كله . ورزقه العقل ليفهم الأمور ويتدبرها . فلما جاءت الدعوة لم تنقص الإنسان شيئاً بل أعلنت محافظتها على كثير من المسائل الفطرية إذ بينت :

أنه لا إكراه فى الدين . لأن الإكراه لايتفق مع طبيعة الدين الذى يحتاج إلى إخلاص شامل للظاهر والباطن معاً . ولو تصورنا أن الإكراه يفيد مع الظاهر فإنه لايمكن تصوره مع الباطن . مطلقا . ومن هنا كانت الحرية الدينية من ضرورات الدعوة .

وبينت كذلك أن الناس جميعاً سواء ، فهم لا يتمايزون بسبب النسب أو الجاه إذ ينتمى الجميع لأب وأم واحدة فهم متساوون فى الحقوق والواجبات ومعيار محاسنهم عند الله هو دينهم وتقواهم فقط . . وما الدرجات المختلفة

للناس إلا تفاوت فى المال وطبيعة العمل وهذا لا يستتبع تفاوتاً فى الكرامة والحقوق .

وبينت الدعوة كذلك ثقتها فى عقل الإنسان ونادت بضرورة ضمان الحرية له وحاربت كل مايؤدى إلى هدم الحرية وتعطيل العقل وإيقاف نظره وتدبره .

وبينت كذلك أن الإنسان عليه أن يبذل كل قواه ليسخر الطبيعة المذللة له ويستولى على الكون كله وبذلك يكون بحق هو خليفة الله فى الأرض .

ومن هذه النظرة للإنسان انطلقت الدعوة ولم تخالفه أبداً . ولعل الوسائل التى تبلغ بها الدعوة أكبر دليل على تقدير الإنسان لأنه لا إكراه فيها وتدعو الجميع على قدم واحدة وتخاطب الإنسان وحده وتساعده على أن يصل إلى السعادة والسلام .

وهى ثانياً : تلاحظ تنوع الإنسان :

تلاحظ الوسائل تنوع الناس أمام الأدلة وقد رأينا كيف أن العلماء أجمعوا على أن من الناس من تكفيه الأدلة الخطابية ومنهم من تكفيه الأدلة البرهانية اليقينية ومنهم المجادل اللدود . ومن هنا أتت الوسائل مراعية هذا التنوع . فجاءت بالمواعظ الحسنة والحكمة . والجدل بالحسنى . لتتناسب مع كافة الطوائف .

وهى ثالثاً : تلاحظ غرائز الإنسان :

من المعلوم أن الجبلة البشرية تنطوى على مجموعة من الصفات لا يمكن إزالتها بالكلية . وقد لاحظ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الجبلة فى الناس فلم يحاول هدمها وإنما ترقى بها . فهو فى المال يعطى رجالا لا لحاجتهم وإنما لشدة حبهم للمال ويبين ذلك صلى الله عليه وسلم بقوله « **إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلى منه مخافة أن يكبه الله فى النار** » (١) وفى الفخر يعطيه

---

(١) صحيح مسلم . كتاب الايمان . باب تألف قلب من يخاف على إيمانه جـ ١ ص ٩١ .

لأبى سفيان يوم فتح مكة ويقول « **من دخل دار أبى سفيان فهو آمن** » (١) وهـكذا ترقى النبى صلى الله عليه وسلم بغريزة هؤلاء . فأعطى رجاء الجنة وسمح للمؤمنين أن يدخلوا دار أبى سفيان إعلانا عن إسلامهم وضماناً لأمنهم .

ومراعاة هذه الغرائز ضرورة للنجاح . ومن هنا راعت الوسائل غرائز الناس وخاطبتهم على أساسها .

فمن أجـل غريزة التقليد والمحاكاة قصت عليهم طريقة نجاح الدعوات السابقة . ومن أجـل تعصبهم عرفتهم بالمساواة وشاركتهم فى الإيمان بـكل مافيه خير أو مصلحة . ومن أجـل غريزة بقاء النوع واكتساب الخير عرفتهم أن الإيمان يحقق ذلك كله والـكفر يضيعه عن طريق ماعرف من الوسائل بالترغيب والترهيب .

وهـكذا لاحظت الوسائل قيمة الإنسان وتنوعه وغرائزه وبعدها عرضت الدعوة ملاحظة الأمور التالية :

١ ــ مناقشة الواقع العقائدى :

تبدأ الوسائل فى مناقشة عقائد الناس مبينة فسادهـا من واقع فـكر الناس أنفسهم ، وقد رأينا كيف جادل سيدنا ابراهيم الناس فى ألوهية الأصنام والـكواكب والأشخاص وكيف بينت القصة ضلال الـكافرين والمشركين وإنما بدأت الوسائل بذلك حتى لاتترك الناس فى ضلالهم ، لكى تدعوهم بالحق بعد تخليصهم من الباطل .

٢ ــ تجـزئة الدعوة :

تدعو الوسائل الناس على مهل وتجزئ للناس دعوتها فلا تقدمها لهم جملة حتى لا تثقل عليهم وتلاحظ استعداد الناس للجزء الذى تقدمه لهم ، ومن هنا استمر النبى صلى الله عليه وسلم يدعو مدة طويلة إلى التوحيد وهـو فى مكة . ولم ينتقل إلى غير التوحيد لأنه أراد أن يلمس أساس الدعوة ويعرضه

---

(١) صحيح البخارى كتاب الجهاد ــ باب فتح مكة .

لهؤلاء المشركين فمكث صلى الله عليه وسلم يدعو بالتوحيد حتى شرعت الصلاة قبيل الهجرة .

ويلاحظ أن الدعوة كانت تقدم الأهم على المهم . ولذلك قدمت التوحيد وإثبات الرسالة على سائر تعاليمها لأنهما الأصل . وقد سبق أن بينا أن الوسائل كلها كانت تركز على هذين الأصلين الهامين .

٣ — تكرار الدعوة :

من خلال سائر الوسائل يظهر التكرار واضحاً للدعوة حيث تكرر أصول الدعوة وفروعها لما فى التكرار من فائدة فهو يشعر بالأهمية ويحرك العقل والوجدان وقد سبق أن بينا ما للتكرار من أهمية وفائدة .

٤ — بيان الغاية من الدعوة :

إن تحديد أى شئ هو مقدمة نجاحه . وبيان فائدته أقوى دليل على خلوده ولقد اهتمت الوسائل بادئ ذى بدء . ببيان أهداف الدعوة . فعرفت أن الإيمان بالدعوة يحقق فى الدنيا النجاة من الضرر والتمكين فى الأرض والنصر والفوز ويحقق فى الآخرة السعادة والأمان . بل إن سائر تعاليم الدعوة هادفة إلى حفظ الضرورات الخمسة التى تحقق سعادة الدنيا والآخرة .

٥ — الدليل المناسب :

تحقق الوسائل بأدلتها فائدة عظمى . ذلك أنها تلاحظ نوعية المدعوين ومدى تقدمهم وتأتى لهم بالأدلة المناسبة فمثلا تكون الأدلة بالمحسوسات أحياناً ، وبالمعنويات أحياناً أخرى ، وبهما معاً أحياناً أخرى ، وذلك يحقق لها الوصول إلى أفهام الناس أجمعين والدعوة تستطيع أن تنوع دليلها وتصنعه فى شكل قصة أو مثل وهكذا تبعاً لطبيعة من تخاطبهم خاصة وأنها أحاطت بهم . ومن الأولى أن تكون الأدلة مستنتجة من نعم الله الكاملة . ففيها العناية وكلها لها غاية وهذا خير من جدل الفلسفة وأدلتها .

ثانياً : الداعية والمنهج :

والداعية الذى نقصده هو الداعية الكفء الذى تكون بالقرآن الكريم وعلى هذا الداعية أن يكون فى خدمة دعوته حتى ينجح فى خدمتها وإبلاغها وعليه أن يحقق ما يلى :

أولا : أن يتفهم طبيعة الناس وغرائزهم وعقائدهم وميولهم فإن عجز عن الإحاطة بسائر الناس فإن عليه أن يحصر فهمه على جماعة يخبرهم ويعلم كل شيء عنهم. ومن هذه النقطة لزم للداعية أن يستمر فى مكان واحد لكى يستفيد بخبرته المكتسبة فى دعوة الناس ، وبتجاربى العملية فى الدعوة شاهدت أن الداعية الذى يمكث بين الناس طويلا أقدر من غيره على الدعوة وإبلاغها ، ولذلك أرى من اللازم إقامة المعاهد المتخصصة فى دراسة أقاليم العالم يلتحق بها الداعية بعد تخرجه ليدرس الجغرافية الطبيعية والبشرية للإقليم الذى سيدعو فيه . كما أنه من اللازم أن يمد الدعاة بأحدث وسائل البحث الاجتماعى ليكونوا قادرين بحق على تفهم المجتمعات التى يعايشونها ويدعون فيها .

وعليه **ثانياً** : أن يعيش مع الدعوة يفهم مبادئها ويحلل تعاليمها ويدرس سائر الأفكار المضادة ليقدر على مناقشتها من واقعها ويحاول دائماً أن يربط بين الدعوة ومصالح الناس بمعنى أن يبين مقصد الدعوة الهادف إلى نشر السعادة وتحقيق السلام .

وعليه **ثالثاً** : أن يحترم الناس وينظر لهم على أساس من المساواة والحرية والأخوة ويعمل فكره فى دعوتهم بالطريقة المثلى التى تناسبهم إذ يدعو إلى الجزء المهم بالأسلوب المؤثر فيهم فإن الأسلوب يتغير تبعاً للظروف والمواقف وعليه أن يكرر دعوته ويقدمها بالدليل المناسب .

والله ولى التوفيق .

الفصل الثامن

الداعية الأمثل لتبليغ الإسلام

الداعية وارث النبي صلى الله عليه وسلم فى مهمته الإرشادية ، والقائم مقامه فى إبلاغ دين الله ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرشد المسلمين إلى ذلك . فقال لأصحابه « **ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب** » **(١)** وقال « **تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم (٢)** » .

وحتى يتمكن المسلمون من القيام بهذه المهمة قضى الإسلام بتخصيص فئة معينة للقيام بها ، فما صح ولا يصح أن تقوم الأمة كلها على تخصص واحد وتهمل سواه ، وقد بين الله تعالى أن على الناس أن لا يتجمعوا كافة على غرض واحد . ولو كان هو الجهاد فقال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾(٣)

يقول على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية : ماكان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي صلى الله عليه وسلم وحده ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعنى عصبة . هى السرايا فاذا رجعت السرايا وقد أنزل الله بعدهم قرآنا تعلمه القاعدون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك معنى « ليتفقهوا فى الدين » أى يتعلم القاعدون ماأنزل الله على نبيهم وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم لعلهم يحذرون(٤) . وبمثل ذلك فسر مجاهد وقتادة الآية .

---

(١) صحيح البخارى جـ ١ ص ٣٧ كتاب العلم باب ليبلغ الشاهد منكم الغائب .

(٢) الفتح الربانى جـ ١ ص ٢٦٤ كتاب العلم باب فضل تبليغ الحديث .

(٣) سورة التوبة آية ١٢٢.

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٣ آية ٨٧ .

وهذا التفسير ينهى عن التجمع الكامل للنفير ويحث على بقاء جماعة مع النبي صلى الله عليه وسلم لمتابعة تعاليم الدعوة وذلك هام فى حد ذاته لأن التفقه للدعوة أمر ضرورى . وهذا الوجه فى تفسير الآية مقبول لأن النبي مصدر العلم ، والقعود معه يحقق النفقة والتعليم من غير سفر أورحيل وكذلك الوجه الثانى القاضى بأن يتفقه المجاهدون مع الرسول فى الغزوة بما يستجد من وحى ويحذروا القاعدين بعد عودتهم من الغزو .

وهناك وجه ثالث تحتمله الآية وهو ماكان للمؤمنين أن ينفروا جميعاً للجهاد بل على بعضهم أن ينفروا فى الدين خاصة وقد تعددت نواحى التفقه وأصبح طلبه صعباً وشاقاً فيقول الزمخشرى فى معنى هذا الوجه فلو نفر من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة ليتكلفوا الفقاهة ويتجشموا المشاق فى أخذها وتحصيلها (١) .

وعلى كل فإن طلب جماعة لعلوم الدعوة فرض كفاية كالجهاد تماماً (٢) لأنهما معاً يؤديان إلى حفظ الدين واضحاً من غير تحريف ، وإلى حمايته قويا بلا اعتداء ، بل إن الدفاع عن الدين بالكلمة أحياناً يكون أجدى من الجلاد عنه بالسيف .

هذا وقد أخذ الشاطبى (٣) من قوله .

﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ﴾(٤)

أن الدعاة المنذرين قائمون مقام النبى صلى الله عليه وسلم لأن الله قال للنبى .

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾(٥)

(١) تفسير الكشاف جـ ١ صـ ٥٧٢

(٢) الإكليل صـ ١٢٣

(٣) الموافقات جـ ٤ صـ ٢٤٥

(٤) سورة التوبة آية ١٢٢

(٥) سورة الرعد آية ٧

فالإنذار فى الآيتين عمل مشترك يقوم به النبي وأتباعه من بعـــده على وتيرته .

وإن كانت مهمة النبي فى زمنه صلى الله عليه وسلم صعبة فإن مهمة الدعاة اليوم كذلك ، لأن الهدف واحد وهو مخاطبة القلوب بالحكمة ومجادلة المخالفين بالحسنى وما أكثرهم اليــوم ككثرتهم أيام النبي صلى الله عليه وسلم .

ولئن كان الوحي ينزل بالدين على رسول الله جزءا جزءا فإن مانزل منجما قــد جمــع وحفظ كله ليبقى بجملته مــع الدعاة زاداً لهم . وأمــلا لدعوتهم فى النصر والبقاء .

والدعاة اليوم هم المبشرون المنذرون الحاملون صوت النبوة المــكلفون بالوصول بها إلى كل مكان فى الوجود . . . وقد قدر الله للدعوة أن تظــل باقية فى كتبها ، محفوظة بأمره لــكن الذى يجب أن يكون اليوم هو وجود الداعية الــكفء الذى يتخــذ الرسول أسوته ويحاول أن يستجمــع ما اتصف به على قدر طاقته « ولــكم فى رسول الله أسوة حسنة » .

تكوين الدعاة :

أوجب الله على الأمة أن تهيئ من بنيها طائفة لتقوم بالدعوة إلى دين الله والتهيئة ليست أمراً هيناً . وليست سريعة الإيجاد . ولــكنها تحتاج لإمكانيات مكثفة . ومتنوعة . ذلك أن صناعة الإنسان هــو أصعب الصناعات فى هذا الوجود .

إن الإنسان يولد ومعه بعض الصفات الموروثة من والديه كالخلقة وبعض الذكاء . وسرعان مايكتسب من بيئته صفات أخرى كبعض التقاليد . واللغة. ووسائل التعامــل . والروح الجماعية أو الانعزالية . وهــكذا . . .

والصفات الموروثة لا تستبدل ، وإنما تتهذب بواسطة بيئة الشخص وترقى بسبب العلاقات والمؤثرات الاجتماعية التى يعيشها الفرد .

والداعية واحد من الناس يرث صفات . ويكتسب أخرى .

وقد لاحظنا اهتمام الأمم بتنشئة أبنائها ، وخاصة هؤلاء الذين سيقومون بأعمال رئيسية وهامة .

إن مدارس التبشير فى أوربا تقوم باختيار تلميذها بشروط معينة . ثم تعزله عن مجتمعه لتكونه تكويناً خاصاً فى بيئة تصنعها له . وبعد ذلك تخرجه إلى الناس ملتزماً ببرامجها ، وأوامرها ، ومذاهبها . مهما بعدت عن الحق والصواب .

ورجال الأحزاب . وأصحاب الاتجاهات المادية يعتمدون على رجال مدربين من أجل تحقيق أغراضهم . ونشر مذاهبهم .

والدعوة الإسلامية فى حاجتها إلى الدعاة تندرج فى الخط الواقعى لأن ذلك هو طريق تبليغها . .

وقد ظهر فى العهد الحديث أفراد ينتسبون إلى الدعوة كدعاة . ومع ذلك فإنهم يضرون ولا يفيدون . وسبب ذلك يرجع إلى قصور فى تكوينهم كدعاة إلى دين الله .

إن الإسلام أكثر حاجة فى العصر الحديث إلى دعاة يفقهونه الفقه الواجب . وينشرونه بين الناس بوضوحه وتمامه . ويجدون لخدمته ويجعلونه شاغلهم كله ، ويتقربون بذلك لله رب العالمين .

إن هؤلاء الدعاة سيكونون كتائب الحق فى وسط معمعة من الباطل .
وسيكونون الشعاع الذى يرشد إلى ضوء النهار ، وستكون الحياة وسط قوم يتمتعون بالموت وهم صامتون . .

وواجب على المسلمين جميعاً أن يقوموا بتهيئة هؤلاء الدعاة وتنشئتهم . ومن المعلوم أن التنشئة تبدأ مع الإنسان من صغره حيث يكتسب من بيئته الكثير .
والبيئة عبارة عن بيت وأقران ومدرسة .

ومن هنا نرى أن تنشئة الداعية يجب أن تبدأ من فترة التكوين الأولى

ويجب أن نهيئ له بيئة صالحة تلقنه المبادئ الصالحة ، وتدفعه إلى التحمس للقيم والمفاهيم النبيلة . . ويجب أن لا يترك الداعية فى فترته الأولى إلى رفاق سوء . . ويجب أن يلقن الدين . وطريقة نشره بين العالمين .

وللمسلمين درس فى هـذا المجال من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث نشأه الله التنشئة المثالية . وإليها يشير قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾

وهـذه الآيات تعلمنا الأساسيات التالية فى التنشئة :

(١) الإيواء القوى :

وهو يعنى إحاطة الداعية بالثقة ، ليدعو بعـد ذلك فى قوة مدعمة باليقين ، لا تزلزلها الأهوال ، ولا تغيرها قوة الخصوم ، ولا يقف دونها حب الدنيا ، وزخرف الشهوات .

إن الداعية الواثق بنفسه ينظر إلى سائر الناس من حوله فإذا هـو قائدهم ورائدهم . وإذا هو أقربهم إلى الله ، وذلك يزيده يقينا وثقة .

أما غير الواثق بنفسه فإنه يشعر بالهوان وإن تقلد رئاسة الآخرين .

والإيواء يصنع الثقة ، لأنه يكفل الحماية ، ويطرد الضعف ، فإذا ما نشأ الداعية وسط ذلك شاب على مانشأ عليه .

ولعل فى ذلك بعض السر فى الإيواء الذى أحيط به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث نشأ يتيما ، ومن المعلوم أن ضرر اليتيم كبير على نفسية الطفل ، لأنه يشعره بالضعف والعزلة ، ويفقده المدافع ، والحامى ، ويحرمه من الأنيس الودود ، ويبعـده عن السلوك السليم . والتربية الصحيحة . . . وقـد نجى الله رسوله من هـذه الأضرار ، فكفله جـده عبد المطلب وعمه أبو طالب وكلاهما أحبه أكثر من بنيه وأحاطه بالعناية والرعاية ، وتولى عمه حمايته والدفاع

عنه حتى بعـــد مبعثه ، لذلك كان عـــام وفاة عمه أبى طـــالب عام الحزن عند رسول الله .

إن الدعاة اليوم مصابون بالخوف وعدم الثقة بما وقر فى نفوسهم ، لأن النشأة الأولى جعلتهم يستهينون بهذا العمل، كما أنها لم تعدهم لمجابهة المستهزئين من الحق . والساخرين مـــع الدعوة .

ولـــو فات تكوين الثقة عند الداعية فى الفترة الأولى فلا يصح أبداً إهمالها بعـــد ذلك ، لأن إهمالها تضييع للدعاة ودعوتهم .

إن صحابة النبى صلى الله عليه وسلم حملوا أنفسهم على الورع والبذل ، وأخذوها إلى كل رفيع وجليل بسبب التوجيهات التى نصحهم بها رسول الله ، لقـــد وجههم إلى قوة الله ، فعاشوا قوة فى أنفسهم ، ومـــع الناس ، ولم يخافوا إلا من ربهم العظيم .

ويجب أن يكون الرسول وصحابته هم القدوة والأسوة .

(ب) اليسر المادى :

الداعية فى مرحلة تربيته يجب أن يتجه إلى الدعوة وحدهـــا ، ويجب أن يجد كل مايسهل له أمرها، من كتاب أو صحيفة ، ولا يصح أبدا أن يترك فى مرحلة التكوين فى معمعة الحياة، يغالبها فتغلبه أو يغلبها ،لأن ذلك يضيع وقته ويفقده أهم مايجب الاستفادة منه ، وهـــذا الواجب يتحقق بإحاطته بيسر مادى يمكنه من الحصول على حاجياته ويقضى له لوازمه من مأكل ومشرب .

كما أن اليسر المادى للداعية دافع إلى الاهتمام بما يقول ويفعل . لأن الناس جبلوا على احترام القوة ، والإعجاب بالغنى والجاه ، وعدم إعطاء الداعية هـــذا العامل المؤثر ضـــرر بالدعوة فى نفس الوقت .

إن الدعوة فى هذه العصور يجب أن تحاط بكافة عوامل الترغيب والترهيب ومن مرغباتها إحاطة الداعية بهذا اليسر . . وليس المراد باليسر

أن يكون من أغنياء الناس ، ولـكننا نقصد به التمكن من مواجهة أعباء الحياة مع الناس بصورة وسط .

ولقد امتن الله على رسوله بتحقيق هذا اليسر فقال تعالى : ﴿ **ووجدك عائلا فأغنى** ﴾ .. أى وجدك فقيراً فأغناك بمال خديجة وتلك نعمة مكنت النبى صلى الله عليه وسلم من التفرغ للتعبد والتفكير ، حتى تهيأ للدعوة إلى الله تعالى.

(ج) التربية العلمية :

يتكون الإنسان من مجموعة من القوى المختلفة ، وبسببها يتشكل نشاطه وعمله ، ويجب أن نوجه هذه القوى على نحو سليم وبطريقة منظمة قائمة على قواعد العلم وأسسه .

ومن أهم جوانب هذه التربية أن تتعهد الغرائز الصالحة بالصقل ، وغير الصالحة بالتهذيب ، وأن تهيأ البيئة التى تمد بكافة الصفات السوية وأن يمهد الطريق المؤدى إلى تكوين شخصية متكاملة .

إن التربية العلمية هى التى تمكن الشخص من القيام بدوره ، وهى التى تمكنه من حل كافة المشاكل التى تجابهه .

وقد أحاطت هذه التربية سيدنا رسول الله وإليها يشير قوله تعالى : ﴿ **ووجدك ضالا فهدى** ﴾ .

* * *

ولو أردنا أن نكفل لهذه الأساسيات الثلاثة ترجمة واقعية بأعمال العصر لرأيناها فى التخير الدقيق للداعية منذ صغره لـكى نختاره بصفات وراثية طيبة ، ثم نتعهده بعد ذلك بأن نحيطه ببيئة صحيحة ، كأن نعلمه فى مدرسة داخلية تسير على منهج خاص ، وفى هذه المدرسة نعلمه الدين قولا وعملا ، ثم ندربه على مباشرة عملية الدعوة شيئاً فشيئاً ، وهكذا حتى يتم بنيانه ويصير داعية بحق .

إن دور الداعية خطير فهو المنذر كما كان سيدنا رسول الله ، وخطورة دوره تأتى أيضاً من كثرة المعارضين وتنوعهم .

ولو صدقت النية فى إعداد الدعاة لوجدنا الداعية الصحيح الذى يتصف دائماً بصفتين أساسيتين :

الأولى : أن يجعل الدعوة حية فى كيانه كله تملأ ضميره وتجعل راحته فى العمل لها والحركة بها ، وتشغله عن نفسه وماله وولده ، ويتمثل ذاته حارسها الوفى ، وصاحبها الأمين فيهب لها كل ماىمكنه ليكون كل شئ فيه لله ويتمثل لنفسه ماقاله الرسول صلى الله عليه وسلم ذاكراً حالته بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١)

والمعنى أن عبادتى كلها وما أنا عليه فى حياتى وما أكون عليه عند موتى ، كل ذلك خالص لله تعالى وحده ، فإذا مافعل الداعية ذلك صارت الدعوة عنده فطرة ، وظهرت أسرار الدعوة فى ألفاظه ، وحركته ، ومسلكه ، مما يهيئ المدعوين سريعاً لتقبل الحق ، كتهيئة دعوة الرسول لبعض أهل الكتاب ، فلقد كانوا حين يسمعون القرآن يتأثرون به ويؤمنون ، انظر قوله تعالى .

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾(٢)

الثانية : أن يستشعر خطورة دوره ، وأن يدرك أنه لن يبلغ فيه شأوه إلا إذا تطابق عمله وقوله ، وقد بين الله سبحانه وتعالى أن المخالفة بين القول والعمل أمر ممقوت فقال عز وجل مخاطباً المؤمنين :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾(٣)

(١) سورة الأنعام آية ١٦٢ . (٢) سورة المائدة آية ٨٣ .
(٣) سورة الصف آية ٢ ، ٣ .

وذلك لأن المخالفة نوع من النفاق ، فكيف يكون بالمخالفة داعية ، وأيضا فهو وارث والموروث هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قدوة فى القول والعمل معاً .

والمعلوم أن الناس يعظمون الشخصية القائدة التى تتحد قولا وعملا.

إن علامة صدق القول مطابقة العمل ، بل هو الصدق فى الحقيقة عند العلماء ، ولذلك قال تعالى :

﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ وقال فى ضده ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾

فاعتبر فى الصدق مطابقة القول والعمل ، وفى الكذب مخالفته ، وحسب الناظر أن أفعال النبى صلى الله عليه وسلم كانت مع أقواله على الوفاء والتمام ، وحين سأله الرجل عن أمر فقال : إنى أفعله ، فقال له : إنك لست مثلنا قد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فغضب النبى صلى الله عليه وسلم وقال : **والله إنى لأرجو أن أكون أخشاكم الله وأعلمكم بما أتقى ..** ولهذا المعنى كانت عصمة الأنبياء هى الفارق بينهم وبين سائر البشر ، والمؤدية إلى الاتباع فإنهم لو لم يكونوا أهلا لنيل المرتبة العليا — عياذا بالله من ذلك — لكان ذلك منفراً وصاداً عن الاتباع .

وحينما نهى النبى عن الربا لم يكتف بالقول بل قرن نهيه بالفعل والتطبيق على نفسه وأهل بيته ، فقال :« **وأول ربا أضعه ربا عمى العباس . وأول دم أضعه دمنا دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب** »، وقال حين شفع فى حد السرقة : « **والذى نفس محمد بيده لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها** » .

وهكذا يجب أن ينشأ الداعية ، ويجب أن يكون .

وواجب الأزهر فى هذا المجال ضرورى ، ولا مجال له سواه ، وعليه أن يكون داعية قادراً ليتمكن من أداء دوره الخطير .

صفـــات الداعية

الشخصية الكاملة يبدأ كمالها من ذاتها ، وتعبر عنه بصلة قوية بالله ، وصلة قوية مع الناس . وهذا تفصيل فى الصفات التى يجب أن يتمتع بها الدعاة .

أولا : صلة الداعية بالله :

الداعية مرشد إلى الخير . وموجه نحو الهدى . وكل هدفه أن يعرف الناس بربهم الخالق ليفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة .

وعليه هو أولا أن يمتن صلته بالله فى يقين وقوة ويجعل إيمانه قائما على التفرغ الكامل لمولاه ،والارتباط المطلق به ، والتوكل الراسخ عليه ،والتسليم التام لكل ما يأتى بـــه من غير ارتياب — أو حرج — لتكون الدعوة بذلك نابعة فى قوله وفعله . وكل ذلك سهل ميسور .

إن معرفة الله يلمسها من القرآن الكريم كتاب الدعوة الذى هو دستوره وهاديه ، ومن آياته يعلم أن الله واحد منزه عن الشريك فى ذاته وصفاته وأفعاله .

وآيات القرآن واضحة فى مفهومها ودلالاتها . انظر قوله تعالى :

﴿إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾(١)

تراها قد صرحت بوحدانية الله من غير غموض بل إن القرآن يدافع عن هذه الوحدانية فيدعو الى ترك ما عداها فيقول :

﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾(٢)

---

(١) الصافات آية ٤ .

(٢) النحل آية ٥١ .

ويتجه بالدليل إلى العقل ليقتنع ويرضى .

ولا تقف الآيات عند الحديث عن وحدانية الذات بل تتكلم عن كل كمالاتها بإثبات الصفات والآثار . ومن هذه الآيات قوله تعالى :

﴿ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴾(١)

فتجد هذه الآيات وغيرها تعرف بأن الله موجود قديم حى باق عليم مريد قادر سميع بصير متكلم ، وبإثبات هذه الصفات تنتفى أضدادها . والصفات وإن تشابهت ألفاظها مع مسميات صفات البشر إلا أنهـا ليست هى فى الحقيقة لأن الله ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ .

والقرآن الكريم لا يترك الداعية يبحث وحده عن الدليل الدافع إلى الإيمان بكل هذا ، بل يوجه نظره إلى الآثار الإلهية فى المخلوقات ليتم إيمانه ويحسن بطمأنينة خاصة تمر بين جوانبه ، فلا يرى بعد ذلك إلا الخير المطلق يسرى فى داخل النفس وخارجها . والمخلوقات عديدة والنظر فيها يبين الدقة الإلهية والعناية الربانية . ويؤدى إلى الإيمان المطلوب ... فنفس الإنسان المركبة من باطن فيه جهاز هضمى وآخر للتنفس ، ومن ظاهر به حواس وجوارح هذه النفس بكـل أجزائها تقوم بوظيفتهـا بطريقة آلية دقيقة . وقد وزعت الأعمال فى براعة ودقة على كافة الأجهزة . ليقوم كل بدوره فالعين ترى . والأذن تسمع . واللسان يتكلم ، والرجل تمشى . والأسنان تمضغ . والمعدة تهضم . والرئة تستنشق ... .

وهذا كله يشير إلى العناية والدقة وتجعل الإنسان يؤمن بلا تردد بعد رؤيته ونظره .

وقد حث الله الإنسان على النظر إلى النفس فقال تعالى :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾(٢)

---

(١) سورة الرعد آية ١٦ .

(٢) سورة الذاريات آية ٢١ .

ليروا فيها دلالة واضحة على وجود الصانع وحكمته وتدبيره ، ويكفى أن ينظر الإنسان إلى نفسه ليرى كما قال الزمخشرى فى ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال. وفى بواطنها وظواهرها عجائب الفطر. وبدائع الخلق.. وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وخصت به من أصناف المعانى. وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما فى تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة. والبينات القاطعة. على حكمة المدبر، دع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح . وتأتيها لمـا خلقت له . . وما سوى فى الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثنى فإنه إذا جسا شىء منها جاء العجز واذا استرخى أناخ الذل (١) .

وكما يجب النظر إلى النفس فإن هناك العالم الفسيح المملوء بالآيات البينات والعجائب الرائعة التى يجب النظر فيها يقول تعالى : ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

إن الداعية وهو يلازم الدعوة عليه أن يفكر فى هذا وفى غيره ليؤمن الإيمان الواجب ويعلم من غير تردد حق الله الذى آمن به فيؤديه . وقد حصر الله سبب خلقه للجن والإنس فى أداء هذا الحق فقال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ يقول الزمخشرى: إن معنى الآية ماخلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة ولم أرد من جميعهم إلا إياها (٢) ولذا دعيت كل الأمم إلى واجبها يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ وكان النداء الأول فى دعوة كل رسول هى ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ لأن الإيمان بالله الخالق والتسليم له يقتضى حتما وبالضرورة أن تكون العبادة له وحده .

إن العبادة هى الحبل الوثيق الذى يربط الإنسان بالله وليس هناك سبيل سواها . والله قريب من عباده قرباً لا واسطة فيه ، والداعية يعلم ذلك فيعبد

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٦ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢١ .

الله مخلصا له الدين ويتفرغ فى عبادته ، ولذلك فعبادته غذاء روحى ترتقى بها ذاته ، وتذكره بالسلطان ، وتسمه بحسن الخلق وكريم المعاملة ، وذلك كله سر العبادة وحقيقتها فمثلا عن الصلاة — كعبادة — قد أمر الله بإقامتها دون مجرد الإتيان بها لأن إقامة الشىء هى الإتيان به مقوماً كاملا يصدر عن علته ، وتصدر عنه آثاره ومن المعلوم أن الغــاية من الصلاة ذكر الله كما قال تعالى :

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾(١) .

وآثارها تظهر على المصلى ذاته لأنها ﴿ **تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ **(٢)** وهى بالإقامة عبادة حقة فيها خضوع كامل ناشىء عن إحساس يقينى بعظمة الرب القادر سبحانه وتعالى ويتبعها أثرها المراد الذى يظهر فى البعد عن كل باطل ، والتخلق بكل حسن وجميل ، وهكذا كل عبادة تعطى النفس جرعة من الذكر وجزءاً من السعادة .

ولا يرى الداعية من عبادته هذه المنزلة إلا إذا أداها مخلصا كما أمر فإن القوم جميعاً ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾(٣) وقد قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ **إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين** ﴾(٤) ولذا فهم بسبب هذا الإخلاص يشعرون بالمعية الإلهية دائما و ﴿ **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا** ﴾(٥) انظر إليهم تجدهم ﴿ **يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم** ﴾(٦) لا يفــارقون ذكره فى لحظة من لحظات الحياة وكذلك يذكرهم ربهم فى الحديث القدسى : « **أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى . وإن ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملإ خير منه** » **(٧)**. وهم فى ذكرهم الدائم الخوف والرجاء ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا (٨) ﴾ .

(١) سورة طه آية ١٤ . (٢) العنكبوت آية ٤٥ . (٣) البينة آية ٥ .
(٤) الزمر آية ١١ . (٥) المجادلة آية ٧ . (٦) آل عمران آية ١٩١ .
(٧) صحيح البخارى جـ ٩ ص ١٣٩ . (٨) السجدة آية ١٦ .

والداعية كما هو الواقع يعلم أن العبادة لا تقتصر عن نوعها الخاص الذى رسم الدين إطارها، وحدد شعائرها كالصلاة والصوم والزكاة والحج . بل إنه فى كل حياته عابد كما أراد الله بالمعنى العام والخاص معاً . فاجتماعياته عبادة يفعلها لله رب العالمين والسعى فى معاشه والتعاون مع أهله عبادة يؤديها ويلتزم بها لأنها من حقيقة دينه .

والقرآن الكريم يقرن من خرج مجاهداً فى سبيل الله بمن خرج سعياً على المعاش فيقول تعالى :

﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾(١)

إن هذا الفهم الأصيل يجعل العابد فى علاقة خيرة مع الناس فيعود المريض ويطعم الجائع ويسقى العطشان . ويرفع الأذى من طريق الناس . ويدفع إلى السعى والضرب فى الأرض ، وهكذا . يؤدى الداعية العبادة بهذا الفهم وبتلك النية ويسلمها لله رب العالمين .

وعبادة الداعية كما هو المطلوب استغراق كامل فى عالم الروح لأنها عنده لذاتها فتربطه تلقائيا بالله . وتبرزه كحقيقته خاضعا لربه محبا هائماً فى تعلقه . لأنه بإيمانه أشد حبا لله ، والمؤمنون كما عرفهم ربهم بقوله :

﴿ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾(٢)

وهم عباد الله بحق « **يحبهم ويحبونه** » لأن الله يحب المتقين المحسنين الصابرين .

ومع هذه العاطفة الصادقة من الداعية لا يملك أمام أمر الله إلا السمع والطاعة ، ويبحث عن المعروف ليفعله ويأمر به ، وعن المنكر ليتجنبه وينهى عنه ، وبسبب استغراق الداعية فى ذكر ربه الحبيب إليه كانت العبادة أعظم

---

(١) سورة المزمل آية ٢٠ .

(٢) البقرة آية ١٦٥ .

علاج لراحة نفسه . ونسيان آلامها ، كما أنها أعظم وسائل الشكر تحقق الهدوء التام .

إن هذا الإيمان الراسخ (من الداعية) الذى استتبع عبادة مخلصة وصادقة ، وحبا هائما شاملا يؤدى بصاحبه حتما إلى التوكل الدائم على الله والاستسلام له بلا تردد لأنه ما دام قد ثبت فى نفسه ثبوتاً جازماً إنه لا فاعل إلا الله ، وافتقد فيه تمام العلم والقدرة على كفاية العبادة ، ثم تمام العناية والرحمة بجملة العباد وآحادهم وإنه ليس وراء منتهى قدرته وعمله ورحمته قدرة ولا علم ولا رحمة أخرى فإنه متكل لا محالة عل الله . مستمر فى انفعاله الروحى الصادق . لأن الله معه فى كل آن وحال .

ولتمام توكله نجده يسلم أمر رزقه إلى الله لـ **﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ (١)** ويترك كل شيء كإرادة الله لأن المسألة هى **﴿إن الحكم إلا لله عليه توكلت﴾ (٢)** ويشكر النعم ويصبر على المكروه **﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ (٣)** .

وعلى الجملة فإن الأمر كما يقول الحكيم الترمذى : «من نور الله قلبه بالإيمان قويت معرفته واستنارت بنور اليقين فاستقام قلبه واطمأنت به نفسه . وسكنت ووثقت وأيقنت وائتمنته على نفسها فرضيت لها به وكيلا وتركت التدبير عليه . فإن وسوس له عدوه بالرزق والمعايش لم يضطرب قلبه ولم يتحير لأنه قد عرف أن ربه قريب وأنه لايغفل ولا ينسى وأنه رؤوف رحيم وأنه رب غفور رحيم وأنه عدل لا يجور وأنه عزيز لا تمتنع منه الأشياء وأنه يجير ولا يجار » (٤) .

وبهذه الصلة الصادقة مع الله تكتمل عقيدة الداعية فيكون خيرا فى كافة الجوانب بعد ذلك .

---

(١) الذاريات آية ٥٨ .
(٢) يوسف آية ٦٧ .
(٣) ابراهيم آية ١٢ .
(٤) الرياضة وأدب النفس ص ٩٣ .

ثانياً : صلة الداعية بالناس

لا يقف أمر الداعية عند تحسين صلته بالله على نحو ماسبق فإن ذلك يفيد شخصه وحده وهو مستوى يحتاج إليه كل من أسلم وجهه لله وهو محسن . وإنما على الداعية أن يحسن صلته بالناس، فمعهم تكون دعوته ولهم ينشرها وبهم يحقق نصرها وفوزها . وهذه الصلة الاجتماعية ضرورية للداعية لأنه — **أولا** — أخ للناس استظهر عليهم بالنصح والتوجيه . وهو — **ثانياً** — محل الثقة والنظر لما له من صفات ولما ينادى من مبدأ . وهو — **ثالثاً** — رائد الجماعة وزعيمهم ولذلك وجب أن يتحلى بصفات تجعله يعيش وسط الناس فى فهم وتقدير . ويتألف معهم فى مودة . ويتحلى بما يضعه فى الريادة من غير منازعة وشكوك ومن هنا نتحدث عن صلة الداعية بالناس من جوانب ثلاث هى :

١ — تقدير الناس .

٢ — صفات التآلف والمودة .

٣ — صفات القدوة والريادة .

وستكون على النحو التالى :

١ — تقدير النـــاس :

الناس جميعاً أخوة ومردهم جميعاً إلى عنصر واحد هو آدم أب البشر أجمعين . وعلى الداعية أن يتيقن ذلك . ويعمل على أساس أنه ليس هناك فرق بين إنسان وإنسان بسبب لونه أو طبيعته أو عنصره وإنما التفاوت بشئ خارج عن ذات الشخص وعنصره كإيمان أو عمل أو ذكاء . وهو تفاوت لا يمس الإنسانية فى شئ وقد وضح الله هذه الحقيقة بقوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١)

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

يقول الزمخشرى: «إن معنى الآية ، فما منكم من أحد إلا وهو يدلى بما يدلى به الآخر سواء بسواء فلا وجه للتفاخر والتفاضل فى النسب »(١) وذلك شئ طبيعى لأن الإنسان خلق مكرما ولهذه الكرامة الإنسانية جاءت النداءات فى القرآن الكريم مصدرة بـ « يابنى آدم » و « ياأيها الناس » تنويها بهذه الصفة العامة التى يأخذ منها أى إنسان بقدر مايأخذ الآخرون سواء بسواء .

إن هذا الفهم عند الداعية يجعله لا يفرق بين إنسان وإنسان فى دعوته ولا يفرق بينهم بسبب غنى أو حسب أو ماشاكل ذلك ، فلا يدعو القوى تاركا الضعيف . أو يخصص غنيا مهملا الفقير . أو يقصر دعوته على الرجال دون غيرهم . وذلك لأن دعوته عامة للجميع ، وهو المكلف بنشر هداية الله بينهم . والكل محتاج إليها . بل إن الضعيف الضال أحوج إليها من سواه ولذلك فالإعراض عنه ليس من صفات الداعية المثالى .

ولقد أودع الله للدعاة درسا فى هذا الباب بما حدث من النبى صلى الله عليه وسلم مع عبدالله بن أم مكتوم . فرغم أن عبد الله كان أعمى مما جعله لايتحقق من عمل النبى صلى الله عليه وسلم فى مجلسه فدخل عليه طالبا التعليم فى الوقت الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم مشغولا فيه بتعليم غيره من صناديد قريش . وكونه أعمى يعطيه العذر فى عدم تقدير الوقت المناسب للسؤال وسبق القرشيين فى الحضور يعطى النبى صلى الله عليه وسلم عذرا فى إمهال عبد الله . خاصة وأن عبد الله أسلم من قبل . والقرشيين لم يسلموا بعد . وفى إسلامهم إسلام غيرهم . رغم ذلك فقد عوتب النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الموقف حتى لا يقال إنه أهمل عبد الله لفقره وعماه ، واهتم بغيره لجاهه وغناه ، ولا يبقى هذا القول بعد ذلك بداية سيئة يهتم فيها الدعاة بالأشياء الظاهرة ويفرقون بين بعض الخلق وبعض آخر بما ليس لهم به سبب . فقال تعالى :

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٥٦٩ .

يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾(١)

إن النبي فى هذا الموقف كله كان يعمل للدعوة ويسعى إلى إسلام القوم وتزكيتهم باذلا من نفسه جهدا وعملا كما تفيده التاء فى « تصدى » والقوم الذين تصدى لهم النبي صلى الله عليه وسلم هم عتبة وشيبة ولدا ربيعة وأبو جهـل والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة وهم قادة مكة ورؤساؤها مما جعل الرسول يرجو من إسلامهم إسلام غيرهم (٢) ولذلك تصدى لهم مستمرا فى دعوتهم فلما جاءه عبدالله ودعـاه لم يقطع حديثه معهم وإنما أعرض عنه . فكان العتاب موعظة (ترسى مبدأ أسلامياً هو الحرص على كرامة الإنسان مطلقاً ، يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها ، وهى موعظة تشير إلى ضرورة وجود الأمور الآتية عند الدعوة) :

(ا) لا فرق بين إنسان وإنسان مهما كان مظهره أو جنسه أو جاهه أوماله وكما يقول ابن هشام فى تفسير الآيات . أى : إنما بعثتك بشيراً ونذيراً لم أخص بك أحداً دون أحد فلا تمنعه ممن ابتغاه ولا تتصدى به لمن لا يريده(٣) .

(ب) تلقى الدعوة للجميع فى وضوحها ويترك الأمر بعـد ذلك لله لأن علم الداعية محدود . أما علم الله فهو الشامل المحيط وإذا مادعى إنسان فإن ذلك يكفيه،وبعـدها﴿**ما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى**﴾ وإذا ماتخيل الداعية كفر إنسان﴿**وماعليك ألا يزكى**﴾ والأمر كله على صاحبه .

(حـ) لا يجوز الابتئاس من إنسان قصد التعلم مهما أخطأ لأنه أتى طالباً زيادة الخير . فليكن من الخير الذى يتعلم طريقه أن لا يخطئ أما إن انتظر الداعية أن لا يخطئ عنده أحد فما فائدة الدعوة وفائدته هو إذا . ؟ !

(ء) لا تقتصر الدعوة على من أسلم أو على من لم يسلم وإنما هى لمن أسلم تأكيد وتذكر ولغيرهم هداية وتعليم .

---

(١) سورة عبس آيات ١ : ١٠. (٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢١٨

(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٨٨ .

(هـ) ومـع أن الدعوة للجميع فإنها تكرر أكثر للأدنين من الناس فتحا لآذانهم المغلقة وتقوية لقلوبهم الضعيفة . وتاميلا فى مركز أعلى ، ومقـام أسمى ، لأن لهم من وضعهم الاجتماعى عذراً فى تخلفهم . ويكفى أنهم أمام الدعوة على الفطرة وما أضلهم إلا الجهل واتباع السادة الـكبراء . وفى تقديرهم بيان واضح عن حقيقة ثابتة للدعوة فى أنها تكرم الناس كل الناس وهم عندها سواسية كأسنان المشط .

بل إن هـذا الفهم من الداعية يجعله يتمسك بملامح إنسانية ليكون على مستوى فهمه للناس وتقديره لهم ولا يظهر منه إلا مايؤكد هـذا الفهم ليألفوه ويتعلقوا به وتنشأ بينهم مودة أساسها الثقة فيه والحب له والتفكير فى دعوته وكلامه . ولذلك لزمه صفات سنتحدث عنهـا .

٢ — صفات المودة والألفة :

الناس بالنسبة للداعية هم مجال دعوته والمحيط الذى يتحرك فيه ولذلك لزمه أن يكون على وفاق معهم . وأن يقدم من نفسه صورة أخلاقية تحقق التآلف والمودة وتنزله فى موطن الحب والتقدير وتجعل الثقة هى أساس نظرتهم له . ويمكننا أن نشير إلى هـذه الصفات فيما يلى :

(ا) الصدق والأمانة :

الصدق فوق أنه فى حـد ذاته سلوك سام وصفة راقية فهو منبع الثقة وأساس التسليم لأن الصادق لايخالف الواقع ، وكل قوله مسلم لا يحوم حوله شك أو تكذيب ،والصدق فى الداعية ضرورة لأن مايذكره ليس رأياً شخصياً ولا اجتهاداً ذاتياً يستخرجه وإنما هومبلغ دعوة الله كما جاءت ،مبين لغوامضها وناقل كل بيان قيل فى شأنها . وكل هذا يحتاج إلى صدق فى التبليغ ودقة فى النقل والبيان حتى يتصور المدعو من أول لحظة أن كل مايسمعه من الداعية هـو رسالة الله ، وأن الدعوة كما بدت من قوله هى كما تركها رسول الله صـلى الله عليه وسلم بلا تزيد أو انتقاص ولذلك كان من الحكم الخالدة فى رسالة الإسلام أن أهم صفة اشتهر بها النبى صلى الله عليه وسلم هى صفة « **الصادق**

الأمين » وقد ذكر النضر بن الحارث بعض أوصافه لقومه فقال لهم : « **هو أصدقكم حديثاً** »(١) . ولما سأل هرقل أبا سفيان (ولم يكن قد أسلم بعد) عن محمد قائلا : وهــل كنتم تتهمونه بالــكذب قبل أن يقول ماقال ؟ **أجابه : لا فقال هرقل : أعرف أنه لم يكن ليذر الــكذب على الناس ويكذب على الله**(٢) وهـــذا القول من هرقل يبين أهمية الصدق لأن دعوة الله لانعلمها إلا من مبلغها ومن كذب على الناس جاز أن يكذب على الله . أما من التزم الصدق مــع البشر فهو صادق حتما مــع الله سبحانه وتعــالى .

ولمـــا بدأ النبي صلى الله عليه وسلم يجهر بدعوته سأل الناس «**لوأخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هــذا الجبــل . أكنتم مصدقى . قالوا جميعاً : ماجربنا عليه كذبا** »(٣) ولذلك كثرت التنبيهات والتوجيهات فى القرآن والحديث لالتزام الصدق فى كل شئ فقال تعالى .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم « **عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة** »(٤) بل يصل الأمر فى أهمية الصدق إلى جعله أحد الصفات الأساسية للمسلم . لأن الإسلام فى حقيقته نبذ للأوهام وبعد عن الباطل وهو بذلك يتنافى مــع الــكذب ومن افتراه .

سئل النبي صلى الله عليه وسلم « **أيكون المؤمن جبانا ؟ فقال : نعم . فقيل : أيكون المؤمن بخيلا ؟ فقال : نعم . فقيل له : أيكون المؤمن كذابا ؟ فقال : لا** (٥)». وإن كان هذا شأن المسلم على إطلاقه فما بالك بالداعية الذى هــو فى أشد الحاجة إلى أن يتبع ، وبغير الثقة فى صدقه لا يكون هناك أتباع

---

(١) سيرة النبى جـ ١ ص ٣١٩ .
(٢) صحيح البخارى جـ ١ ص ٥ و ٦ باب بدء الوحى .
(٣) صحيح البخارى جـ ٦ كتاب التفسير .
(٤) موطأ مالك جـ ٤ ص ٢٢٧ . ما جاء فى الصدق .
(٣) صحيح البخارى جـ ٦ كتاب التفسير باب تبت يدا أبى لهب .
(٥) موطأ مالك جـ ٤ ص ٢٢٨ ما جاء فى الصدق والكذب .

ألا ترى إخوة سيدنا يوسف عليه السلام حينما احتجز أخوهم عند يوسف ذهبـــوا إلى أبيهم قاصين ومن أجل أن يثق فى قولهم قالوا : **﴿واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون﴾**(١) بل إن رسل الله إلى لوط عليه السلام يقولون له **﴿وأتيناك بالحق وإنا لصادقون﴾**(٢) فتجـــدهم يظهرون صفة الصدق لمحدثهم على وجه التأكيد فيها ليكون ذلك أدعى إلى السماع وأسرع فى الموافقة لا فرق كما هو مذكور بين الملائكة والبشر لأن الإقناع لايتم إلا بالأمر الواقع ويعيش دائماً مـــع الحق والثبات . ومن أكثر من الدعوة فى حاجتها إلى الإقناع والثبات . ؟ !

صحيح أن الدعوة تحمـــل فى طياتها عناصر الثقة بها من واقعية فى التشخيص ودقة فى الإسعاد . لـــكن هـــذا لا يعنى الداعية من ضرورة الثقة فيه أيضاً لـــكى تصغى إليه الآذان ، وتسمع العقول وتفكر الأفئدة وبعدها يكون قـــد أدى ماعليه .

ومما يلازم الصدق صفة الأمانة الشاملة لـــكل مايقوم الإنسان به تجاه نفسه وتجاه الناس من قول أو عمل ومن أكبر الخيانات أن تكذب الحديث حيث يقول صلى الله عليه وسلم « **كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب** »**(٣)**، ولذلك أمر بأن لايخون فى أى جانب من هذه الجوانب حيث قال تعالى **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾**(٤) وكما ارتبط الأيمان بالصدق فهو يرتبط بالأمانة . . ويجب أن يشتهر الداعية بالأمانة كما اشتهر بالصدق عند الجميع من أسلم ومن لم يسلم ليتحقق خير كثير للدعوة .

(ب) الحلم والعفـــو :

الحلم صفة هامة للداعية تجمع القلوب وتذيب الإحن وتعطى له قدراً كبيراً من الصلابة فى مواجهة أشد المواقف وأحلـــكها وهو أول مايمتحن

---

(١) سورة يوسف آية ٨٢ .
(٢) سورة الحجر آية ٦٤ .
(٣) البخارى باب الأدب المفرد .
(٤) سورة الأنفال آية ٢٧ .

به الخلق الحسن . إذ يقرب الغريب ويذهب العداوة . وهــل يستوى هــو والتهور ؟ أبداً لايستويان لأن الحلم سيد الأخلاق والحقيقة أنه ﴿ **ولاتستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم**﴾(١) والحلم ليس دليل ضعف أبدا بل هو الدليل على القوة ، والمالك لنفسه عند الغضب هو القوى فى الحقيقة . يقول النبى صلى الله عليه وسلم : «**ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب**»(٢) والإسلام رغم أنه يعطى للنفس حقها فى مقابلة السوء بمثله حيث قال تعالى: ﴿**وجزاء سيئة سيئة مثلها**﴾(٣) وهذا شئ طبيعى يتفق مع غريزة الإنسان فى الانتقام والانتصار إلا أن الأسس من الانتصار هو أن يكون المنتصر حليما يعفو عند الإساءة . فقال تعالى عقب هــذا الجزاء المثلى ، فمن عفا وأصلح فالجزاء على الله ، وكون الأجر على الله يحتمه العفو إلى درجة كبيرة .

ولضرورة هــذه الصفة للداعية أمر الله رسوله بها فقال له: ﴿ **خــذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾(٤) وقال له : ﴿ **فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين**﴾(٥)

وعلى الدعاة أن يهتموا بالحلم والعفو ليصلوا إلى غرضهم ولا يجعلوا همهم الغضب والانتقام لأن ذلك ينفر المدعوين منهم ولا يحببهم فى استماع الدعوة وتفهمها . يقــول الإمام الغزالى « أما حسن الخلق بعــد العلم والورع فضرورة ليتمكن من اللطف والرفق وهو أصل الباب وأسلمه والعلم والورع لايكفيان فيه فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع فى قمعه مالم يكن فى الطبع قبوله . وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مــع حسن الخلق والمقدرة على ضبط الشدة والغضب ، وبه يصير المحتسب على ماأصابه من دين الله وإلا فإذا أصيب عرضه أو ماله أو نفسه نسى الحسبة وغفــل عن دين الله واشتغل بنفسه بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والاسم »

---

(١) سورة فصلت آية ٣٤ .
(٢) موطأ مالك جـ ٤ ص ٩٥ ما جاء فى الغضب .
(٣) الشورى آية ٤٠ .
(٤) الأعراف آية ١٩٩ .
(٥) المائدة آية ١٣ .

ويقول الشيخ ابن علوى الحداد : « على الدعاة أن يكونوا على نهاية من الصبر والاحتمال وسعة الصدر ولين الجانب وخفض الجناح وحسن التأليف وإن دخل عليهم شئ من أذى الجاهلين عليهم أن يصبروا ويعرضوا ويقولوا خيرا لأنهم من عباد الرحمن الذين إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً »(١) .

ويقول ابن تيمية « ولابد فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الرفق ولابد أن يكون حليما صبوراً على الأذى فإنه لابد أن يحل له أذى فإن لم يصبر ويحلم كان ما يفسد أكثر مما يصلح وينقل ماقاله القاضى أبو ليلى ، لايأمر ولا ينهى إلا من كان رفيقاً فيما يأمر به رفيقاً فيما ينهى عنه حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه »(٢) .

ويكفى الدعاة أن يتعلموا من توجيهات القرآن الكريم المؤكدة نحو الحلم والعفو حيث قال تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾(٣) ويتعلموا كذلك من صنيع رسول الله يوم الفتح مع أبى سفيان قاتل عمه والد أعدائه ومجمع الأحزاب عليه فلقد عفا على كل جناياته وحلم عليه ووضعه فى موقف كريم حيث جعل داره مكانا آمنا لكل من يدخله كالكعبة تماماً فى هذا وكان فى مكنته أن يسفك دمه لكنه فعل ذلك ليصنع بالحلم قوة للإسلام ونصرا ، وليبقى درساً لتأليف القلوب ونشر المحبة .

(ج) التواضع :

التواضع أحد الصفات الأساسية التى تساعد على المعاشرة الحسنة لأن المتواضع يعيش مقدراً لنفسه وللناس ومقدرا من الآخرين ، ومن هذا المنطق لايبدو متعاليا قط ولا يكون وضيعا أبدا ويحس أن المساواة الأصيلة هى الروح المسيطرة فيألف ويؤلف ويأنس ويؤتنس به .

---

(١) الدعوة التامة ص ٩ .

(٢) الحسبة فى الإسلام ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٣) سورة النور آية ٢٢ .

وينشأ التواضع فى النفس بسبب يقينها بأنها والناس جميعاً من نفس واحدة وما انقسمت إلى القبائل والشعوب إلا لأجل التعارف واللقاء والتآلف حفاظاً على ماتمليه الإحساس الواقعى بالأصل الواحد . واتباعا لتعاليم الرب الواحد الذى كفل للناس فرصة متكافئة فلا يتمايزون بخلقهم أو لونهم أو ثقافتهم وإنما جعل التمايز تابعا للإيمان والعمل . وحتى مع التميز بالإيمان والعمل فإن الواجب على المؤمن أن يتمسك بالتواضع حتى النهاية لما يحققه من فائدة . انظر ماقاله الله تعالى لنبيه هذه الحقائق ﴿ **ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾(١) فالجميع من أصل واحد ، والتفرق للتعارف ، والكريم هو التقى ، والذى يحكم بالدرجة الصادقة هو الله العليم الخبير ، . أما هذا الذى يتعالى حتى ولو يتقواه فلا يعتد به لأنه زكى نفسه مخالفاً أمر الله القائل ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى** ﴾(٢) .

والداعية الذى جعل همه الدعوة إلى الله يجد نفسه ملتزماً بالتواضع ليتمكن من التماس طريق الله الذى دعا إليه عباده الصالحين ليتحقق له كل ماوعد الله به . من تمتع كامل بالدنيا ومن تمتع عظيم بالآخرة ، فان الواقع أن ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين** ﴾(٣) ومن استفاد بكل آيات الذكر والكون لأنها لن تصرف عن فهمه لتواضعه كوعدالله القائل ﴿ **سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق** ﴾(٤) فبين أن عقول المتكبرين وجندهم هى التى لاتفهم ولا تعى فيجادلون فى الحق بعد تبينه ومهما عرضت لها الآيات الواضحات كونية أو قولية لا يرونها . ذلك حالهم . وحال المتكبرين دائما « كذلك يطبع

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٢) سورة النجم آية ٣٢ .

(٣) سورة القصص آية ٨٣ .

(٤) سورة الأعراف آية ١٤٦ .

الله على كل قلب متكبر جبار » وإنما فقدوا كل هذا لأنهم بالتكبر بعدوا عن رحمة الله وحبه « إنه لا يحب المستكبرين» وبفقدهم هـــذا الحب لا يجدون أى حب من الناس لأن الملائكة تنادى أرواح البشر أن الله يبغض فلانا ليبغضوه . وسيجدون أنفسهم بعـــد ذلك فى عزلة من الناس ومقاطعة ، وهذا مما لا يرضاه داعية لنفسه .

على الداعية أن يلتزم بالتواضع ليقرب من الناس لأن دعوته فى حاجة إلى صلة مستمرة بهم وعليه أن يكون قريباً إلى قلوبهم وأرواحهم والتواضع هو صانع ذلك كما بينته الحقائق الدينية التى عاشها النبى صلى الله عليه وسلم تطبيقاً على نفسه وتوجيها لمن بعده من المؤمنين ، اقرأ هذا الأمر إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ **واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين** ﴾(١)، والمس منه التوجيه الواجب إلى التواضع لأنه بهذا الخفض يقرب منهم . ويوجه عقولهم وأرواحهم ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم لايتعالى على أحد من أصحابه بل يجلس معهم ويعرفهم أنه كأحدهم فى كافة شئون حياته . وإذا مامر بصبيان صغار وقف وسلم عليهم وعن أنس أنه مر على صبيان فسلم عليهم وقال : « **كان النبى يفعله** »(٢) بل أنه يوضح لأصحابه تواضعه فيما قام به من عمـــل . « **ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم** » ، فلما سأله جابر عن نفسه قال « **وهل من نبى إلا وقد رعاها** » (٣) .

وعلى الدعاة أن يلتزموا بالتواضع الـــكامل حتى يتمكنوا من تأدية دورهم ويضربوا فى هـــذا المجال صورا عملية كثيرة .

٣ — صفات التأثير والقيـــادة :

الداعية لايكتفى بالمودة مع الناس لأنه صاحب رسالة يعمل لنشرها فيهم ويهديهم بها وذلك لايتأتى له إلا إذا تمتع بشخصية مؤثرة فيها قدرة الجذب

---

(١) سورة الشعراء آية ٢١٥ .

(٢) رياض الصالحين ص ١٧٤ .

(٣) صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٩١ كتاب بدء الخلق . باب يعكفون على أصنام لهم .

النفسي ومنها يقبل التوجيه والريادة . على أن هذه الشخصية لابد أن تمتلك مجموعة من الصفات لتحقق هـــذه السمات التأثيرية والتي منها :

(ا) المشاركة الوجدانيـــة :

وهي صفة هامة للداعية تجعله يعيش حياة الناس ليشعر بشعورهم وينفعل مـــع آرائهم وحياتهم ويتداخل في تقاليدهم وكافة شئونهم . بصدق،وفهم ، وتحليل . ويجب أن تأخذ هـــذه الصفة عنده شكلا عاماً بمعنى تواجدها تلقائيا مع الجميع لا تفرقة بين غني وفقير أو رئيس ومرءوس . ورفيع أو وضيع لـــكي يصل بالدعوة إلى الجميع . فإن المشاركة تضفي أحساساً عملياً له قوته في الوصل والتأثير ، ومن المعروف أن المشاركة الوجدانية هي الرباط الحريري الذي يصل القلب ويربط العقل بالعقل وبالجسم وبالروح»(١) وهي التي تنشئ كل التصرفات والسلوك . وتأثيرها في الحياة الاجتماعية مؤكد بسبب خلوها من الزيف والتصنع ، ولأنها تظهر مع أول مقتض . ولـــكل أمر . ولا تحتاج إلى عناء كبير لـــكي تعرف وتدرك لملازمتها القول والسلوك والعمل . والداعية بها ينتظره الناس ويقدمونه عليهم فيأخذون رأيه وينهجون نهجه ويجعلونه رائدهم وما استحق ذلك عندهم إلا بعـــد أن تأكدوا من الصور العملية لهذه الصفة . فهو حبيب يتمنى الخير للجميع كما يتمناه لنفسه فيصل الرحم ويكرم الجار ويقرى الضيف ويخلص للجميع ، ولا يترك أمراً فيه مصلحتهم إلا ويحث عليه ويبعدهم عن سواه . ودائماً تلقاه مهتما بالخير فيكرر النصيحة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وتعاونه مـــع الجميع يلمسه الجميع في كثرة ووضوح . وفي هـــذا لا ينتظر من الناس جزاء أو شكوراً . وكل مايتمناه أن يجعل الأفهام متفتحة لدعوته مقبلة على تدبرها واليقين بهـــا .

والداعية يطبق أشكال هـــذه الصفة عن اقتناع بها لأنها أوامر دينه إليه وحياة رسوله صلى الله عليه وسلم مع الناس بعـــد البعثة وقبلها . وإذا كانت هذه مصادر دعوته فهو أحق النـــاس بتطبيقها .

---

(١) الشخصية ص ٤٠ .

إن الدروس المستفادة من فهمه لحقيقة الإنسانية ودعوة الإسلام للتعارف تحتم المشاركة الصادقة وجدانيا وعقليا وحسيا ليصنعوا جميعاً مايفيدهم وينفعهم وآيات القرآن تؤكدها وتحث عليها . انظر قوله تعالى حينما يخاطب القوم بصيغة الجماعة فإنه لا يفرق بين إنسان وإنسان ولا بين مؤمن ومؤمن فالخطاب واحد للجميع إذ ينادى﴿ ياأيها الناس ﴾ ﴿ ياأيها الذين آمنوا﴾ وهذا يعلم المشاركة . بل إن القرآن يعلم الناس أن يكون دعاؤهم لأنفسهم ولغيرهم إذ يقول ﴿اهدنا الصراط المستقيم ﴾ وهو دعاء فى سورة الفاتحة يقرأه المسلم كل يوم داعيا بصيغة الجماعة إيثاراً لغيره وتبرئة لنفسه من الأنانية ولأنه شيء يحبه الله ورسوله حيث يقول تعالى﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾(١) ويقول إخباراً عن سيدنا ابراهيم عليه السلام ﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾(٢) وذلك ليس بدعاً فإن القرآن يمتدح المؤمنين الأول لأنهم تركوا أنانية الذات إلى حب الجميع حيث كانوا لا يدعون للأحياء وحدهم بل يقولون ﴿ وربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ﴾(٣) ولم تكن بالقول فقط وإنما بالعمل كان إيثارهم كما يفيده قوله تعالى : ﴿والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾(٤) فترى الأنصارى ساكن المدينة يحب المهاجر اليه من مكة بكل صفاء ويؤثره على نفسه خاصة ،وسبب ذلك أن وجد اناتهم قد آمنت بهذه المشـاركة عن اقتناع فتمكنوا بعد ذلك من تأسيس مجتمعهم على الحب والخير والمشـاركة وكل ما حرصوا عليه هو أن ينمحى الغل من قلوبهم وأن يوقوا شح النفس ليصلوا إلى الفلاح . وذلك درس للداعية .

---

(١) سورة محمد آية ١٩ .

(٢) سورة ابراهيم آية ٤١ .

(٣) سورة الحشر آية ١٠ .

(٤) سورة الحشر آية ٩ .

إن الداعية ملتزم بأن يحسن صلته مع الجميع تنفيذاً لأمر الله القائل ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم**﴾(١) يبين الزمخشرى فى تفسيره هذه الطوائف فيذكر أن ذا القربى كل ما بينك وبينه قربى من أخ أو عم أو غيرهما والجار ذى القربى هو من قرب جواره والجار الجنب من بعد جواره وهوأجنبى . والصاحب بالجنب الذى صحبك فى أمر ما أو المرأة . وابن السبيل المسافر أو الضيف (٢) ويجب أن تأخذ هذه الصلة الحسنة أشكالها المتعددة فهى على الخير والبر المأمور بهما فى قوله ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى**﴾(٣) وهى نصيحة خيرة وتواص به لأنها من صفاتهم : ﴿ **وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾(٤) ، وهى أمر بالمعروف ونهى عن المنكر اللذان هما أساس خيريتهم كما أخبر الله ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾(٥) وسبب فلاحهم الذين أمروا به فى قوله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ (٦) .

ويجد الداعية أمامه كذلك صورة النبى صلى الله عليه وسلم وتطبيقاته لهذه الصفة فلقد كان قبل البعثة كما وصفته زوجته خديجة« **إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتقرى الضيف وتحمل الكل وتعين على نوائب الحق** »(٧)وكان يشارك قومه أحداثهم الكبرى فساهم فى حرب الفجار وحلف الفضول وبناء الكعبة وعاشر الرعاة والتجار والأثرياء والكبار والصغار وكان الجميع يذكرونه ويتوددون إليه فلما بعث عليه السلام تضاعفت اهتماماته بالناس كما وصفه الله ﴿ **عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف**

---

(١) سورة النساء آية ٣٦ .
(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٢٦ .
(٣) سورة المائدة آية ٢ .
(٤) سورة العصر آية ٤ .
(٥) سورة آل عمران آية ١١٠ .
(٦) سورة آل عمران آية ١٠٤ .
(٧) صحيح البخارى ج ٩ ص ٣٨ كتاب التعبير .

رحيم ﴾(١) وكان يوالى الناس بالنصح والإرشاد قاصداً نجاتهم وسعادتهم . وكان عليه السلام يسبقهم فى كل أعمالهم ألا تراه فى يوم « بدر » يترك ابنته مريضة فى المدينة ويذهب إلى الحرب لا ليجلس فى العريش الذى بناه له الصحابة خلف الصفوف بل ليكون فى الصفوف يرمى بالحصا ويناشد الله وينظم الصف حتى أشفق عليه الصديق أبو بكر رضى الله عنه فقال له : بعض مناشدتك ربك فإنه منجز لك ماوعد وتنتهى المعركة ويأتيه خبر وفاة ابنته وهو عائداً إلى المدينة .

وكان عليه السلام يحاول دائما مصلحة الناس ويتصرف وفق ذلك. من ذلك ما ذكره صلى الله عليه وسلم « **يا سعد إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله فى النار** »(٢) ، فهو يعطى هذا إنقاذا له من النار ويترك غيره الأحب .

إنه عليه الصلاة والسلام فى موالاته النصيحة والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ترك للمسلمين عموماً وللدعاة على الخصوص ثروة طائلة تمدهم بالدين كله .

وعلى الجملة فإن هذه المشاركة بكل جوانبها ضرورية لمن وقف نفسه لدعوة الله حتى يأخذ الصدارة ويتقدم الصفوف ويكون ثقة القوم وأملهم ويبعد عن تهمة الحاقد وينجو عن عداوات المعارضين .

(ب) العــزة والشجاعة :

وهذه صفة أخرى تساعد على الثقة والقيادة وهى صفة تنبنى على تقدير الشخص لنفسه ومهمة لواقع حياته واتباعه لتعاليم دينه المؤكدة فبذلك يبعده تلقائيا عن الذل والضعف وعن الخوف والاضطراب لأنه يثق فى المفاهيم التاليــة :

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٨ .

(٢) صحيح مسلم جـ ١ ص ٩١ كتاب الإيمان باب تأليف قلب من يخاف على إيمانه .

أولا : المؤمن يجب أن يكتسب من إيمانه الثقة ويشعر بالتفضيل والكرامة لأنه بالإيمان يؤدى ما عليه ويترك ما عدا ذلك لله الذى يصرف كل شيء ﴿**وكل شيء عنده بمقدار**﴾(١) .

ثانياً : الخلق كله بقبضة الخالق سبحانه وتعالى وبيده وحده النفع والضرر وكل الخلق خاضع له وما على المؤمن إلا أن يقصر خوفه على الله كما قال تعالى : ﴿ **فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾(٢) .

ثالثاً : الأجل والرزق محددان تماماً بحيث ﴿**فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾(٣) ﴿**وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها**﴾(٤) وقد ثبت «**أن رزق الرجل يكتب بعد نفخ الروح فى المضغة كما يكتب أجله وعمله**» (٥) .

وما دامت هذه المفاهيم قد ثبتت عن الداعية فما عليه إلا أن يظهر العزة فى كل حياته لأن ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾(٦) وهى عزة ناشئة من الإحساس بالكرامة التى أولاها الله للإنسان على العموم ، وناشئة من لذة الإيمان وحلاوته عند المؤمن على الخصوص ، فإذا ما بعد الإنسان عن العزة فقد بعد عن الإيمان . ولا يقبل من المؤمن قط عذر إذا سار فى مسلك ذليل فإنه بذلك يظلم نفسه وسوف يسأل ﴿ **فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** ﴾ (٧) فلن يقبل منه أنه كان ضعيفاً فى بلده لأن الأرض كلها لله وهى واسعة . وكان عليه أن يهاجر إلى مكان آمن فيه صيانة لكرامته وحماية لعزته التى يجب أن يتمسك بها . ولن ينقص من قدره شيء لأن الحقيقة فى قوله تعالى :

---

(١) سورة الرعد آية ٨ . (٢) سورة آل عمران ١٧٥ .

(٣) سورة الأعراف آية ٣٤ . (٤) سورة هود آية ٦ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٦ ص ١٩٢ كتاب القدر .

(٦) المنافقون ٨ .

(٧) النساء آية ٩٧ .

﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾(١)

وليس من العزة أن يظلم الإنسان غيره أويطغى لأن العزة خلق ممتاز يتمتع بها من يحافظ عليها لنفسه ولغيره انطلاقاً من فهمه لذاته ولدينه وللحياة .
ومن مستلزمات هذه العزة أن يكون صاحبها شجاعاً قوياً فى شخصه ورأيه لتكون خيرة فى ذاتها مقبولة من كافة العقول .

وقد أراد القرآن الكريم أن يبسط هذا المعنى فى الأسماع والعقول فحفل به،وأكثر من وصف الله بالقوة ليكون ذلك إيماء إلى المؤمنين بأن يكونوا أقوياء . وكذلك وصف بالقوة جبريل ورسله والمؤمنين حتى يتضح شرف القوة ورفعتها .

ومن القوة المطلوبة أن يملك الداعية القدرة على ضبط نفسه والسيطرة عليها بل إن ذلك هو كل القوة فى الواقع لأن النفس خيراً وشراً تتنوع بحسب قواها وأحسن الناس من يحكم شهوته وغضبه فيعطى لنفسه العاقلة زمام أمره ويتصرف بعيداً عن أى انفعال يفسد عليه وجهته مهما كانت حقا فيقول ابن مسكويه (*) : « شبه القدماء الإنسان وحاله مع الأنفس الثلاثة بإنسان راكب دابة قوية ويقود كلباً فإن كان الإنسان من بينهم هو الذى يركب دابته وكلبه . فلا شك فى رغد عيشه وحسن أحواله . وإن كانت البهيمية أوالسبعية هى الغالبة ساءت الثلاثة » (٢) ، ولذلك كانت وصية النبى صلى الله عليه وسلم للصحابى الذى سأله النصيحة « لا تغضب » (٣) ليكون قوياً بحق

---

(١) سورة فاطر آية ٢ .

(*) يرى ابن مسكويه أن النفس الإنسانية لها ثلاث قوى أو هى أنواع ثلاثة شهوية (بهيمية) وغضبية (سبعية) وناطقة (عاقلة) وكل منها له قوته وتحاول التغلب على أختيها . ويرى أن النفس الغضبية ترقى لأنها تقبل الأدب والبهيمية تحكم فقط لأنها لا تقبله . والإنسان يترف بالناطقة فقط ويشارك الملائكة ويباين البهائم .

(٢) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص ٥٥ .

(٣) موطأ مالك جـ ٤ ص ٩٤ ما جاء فى الغضب .

فـ « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » (١) .

ومن هنا يقول ابن المبارك إن المقصود من قوله تعالى ﴿ **جاهدوا فى الله حق جهاده** ﴾ هو جهاد النفس(٢) ولذلك فالعزيز هو الذى يحكم نفسه ولا يجعلها تميل بالغضب الذى يفسد على الإنسان وجهته ويحول بينه وبين الرشاد . ولذا كان من أهم صفات عباد الرحمن أنهم ﴿**إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾(٣) بل إن سيطرة العقل الهادىء يجعل الإنسان واقعياً فى فى الموقف فيبدى الحجة ويظهر الرأى ويصل بالإقناع إلى ما يريد .

ومن هذه القوة إعلان الرأى فى ثبات فلا يعرف التغير أو التلون بسبب محاباة أو تحامل لأن هدفه نشر دعوته الحقة المؤيدة بالدليل وهى محفوظة لا تتغير وإنما تغير وتصلح وتعلى ، فإظهارها على وجهها وبشكل مرن هو المطلوب مهما كان الحال أو الموقف أو القوم ، ولا عليه مادام يتجرد فى هدفه ويبعد عن الدعوة ، أى أثر شخصى محتمل : وللداعية أسوة فى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلقد أعلن كلمة الله وهو وحده وسط قوم كافرين بها ومعارضين لها ومـــع ذلك لم يبال بأعمالهم . لجأوا التهديد والوعيد . فرد عليهم قائلا لعمه : « **لن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه** » **(٤)** . ولجــأوا إلى محاولة إغرائه فكان ينتهز فرصة قربهم منه ويدعوهم إلى الله وقاطعوه وقومه فذهب إلى غيرهم من القبائل يدعوهم . ولم يحدث أن غير الدعوة مع تغير الظروف واختلافها . بل كان العذاب الشديد. يلحق به وببعض المسلمين ومع ذلك كان يحث على الصبر وينتظر الأمل . ويواصل دعوته . لأنها الحق ولابد أن تعلن . ومن هنا نجد القرآن الكريم يعلم المؤمنين قول الحق مهما كانت نتائجه ومهما كانت شخصية من يقف فى طريقهم . فقال تعالى : ﴿ **كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم**

---

(١) موطأ مالك جـ ٤ ص ٩٥ ما جاء فى الغضب .

(٢) ذم الهوى ص ٤٠ .

(٣) سورة الفرقان آية ٦٣ .

(٤) سيرة النبى (ص) جـ ١ ص ٢٧٨ .

أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ﴾(١) . يقول الزمخشرى فى تفسيرها «أن المعنى أن تجتهدوا فى إقامة العدل حتى لا تجوروا وتقولوا شهادتكم لوجه الله تعالى كما أمرتم بإقامتها ولو كانت الشهادة على أنفسكم أو آبائكم أو أقاربكم . ولا تمنع الشهادة بسبب فقر أو غنى » (٢) .

(ج) الكرم والسخـــاء :

وهى صفة من أهم صفات الداعية حيث تقرب القلوب النافرة وتمهد العقول للطاعة ولذلك كان من أولى الأوامر الأخلاقية للرسول ﷺ **﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾**(٣) أى ، لا تعط مستكثراً ما أعطيت للناس فنجده عليه السلام يعطى عطاء من لا يخشى فاقة . وكان كما وصفه ابن عباس أجـــود الناس (٤) ولم يقل مرة لا عن شىء سئل فيه (٥) ولا يكفى فى الكرم العطاء المادى وقت وجود المال فـ « **ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس** » (٦) بل لا بد من نفس كريمة استجمعت كل خواص الكرم وأصالته فى كافة حالاتها تؤمن بالزهد وتعرف فضيلته فإن هذه الحياة الدنيا ليست دار التمتع الكلى وإنما هى فترة مؤقتة تنبنى عليها كل سعادة الآخرة **﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾** (٧) فليس الهدف منها التلذذ من الشهوات والمطعم وليس هو شأن المؤمنين أبداً . أما الكافرون فإنهم **﴿ يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾**(٨) وبهـــذا الزهد لا يكون المؤمن منعماً فى تصرفه . وفى الوقت نفسه لا يحرم من الدنيا **﴿ والله عنده حسن المثاب ﴾ ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾** .

وهذا الزهد الصادق يتبعه قناعة بما أوتى ، وعفاف عما فى أيدى الناس . ولا تقف النفس الكريمة بصاحبها عند الزهد والقناعة والعفاف بل إنها تطبعه بطابع السخى المعطى حين يجد الذى يعطيه غير منتظر علم أحد

---

(١) سورة النساء آية ١٣٥ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥٧٠ .
(٣) سورة المدثر آية ٦ .
(٤) صحيح مسلم جـ ٧ ص ٧٣ .
(٥) صحيح مسلم جـ ٧ ص ٧٣ .
(٦) صحيح البخارى جـ ٨ ص ٨١١ .
(٧) سورة العنكبوت آية ٦٤ .
(٨) سورة محمد آية ١٢ .

أو شكره لأنه أنفق لوجه الله . ولا ينتظر ثواباً إلا من الله وما ذلك إلا لإيمانه بحقائق القرآن الذى يتلوه ويرشده والتى منها : ﴿ **وماتنفقوا من خير فلأنفسكم وماتنفقون إلا ابتغاء وجه الله وماتنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لاتظلمون** ﴾(١) . هذه الحقائق ترسخ فى نفس الداعية فيعطى بلا حد ويعلم أن الله سيخلفه ويعوض عليه بالنجاح فى دعوته .

ويعد الكرم أحد الأسباب التى حببت الناس فى رسول الله ﷺ ويقول على : « **كان رسول الله أجود الناس كافة** » . ومن المعروف أن الإنسان عبد الإحسان ولذلك يروى أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم «**وسأله فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى قومه مسلما وهو يقول لهم : اسلموا فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة** » (٢) .

وعلى الجملة فإن الداعية إذا جمع الصفات السابقة فإنه يكون قد وضع نفسه فى الطريق المستقيم لدعوته . وحصن نفسه بأخلاق الألفة والريادة ولا عليه بعد ذلك إلا أن يملك العلم الذى يمكنه من فهم الواقع ويستطيع به عرض دعوته على وجهها السليم .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧٢ .

(٢) الشفـا جـ ١ ص ٢٣٨ .

ثالثاً : أفق الداعيـــة

دور الداعية فى مجتمعه هام حيث له الصدارة . والفتوى عليه . والمناصحة والإرشاد هى مهمته . والقدرة على كل هذا ليس أمراً هيناً لأنه لا يتأتى لصاحبه إلا بعد جهد شديد . وبذل متواصل فى التفصيل العلمى والبحث الموضوعى .

واعلم أن العلم فى حد ذاته ضرورى يقول الإمام الغزالى « إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذاً فى نفسه فيكون مطلوباً لذاته ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها وذريعة إلى القرب من الله تعالى ولا يتوصل إليه إلا به (١) وهو للداعية أكثر ضرورة لأنه يقابل أشتاتاً من الناس مختلفين طبعاً وخلقاً وبيئة ولساناً . والإسلام موضع دعوته ليس طقوساً تنتقل بالوراثه . أو تعاويذ توجد بالإيحاء والإيهام ، بل إنه يستخرج من كتاب كريم يحتاج إلى الفهم الواعى . والاجتهاد السليم . والإخلاص الكامل» .

وما دام الداعية يهدف الحسن دائماً فى صلته بالله والناس فإن العلم خير محسن لهذه الصلة . ويروى ابن عبد البر بإسناده عن معاذ بن جبل أن رسول الله قال : « **تعلموا العلم فإن تعليمه لله خشية . وطلبه عبادة . ومذاكرته تسبيح . والبحث عنه جهاد . وتعليمه لمن لايعلمه صدقة . وبذله لأهله قربة . لأنه معالم الحلال والحرام . ومنار سبل أهل الجنة . وهو الأنس فى الوحشة . والصاحب فى الغربة . والمحدث فى الخلوة . والدليل على السراء والضراء . والسلاح على الأعداء . والزين عند الأخلاء . يرفع الله به أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة وأئمة تقتص آثارهم ويقتدى بأفعالهم وينتهى إلى رأيهم** »(٢) .. وبمداومة الداعية طرق باب العلم يتسع أفقه ويكتسب من المعارف مايجعله على مستوى المسئولية التى عاهد نفسه أمام الله على القيام بها مع الناس . ولعل أهم هذه الجوانب العلمية مايلى :

---

(١) الإحياء جـ ١ ص ١٢ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله جـ ١ ص ٦٥ .

(ا) المعـــرفة التامة بالدعوة :

معرفة حقيقة الدعوة ضرورة للداعية لأنها المنطلق الذى منه يتحرك وبه يدعو ،وبوضوحه يتجمع الناس ،ويؤمنون ويصدقون بكل ما يوجه لهم . ولابد أن تكون الإحاطة شاملة للدعوة لكى يكون الداعية عالماً بما يعلمه لغيره . فإن فاقد الشىء لا يعطيه . وشمول معرفة الداعية بالفكرة محل النقاش تدفع المستمع إلى الثقة فى قوله وسرعة تصديقه فيما يطلبه وهذه المعرفة ليست شاقة الطريق فإنها مثبوتة فى القرآن الكريم الذى ضمن الله حفظه وتركه فى الناس فائدة للعالمين . وأمانة سوف يحاسبون على تقصيرهم فيها .

وعلى الداعية أن يحفظ القرآن الكريم وسيفهمه بسبب حفظه . لأن كثيراً من الآيات تفسر بعضها بعضاً . وبعضها الآخر الباقى يفهم بطريق السنة وأقوال الصحابة . واجتهاد العلماء .

وتعتبر المعرفة التامة بالكتاب الكريم هى الدعامة الأساسية لمعرفة الداعية لأنها تعرف كثيراً مما يحتاج إليه . وفيها دعوته بعقيدتها وشريعتها وأخلاقها وفيها الوسائل التى يخاطب بها الناس . وفيها سيعرف دوره ومصيره . وبدراسة القصة والقسم وغيرها يعلم نهج مخاطبة الناس وترغيبهم وتشويقهم فى الدعوة . ومع ذلك فإنه من خلال الوسائل القرآنية سيعرف كثيراً عن طبائع الناس وغرائزهم وعاداتهم . ويلحظ كيف راعت ناحية التأثير فى الجميع . وسيعرف مقاصد الدعوة وأهدافها الرامية إلى إسعاد الناس فى الدنيا والآخرة ، وبذلك يجب على الداعية أن يحفظ القرآن الكريم ويتفهمه ليقدر على البلاغ والإرشاد . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يختبر الدعاة عن مدى تمسكهم وتفقههم وتفهمهم وإحاطتهم بالكتاب أساس الدعوى . يروى ابن عبد البر بسنده عن شعبه قال «حدثنى أبو عوف عن الحرث عن عمرو عن أناس من أصحاب معاذ عن معاذ أنه قال « **لما بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن قال كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟» قال : « أقضى بكتاب الله . فإن : لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فإن لم يكن فى سنة رسول الله . قال :**

اجتهد رأيي ولا آلو . قال : فضرب صدرى وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله »(١) فإجابة معاذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم تشير إلى شمول معرفته بالقرآن لأنه بحث فيه كله عند القضاء فإن لم يجد ينتقل إلى السنة . وأيضاً فإن المعرفة الشاملة للقرآن تمكن الداعية من هداية الناس والأخذ بيدهم حين الاختلاف لتمتعه ببصيرة نافذة وموهبة ربانية تجعله أعلم من غيره يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « **أعلم النـــاس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس** » (٢) .

وهذه البصيرة فى القرآن تحتاج إلى مجموعة من العلوم تمكن من فهم المراد لأن الصحابة رضوان الله عليهم وهم على ما هم عليه من فصاحة كانوا يعلمون ظواهر القرآن ، أما دقائقه الباطنة فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر مع سؤالهم النبي صلى الله عليه وسلم فى الأكثر كسؤالهم لما نزل قوله تعالى ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾(٣) . حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم . . **أينا لم يظلم نفسه .؟** ففسره النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالشرك بدليل قوله تعالى ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم**﴾(٤) وكسؤال عائشة عن الحساب اليسير **فقال لها : هو العرض .** ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه وزيادة على ذلك ما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة .

وقد ذكر السيوطى خمسة عشر علماً من العلوم الضرورية لفهم كتاب الله تعالى لابد منها للداعية «وهى **الأول علم اللغة** ليعرف بها شرح المفردات وفهم مدلولاتها بحسب الوضع . **والثانى علم النحو** لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب **والثالث علم التصريف** لأن به تعرف الصيغ والأبنية . **والرابع علم الاشتقاق** لأن الإسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين

---

(١) جامع بيان العلم جـ ٢ ص ٦٩ .

(٢) جامع بيان العلم جـ ٢ ص ٥٣ .

(٣) سورة الأنعام آية ٨٢ .

(٤) سورة لقمان آية ١٣ .

اختلف باختلافهما كالمسيح هل هــو من السياحة أو المسح . **الخامس والسادس والسابع علوم المعانى والبيان والبديع** لأنه يعرف بالأول خواص خواص التراكيب من جهة إفادتها المعنى، وبالثانى خواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وبالثالث وجوه تحسين الكلام . **والثامن علم القراءات. والتاسع علم أصول الدين** ليعرف ما فى القرآن من الآية الدالة بظواهرها على ما لا يجوز على الله تعالى. **والعاشر علم أصول الفقه** إذ به يعرف وجه الاستدلال على الأحكام والاستنباط . **والحادى عشر أسباب النزول** والقصص. **والثانى عشر الناسخ** والمنسوخ. **والثالث عشر الفقه. والرابع عشر الأحاديث** المبينة للقرآن الكريم . **والخامس عشر علم الموهبة** وهو علم يورثه الله لمن عمل بما علم » (١) .

ومن هذه العلوم اللازمة المذكورة نلمح أن الدعوة كفن للداعية تحتاج إلى تمكن بالقرآن الكريم ليكون خير ممثل للدعوة وخير دارس لحياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(ب) **المعرفة بالمدعوين** : معرفة من توجه إليهم الدعوة هام تمكن الداعى من التأثير والإقناع والوصول إلى قلوب الناس ونفوسهم . وذلك يحتاج إلى المعرفة الشاملة التى تجعله يصنع التناسب بين عرض الدعوة والمدعوين سواء كانوا فى القرية أو فى المدينة أو فى أى مكان .

وهذه المعرفة تحتاج إلى دراسة العلوم التالية :

١ — علم التـــاريخ :

لكى يصل إلى أصول عقائد الناس وأخلاقهم ليعالجه علاجاً جذرياً . وأيضاً فإن دراسة سير السابقين يعطى فهماً لطبائع البشر ولهذا كثر القصص القرآنى حاكياً أحوال السابقين . بل إن هذا القصص يعتبر وسيلة مؤثرة فى نفوس مستمعيه لأنه يؤثر فى العاطفة ويخاطب العقل والوجدان . ومن هنا كانت دراسة التاريخ . وخاصة تاريخ الأديان والنحل هامة للدعاة .

---

(١) الإتقان جزء ٢ ص ١٨٠ ، ١٨١ بتصرف .

٢ — علم الجغـــرافيا :

وذلك لكي يفهم الداعية طبيعة البيئة وأعمال السكان لأهميتهما فى التكوين المزاجي والفكرى للناس .

٣ — علم النفس الاجتماعى :

لكي يعرف الداعية هوى النفس وميولها واتجاهاتها ومدى تأثرها وتأثيرها فى المجتمع الذى تعيش فيه والمقدار الذى يتغير من السلوك نتيجة هذا التأثير . وهذا العلم هام لأنه يمكن الداعية من توجيه خطاباته إلى النفس بما يثيرها ويناسبها .

(ج) المعرفة بلغة المدعوين :

وعلمنا أن من البيان المطلوب أن يخاطب الداعية القوم بلغتهم لأنهم فى هذه الحالة يكونون أقدر على السماع . وأقوى على الفهم . وقد بعث الله كل نبي إلى أمته بلغتها . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب العرب كل بلهجته .

فالدعوة الإسلامية عامة ودائمة . ومحال أن تنزل بكل لغات العالم الموجودة أو التي ستوجد . وقد بان . ومن هنا مكن الله العرب من لغات الأمم كما بيناه سابقاً حتى استطاعوا تبليغ الدعوة إلى غيرهم من الناس . . ولذا أصبح واجباً على الدعاة من بعد النبي صلى الله عليه وسلم مواصلة الدراسة فى اللغات العالمية لكي يملكوا القدرة على مخاطبة أى قوم بلغتهم ويستطيعوا أن يترجموا المبادىء والأسس والتعاليم الإسلامية بينة واضحة .

هذا وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر زيد بن ثابت بإجادة السريانية . قال زيد .. **قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتحسن السريانية ؟ إنها تأتيني كتب بها قال : قلت لا . قال تعلمها، فتعلمها** فى سبعة عشر يوماً(١)

فإذا ما أجاد الداعية لغة القوم وأحاط بالمعارف الإنسانية مع محافظته

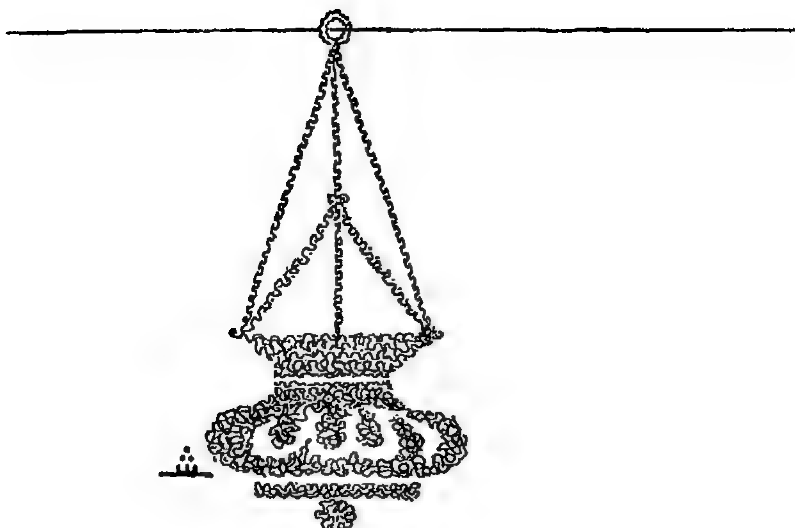
---

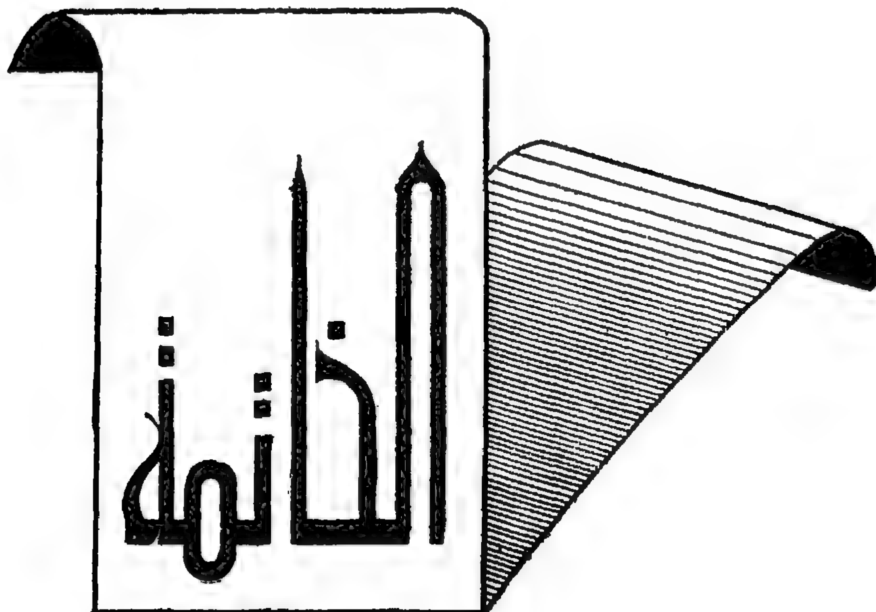
(١) الفتح الربانى على مسند أحمد كتاب العلم . باب فضل العلوم والعلماء ج ١ ص ١٤٥ .

على القرآن وفهمه فانه يكون موفقاً إن شاء الله تعالى وما دام يتمتع بصلة حسنة بالله فسوف يرزق علم الإلهام الذى يفيض عليه من نعم الله وفضله الكثير . .

وأخيراً فتلك هى صفات الداعية الأمثل وقد رأينا فيها صلته بالله وصلته بالناس ومدى ثقافته واتساع أفقه . . وهى صفات يجب أن توضع لها خطة تربوية منذ النشأة لينشأ الداعى وفى نفسه حب الدعوة ورغبة التحمل والمجاهدة فى سبيلها وقد رأينا كيف ربى الله رسوله لا منذ النشأة الأولى فحسب بل تولاه قبل مولده . وخطة التربية سهلة وعلى المسئولين عن التربية القيام بهـا حتى نرى دعاة كدعاة العصر الأول يحيون الهمم ويبثون الأمل . ويبعثون الثقة من جديد .

وإذا ما وجد الداعية الكفء واستفاد بالوسائل وبهجتها كما وضحتها المصادر الإسلامية فإن الأمل كبير فى القيام بالواجب وتأدية الأمانة . والله الموفق .




الخاتمة

وبعد . . . .

فقد عشنا خلال هذه الدراسة المطولة عن الدعوة الإسلامية ورأينا كيف أحاطها الله بالعناية ، وأمدها بالمصادر الثابتة المحفوظة لتبقى مستمرة النفع ، دائمة الفائدة على طول الزمن .

وقد جاءت أساليب الدعوة فى القرآن الكريم والسنة النبوية شاملة للأسس الرئيسية للوسائل بصورة عامة . ذلك أنها ضمت فى جنباتها منهجاً دقيقاً فنيا . يصنع الداعية المؤمن العالم الذى يألف الناس ويألفونه ، ويميزه بالجوانب النفسية للمدعوين ، ويعرفه بالطريقة المثلى فى دعوة المخاطبين بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالحسنى .

وقد آثرت البسط فى ضبط المنهجية الفنية لنشر الإسلام فى ضوء الكتاب والسنة ، مشيراً إلى كيفية الامتثال بها ، والسير على منوالها .

إن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية . خاتمة . كاملة . وقد بان ذلك فى سائر تعاليمها ، وأهدافها ، ووسائلها ،.

فمن ناحية تعاليمها نرى العقيدة فى الإسلام سهلة ميسرة خالية من تعقيدات الفلاسفة والمفكرين ، معتمدة على الإقناع العقلى والجذب العاطفى ، كما أن الشريعة فى الإسلام لا حرج فيها مطلقا ، مع وضوح مقاصدها فى تحقيق مصالح الإنسان بضمان الضروريات التى يحتاج اليها .

ومن ناحية وسائلها فقد خاطبت العرب ، وفى نفس الوقت كانت خطاباً لسائر الناس ، لأن الله منزلها عليم بسائر من خلق ، ولذلك شاء ، ومشيئته حكمة . شاء سبحانه أن يجعل البيئة العربية فى عصر الرسالة تمثل بوتقة تضم سائر الأنواع البشرية ، وتحتوى على جميع الاتجاهات والمذاهب الإنسانية لتكون المواجهة مع العرب منذ البداية مواجهة للعالم كله ، ولتبقى الوسائل الأولى طريق الدعاة الأمناء مع الدعوة على امتداد التاريخ إلى يوم القيامة .

نعم . تبقى الوسائل القرآنية فى قوتها ، وحركتها ، ونبضها المستمر ؛ وتفهمها الدقيق للعقول والنفوس والعواطف مما يحقق للإسلام انتشاره فى العالم كله .

وواجب الدعاة فى العصر الحديث أن يكونوا مع الدعوة خير رجالها . وأن يستفيدوا بمصادر الدعوة الإسلامية ويسيروا على نهجها ففيها الخير كله .

ويمكن للدعاة أن يصوغوا وسائلهم فى صورة إعلامية معاصرة ، مع تكوينها من الحقائق المسلمة ، واشتمالها على اللمحات الفنية للوسائل كما جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية .

أقول :

لقد قصدت من الدراسة أن أبسط الاستفادة بوسائل الدعوة أمام الدعاة ، وإنى على يقين أن النجاح فى تبليغ الإسلام ونشره أمر سهل لو صدقت النوايا ، وقويت الهمم . ووجد الصدق والإخلاص .

ربنا

لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

ربنا

عليك توكلنا وإليك أنبنا واليك المصير .

ربنا

آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً .

والله الموفق ،

المراجـع والمصادر
مرتبة على الحروف الأبجدية

١ — القرآن الكريم .

(ا)

٢ — الانتصاف على الكشاف — للإمام أحمد بن محمد بن المنير القاهرة . طبع ونشر مكتبة الحلبي سنة ١٩٦٦م .

٣ — إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم — للإمام أبى السعود محمد بن محمد العمادى . القاهرة . طبع ونشر مكتبة صبيح وأولاده .

٤ — الإكليل فى استنباط التنزيل — للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى المدينة المنورة . الطبعة الأولى . نشر المكتبة العلمية .

٥ — الإتقان فى علوم القرآن — للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى القاهرة . الطبعة الثالثة . طبع ونشر الحلبى بمصر سنة ١٩٥١ م .

٦ — أسباب النزول — القاهرة . طبع ونشر مكتبة صبيح بالقاهرة .

٧ — إحياء علوم الدين — لأبى حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى القاهرة . طبع ونشر مكتبة صبيح وأولاده .

٨ — الأحكام السلطانية — للقاضى أبى يعلى.القاهرة . نشر وطبع الحلبى بالقاهرة سنة ١٩٥٦م .

٩ — الأحكام السلطانية والولايات المدنية — لأبى الحسن على بن محمد ابن حبيب الماوردى — القاهرة . الطبعة الثانية . وطبع ونشر الحلبى . بمصر سنة ١٩٦٦م .

١٠ — إعجاز القرآن — للقاضى أبى بكر الباقلانى القاهرة . الطبعة الثالثة. طبع ونشر الحلبى بمصر سنة ١٩٥١م .

١١ — أسد الغابة فى معرفة الصحابة — لعز الدين أبى الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الجزرى . طهران . الطبعة الأولى . المطبعة الإسلامية . نشر المكتبة الإسلامية سنة ١٣٧٥ هـ .

١٢ — إعجاز القرآن والبلاغة النبوية — للأستاذ مصطفى صادق الرافعى القاهرة . الطبعة السادسة . مطبعة الاستقامة . نشر المكتبة التجارية سنة١٩٥٦م .

١٣ — الإسلام دين العلم والمدنية — للشيخ محمد عبده . القاهرة . طبع ونشر دار الهلال .

١٤ — الإسلام عقيدة وشريعة — للشيخ محمود شلتوت . القاهرة . الطبعة الأولى . مطبعة الأزهر . نشر إدارة الثقافة الإسلامية سنة ١٩٥٩م .

١٥ — الإسلام فى القرن العشرين — القاهرة الطبعة الأولى . طبع ونشر دار الهلال .

١٦ — الأحوال الشخصية فى الشريعة الإسلامية — للأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد.القاهرة . الطبعة الثالثة . مطبعة السعادة . نشر مكتبة صبيح سنة ١٩٦٦م .

١٧ — أسس الصحة النفسية — للدكتور عبد العزيز القوصى القاهرة . الطبعة الخامسة . نشر مكتبة النهضة سنة ١٩٥٦ م .

١٨ — أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار — لأبى الوليد محمد بن أحمد الأزرقى — مكة المكرمة.الطبعةالثانية.نشرالمطبعةالماجدية سنة ١٣٥٢هـ .

١٩ — الأصنام — لأبى المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى . القاهرة . الطبعة الثانية . طبع ونشر دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٤ م .

٢٠ — أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام للأستاذ سعيد الأفغانى دمشق . الطبعة الثانية .

٢١ — أسرار البلاغة — للإمام عبد القاهر الجرجانى القاهرة . الطبعة الرابعة . نشر دار المنار بمصر سنة ١٩٤٠م .

٢٢ — أساس البلاغة — لأبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى.القاهرة . الطبعة الأولى . طبع ونشر دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٣م .

٢٣ — الأموال — للحافظ الحجة أبى عبيد عبد القاسم بن سلام.القاهرة . الطبعة الأولى — طبع ونشر المطبعة العامرة سنة ١٣٥٣ هـ

٢٤ ـ أدب الدنيـا والدين ـ لأبى الحسن بن محمد بن حبيب البصرى الماوردى . القاهرة . الطبعة الأولى . طبع ونشر المطبعة الأدبيـة سنة ١٣١٧ هـ .

٢٥ ـ الإشارات والتنبيهات ـ لأبى على بن سينا. القاهرة . سلسلة ذخائر العرب . نشر دار المعارف .

(ب)

٢٦ ـ البحر المحيط (تفسير) لمحمد بن يوسف بن حيان الأندلسى القاهرة . الطبعة الأولى . مطبعة السعادة .

٢٧ ـ البيان والتبيين لأبى عثمان عمرو بن الجاحظ . القاهرة . الطبعة الأولى . طبع ونشر لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٨م .

٢٨ ـ بلوغ الإرب فى معرفة أحوال العرب ـ للسيد محمد شكرى الألوسى البغدادى . القاهرة . الطبعة الثانية . المطبعة الرحمانية نشر محمد الأثرى سنة ١٩٢٤م .

٢٩ ـ بذل المجهود فى إفحام اليهود ـ للسموأل بن يحي بن عباس المغربى القاهرة . الطبعة الأولى . مطبعة الفجالة . نشر مكتبة الجهاد .

٣٠ ـ بروتوكولات حكماء صهيون ـ لجنة سياسية . القاهرة . دار القاهرة للطباعة . نشر كتب سياسية سنة ١٩٥٧م .

(ت)

٣١ ـ تفسير ابن كثير ـ للحافظ عماد أبى الفداء اسماعيل عمرو بن كثير القرشى . القاهرة . الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية سنة ١٣٠١هـ .

٣٢ ـ تفسير النسفى ـ لأبى البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفى القاهرة . طبع ونشر دار إحياء الكتب العربية .

٣٣ ـ تفسير سورة الفاتحة ـ للشيخ محمد عبده. القاهرة . كتاب التحرير سنة ١٣٨٢ هـ .

٣٤ ـ تفسير جزء عم ـ للشيخ محمد عبده. القاهرة . مطبعة الشعب . سلسلة كتاب الشعب .

٣٥ — تفسير جزء تبارك — للشيخ عبد القادر المغربى. القاهرة. مطبعة الشعب سلسلة كتاب الشعب .

٣٦ — تفسير المنــار — تأليف الشيخ محمد رشيد رضا ، القاهرة . الطبعة الثالثة . طبع ونشر دار المنار .

٣٧ — تفسير الجلالين — للجلال السيوطى والجلال المحلى. القاهرة . الطبعة الثانية. طبع ونشر مكتبة المليجى .

٣٨ — تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى — للدكتور حسن إبراهيم حسن. القاهرة . الطبعة السادسة . مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦١م.

٣٩ — التاريخ الإسلامى العام — للدكتور حسن إبراهيم حسن القاهرة . الطبعة الثالثة . مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٣م .

٤٠ — تاريخ التمــدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان القاهرة . الطبعة الأولى . مطبعة دار الهلال تاريخ الطبرى لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى . القاهرة . الطبعة الأولى . طبع ونشر المطبعة الحسينية المصرية .

٤١ — تاريخ العرب قبل الإسلام — للدكتور جواد على . العراق . الطبعة الأولى . طبع ونشر المجمع العلمى العراقى سنة ١٩٥٦م .

٤٢ — تاريخ العرب (عصر ما قبل الإسلام) — للدكتور محمد مبروك نافع . القاهرة . الطبعة الثانية . مكتبة النهضة المصرية .

٤٣ — تاريخ الجــدل — للشيخ محمد أبو زهرة . القاهرة . الطبعة الأولى . مطبعة العلوم ١٩٣٤ م .

٤٤ — التوعية الاجتماعية — للأستاذ أنور أحمد . القاهرة . مطبعة الشعب . نشر وزارة الشئون الاجتماعية .

٤٥ — تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق — لأبى على أحمد بن محمد المعروف بابن مسكوية . القاهرة . الطبعة الأولى . طبع ونشر المطبعة الأدبية سنة ١٣١٧ هـ .

٤٦ — التنبيه على سبيل السعادة — لأبى نصر محمد بن محمد الفارابى حيدر أباد . طبع ونشر دائرة المعارف النظامية.

٤٧ — التعصب والتسامح فى الإسلام — للأستاذ محمد الغزالى . القاهرة الطبعة الأولى . مطابع دار الكاتب العربى .

٤٨ — توضيح العقائد — للأستاذ عبد الرحمن الجزيرى. القاهرة . الطبعة الأولى سنة ١٢٨٠ هـ .

٤٩ — التبيان فى أقسام القرآن — لشمس الدين محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية . القاهرة الطبعة الأولى . مطبعة حجازى ١٣٥٢هـ .

٥٠ — التمهيد لتاريخ الفلسفة — للأستاذ مصطفى عبد الرازق القاهرة . لجنة النشر للجامعيين .

(ج)

٥١ — جامع البيان فى تفسير القرآن — لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى القاهرة . الطبعة الأولى . المطبعة الأميرية سنة ١٣٢٧ هـ .

٥٢ — الجامع لأحكام القرآن الكريم — القاهرة طبع ونشر دار الشعب سنة ١٩٧٠م .

(ح)

٥٣ — الحـاوى للفتاوى — لجلال الدين عبد الرحمن السيوطى. القاهرة . مطبعة السعادة نشر المكتبة التجارية .

٥٤ — الحسبة فى الإسلام — لأبى العباس أحمد بن تيمية الحنبلى القاهرة . الطبعة الأولى . مطبعة المؤيد .

٥٥— حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للأستاذ عباس العقاد . القاهرة . طبع ونشر دار الهلال .

٥٦ — الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية — للدكتور محمود حب الله القاهرة . الطبعة الأولى . طبع ونشر الحلبى بمصر .

٥٧ — حضـارة العرب — د. غوستاف لوبون . ترجمة عادل زعيتر القاهرة . الطبعة الثالثة . طبع ونشر دار إحياء الكتاب العربى .

٥٨ — الحضـارة البيزنطية — ستيفن نسيمان . ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة . الطبعة الأولى . طبع ونشر لجنة التأليف والترجمة سنة ١٩٦٢م .

٥٩ — حاشية عبد الحكيم .

(خ)

٦٠ — الخـــراج — للقاضى أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، القاهرة . الطبعة الأولى . المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٠٢ هـ .

٦١ — الخراج فى الدولة الإسلامية — د/ محمد ضياء الدين الريس القاهرة . الطبعة الأولى . طبع ونشر مكتبة نهضة مصر .

٦٢ — الخطـــابة — للأستاذ محمد أبو زهرة، القاهرة . الطبعة الأولى . مطبعة العلوم .

٦٣ — دعوة الرسل إلى الله تعالى — للأستاذ محمد أحمد العدوى، القاهرة . الطبعة الأولى . طبع ونشر مكتبة الحلبي .

٦٤ — الدعوة الإسلامية دعوة عالمية — للأستاذ محمد الراوى، القاهرة . الطبعة الأولى . طبع ونشر الدار القومية ١٩٦٥م .

٦٥ — الدعوة التامة — للشيخ أبو علوى الحداد .

٦٦ — دلائل الإعجاز — للإمام عبد القاهر الجرجانى، القاهرة . الطبعة الأولى . طبع ونشر المكتبة العربية سنة ١٩٥٠م .

٦٧ — الدعوة إلى الإسلام — توماس أرنولد . ترجمة حسن ابراهيم وآخرين . القاهرة . الطبعة الثانية . نشر مكتبة النهضة المصرية .

٦٨ — الدولة الإسلامية وأمبراطورية الروم — د/ ابراهيم أحمد العدوى القاهرة . الطبعة الثانية . طبع ونشر مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٨م .

(ذ)

٦٩ — ذم الهـــوى — للإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى : القاهرة . الأولى . نشر دار الكتب الحديثة ١٩٢٠م .

(ر)

٧٠ — روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم — لشهاب الدين السيد محمود الألوسى القاهرة . الطبعة الأولى . طبع ونشر المطبعة المنيرية :

٧١ — رسالة العبودية — لأحمد ابن تيمية الحنبلى القاهرة . الطبعة الأولى . مطبعة المنار سنة ١٣٤٠ هـ .

٧٢ — رسالة التوحيد — للشيخ محمد عبده.القاهرة . الطبعة الثانية . طبع ونشر دار المعارف .

٧٣ — الرياضة وأدب النفس — للإمام أبي عبدالله محمد بن على المعروف بالحكيم الترمذى.القاهرة . الطبعة الأولى . نشر وطبع الحلبي .

٧٤ — رسائل الحكيم الترمذى — للإمام أبي عبد الله بن على بن الحسين مجلدان مخطوطان .

٧٥ — الرسالة الرشيدية — للشيخ عبد الرشيد الجونغورى . القاهرة . الطبعة الثانية . طبع ونشر مكتبة صبيح .

(ز)

٧٦ — زاد المعاد فى هدى خير العباد — لشمس الدين أبي عبد الله محمد (ابن القيم الجوزية) القاهرة . الطبعة الأولى . المطبعة اليمينية بمصر .

(س)

٧٧ — سيرة النبي ﷺ — لأبي محمد عبد الملك بن هشام . تحقيق محمد محيي الدين . القاهرة . كتاب التحرير سنة ١٣٨٣هـ .

٧٨ — سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم صورة مقتبسة من القرآن الكريم للاستاذ محمد عزه دروزة . طبع ونشر المكتبة التجارية سنة ١٩٤٨م .

٧٩ — الإسلام فى القرن العشرين — للأستاذ عباس العقاد . القاهرة . كتاب الهلال . نشر دار الهلال أبو نصر الفارابى .

٨٠ — السياسات المدنيـة — أبو نصر الفارابى حيدر أباد . الطبعة الأولى . طبع ونشر دائرة المعارف النظامية .

(ش)

٨١ — الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى — للدكتور يوسف خليف القاهرة . الطبعة الأولى . . طبع ونشر دار المعارف .

٨٢ — الشخصية — للأستاذ محمد عطية الأبراشى.القاهرة . الطبعة الثالثة. طبع ونشر لجنة التأليف والنشر .

٨٣ — الشفـــا — للقاضى عياض.القاهرة.الطبعة الأولى . المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٦ هـ .

(ص)

٨٤ — صحيح البخارى — للإمام البخارى كتاب الشعب طبع ونشر دار الشعب سنة ١٩٦٨م.

٨٥ — صحيح مسلم — كتاب التحرير . طبع ونشر دار التحرير .

٨٦ — صحيح مسلم بشرح النووى — طبعة الحلبى .

٨٧ — صفوة الصفوة .

(ع)

٨٨ — « عمدة القارىء بشرح البخارى » — للحافظ بدر الدين أبى محمد محمود بن أحمد العينى . القاهرة . الطبعة الأولى . إدارة الطباعة المنيرية

٨٩ — العقائد النسفية — لعضد الدين الإيجى.

٩٠ — العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن — للشيخ محمد أبو زهرة القاهرة . المجلد الثانى من بحوث مجمع البحوث الإسلامية .

٩١ — عبقرية خالد — للأستاذ عباس العقاد.القاهرة . طبع ونشر دار الهلال .

٩٢ — عناية الإسلام بالصحة — تعليم مجموعة.القاهرة . نشر قسم الوعظ والإرشاد بالأزهر .

٩٣ — العرب قبل الإسلام — للأستاذ جورجى زيدان.القاهرة . طبع ونشر دار الهلال .

(غ)

٩٤ — غرائب القرآن ورغائب الفرقان « تفسير النيسابورى » — القاهرة. الطبعة الأولى . المطبعة الأميرية .

٩٥ — الغارة على الإســـلام — مجموعة مقالات مترجمة.القاهرة . طبع ونشر جريدة المؤيد .

(ف)

٩٦ — فتح البيان فى مقاصد القرآن — لأبى الطيب صديق بن حسن القنوجى.القاهرة . الطبعة الأولى . المطبعة الكبرى الأميرية .

٩٧ — فتح البارى فى شرح البخارى — للحافظ شهاب الدين بن حجر العسقلانى.القاهرة . طبع ونشر الحلبى سنة ١٩٥٩م .

٩٨ — الفتح الربانى بترتيب مسند أحمد الشيبانى — للأستاذ أحمد عبد الرحمن البنا.القاهرة . الطبعة الأولى .

٩٩ — فيصل التفرقة — أبو حامد الغزالى . القاهرة.الطبعة الأولى . طبع ونشر مطبعة الترقى .

١٠٠ — فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت — لـ (عبد الغنى محمد بن نظام الدين البغدادى). القاهرة . الطبعة الأولى . المطبعة الأميرية ١٣٢٢ هـ .

١٠١ — الفلسفة القرآنية — للأستاذ عباس محمود العقاد — القاهرة . طبع ونشر دار الهلال .

١٠٢ — الفن القصصى فى القرآن الكريم — الدكتور محمد أحمد خلف الله القاهرة . الطبعة الثانية . طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية .

١٠٣ — فتوح البلـــدان — للإمام أحمد بن يحيى بن جابر الشهير بالبلاذرى القاهرة . الطبعة الأولى . طبع ونشر شركة طبع الكتب العربية .

١٠٤ — فى تحقيق ما للهند من مقولة — أبو الريحان محمد البيرونى حيدر أباد . الطبعة الأولى . طبع ونشر مجلس دائرة المعارف العثمانية .

١٠٥ — الفلسفة الحديثة فى الميزان — للدكتور محمد فتح الله بدران القاهرة . الطبعة الثانية . مطبعة مخيمر . نشر مكتبة القاهرة الحديثة .

١٠٦ — الفلسفة الشرقية — للدكتور محمد غلاب.القاهرة . الطبعة الأولى. مطبعة البيت الأخضر .

١٠٧ — الفكر الإسلامى الحديث وعلاقته بالاستعمار الغربى — د/ محمد البهى.القاهرة . طبع ونشر مكتبة وهبى .

(ق)

١٠٨ — قواعد الأحكام فى مصالح الأنام — لأبى محمد عز الدين عبد العزيز عبد السلام . القاهرة . طبع ونشر المكتبة الأزهرية سنة ١٩٦٨م.

١٠٩ — القصور العوالى من رسائل الغزالى — قدم لها محمد مصطفى أبو العلا . القاهرة . طبع ونشر مكتبة الجندى .

١١٠ — القول الفصل فيما لبنى هاشم وقريش والعرب من الفضل — لعلوى بن طاهر الحداد . الجزائر . الطبعة الأولى سنة ١٣٤٤ هـ .

١١١ — قصص الأنبياء — للشيخ عبد الوهاب النجار . القاهرة . الطبعة الخامسة . خاصة بوزارة الأوقاف .

١١٢ — القرآن وعلم النفس — للأستاذ عبد الوهاب حموده . القاهرة . سلسلة المكتبة الثقافية — نشر وزارة الثقافة .

(ك)

١١٣ — الكشاف (تفسير الزمخشرى) — لمحمود بن عمر الزمخشرى القاهرة . . طبع ونشر مكتبة الحلبى . سنة ١٩٦٦م .

١١٤ — الكتاب المقدس — بعهديه القديم والحديث .

(ل)

١١٥ — لباب التأويل فى معانى التنزيل — للإمام علاء الدين على بن محمد البغدادى المعروف بالخازن . القاهرة . المطبعة الأزهرية سنة ١٣١٣ هـ .

١١٦ — لباب النقول فى أسباب النزول — جلال الدين عبد الرحمن السيوطى القاهرة — طبع ونشر مكتبة الحلبى .

١١٧ — الله — للأستاذ عباس العقاد طبع ونشر دار الهلال .

١١٨ — لسان العـرب — لابن منظور .

(م)

١١٩ — مفاتيح الغيب (التفسير) — للإمام فخر الدين الرازى .

١٢٠ — محاسن التأويل — محمد جمال الدين القاسمى . القاهرة . الطبعة الأولى . نشر دار إحياء الكتاب العربى .

١٢١ — الملل والنحــل — للإمام الشهرستانى . تخريج الدكتور محمد فتح الله بدران . القاهرة . الطبعة الثانية . مطبعة مخيمر نشر مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٦م .

١٢٢ — مقدمة ابن خلدون — عبد الرحمن بن خلدون . تحقيق على عبد الواحد وافى. القاهرة . الطبعة الثانية . طبع ونشر لجنة البيان العربى .

١٢٣ — موطأ مالك بشرح سيدى محمد الزرقانى — تصحيح الأستاذ أبو الوفا ابراهيم. القاهرة . الطبعة الأولى . المطبعة الكوستانية نشر الشيخ حسن العدوى . سنة ١٢٨٠ هـ .

١٢٤ — ملامح الهند وباكستان — للدكتور محمد عبد المنعم الشرقاوى القاهرة . الطبعة الأولى . طبع ونشر دار المعارف بمصر . سنة ١٩٥٢م .

١٢٥ — المدخل فى دراسة الأديان . د/ محمد بن فتح الله بدران . القاهرة الطبعة الأولى . مطبعة مخيمر .

١٢٦ — محاضرات فى النصرانية — للشيخ محمد أبو زهرة. القاهرة . الطبعة الثالثة . طبع ونشر دار الكتاب العربى .

١٢٧ — من بلاغة القرآن — للدكتور أحمد أحمد بدوى . القاهرة . الطبعة الأولى . نشر وطبع مكتبة نهضة مصر بالفجالة .

١٢٨ — المنقذ من الضلال — لأبى حامد محمد محمد الغزالى تحقيق د/ عبد الحليم محمود . القاهرة . الطبعة الثالثة . مطبعة مخيمر . نشر مكتبة الانجلو المصرية .

١٢٩ — الموافقــات — ابراهيم بن موسى اللخمى الغرناطى المعروف بالشاطبى . القاهرة . الطبعة الأولى . طبع ونشر المكتبة التجارية .

١٣٠ — مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع — صفى الدين ابن عبد المؤمن بن عبد الحق . القاهرة . الطبعة الأولى . دار إحياء الكتاب العربى .

١٣١ — متن القدورى — أبو الحسن أحمد بن محمد القدورى. القاهرة . طبع ونشر مكتبة صبيح سنة ١٩٦٥م .

١٣٢ ـ المعـارف ـ للإمام أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة . القاهرة الطبعة الأولى . طبع ونشر المطبعة العامرية .

١٣٣ ـ معجم مقاييس اللغـة ـ لابن فارس .

١٣٤ ـ مختار الصحاح .

١٣٥ ـ المصبـاح المنير .

(ن)

١٣٦ ـ أحمد بن تيمية الحنبلى . القاهرة . الطبعة الأولى . طبع ونشر دار الطباعة المنيرية .

١٣٧ ـ نسيم الرياض فى شرح شفاء القاضى ـ أحمد شهاب الدين الخفاجى المصرى . القاهرة . الطبعة الأولى . المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٦ هـ .

(هـ)

١٣٨ ـ هداية المرشدين ـ للشيخ على محفوظ . القاهرة . الطبعة السادسة المطبعة العثمانية المصرية ١٩٥٨ م .

١٣٩ ـ هذا ديننـا ـ للشيخ محمد الغزالى نشر دار الكتاب العربى .

(و)

١٤٠ ـ وحدة الدين والفلسفة والعلم ـ السيد محمود أبو الفيض المنوفى القاهرة . الطبعة الأولى . طبع ونشر دار العهد للطباعة .

وبالله التوفيق

الفهــــرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الباب الثـالث

تبليغ الدعوة الإسلامية

الصفحة

الباب الرابـــع
وسائل تبليغ الدعوة

الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٣٧-٧٩

الترقيم الدولى ٣-١٤٥-٢٨٦-٩٧٧